تراثنا

ديوان
إسماعيل صبري
أبو أميمة

حققه

الدكتور محمد القصاص
عامر محمد بحيري
الدكتور احمد كمال زكي

دار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان



إسماعيل صبري

« أبو أميمة »

١٨٨٦ — ١٩٥٣ م

دراسة لحياة الشاعر وعصره

للأستاذ عامر محمد بحيرى

مدير إدارة إحياء التراث

بوزارة الثقافة والإرشاد القومى

١

استننَّتْ إدارة إحياء التراث ، بوزارة الثقافة والإرشاد القومى ، سنة طيبة فى العمل على تحقيق ونشر دواوين الشعراء المحدثين ، بين ما تحققه وتنشره من كتب التراث الأخرى ، قديمها وحديثها . يستوى فى ذلك عندها الشعراء الذين تألقت حظوظهم ، وأزدهرت أسماؤهم ، فى حياتهم وبعد مماتهم ، من أمثال البارودى وصبرى وشوقى وحافظ ومحرم ونسيم وغيرهم ، وإخوانهم الشعراء الآخرون الذين لم يواتهم من الحظوظ ، ولا من بُعد الصيت ماواتى أندادهم الأوّلين .

وقد اختارت الإدارة من الفريق الأخير شاعراً ، يشترك فى اسمه ولقبه مع أحد المشهورين من أفراد الفريق الأول ، وإن كان على نقيضه من حيث الشهرة فى الحياة ، والحظ منها . فقد كان شاعرنا إسماعيل صبرى — وأعنى به أبا أميمة — ممن فرضت عليهم الحياة شتى أعباء ثقيلة منذ نشأته ، ويبدو أن ظروفه لم تمكنه من إتمام تعليمه العالى ، فاكتفى بالمرحلة الثانوية . ثم طرق ميدان الحياة فظل يعمل فى التعليم سنوات طوالا لم تكن كلها خيراً .

وكان إلى جانب ذلك كله قد خلق فناناً موهوباً فى ضروب عدة . . فهو يحسن الخط العربى إلى درجة الإتقان ، وهو يجيد الرسم إلى مرتبة جعلته يختص بتدريس مادة الرسم فى مدارس الوزارة مبرزاً فى فنه ، وهو ينظم الشعر عاطفياً ملهماً ، قوى الديباجة ، سليم اللغة ، جيّاشاً بنوازع النفس . حتى إن شعره لتختار منه المقطوعات المناسبة ، يلحنها الملحنون ، ويغنيها المغنون ، من أبناء جيله . . ويحفظها عن طريق تسجيلها على اسطوانات الحاكى — وهو وسيلة نشر الغناء الكبرى يومئذ — كثيرون من أبناء ذلك الجيل . . وهذا هو الباب الذى نفذ منه شاعرنا إلى مجتمعه ، رغم القيود والسدود لكى يحصل على لقمة العيش من ناحية ، ولكى يشغل مكاناً هاماً فى الوسط الفنى من ناحية أخرى . . فلم يكن بالأمر الهين يومئذ أن يكون الشاعر ممن ينظم

القصائد ، ليقوم بتلحينها أمثال : القصبجى ، وعبده قطر ، وأحمد صبرى ، ودواد حسنى ، ومحمود صبح ، ومحمد هاشم وغيرهم . كما يقوم بأدائها من المغنين أمثال : نجاة على ، وأسمهان ، وصالح عبد الحى ، وغيرهم كذلك . .

ولقد كان هذا الاتجاه نفسه سبباً فى أن يلج شاعرنا باباً آخر من أبواب الفن ، إذ كان التمثيل فى ذلك الوقت يجتاز فترة من أزهى فتراته ، وكانت الروايات التى تعالج مشاكل المجتمع ، على طريقة قصص ألف ليلة ونحوها ، مما تموج به مسارح التمثيل يومئذ ، ولذلك لم يخل التراث الذى خلفه إسماعيل صبرى من روايات ألفها لهذا المسرح الشعبى ، كروايتى « الشبح » و « بدر البدور » وغيرها . وامتدت بالأديب الشاعر هوايته الأدبية فى ناحية التمثيل ، فأكمل هذه الهواية بترجمة بعض الروايات الأجنبية ، وهيأها للمسرح العربى . ومن ذلك ترجمته لتمثيلية « ربيبة الكوخ » لتشارلس جارفس ، التى أثبتناها فى هذا الكتاب ، كنموذج على مقدرته الأدبية فى فنى الترجمة والمسرح معاً . ولأنها قطعة من أدبه المكتوب باللغة العربية الفصحى أيضاً .

وهكذا تتضح ملامح الصورة العامة وتبرز . . فإذا نحن أمام شاعر فنان ، وهبته الطبيعة حظاً كبيراً من المقدرة الفنية فى ضروب عديدة ، كما حرمته فى نفس الوقت الشىء الكثير مما يحتاج إليه الفنان النابه ، أو الشاعر اللامع ، ومع ذلك فقد كان على نفس طيبة كريمة ، وروح مرحة منبسطة ، يسلم أمره للمقادير تعصف بآماله كيف تشاء ، لا يملك من ذلك كله إلا أن يقابلها بابتسامة ساخرة ، أو نظرة عاتبة ، أو قصيدة شاكية !

وهكذا ظل أبو أميمة يجاهد فى الحياة على الصعيدين حتى كلّ جهده ، وكف بصره . . فترك الخدمة آسفاً ، وهو ينظم للمسئولين مرثية نفسه البليغة ، التى سجل فيها هذا الحدث فى حياته . . فيقول :

لِيَجْرِ القضاء بأحكامِهِ ... ومن يستطيع عِنادَ الْقَدَرْ ؟
دَهَتْنِى اللَّيالِى بِأَرْزَائِها ... فلازَمَ جَفْنِى الْبُكا والسَّهَرْ
خَدَمْتُ المعارفَ عَهْداً طويلاً ... أميناً وَفِيًّا حَمِيدَ الذكر
مُجِدًّا نشيطاً سَلِيمَ الْقُوى ... حَلِيفَ النجاح ، حَدِيدَ النَّظَرْ
وَبعد اجْتِهَادِى ثلاثينَ عاماً ... أَحاطَتْ حياتى غُيُومُ الْكَدَرْ

ومن كلَّفَ النَّفسَ فوقَ الذى تُطيقُ احتمالاً سَعَى لِلخَطَرْ
لذلك كان لإِزهَاقِ عَيْنِى من الحَظِّ مالم أكُنْ أنتَظِرْ
خَبَا النُّورُ عن مُقْلَتِى فَانتهت حَيَاةُ اجتهادِى بِفَقْدِ البَصَرْ

وهكذا تتم المأساة . . مأساة الشاعر الذى عاش يصور المأساة لغيره . . والمأساة كل المأساة كامنة فى نفسه ، تعمل فيها عمل السيل فى الجدار . . والنتيجة معروفة بعد ذلك ، يتقوض الجدار و يتداعى . . و يمضى السيل عارماً فى سبيله .

٢

ومن خير ما ترك لنا الشاعر من أعماله الشعرية ملحمتان طويلتان ، بلغت الأولى منهما قرابة ألف من الأبيات ، كما بلغت الأخرى قرابة ستمائة بيت . وهما ، فى العصر الذى عاش فيه ، محاولتان جريئتان . فقد كانت المقدرة الشعرية تقاس بطول نفَس الشاعر ، ومقدرته على الصبر على النظم ، حتى ينتهى الموضوع . ومهما يكن من أمر الموضوع الذى اختاره لقصيدتيه ، وهو موضوع واحد ، ومن أمر خصوبته ، وتَعَدُّد فروعه ، مما يفتح أمامه آفاقاً متجددة من الفكر ، ومهما يكن من أمر الدافع النفسى الذى دفعه إلى نظم هاتين الملحمتين الكبيرتين ، وما صحبه من صدق فى الشعور ، أونقيضه ، مما كان السبب فيه هو هذا المجتمع المعقد الذى يعيش فيه ، والحياة المتناقضة التى تضيق الخناق حول عنقه . . مهما يكن من أمر كل ذلك — وكلُّ ذلك مدروسٌ دراسة متعمقة واعية ، فى الكلمة التالية عن « شاعر الكونيات » — فإنى إنما أنظر إلى هاتين الملحمتين على أنهما عمل شعرى جرىء فى عصر شوقى وحافظ وزملائهما . . .

فقد كانت القصيدة تقاس بطول النفس كما قلت . . وكان شوقى وحافظ ومحرم ومطران وشعراء الوقت ، لايتسابقون إلى شىء تسابقهم إلى تطويل قصائدهم . . حتى إن قصائدهم المعتادة ، فى المناسبات المعتادة ، كانت تجرى أبياتها بين الستين والمائة من الأبيات . . ولم تكن قصائدهم تلك ملاحم ، و إنما كانت نمطاً تقليدياً من القصيدة العربية القديمة ، لاتختلف عنها فى كثير ولا قليل . . إلا من حيث الصياغة التى ناسبت روح التعبير العصرية بعض المناسبة . . وحتى تقسيم شوقى قصيدته إلى فقرات متباينة ، ووضع فاصلة بين كل فقرة وأخرى ، لم يكن بالأمر الجديد ، فقد سبق إليه كثير من الشعراء القدامى ، كذى الرمة مثلا . . حين كانوا يقسمون

قصائدهم إلى أغراض متعددة . . تبدأ بالنسيب وتنتقل إلى وصف الناقة ، وهى وسيلة السفر إلى الممدوح ، ثم تصف الطريق وما صادفه فيه الشاعر وما رآه . . ثم تنتهى باقاء الممدوح ، الذى هو فى النهاية — ولا بد أن يكون كذلك ! — خيرُ من ركب المطايا ، وأندى العالمين بطون راح (١) !

على أن وسائل العصر ، وقيوده الثقيلة . . على ظروف الشاعر الثقيلة ، وعلى فنه الشعرى فى وقت معاً . . لم تتح له من الفرصة ما كان خرياً بالاستفادة منه . . وما كان حرياً بأن يجعل من ملحمتيه الكبيرتين عملا شعرياً رائعاً فى الأدب العربى الحديث . . فلم يكن هناك من الدراسات الأدبية ، ولا من المقالات النقدية ، ولا من المحاولات التحررية ، ما كان يمكن الشاعر من أن يسير على الطريق . . ولو متلمِّساً له . . . فيحاول التخلص بعض الشىء من القافية الواحدة . . هذه « النون » التى تقيده طوال السير ألف مرة . . وهى فى آخر كل بيت قيد ثقيل يضاف إلى ماسبقه من القيود . . وليس بعجيب لمن يحصى القوافى فى مثل هذه القصيدة أن يجد أكثر من ثلثها ، أو حتى نصفها ، مكرراً بين حين وآخر . وهذا فى وقته مما كان يعد عيباً فى القصيدة . . وهو فى نظرى الدافع الأول الذى كان حرياً بأن يدفع الشاعر إلى التحرر من هذا القيد الثقيل ، ومحاولة التخلص منه ، والإلقاء به جانباً .

هذه ملاحظة على ملحمتى الشاعر الكبيرتين من حيث صياغتهما . . وأما من حيث مضمونهما ، فليس لدى جديد أضيفه ، فى هذا المجال المحدد ، بعد الكلمة التالية التى أشرت إليها عن « شاعر الكونيات » .

٣

وعاش الشاعر فى مجتمعه كما عاش الشعراء الآخرون . . أو لعله حاول أن يعيش فيه كما عاش الشعراء الآخرون . كان شوقى وحافظ و إخوانهما ، ينظمون فى كل مناسبة عامة . . وكان دافعهم إلى ذلك معروفاً : الشهرة ، والمكانة الاجتماعية والأدبية ، والقدرة على نشر قصائدهم فى الصحف السيارة التى كانت باباً يجلب لهم مزيداً من الشهرة . . وكان إلى جانبهم شعراء أقل منهم درجة من الناحية الاجتماعية على الأقل ، فكانت الصحف تنشر لهم قصائدهم أحياناً ، وتتغاضى عن ذلك فى أكثر الأحيان . على أن شاعرنا استطاع فى وقته المبكر ذاك — عام ١٩١٠

(١) البيت المشهور لجرير ، والتقسيم السابق للقصيدة لذى الرمة .

وما حواليه — أن ينفذ إلى الصحف ، وأن ينشر بعض القصائد الاجتماعية على صفحاتها . وجدنا له قصيدة فى رثاء فقيدى الطيران العثمانيين ، وأخرى فى حرب طرابلس و إيطاليا عام ١٩١١ وثالثة فى رثاء على أبى الفتوح ، ورابعة فى تهنئة الخديو عباس بعد عودته من الحج ، وخامسة فى تشريف أمير المؤمنين ، بين كثير من القصائد « الإخوانيات » التى وجهها فى سماحة و بشاشة ولطف إلى أصدقائه ، المحافظين ، والمأمورين ، والرؤساء وغيرهم . . و إذا كانت قصائده الإخوانيات يدفعه إليها طبعه الدمث وخلقه الكريم ، و إذا كانت قصائده للرؤساء ، وعلى أبو الفتوح من بينهم ، إذ كان وكيلاً لوزارة المعارف يومئذ ، يدفعه إليها رغبته فى الاحتفاظ بالعلاقة الطيبة معهم ، ومن ثم الاحتفاظ بلقمة العيش . . فإن القصائد العامة الأخرى التى نجد نظائرها فى دواوين شوقى وحافظ وغيرهما ، مما يدل على أن الشاعر لم يكن يعيش فى صومعته الخاصة ، بعيداً عن مجتمعه ، ولم يكن قليل الرغبة فى الشهرة وحب الظهور ، ولكنه كان كغيره من الشعراء . . سعى ، وحاول ، وظفر . . فنشرت قصائده فى الصحف . . وقد ظل ينشر قصائده فى الصحف إلى فترة متأخرة من حياته ، مشاركاً بها فى أحداث المجتمع فى أعوامه الأخيرة ، مشاركته فى أعوامه الأولى .

٤

و إلى جانب هذه الحياة الاجتماعية الجادّة أو المتكلّفة التى يحياها . . كان شاعرنا — أبو أميمة — يعيش حياة اجتماعية أخرى ، خاصة به ، يساعد بها على إزاحة هموم الحياة عن صدره . . وأعنى بها هذه الحياة العاطفية المرحة ، التى عبّر بها عن مواقف عاطفية خاصة ، والتى اندمج بها فى الأوساط الفنية فى مجالات الغناء والتمثيل . . ولكن هل كان يستطيع الشاعر أن ينظم هذه القصائد العاطفية الجياشة ، التى لحنها الملحنون ، وغنى بها المغنون ، دون أن تكون فى قرارة نفسه بذور هذه العاطفة ، تعمل عملها فى قلبه ، وتجعله فعلا نهب العيون الساحرة ، والقدود الفاتنة ؟ !

نجد فى ديوان الشاعر كثيراً من هذه القصائد . . و إن خير مايمثّل به فى هذا المجال ، قصيدة طويلة أيضاً . . ولكنها دون ملحمتيه . . إنها قصيرة . . ولكنها طالت حتى بلغت مائتى بيت . . وأحسّ فيها الشاعر للمرة الأولى بهذه الروح الجديدة العطرة التى تغمره ، وتدفعه إلى التحرر من قيود المجتمع الثقيلة بعض الشىء . . فدفعه ذلك إلى التحرر من قيود القافية فى هذه المرة ، ولكن على صورة جزئية بدائية . . فبعد أن بلغت قصيدته مائة بيت على قافية الميم ، ضاق بهذه الميم ذرعاً ، فانتقل مكرهاً إلى النون . . والميم والنون على قرابة قريبة . . ولكنها محاولة

التحرر على كل حال نسجلها للشاعر، ونشهد له أنها جدّدت نفسَه، وأطلقت خواطره من عقالها، وجعلت القصيدة تحتفظ بمقدرتها على الاتصال بموضوعها، والتمكن من مسايرته إلى غايته. وهكذا تتم النُّقلة من المائة الأولى إلى الثانية فى وثبة واحدة يقول فيها :

فرَنَا بِلَحْظِ جُفُونِهِ وَأجابنى ... شكراً ولكن حَان وَقْتُ مُنَامى

فرَأَيْتُ أن وَجَبَ الْوُصولُ لِدَارِهِ ... حتى أفُوزَ بِصُحْبةٍ وَتَدَانِ

على أن هذه القصيدة، التى تمثل لهو الشاعر فى فترة شبابه، لم تكن كل ما وصل إلينا من شعره العاطفى الذى يصور لنا جوانب من نفسه، فى فترات مختلفة من حياته. إن هذه الصورة العاطفية، تتكرر فى حياته كلها على شكل قصائد، يتحدث فيها عن مواقف غرامية، وقعت له، أو وقائع جرت فصوّرها شعره البليغ قصة منظومة، لاتنقصها الحبكة الفنية، ولاالسرد القصصى. أو كوارث أصابته بفقد شخص عزيز عليه، فهو يرثيه بالدمع الغزير. وهذا كله ظاهر فى أماكنه من الديوان.

٥

على أن مايعدُّ جديراً بالذكر حقًّا فى هذا المجال، هو هذه القصائد — أو « المقطوعات » إن شئنا أن نضفى عليها هذا الوصف — التى سماها الشاعر « غزل الأغانى » . . . والتى اشتملت على عدة نواح فنية . . فهى قصائد غزلية بادىءبدء . . وهى قصائد محكمة النظم، متخيرة اللفظ، بليغة الأسلوب، ثم هى لاتطول إلا فى النادر، ومن هنا كانت تسميتنا لها بالمقطوعات . . وهى بعد هذا كله، أو قبل هذا كله، لم تنظم — كما يلوح لنا — إلا لكى تكون قصائد غنائية يتلقفها الملحنون فيحسنون تلحينها، ثم يتخطَّفها المغنون والمغنيات من نوابغ العصر، ونابغاته، فيكسبونها بأصواتهم هذا النغم، الذى يصل بها إلى القلوب و يشنف بها الآذان.

هذه القصائد أو المقطوعات، على مافيها من الإتقان، الذى قد يبدو مقصوداً كما ذكرت، ولا أقول متكلَّفاً — لأنه ليس عليها مِسْحَة تدعو لذلك — إنما هى أعمال تعد بحق فى مقدمة عمل الشاعر الفنى، و إنتاجه الخالد.

ومن ثم لابد أن نقف وقفة التقدير والإكبار لهذا الفن العاطفىِّ الغنائىّ الأصيل، الذى حشده شاعرنا فى « غزل الأغانى »، والذى نَسِيَهُ الأدب إنتاجاً شعرياً قد يستوى و إنتاج غيره من شعراء قدامى أو محدثين، فإن التاريخ — تاريخ الحياة الفنية فى مصر لحقبة طويلة بعيدة الغور

عميقة الأثر — لن ينسى لإسماعيل صبرى — أبى أميمة — أنه قد غذّى الفن الجميل ، فن الغناء ، بأقوى الأغانى ، وأعذبها لفظاً ، وأرقها معنى .

لست أنسى فى فترة الصبا ، شعراً حفظته عن أسطوانات الغناء ، وكان له أجمل الوقع فى نفسى المتفتحة يومئذ لهذا الفن الغنائى الشعرى . . فإذا هو اليوم أمامى بعض تراث الشاعر أبى أمية . . هيهات أن أنسى مثلاً قصيدة حفظتها عن أسطوانة المطربة أسمهان — وكان ذلك قبل ثلاثين عاماً — وها هى اليوم أمامى قصيدة فى باب « غزل الأغانى » أذكرها لا لأنها أجمل قصائد هذا الباب ، فهناك ما هو أروع منها بكثير ، ولكن لمجرد أنها نموذج لهذا الشعر ، الذى ترك فى نفسى من الأثر ماترك . . وهى قوله :

أَيْنَ اللَّيَالِى اللَّوَاتى سَبَّبَتْ سقَمِى ... ياليلةً بَعْدَها عَيْنَاىَ لم تَنَمِ
مرّتْ كَطَيْفِ خيَالٍ كان يُسْعِدنى ... لَوْ دامَ ، لكنَّهُ وَيْلَاهُ لم يَدُمِ
يانَظْرَةً أَرْسَلَتْ سَهْماً إلى كَبِدِى ... فَبَاتَ من جُرْحِهِ فى ثَوْرَةِ الأَلَمِ
سَرَى الْهوَى كَلَهِيبِ النَّارِ فى جَسَدِى ... فالقَلْبُ فى حُرْقَةٍ ، والجِسْمُ فى سَقَمِ
سُهْدِى حَنِينِى عَذَابِى لَوْعَتِى لَهفِى ... دُمُوعُ عَيْنِى غَدَتْ مَمْزُوجَةً بِدَمِ
يَارَبَّةَ الْحُسْنِ إنْ لم تَرْحَمِى سَقمِى ... لا بُدَّ يَوْماً تُعَانِى زَفْرَةَ النَّدَمِ
أَيْنَ الْعُهُودُ اللَّوَاتِى عَلَّلَتْ أَمَلِى ... لو طالَ هَجْرِى لَأَفضَتْ بى إلى حَكَمِ
إنى على الْعَهْدِ مهما طالَ بِى أَمدِى ... وَحَقِّ مَنْ عَلَّمَ الإنسانَ بِالْقَلَمِ !

٦

ولقد أشرت فى مفتتح هذ الدراسة ، إلى أن شاعرنا أبا أميمة يشترك فى اسمه ولقبه مع واحد من كبار شعراء عصره . . وهو الشاعر إسماعيل صبرى (باشا) الذى كان أستاذاً ، يعترف بأستاذيته شوقى وحافظ وغيرهما من شعراء تلك الفترة ، إذ كان سابقاً عليهم فى سنه ، ومنصبه ، وكريم خلقه ، وطرافة مجلسه . . كان الشاعر إسماعيل صبرى يكبر هؤلاء الشعراء — ومنهم أبو أميمة — فكانوا يدينون له بالولاء والتقدير . . ولكن الناقد البصير إذا قاس شعرهم إلى شعره وجد منهم من يفوقه غزارة مادة . . وقوة إحساس . . وجمال ديباجة . . ولا غرو فى ذلك ، فقد كان إسماعيل صبرى الكبير مقلاً إقلالاً ظاهراً ، ولئن عُدَّ هذا الإقلال أحياناً من أسباب

توفيقه ، فقد كان يمدّ فى أحيان أخرى من دواعى ضعفه ، ونضوب معينه . . وإنه ليبدو من أطرف الطريف أن نقارن هنا ، بين إسماعيل صبرى « الكبير » وإسماعيل صبرى « الصغير » — دون غيره من أولئك الشعراء — لنرى موضع شاعرنا أبى أميمة من شعراء الجيل كلّه . بعرضه على هذه المرآة الصادقة ، التى لاشك أنها سوف تجلو لنا موقفه إلى حدّ كبير . . .

نظم إسماعيل صبرى الكبير قصائد اجتماعية ، شأنه فى ذلك شأن الآخرين من الشعراء ، إذ كانت هذه الحوادث الجارية ، كحرب طرابلس ، والانقلاب العثمانى ، وغيرهما ، من أسباب المسابقة والمساجلة بين الشعراء ، وغذاء طيباً تسعى إليه كبريات الصحف ، وتتحدث به وتتدارسه أندية الأدب ومجتمعاته فى ذلك الحين . . ولشاعرنا الكبير فى هذا المجال قصيدة نختارها ، تعد من أطول قصائده ، وأهمها ، وكانت مما يختار للدراسة والحفظ لشباب ذلك الجيل ، وهى القصيدة التى يحث فيها الأمة المصرية على طلب المجد ويذكرها بماضيها . . وقد قالها على لسان « فرعون » يخاطب قومه . . وتاريخها عام ١٩٠٩ . . يقول فى مطلعها :

لا الْقَوْمُ قَوْمِى ولا الأعْوانُ أَعْوَانى ... إذا وَنَى يوم تَحْصِيلِ الْعُلَى وَانِ

وسأكتفى من هذه القصيدة بأبيات قليلة جداً قالها فى وصف الأهرام ، لأخاص منها إلى وصف مشابهٍ هو وصف أبى الهول عن أبى أميمة ؛ فيتم بذلك من المقارنة بعض ماأردت . .

قال إسماعيل صبرى الكبير :

أهْرَامُهُمْ تلكَ حَيِّ الفنَّ مُتَّخِذاً ... من الصُّخُورِ بُروجاً فَوْقَ كِيوَانِ
قد مرَّ دَهْرٌ عليها وَهْىَ سَاخِرَةٌ ... بمـا يُضَعْضِعُ من صَرْحٍ وَإِيوَانِ
لم يأْخُذِ اللَّيْلُ منها والنَّهَارُ سِوَى ... ما يأخذ النملُ من أَرْكَانِ ثَهْلانِ
كأنها — والْعَوَادِى فى جَوَانِبِهَا ... صَرْعَى — بِنَاءُ شيـاطين لشيطان
جَاءتْ إليها وفودُ الأرْضِ قاطِبةً ... تَسْعَى اشتياقاً إلى مَا خَلَّدَ الْفَانِى
فَصَغَّرَتْ كلَّ مَوْجُودٍ ضخامَتُهَا ... وَغَضَّ بُنْيَانُهَا من كلِّ بُنْيَانِ
كأنمـا هى وَالأَقْوَامُ خاشِعَـةٌ ... أمامَهَا صُحُفٌ من عالَمٍ ثانِ
تَستقبِلَ الْعَيْنَ فى أثنائهـا صُوَرٌ ... فصيحةُ الرَّمْزِ دَارَتْ حَوْلَ جُدْرَانِ
لَوْ أنها أُعْطِيَتْ صَوْتاً لـكانَ لها ... صَدًى يُرَوِّعُ صَمَّ الإنْسِ وَالْجَانِ

ولا أريد أن أقول هنا إن أبا أُميمة — أو إسماعيل صبرى الصغير كما أسميته تجوّزاً منذ حين— يفوق سَمِيَّهُ الكبير ، أو يمتاز بشاعريته عليه . . وإنما أكتفى بأن أروى أبياتاً فى وصف أبى الهول من قصيدته النونيَّة أيضاً ، التى سماها « مرآة الزمن » . والتى تمتاز بشىء واضح من العمق فى الدراسة ، مما يدل على إحاطة الشاعر علماً بموضوعه ، ودقته فى رسم صورته الفنية الملونة .

يقول أبو أُميمة فى وصف أبى الهول :

نَحَتُوا بِبَاطِنِ مَنْفَ أَقْدَسَ معبدٍ جَعَلُوهُ بَيْتَ سَرَائِرِ الأَكْوَانِ
صنعوا له مِفْتَاحَ سِرٍّ غَامِضٍ نُقِشَتْ عليه طَلاَسِمُ الكِتْمَانِ
صانوه فى أعماقِ قَلْبٍ ساهرٍ لِلرَّابِضِ ، الْمُتَحَفِّزِ ، الْيَقْظَانِ
رَمْزُ الْمَهَابَةِ ، وَالرَّزَانَةِ ، وَالْحِجَى لِلصَّمْتِ فيهِ وَلِلسُّكُونِ مَعَانِ
يَرْمِى الْفَضَاءَ بِنَظْرَةٍ قد أَوْقَفَتْ كَيْدَ الْعَوَادِى وَقْفَةَ الْحَيْرَانِ
جَسَدٌ حَوَى أَسْمَى الْقُوَى رَمْزاً له جِسْمَ الْهِزَبْرِ ، وَهَامَةَ الإِنْسَانِ !

ثم يشرح رسالته فى ذلك الزمان الباكر فيقول :

هَـذَا أبو الْهَوْلِ الرَّهِيبِ ثَبَاتُهُ مُفْنِى الْعُصُورِ ، وَقَاهِرُ الأَزمَانِ
عَهَدُوا إِليهِ حِرَاسَةَ الْوَادِى الذى ضَمَّ الكُنُوزَ ، غَوَالِىَ الأَثمانِ
واستخدموا أَرْصَادَهُ لِبُلُوغِهِمْ مَجْداً تَعَذَّرَ عن ذَوِى التِّيجانِ
حتى أتى « مينا » وَأَسَّسَ مُلْكَهُ وَطَوَى الزَّمَانُ صَحِيفَةَ الكُهَّانِ !

ولعل هذه الالتفاتة إلى مجد مصر القديم ، تكفى فى المقارنة بين الشاعرين ، والناقد المتذوق حرٌّ فى حكمه لهذا أو لذاك . . إلا أنه من المستحسن أيضاً أن نضرب مثلا آخر للغزل عند الشاعرين . . فقد عرف إسماعيل صبرى الكبير بغاية الرقة فى غزله ، وها نحن نجد أنفسنا من أبى أُميمة أمام شاعر من كبار شعراء الغزل أيضاً ، إذ اشتمل هذا الباب الذى أسماه « غزل الأغانى » ، وأكثره من الشعر المتقن النسج ، على قسم كبير من ديوانه .

فمن قصائد إسماعيل صبرى الكبير المشهورة فى الغزل قوله :

نُمْسِى تُذَكِّرُنَا الشبابَ وَعَهْدَهُ حَسْنَاءُ مُرْهَفَةُ القَوَامِ فَنَذْكُرُ
هَيْفَاءُ أَسْكَرَهَا الْجَمَالُ ، و بعض ما أَوْفَى عَلَى قَدْرِ الْكِفَايَةِ يُسْكِرُ

تَذُوبُ القُلوبُ إلى الرُّءوس إذا بَدَتْ ... وتُطِلُّ من حدَقِ العُيُونِ وتَنْظُرُ !
وَتَبِيتُ تَسْكُرُ بالنُّحُورِ قَلائدٌ ... فإذا دَنَتْ من نحْرِها تَسْتَغْفِرُ
وتَزِيدُ فى فَمِهَا اللآلِئُ قِيمَةً ... حتى يَسُودَ كَبِيرَهُنَّ الأَصْغَرُ !

فهل تجد عند أبي أُميمة مايشبه هذا أو يفوقه ؟ كم من مقطوعة نقرؤها لأبى أُميمة فى «غزل الأغانى» ولكننا لانستطيع أن نقول إنها كفيلة بأن تثبت مقدرته الفائقة فى هذا الضرب ، فما زال إسماعيل صبرى الكبير — على إقلاله — محتفظاً بأستاذيته ، متميزاً بعبقريته . . ولنأخذ مثلا أول قصيدة فى هذا الباب لأبى أُميمة ، وهى قصيدة « ستريس ، أو عذراء منف » . . وفيها يقول :

يارَبَّةَ الصَّوْتِ الشَّجِيِّ حَنِينُهُ ... رَنَّاتُ صَوْتِكِ تَبْعَثُ الأشْجَانَا
بَسَمَتْ أغارِيدُ الأغانى عندما ... صَدَحَ الهَزَارُ ، فجدَّدى الأَزْمانَا
جذبَتْ عَواطِفُكِ القُلوبَ فأَقْبَلَتْ ... فَرْحَى ، تُحَيِّي الفَنَّ والوجْدانَا
فإذا شَدَوْتِ صَرَفْتِ عن أَلَمِ الهَوَى ... قَلْباً أَسِيراً ، حائراً ، وَلْهانَا
وَمَنَعْتِ عن مُضْنَى الغَرام عذَابَهُ ... وكأَنَّ خَفْقَ فُؤَادِهِ ما كانا !

على أننى إذا اكتفيت بهذا فى المقدمة ، فلا يفوتنى أن أشير على القارىء بالعودة إلى هذا الباب الحافل فى الديوان الذى بين يديه ، ليقرأ مقطوعات الغزل الكثيرة العدد ، التى تفيض فيها المعانى المشرقة والمشاعر المتدفقة ، والأحاسيس الجياشة .

٧

و إلى هنا يمكن أن نكفَّ القول فى الشاعر ، وفى موضوعات شعره ، لنقول كلمة يسيرة فى فنه الشعرى . . وقد تكون الكثرة هنا مما يدعو الناقد إلى الحكم على بعض شعره بالهبوط عن المستوى الرفيع . . إلا أن هذا الحكم يعد متسرعاً إذا نظرنا إلى أننا إنما نحكم على تراث الشاعر كما وصل إلينا ، ولو قام هو على نشره لأعمل فيه النقد والحذف والتغيير . . ومثلُ ذلك قصيدته النونيّة الكبرى ، التى صدرنا بها الديوان ، وغيرها من القصائد التى يبدو أنه نظمها فى صباه ، فجاءت أقل مستوى من غيرها ، مما نظم فى فترة نضوجه واستوائه . . على أن ديباجة الشاعر غالباًهى الديباجة الرفيعة ، وألفاظه هى تلك الألفاظ الجزلة المتخيرة . . وشعره يمتاز بالعناية ، كما يمتاز بالعاطفة .

وتقابلنا هنا نقطة هامة نريد أن نجلوها . . فقد كان شاعرنا — فيما يبدو — كثير المحفوظ من الشعر القديم . . وكان يختار للممتازين من الشعراء فيحفظ لهم ، وكانت فيه عادة لانحمدها له ، وإن كان سببها هو هذا المحفوظ الكثير من شعر الأقدمين . . وهي أنه كثيراً ما كان يضمن شعره أبياتاً ليست له وهي في غالب الأمر للبحتري ، أو للمتنبي . أو غيرهما . . مما جعلنا نشك في أنه نقل أحياناً بعض هذه الأبيات ونسبها لنفسه . . ويكفي أن نشير في ذلك ، إلى قصيدة وجهها إلى أكثر من واحد من ممدوحيه واستعمل فيها أبيات البحتري في داليته المعروفة والتي يقول في مطلعها :

ياعظيمًا قد نال عزاً ومجدا لست أنسى نداك قرباً و بعدا

أو قصيدته في باب غزل الأغاني ، التي شابه فيها دالية المتنبي ، وربّما أخذ كثيراً من أبياتها ، وهي التي يقول في مطلعها :

لقد هاجني وجد بمن زارها بُعْدُ فياليتني بُعْدٌ ، وياليتها وَجْدُ

ولعل هذه الإشارة تشفع لنا فيما يكون قد أنسرب بين الأبيات من شعر ليس لشاعرنا ، ووجدناه في تراثه !

٨

وبعد كل هذا ، فإني أشعر أنه مازال هناك كلام كثير ليقال في دراسة الشاعر وعصره وتحليل شعره . . ولكني أخشى الإطالة على القارىء ، وأريد أن أترك له الفرصة ليقرأ لنفسه الديوان ، فيستمتع به ويحكم عليه حكمه الخاص . . ولذلك لايسعني إلا أن أختم هذه الكلمة . . راجياً أن أكون وزميلي قد وفقنا في دراسة الشعر الذي ضمه هذا الديوان الحافل بين دفتيه ، والذي أنبأ عن شاعر مجيد حقًا ، وإن كان قد عاش حياته كلها مغموراً أو شبه مغمور . . وهذا الموقف نفسه هو المحمدة التي تحفظ لوزارة الثقافة ، إذ تسوّي بين الشعراء جميعاً ، في إحياء تراثهم ، وبخاصة بعد أن أصبحت أشخاصهم في ذمة التاريخ . ولم يبق للأحياء منهم إلا ما أنتجوا من شعر ، هو مرآة عصرهم ، وسجل حياتهم .

عامر محمد بحيري

أبو أميمة شاعر الكونيات

للدكتور أحمد زكي كمال

١

أقيم الرخاء الذى ساد النصف الأول من القرن العشرين على أساليب استعمارية خاصة ؛ فكان القلق روحَ العصر ، وعصفت به فلسفة نفعية حطمت كثيراً من القيم . فلا غرابةَ إذاً أن يكون الفكر المصريّ إذ ذاك فِكْرَ الطبقاتِ المتفاوتةِ حظًّا من ذلك الرخاء ، واستطاع الشعب بما فشا من سجايا فرديةٍ أن ينسلخ — فى الجملة — عن خُلُقياتٍ كان ينبغى أن تعمر على أساس ارتباطه بواقع عربى مصرى مسلم .

وقد ظهر هذا الانسلاخُ فى صورة أيديولوجيات ذاتية استهدفت فى الظاهر نظماً سياسية اجتماعية ، واستخفى وراءها جشعٌ هو الابنُ الشرعى لمذهب ، المنفعة وبدا الأمر عجيباً ؛ رجال الدين يدعون دعواتهم على أسس يكاد يرفُضُها كثيرون ، وإن يكونوا يجنحون إلى بعض غيبياتٍ مابَعُدَتْ عن أن تضرَّ بهم !

ورجال الاقتصاد يحارون فى عمليات تنظيم الرصد لأقواتِ اليوم ، يغريهم رخصُ الأسعار أحياناً : فإن ارتفعت اتَّجهوا إلى طاقاتِ الغَرْبِ الإنتاجية ، يعبّون منها ويسدُّون النقص ويرأبون الصدْع !

والمجتمعيون يحاولون تنظيم أساليب الأنانية ، ويتجهون للمرأة أحياناً ، وللطفل أحياناً ، والمعجزة مرةً . . دون أن يربطوا بين حاجةِ المجتمع الحقيقية وما هو قائم فعلا ، على ضوء الموازنة العادلة وتقدير عُمْق الهُوّةِ بين المثل المنشود ، والواقع المنكود .

وقد ظلت هذه البلبلة حتى قيام ثورتنا الأخيرة ، وعاش فيها فنانونا . . الرواد ، ومن مهَّدَ للرواد ! وأخذ بعضهم — بعيداً عن منطق الفن للفن — يرجون فى عالم التأملات قيامَ وحدةٍ حقيقية بين أسباب الحياة وحقيقة الحياة . وقد دعاهم هذا اللون من التفكير إلى تقدير حقوق الفرد من ناحية ، وربْط هذه الحقوق بِقوَى ، الدِّين وقُوَى القانون ، وقوى التقاليد من ناحية أخرى . ولعل بعضاً منهم قدّر للمجتمع حقوقاً ترسم يوطوبيا أو تحدِّد نظاماً يشبه نظام أصحاب المدن الفاضلة .

وإذا كان على شوقى أن يدعو إلى تمجيد الإنسان المسلم مرة ، والإنسان العربى مرة أخرى وكان على حافظ إبراهيم أن يغنى بآلام المعذبين كافة ، وكان على ناجى وطه أن يهربا نهائياً من المسئولية إلا فى حالات معينة . . أقول إذا كان على هؤلاء أن ينحو هذا النَّحْوَ ، فقد كان لابدَّ لغيرهم أن يلتمسوا لأنفسهم موقفاً ، فإما أن يجعلوا نمو الفرد شرطاً أساسياً لنمو المجتمع ، وإما أن يُقِرُّوا بعجزهمْ عن تحديد الهدف !

وكان شاعرنا أبو أُميمة واحداً من الذين عصفت بهم البلبلة ، وكاد يُطيح بهم القلق . وكان واحداً من الذين اعترفوا بعجزهم ، واكتفى بدعوات زهدية تشبه تلك التى هَدَرَ بها أبو العتاهية فى الكوفة وبغداد خلال القرن الثانى الهجرى .

والعجيب أن كلا الشاعرين — أبا العتاهية وأبا أميمة — عاش حياةً معيَّنةً ، أو قل عاش حياتين متناقضتين . حياة عملية فيها تَمَرُّسٌ فعلى على أسباب العيش كلها ، وحياة فنية فيها صدوف عن المتاع ، وفيها تذكير بالضياع .

وعن هذا التناقض صدر كل منهما بقصائد سميناها هنا بالكونيات ، إلى جانب شعر لاهٍ حفظه لنا عصرُ أبى أُميمة ، وأهدره التاريخُ بالنسبة لأبى العتاهية . لأن النقاد شاؤا أن نعرف الشاعرَ القديم فى إطارِ الزهد الخالص !

لقد كان القدماء يقولون إنَّ أبا العتاهية تَعَتَّهَ وتماجَنَ ، ثم أقلع عن تعتهِهِ ومجونه ، إلا أن التاريخ يقرر أن هذا الشاعر كان يكره الزهد الفعلى وإن اتخذه مذهباً فنياً . . وآية ذلك أنه ظل حريصاً على أن يرتاد مجالس الخلفاء والأمراء اللاهية حتى آخر أيامه ، فلم يكن كمُوَرِّق العِجْلِيِّ مثلا ، ولم يحاول أن يكون كالحسن البصرى أو كالخليل بن أحمد . بل رُوِيَ أن ابنه أراد أن يمارس الزهد فنهاه هو ، كما رُوِيَ أنه لم يَشْتَهِ شيئاً عند مماته كما اشتهى أن يغنيه أَحَدُ المشهورين من قنانى عصره !

ولقد فهم أبو العتاهية الزهد — على هذا الأساس — فهماً آلياً ، ورأى أن مصلحة المجتمع العُليا أن ينسلخ الفردُ عنه . وهذا يعارض فكرة حرية المخلوق الفطرية ويحدّ نموه ويقمع مطالبه ، كما يحول دون إيجابيّة الدعوات الهادفة ، لأنه بمباشرة الإيجابية تتحقق الحياة وتتشابك أسبابها . حتى القانون صار فى مذهب الزهد عند أبى العتاهية أمراً فى لا محل ، لأن القبر نهاية كل إنسان ، وحساب الله ينتظره ، فلم الدَّأْبُ ولمَ العَرَقَ والدموع ؟

ومعنى ذلك أن دين الله كان فى نظره مجموع الكوابح التى تضغط على الأفراد لتحدّ من اتجاهاتهم الفطرية ، وأن الغاية المُثْلَى على ضوء هذا أن يزدادَ ضعفُ المرء إزاءه ، ومن ثم يضمن آخرة طيبةً جُعِل الموتُ نذيراً بها .

ولقد تولى شعرُ الشاعر ترجمةَ ذلك كله ؛ تولاه ببساطة ، ودقة عبارة ، ورقة أسلوب ، فضمن له قراء ، وضمن له سامعين ، وذاع قصيدُه حتى نافس به فحولَ عصره .

فماذا عن أبى أميمة ، إسماعيل صبرى ؟

ستتشكل حياةُ الشاعر بما تشكلت به حياةُ أبى العتاهية ، وكان عصر كل منهما عصر تناقض وقلق ورخاء مصطنع ، وستتسع طاقاتُه إلى تَقَبُّلِ هذا التناقض ، فيعيش حياة و يعبر عنها ، و يتصور حياةً أخرى يريدُ الفردَ على أن يَصِلَ بها إلى أعلى دَرَجَةٍ من التلاؤم مع الخير والمحبة . وسنجدُ فى كونياته نغماً هو رد فعلٍ للأنغام التى بعثَتْها مطالبُ العيش، ومطالب النفس ، ومطالب الحواس جميعاً .

٢

كيف عَبَّرَ أبو أُميمة عن حالة مجتمعه فيما سميناه بالكونيات . . فلقد قصرتُ دراستى هذه عليها ؟

كان الأدب المصرى فى عصر الشاعر أدباً فردياً ، باعتباره النتاج الطبيعى لطاقات البرجوازية و باعتباره أثراً من آثار المنفعة . . فكان لابد ألا نجد تسليما مطلقاً بكل ماهو قائم ، لأن هذا التسليم يؤدِّى إلى إلغاء حاجات الفرد المختلفة ، وأُستثنِ بالطبع عَرامَةَ بعض الكبار ووعيهم إلى مايجب أن يكون !

ومعنى ذلك أن أبا أُميمة كان ينبغى أن يصدُرَ عن هذا المعين ؛ فهو يعيش عصره ، وهو يقبل على الدنيا فيصف شعرُهُ — فى غير الكونيات — ذلك ، ولكنه يحس أنه مفضوح أمام أهله وأمام بعض من لايحبُّ أن يُفْضَحَ عندهم ؛ ولهذا آثر المراءاة ، فكان على ماقدمنا كأبى العتاهية . وطلع بما يرسم له سَمْتَ الوعاظ ، وما يلقى فى الروع أنه لا يكره شيئاً كما يكره الشر ، يقول متجهاً إلى الله تعالى :

واهدِنى للرشـــادِ خَيْرَ سبيلٍ
وأَكفِنى شَرَّ فتنةِ الشيطانِ

ويقول مخوفاً منذراً :

إن كَيْدَ الشيطان يفتك فتكاً

بضعاف العقول والإيمان

فيؤكد أن الإنسان ضعيف ، وأن تمجيدَه على نحو ما يفعل الرومانسيون خطأ شنيع ، وإلا فهل ينكر أحدٌ أنَّ كل هذا الكَوْنِ فناء ، وأنه باطل ، وأن الإنسان غر مخدوع !

يأبْنَ حواء باطِلٌ كلُّ شيْء زَيَّنَتْهُ مطامعُ الهذيان
تلك دنيا الفناء دار اختبارٍ خادعٌ حسنُها كذوبُ الأماني
يا ابنَ حواء باطل كلُّ شيء لم تؤيِّدْهُ دعوةُ الإيمان

ومع ذلك فإنه فيما يبدو يعتمد على الجانب الزجري من الدين الاعتماد الأكبر ، ومن ثَمَّ تبدو سلبيّته مدمِّرةً مخيفةً . وإذا كان أمْرُهُ بالتطهرِ والعفَّةِ والإخلاص والتقوى قائماً على أساس عقيدى ، فإن ماينجم عن عصيانه رهيب ومدمّر ، يلقف الكائن إلى حدِّ الإفناء . ولهذا كان مقياس الفضيلة مرتبطاً عنده بِنُصُبِ العذاب ، ودعواتُ الخير موقوفةً على التذكير بما وقع للقرون الأولى .

أينَ من عَمَّروا وشادُوا وسادُوا أين عمرانُهم وأينَ البِناء
أين مَنْ عزَّ ملكُهم وتسامَى أينَ سلطانُهم وأينَ العلاء
أينَ مَنْ كافحوا المصاعبَ حتَّى ذللوها وأينَ ذاكَ الدَّهاء
أينَ من دمَّرُوا الحصونَ ببأسٍ من حديدٍ وأين تلكَ الدِّماء
أين من جالدُوا الزمانَ بِصَبْرٍ أينَ من صاولتهمُ النكباء
أينَ مَنْ شَيَّدوا الهيا كلَ حُبًّا واحتراماً لها فمَزَّ البِناء
أين من خَرَّبوا المدائنَ جَبراً رينَ ، بل أينَ تِلْكُمُ الأشلاء
أينَ شيخُ الطوفانِ من بعدِ يَأْسٍ صَنَعَ الفُلْكَ حينَ حَلَّ البَلاء
أين مَنْ حَطَّمَ الهيا كلَ حتَّى فرقتها أصنامها الصمَّاء

أين من واصَـلَ الْبُكاء حزيناً ... فتوارى عن مقلتيه الضـيـاء
أينَ موسى من جاء فرعونَ طِفْـلاً ... ترقب النجمَ عينـهُ النجـلاء ؟

يطول ذلك لو تقصيناه ، و يطول إذا وقفنا عند ما ينطوى عليه من تهديد ووعيد ، ثم هو يطول إذا بَنَيْنا عليه أىّ حكم لأننا سنحتاج فى سبيل ذلك إلى مناقشة موضوعيّة لِشَتَّى قصائده ، ولـكنه مع ذلك يشكل تيَّاراً كالتيار الذى انحدر به أبو العتاهية شاعرنا القديم !

على أن أبا أُميمة لم يفقد الأمل قطُّ ، بل لعله لم ينذِرْ بما أنذر به ولم يهدِّدْ على نَحْوِ ما هدَّدَ إلا ليستبدل بنعيم الدنيا أملَ الآخرة ، وهذا اعتراف صريح منه بما آلت إليه روحُهُ فى الـكونيات فى حين وقف فى شعره الآخر عند كلِّ ما يلذُّ المرء وعند كل ما يمتعه . . وإن يكن ينزل دائماً على وقارٍ مصطنع وخوفٍ من الافتضاح . يقول عند اجتماعه بصاحبته فى خلوة :

خلونا ودارت بيننا نشوةُ الهوَى ... وقد كنتُ أشكو هجرَها وهى تسمعُ
أذاعت دموعى ما تُـكِنُّ سَرَائرى ... وأعلن سقمى هَوْلَ ما كنتُ أَجْزَعُ
فقالت و يمناها تـكفكفُ مَدْمَعِى ... شهيدُ الهوى العذرىِّ لايتوجع !

كما يقول مرة أخرى :

وقد خلونا وَجَوُّ الْحُبِّ راقَ لنا ... وراح عنا شديدُ الْخوفِ والحذَرِ
و بيننا دار كأسُ الحبِّ تملؤه ... يدُ الطَّهَارةِ فى وَشْيٍ من الزَّهَرِ
تبَادلتْ شفتانا بيننـا غَزَلاً ... أرَقَ فى لفظِهِ من نسمة السَّحَرِ
حتى إذا اُشتَدَّ بى وَجْدُ الهيام بَدَا ... طيفُ الْعفَافِ بِنُصْحٍ غيرِ منتظرِ
فارتاحَ قلبِى لنصحِ الطُّهْرِ وانبسطتْ ... مِنِّى لمن فتنتنى كفٌّ معتـذِرِ

فهو كما نرى شهم ، والشهامة دائماً ثالثٌ للحبيبين . . فـكأنها عِوَضٌ عن الشيطان الذى لم يكف عن التحذير منه . ومن هنا كان غزله كلُّه يقف عند مجرد وصف الحبيب وتصوير اللقاء به ، ورصد التحدث معه ، ثم يـكون الوداع بعد ذلك . وهو من هنا يخالف للمرة الثانية طبيعة حياته ، لأن المتصلين به لم يـكونوا يبرئونه من علاقات ما !

على أن هذا يـكشف من ناحية أخرى عن حقيقة التجربة الفنية ، ومدى مطابقتها للواقع

المُعَاش . وقد أثبت أبو أُميمة أنه لا ضرورةَ لأن يتمرس الشاعرُ عملياً على التجربةِ فى الواقع ، وسيكون برغم ذلك رقيقَ النفس صافِى العبارة ، مخلصاً للفن إلى حد بعيد .

وسواء أكان أبو أُميمة مؤمناً بالعِفَّةِ فى الحبِّ أم غير مؤمن ، فإنه كان يعبِّر بحرارة عن هذه العلاقة البشرية ، وتعبيرُه عنها يقف عندما وقف عنده على نحو ما رأينا ؛ ومن ثَمَّ اتفق هذا المَنْحَى مع ما تحدَّثَ عنه فى كونياته ، وكأنما كا الشاعرُ بذلك يصدُر عن فلسفة استقر عندها بعد أن رأى شرور البرجوازية تفشو وتذيع .

ولقد انتهت سلبيةُ أبى أُميمة بالكشف عن كثير من الحقائق ، يودعها يوطوبياهُ فى ثقة ، وإذا الصِّدْقُ والإخلاصُ والوقارُ والصبرُ والدَّأْبُ دعائم لكل حياة سليمة مبتغاة .

٣

ولكن ما النظام الذى يقرره أبو أُميمة ؟

لقد شاهد ذلك الشاعر قوة الأرستقراطية الإقطاعية ومكالفة البرجوازية لها ، ورأى فيما يبدو من قرب ومن بُعْد ، عواملَ الهدْمِ تعصف بالحياة إبَّانَ أزمات عصره السياسية والاجتماعية ، واكتفى كغيره بالشكوى حيناً ، والتعرض بالنقد البسيط لما يثور حيناً آخر ، وأما السبيل إلى تحقيق يوطوبيا معينة فلم يحدِّدْهُ أحدٌ . ولكن بعض الشعراء الكبار على ما أشرنا نحَوْا نحواً إيديولوجياً ؛ فشوقى لم يكن شاعراً فحسب يعبر عن وجوده الشخصى وإنما حاول أن يقيم قِيَماً جديدة .

ووُجِدَ شعراء ينتمون أصلا للأزهر كالأسمر ، وهؤلاء اكتفوا بنزعات صوفية تشبه فى بعض جوانبهما ما صدرَ به أبو أميمة فى كونياته . وفى شعر هؤلاء بعامة السلبيةُ نفسُهَا التى نراها عند شاعرنا ، والتخويفُ أحياناً ، والترغيب فى الآخرة . وهنا نسرع فنقول إن أصحاب هؤلاء ، كانوا فى الغالب من الطبقات الدُّنيا .

ولكنَّ الجانب الإيديولوجى فى حركة العقاد وشكرى قدْ أثمر إلى حدّ ما فى شعراء حاولوا أن يأخذوا جماعية شوقى ، وهؤلاء هم الذين بعدُوا عن الرومانسيين ، وأبوا أن يسيروا مثلهم وراء الغمام وخلف أمواج الملاح التائه !

ومن هذا وذاك ، ومن النغمات المتعارضة التى ضج بها العصر كوَّن أبو أُميمة خطوط الحياة الباهتة التى تشكل كونياته . . فكانت فى النهاية مجرد تفثات ، لأنها افتقدت الإيجابيةَ والسبيلَ إلى التطبيق العملى ، كما افتقدت ملامح أى مجتمع يريدُ أن يقوم .

ونظرة مجلى إلى هذه الـكونيات تقفنا على أربعة جوانب قوّمت جميعها وجهة نظر الشاعر الفلسفية ، وإن يكن هذا التحديد لا يمنع من قيام عناصر أخرى مساعدة قد توقعه فى ضرب من التناقض أحياناً .

أما الجانبُ الأول فهو حاجة الشاعر إلى الله سبحانه وتعـالى ، بل هو يستهل نونيته الـكبرى بطلب عون الله ليشدّ أزره و يقوى جنانه :

رَبِّ هَبْ لِى هُدًى وَأَطْلِقَ لسانى   وَأَنِرْ خاطِرِى وَثَبِّتْ جَنـانى

ويصدِّر بيانَه بذكر أسمائه الُحْسْنَى ، و إذا هو الواحدُ القاهر العادل الظاهر ؛ فيكشف الشاعر إزاء ذلك عن ضعف الإنسان . فإن كان هذا يتفق ودعوات رجالِ الدِّين ، وأئمة المساجد ، فإنه عند الشاعر ردٌّ فعل لمـا ساد العصر من تحَـيُّر ! وذكر الخالق على هذا النحو عنده . . فى تقريريات وفى إصرار وفى إلحاح كامل ، يدل على تسليمه المطلق بخير يأتى به الدِّين ، وهذا لا يمنع من وجود تلك اللحظات التى يستسلم فيها الشاعر لمتاعه ولذاته .

وأما الجانب الثانى فهو التعرُّض للآخرة ، باعتبارها نهايةَ حياة وَبَدْء حياة أُخرى ! الأولى فأنية ، والثانية باقية ، وبين الفناء والبقاء قوةُ الله تلعب الدَّوْرَ الأكبر ، و يُقَدِّر بها مايريد :

خُلِقَ الناسُ للبقاءِ وهَــذِى   آيةُ البعثِ أَصْدَقُ البرهانِ

غير أن هذا التعرض يبدأ دائمًا بذكر الموت ، أو يكون الموتُ حجر الزاوية فيه . وهنا يبدو الشاعر إمَّا مهدِّدًا مخوِّفاً ، و إما ناصحاً مشفقاً . ويكون إذ ذاك تماماً كما كان أبو العتاهية دون أن نجد خلافاً إلا فى أسلوب الصياغة . والشاعران معاً يـكتفيان بهذا فقط ، ثم يعلنان رضاهما المطلق بما سيعقب أهوال القيامة من جنة للعباد الصالحين . بل نجد رضاً بكل ما سيكون ، كأنما يأبى كل منهما أن يخرج عما دعا إليه القرآن ، وعما تنزع إليه نفس أمَّارة بالسوء ؛ والإنسـان من ثَمَّ لا يقدر على أيةِ مقاومةٍ ، ولا يقدر على مقاومة المقدِّر .

وأبو أُميمة لذلك ليس نسيج وحده ، فهو شاعر من جماعة اتخذت الترهيب طريقاً من طرق التعبير الفنى ، فيقفنا على ما كان يصاحب هذا الترهيب من عبثٍ بالقيم والأخلاق ، فضلا عن أنه يعبِّر عن هذا العبث صراحة فى أكثر من موضع فى ديوانه .

وأما الجانب الثالث فخاصٌّ بأخبار الرُّسُل ، وقد ألَحَّ على هذه الأخبار إلحاحاً عجيباً . . فتابع

كثيراً من شعراء عصره فى تسجيل حياة النبيين ، وهم بسبيل التعرض لحياة النبى « محمد صلى الله عليه وسلم » . فعل ذلك شوقى فى أرجوزته المشهورة ، وفعله غير شوقى ، ولاسيما الشعراء الذين نشأوا نشـأة دينية ، والذين كانوا يحاولون تسجيل إحساسهم الدينى على أساس الانفعال الفنى بأخبار الرسل !

وأبو أميمة صريح جداً فى هذا الجانب ، ويتخذ التقريرية أسلوباً للنَّظْم حتى ليستحيل شعرُه هنا إلى مجرد قائمة بالأسماء . . فثمةَ نوح شيخ الطوفان ، وإبراهيم محطم الهياكل ، ويعقوب الحزين ، ويوسف الآسر ، وأيوب المبتلى ، وشعيب نبى مَدْيَن ، وموسى عدوّ فرعون ، وداود وسليمان ويونس وزكريا وعيسى ، إلى آخر أسماء النبيين الذين خُلِّد ذكرهم

فَعَلَ ذلك فى همزيته الـكبرى . . فعله وكأنه يجعله أساساً لهذه القصيدة ، فى حين يـكتفى فى نونيّته الصغرى بمجرد الإشـارة حتى يصل إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، فينظم سـيرته كما نظمها البارودى وكما نظمها شوقى .

بل هو فى الهمزية يصل حتى إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فلايخرج عن النمط التقليدى ، ولايعدل عن أسلوب المدَّاحين فى التعبير ، بل يبدأ مدحه بقوله :

من كنوزِ اليقينِ بَدْرُ قُرَيْشٍ أَحْمَـدُ المُصْطَفَى عليـه الثَّنَاء

ولايُعنى من ثَمَّ بتتبُّعِ حياته كما فعل فى النونية ، وإنما يمدح ويقوم مدحه على صفاتٍ عامة تصلح لـكل رسول ونبى . . فهو خير روح فى أشرف جسم ، وهو الهادى والبشير ، وهوصاحب الهمة التى جاوزت أقاصى الأمانى وهكذا . ولولا وصفه إياه بأنه جامع الأنبياء تحت اللواء ، وأنه آخر الرسل ، لمـا تبينا شيئاً يختص به عليه الصلاة والسلام .

هذا هو الجانب الثالث ، فأما الرابع والأخير فيبدو فى سلبيةِ الوعظ ، وهـذه السلبيةُ تظهر فى كونياته كلها ، وفى نونيته بصفة خاصة ، تلك النونية التى يقول فى أولها :

هَوِّنْ عليكَ فـكلُّ حَيٍّ فَانِ وَاذْكُرْ بَقَاءَ مُدَبِّرِ الأكوانِ
وَاصْبِرْ على ماقد أصابكَ وَاحْتَمِلْ مُرَّ الأَذَى ومطامِـعَ الإنسـانِ

والمتتبع لأبيات القصيدة يرى الشاعر يستخدم لغة النُّصْح البالية فى إيقاظ الغافلين . ولم يكن منتظراً منه أن يفعل أكثر من ذلك لأنه لم يكن أولا صاحب أيديولوجية واضحة السمات ، وثانياً

أنه كان أضعف من أن يكسر حدود التقليد . . فلا بد أن عوامل العبث تثيره ، ولابد أن يقول للاهين : قفوا !

وإذا كان الانحراف قد أنذر بأن يقضى على المجتمع كوحدة ، فقد كان طبيعياً إذن أن يتوجس المصلحون شراً ، وأن يتخوفوا هذا الفساد المستشرى ، وأن يمجدوا مافى الخير من أسباب .

والاتجاه الشائع عند الشعراء إذ ذاك هو الهرب من الواقع كجزء من الحركة الرومانسية السائدة ؛ فكان صوت الشاعر صدى عكسياً لما يقولون ، وصدى عكسياً لما يفعل هو ! وليس فى ذلك تناقض ، لأن التعبير الفنى عن روح عصر القلق يجب أن يكون مضطرباً ، وأكثر مايكون التناقض عقب الهزات الكبرى التى تهز العصر كثورة ١٩١٩ ، وكانقلاب الدستور سنة ١٩٣٠ .

كان الرومانسيون فى حياتهم وأقوالهم ثورة ، وكانت نداءات الشاعر الوعظية تحدٌ من رغبتهم فى التحرر . إلا أن ذلك لايقدم ولايؤخر فى مسلك الشاعر كواحد من الرومانسيين ، لأنه لم يكن يصدر عن إيمان فعلى بكل مايقول .

وبعد ، فإن هذه النصائح الطوبوية لاتعقب شيئاً على الإطلاق ، ولاترمى إلى أكثر مما يرمى إليه واعظ المسجد ، وأما الخروج على الوضع القائم ، وأما الدعوات إلى حياة مجتمعية ذات ملامح أخرى ، فذلك شىء لم يكن لأبى أميمة قدرة عليه . ومن هنا نقول إن هذا الشاعر لم يكن يستهدف إقامة أى نظام جديد ، بل كان ينشد إصلاح النظام القائم .

أحمد كمال زكى

الدِّيوَانُ

النونية الكبرى

فاتحة

رَبِّ هَبْ لى هُدًى وَأَطلِق لسانى وَأَنِر خاطرى وثبِّتْ جنانى
مُلْهِمَ النَّفْسَ بالتُّقى خَيْرَ مَسْرَى لِمفازاتِ نورِكَ الرَّبانى
كُنْ مُعينِى إِنْ أَعْجَزَتْنِى القوافى ونصيرى فى ساميات المعانى
أَنْتَ قَصْدِى وغايتى ورجائى مالِكَ المُلْكِ مُبْدِعَ الأكوانِ
يا جَلالاً عَمَّ الوجودَ بلُطْفٍ وسلامٍ ورحمةٍ وحَنانٍ
واقتداراً أحاط بالكون علماً نَظَمَتْ عِقْدَهُ يَدُ الإتقانِ
وجمالاً فى كلِّ شَىْءٍ تجلَّى سَبَّحَ الحسن فيه للرحمنِ

أسماء الله الحسنى

جَلَّ شأنُ الإلَه ربِّ البرايا خَالِقِ الخَلْقِ دائمِ الإحسانِ
واحدٌ قاهرٌ سميعٌ بصيرٌ عالِمُ الغَيْبِ صاحب السُّلْطانِ
حَكَمٌ عادلٌ لطيفٌ خبيرٌ نافذُ الأمرِ واسعُ الغفْرانِ
قابضٌ باسطٌ قوىٌّ عزيزٌ مُرْسِلُ الغيثِ مُقْسِطُ الميزانِ
واجدٌ ماجدٌ حليمٌ كريمٌ ترقب الخَلْقَ عينهُ كلَّ آنِ
يعلم السرَّ فى الصدورِ وأَخْفَى وإليه سَيُحْشَرُ الثَّقَلانِ (١)
ظاهرٌ باطنٌ قريبٌ مجيبٌ نِعْمَ من فازَ منه بالرضوانِ
واعدُ المُتَّقين جناتِ عَدْنٍ ولمن خاف رَبَّهُ جَنَّتانِ
مُنْعِمٌ وارثٌ علىٌّ عظيم باعثُ الخلق بين إنسٍ وجانِ

---

(١) الثقلان : الإنس والجن .

كلُّ مَنْ فى الوجودِ للهِ عَبْدٌ   وإلى اللهِ مَرْجِعُ الإنسانِ
إن يوماً تُطوَى السمواتُ فيه   كلُّ حَىٍّ إلا المهيمنَ فانِ (١)
يَوْمَ تَهْوِى الأفلاكُ من كلِّ بُرْجٍ   آفِلاتٍ وَيُجْمَعُ النَّيرانِ
وتدكُّ الأرض انهياراً ويُقضَى   كلُّ أمرٍ ويسجد الخافقانِ (٢)

البعث والحساب

صيحةٌ تجعلُ الرواسيَ عِهْناً   تَنْسِفُ الأرضَ بين قاصٍ ودانِ (٣)
وتُدَوِّى أخرَى فيحيا رُفاتٌ   ضَمَّهُ التُّرْبُ من قديمِ الزمانِ (٤)
نَخَرَتْهُ يَدُ البِلَى وهشيما   بعثرته الرياحُ فى الوِدْيانِ (٥)
مَنْ عَلَى رَجْعِهِ كأولِ خَلْقٍ   قادرٌ غيرُ فاطِرِ الإنسانِ ؟
كانَ غُصْناً غضاً فتياً رطيباً   لم يفكر فى الرَّمْسِ والأكفانِ
هَيْمَنَتْهُ على الثَّرَى خُيَلاءُ   زينتها وساوِسُ الشيطانِ
سوف يُدْعَى إلى قيامٍ رهيبٍ   أنكرتْهُ حماقَةُ الطُّغيانِ
يوم تجرى الأجساد للحشر حَيْرَى   بين لُجٍّ وقَسْطَلٍ من دخانِ
يَوْمَ يدعو كلُّ امرىء : رب نفسى!   وينادى الحسابُ : آنَ أوانى !
فى ذُهولِ المأخوذِ لم تَدْرِ نفسٌ   لنعيم تُساقُ أمْ لهوانِ
موقفٌ حاشِدٌ وحَشْرٌ مَهيبٌ   قد أحاطته ألْسُنُ النيرانِ
يقذف الرعب فى القلوبِ ارتجافاً   والمساوى تَمُرُّ بالأذهانِ

---

(١) الجمله فى الشطر الثانى خبر «إن» كأنه قال «إن يوماً تطوى السموات فيه لهو يوم يفنى فيه كل حى إلا الله»
(٢) الخافقان : المشرق والمغرب ، يريد أهل الخافقين .
(٣) العهن : دقيق القطع من الصوف يسبح في الهواء .
(٤) الرفات : ماقدم وتفتت من العظام ، تقول رفت الشىء فته .
(٥) « هشيما » حال مقدمة .

يجمع الخَلْقَ منذ أول نفسٍ وافت الأرضَ من رياضِ الجِنانِ
لم يُغَيَّبْ عن عَرْضِهِ أى فردٍ ضَمَّهُ الرُّوحُ من بنى الإنسانِ
هــذه الساعةُ الرهيبةُ فانظرْ يا ابن حــواء آيةَ الرحمنِ
قد تجلت مصداقَ ذكر حكيم جاء للنَّاسِ بالهدى والبيانِ
أرسـلته للعَــالمينَ ســلاماً رحمةُ اللهِ واسـعِ الغفُرَانِ

حكمة البعث

خُلِقَ النـاسُ للبقـاءِ وهـذِى آيةُ البعْثِ أصـدقُ البُرهـانِ
كلُّ فردٍ فى الحشْرِ لابُدَّ يَلْقَى جنةَ الخُـلْدِ أو لَظَى النـيرانِ
إن يـكنْ صَدَّقَ الـكتابَ فأَمْنٌ وســـــلامٌ ورحمةٌ وتهانى
والذى أنـكر القيـامةَ كِبْراً وعُلوًّا هوَى مع الشيطانِ
سوف يلقى العذابَ من كلِّ صَوْبٍ ويُعـانى عواقبَ الطغيانِ

أهوال القيـــامة

ظُلمـاتٌ تعـثَّرَ الخَلْقُ فيهـــا كالفراش المبثوث فى الـكُثْبَانِ
أو كَسَيْـلٍ من الجرَادِ خِضَمٍّ قذفتها الأحداثُ كالطُّوفانِ
رَجْفَةٌ دَكَّتِ الجبالَ فألقتْ حملَهـا الأرض واُختفى النَّـيرانِ
صَدَقَ الوعدُ فانظروا كيف تَمَّتْ آيةُ البعْثِ أيهـا الثقــلانِ
باغنتكم والنفس تمرح سَكْرَى بين غَنَاءِ رَوْضَــةٍ وأغانى
ساقها الطَّيْشُ لارتكاب المعاصى فأطاعت غِـوايةَ الشـيطانِ
حبَّبَ الفِسْقَ والفجورَ إليهـا ورماهـا فى كاذباتِ الأمـانى
أفسح المـالُ للفســادِ مجـالا بين كأس الطِّلا ودلِّ الغوانى
فتنتـكم أموالـكم فـكفرتمُ وارتـكبتمُ ما ليس فى الحُسْبَانِ

خدعتكم بسحرِها أمُّ دِفرٍ وسَبَتْكُم بحسنِها الفتانِ[1]
فشُغِلْتُمْ عن الحقيقةِ جهْلاً وانصرفتم إلى المتاعِ الفانى
وعميتم عن الهُدَى وانطلقتم فى مَهَاوِى الفجورِ والعِصْيانِ
وكفرتم بأنْعُمِ اللهِ حتى نَبَذَتْكُم مراحمُ الغُفْرانِ
فإلى الموقفِ الرهيبِ هلموا قد بُعِثْتُم إلى المصيرِ الثانى
ها هى الأرض أخرجتكم لتُجْزَى كلُّ نفس ما قدّم الأصغرانِ[2]
إن تكونوا مصدّقينَ فأَمْنٌ وسلامٌ ورحمةٌ فى حنانْ
أو تكونوا مكذبين فويل من عذابٍ ونقمةٍ وهوانِ
كل نفس يُغْنِى لها فيه شَأْنٌ عن سواها وأينَ يهربُ جان ؟
يوم لا تملكُ النفوسُ انتصاراً وله الأمر وحدَهُ كلَّ آنِ
كل فرد له كتابٌ شهيد سجلت فيه صادقاتُ البيانِ
قولها الحقُّ بالذى قدَّمَتْهُ طَوْعَ شيطانِهَا يَدُ الإنسانِ
لم يُغَادِرْ صغيرةً ما حواها قدرةٌ نُزِّهَتْ عن النسيانِ

الجنة

كلُّ شيء غيرُ البديعِ ظلامٌ وَهُوَ نورُ الآفاقِ والأكوانِ
حَلَّقَتْ هيبةٌ فأشرقَ نورٌ واعتلى العدلُ كفةَ الميزانِ
وتلا الذِّكْرَ خَلْفَهُمْ شهداءُ باركَتْهُمْ مراحم الغُفْرَانِ
تلكُم الجنةُ التى قد وُعِدْتُمْ أُدْخُلُوها فى غِبْطَةٍ وَأمانِ
قد صَبَرْتُم مصدّقين ففُزْتُم بخلودٍ فى عالياتِ الجِنانِ
فسلامٌ أهلَ اليمينِ عليكُمْ كُلُّ مَنْ فى النعيمِ يُهْدَى التهانى

---

(١) أم دفر : من أسماء الدنيا .
(٢) الأصغران : القلب واللسان ، وقد قيل « المرء بأصغريه قلبه ولسانه » .

جَنَّـةُ الْخُـلْدِ زُيِّنَتْ فأقيموا ومع الحقِّ لا تضيعُ الأماني
سَيِّدُ الخلْقِ بينـكم فاضَ نوراً وجـلالاً من الرِّضَى الربانى
أَشْرَفُ المرسلين قَدْراً وجاهاً عبقرىُّ النُّهَى عظيمُ الجنـانِ
خَصَّـه الله بالشـفاعةِ عَطْفاً وحناناً على بنى الإنسانِ
صـلوات الإله تحبوك دوماً يا نبىَّ الإسـلامِ والإيمـانِ

قـــدرة الله

بين رَهبٍ وذلةٍ وخشـوعٍ خَفَقَ القلبُ خَفْقَةَ الحـيْرانِ
وبدا الهَوْلُ والنواظرُ حَسْرَى زائعـاتٌ فى رَجْفَةِ الوَلْهـانِ
وجَثَا الناسُ كلُّهم فى خضوعٍ إذ تجلَّتْ مهابة الرحمنِ
وَقَفَ العبْدُ فى رِحابِ إلـهٍ نافذِ الأمرِ قاهرِ السُّلْطـانِ
لم يغِبْ عنه فى السمواتِ شَىْءٌ وعليمٌ بمـا جَـنَى الثَّقَـلانِ
مـلأَ الأرضَ والسماءَ وجوداً خالق الـكون لم يَغِبْ عن مكانِ
أبدىٌّ يدبِّرُ الأمرَ فـرداً سَرْمَدِىُّ الجَـلالِ والسلطانِ
بين حرفين كلما شـاء يقضى مطلق الحُـكْمِ لم يُشارِكْهُ ثان[1]
قدرةٌ أحصَتِ الخلائق عـدّاً منذ أَوْفَى على الثَّرَى الوالدان[2]
رحمةٌ عَمَّ رزقها كُلَّ حَىٍّ جَلَّ وهَّابُهَا عن النسيانِ
خِبْرة أَبْدعَتْ محـاسِنَ خلْقٍ فى جلالٍ من دِقَّةِ الإتقـانِ
فيضُ عِـلْمٍ ما ذَرَّةٌ عنه غابتْ فى جميـع الآفاقِ والأكوانِ
مَلِكٌ يرقُبُ الخـلائقَ جمعاً ويُدِيرُ الأفلاكَ فى الدورانْ
يَبْسُطُ الرزق للذى ساءَ جوداً وهو أَدْرَى بالخـيرِ للإنسـانِ

---

(١) الحرفان : هما الـكاف والنون « كن » .
(٢) أوفى على المـكان : أشرف عليه . والوالدان : آدم وحواء .

يرسلُ المـاءَ فوق جرداء ميْتٍ فيردُّ الحيـــاةَ للوديانِ
فتموج الأرض اهتزازاً وتربو ثم تبدو فى سُندُسٍ فتـان
تُخرِجُ الْحَبَّ والثمـارَ وتزهو فى عقيقٍ ولؤلؤٍ وجُمَـانِ
رَوَحَاتُ النسيمِ تحمـل عبقـاً من أريجِ الزهورِ والرَّيْحَانِ
كلُّ شَىْء يسبِّحُ الله حَمْـداً كى يؤدِّى فرائض الشُّـكرانِ
نِعَمٌ سـاقَها المهيمنُ للنـا س فحمداً للمُنْعِـمِ المنَّـانِ
أعجزَ الْخَلْقَ عدُّهـا فتعـالى باسطُ الرزقِ دائمُ الإحسان
فاطرُ الأرضِ والسمواتِ فَرْدٌ صاحبُ الطولِ فى عُلُوِّ الشَّانِ
عالمُ الغيبِ والشهـادةِ نُورٌ يملأ الـكونَ فَيْضُهُ الرَّبانى
نافذُ الأمرِ فى جميـع البرايا مُطْلَقُ الْحُكْمِ لم يشارِكْهُ ثانِ
غافِرُ الذَّنْبِ قابلُ التَّوْبِ مَلْكٌ جَـلَّ تشبيهه عن الحدَثانِ
كاشِفُ الضُّرِّ والبلاءِ مجيبٌ دعوةَ الوامقِ الحزينِ العـانى
فى دياجى الظـلام يَرْحَمُ دمعاً أمطرتْهُ قهراً صروفُ الزمانِ
ويجير الملهوفَ مِنْ هَوْلِ كَرْبٍ دَبَّرَتْهُ مظالمُ الإنســـانِ
ويمدُّ المظلومَ منه بِنَصْـــرٍ ويسـوقُ الظَّلُومَ لِلنِّيرانِ
أحْـكَمُ الحاكمينَ كَنْزُ العطايا أرحمُ الراحِمِينَ رَحْبُ الحنانِ
واهبُ العَزْمَ للضعيفِ لِيَقْوَى ولمن خافَ مُنْعِمٌ بالأمانِ
واسِعُ الْحِلْمِ لا يعجِّلُ بَطْشاً خَيْرُ أَهْـلٍ للعفوِ والغُفْرانِ
يُمْهِلُ الظـالمينَ حتى إذا ما شـاءَ ذاقوا عواقبَ الطغيانِ
لم يَدَعْ ذَرَّةً تمرُّ هَبـاءً فى طريقِ الأعْمَالِ للإنسانِ

الجحيم

كل نفسٍ سيقتْ إلى الخيرِ تلقى ... أعظمَ الأجرِ فى عُلا الرِّضوانِ
والتى قادها إلى الشرِّ طيْشٌ ... سوفَ تُجزى بما جنَتْهُ اليدانِ
جامعُ الناسِ والموازينِ قِسطٌ ... يوْمَ لم تُجدِ زفْرَةُ النَّدْمانِ
أىُّ وَيْلٍ إذا الموازينُ خَفَّتْ ... وزفيرُ الجحيمِ فى ثَوَرانِ
واستشاطت غضباءَ وهى تُدوى ... فى زئيرٍ يروحُ بالآذانِ
فَزَعٌ يملأُ الفؤادَ ارتجافاً ... حين تبدو ذاتُ الشَّوى للعيانِ (١)
من حميمٍ تنسابُ فيها سيولٌ ... فى جحيمٍ وظُلْمةٍ من دُخانِ
وَهوى المُجْرِمونَ بين رعودٍ ... أطْلَقتْها زوابعُ النيرانِ
فَهلُمُّوا يا مَنْ ظلمتم وجُرْتُم ... وكفرتم بالواحدِ الدَّيَّانِ
إن هذا تصديقُ ما قد كذَبْتُمْ ... وأطعتُمْ غوايةَ الشَّيْطانِ

المؤمنون فى النعيم

كلُّ حظٍّ وكلُّ فوزٍ عظيمٍ ... للذى نال رُجْحَةَ الميزانِ
باتِّباعِ الهُدَى وتَرْكِ المعاصى ... والتَّغاضِى عن المَتاعِ الفانى
خالف النَّفْسَ بينَ عزْمٍ وصَبْرٍ ... ومَضاءٍ وعِفَّةٍ وَأَمانِ
وأطاعَ الإلٰهَ طاعةَ عبدٍ ... قرَّبَتْهُ مَثُوبَةُ الشُّكْرانِ
للذين اتقوا أُعِدَّتْ قصورٌ ... عالياتٌ فى خالداتِ الجِنانِ
والفراديسُ زُيِّنَتْ ببدورٍ ... كاللآلى ما بين حورٍ حسانِ
وبدارِ النعيمِ صُفَّتْ بيوتٌ ... من كريمِ الياقوتِ والمَرْجانِ
غُرَفٌ تحت زهرِها الماءُ يجرى ... من نُضارٍ ومن نعيمِ الجُمانِ

---

(١) ذات الشوى : يريد جهنم التى تشوى .

تتجلى على الأرائكِ فيها حورُ عِينٍ مِنْ كاعباتٍ قِيانِ (١)
وعليهنَّ طافَ وِلدانُ خُلدٍ بشرابِ الأعنابِ والرمانِ
فى أباريقَ من لُجَيْنٍ شَذَاها عَرْفُ مِسْكٍ ونفحةُ الرَّيْحَان
وعلى الجانبين صُفَّتْ عروشٌ سُرُرٌ حَوْلَهَا القطوفُ الدوانى
رصَّعَتْهَا يَدُ العطاء بِدُرٍّ فوقَ وَشْيٍ من نادرِ العقيانِ
إن فيها من النَّعيمِ متاعاً جعل المتقين فى مهرجانِ
أرضها سُندُسٌ يُغَطِّيهِ زَهْرٌ ينشر الطيب فى رِياضِ الجِنانِ
رِيحُها عاطرٌ يفيضُ عبيراً حيث مالَ النَّسِيمُ بالأغصانِ
فوق فَيْحَائِهَا وتحت الدوالى فى مروجِ الكافورِ والأُقحوانِ
دفَّقَتْ أنهرٌ وفاضتْ عُيونٌ باركت نبْعَها يدُ الرَّحمنِ
من سُلافٍ ومن معينٍ فُرات تتهادى الأنهارُ كالخيزرانِ (٢)
ثم تجرى أخرى بِدَرٍّ طَهورٍ لم يُلَوَّثْ بفاسدِ الأدْرانِ (٣)
بين طيبِ الزهورِ تجرى الهُوَيْنَى أنهرُ الشُّهْدِ فى فَسيحِ الجنانِ
لم يُشَبَّه نعيمُهُ بنعيمٍ كان أشهى أُمنيَّةَ الإنسانِ
نورها دائمٌ فلا ليلَ فيها يانعاتٌ المروج والأفنانِ
إن فيها ما تشتهى كلُّ نَفْسٍ وجَنَاها أيان تدعون دانِ
كلُّ شىء فى جنةِ الخلدِ غَضٌّ ورطيبٌ ويانعٌ كلَّ آنِ
كيف تدنو يَدُ البِلَى من جناها والذى فى الخلودِ ليس بفانِ
كلُّ وصفٍ مهما تسامى خَيَالا فى نعيمِ الفردوسِ غيرُ العيانِ
رَحْمَةُ اللهِ قد أفاضتْ عليها سابغاتٍ من أنعمِ الرضوانِ

(١) الصواب أن يقال حور عين ، على الوصف لا الإضافة ، والعين جميلات العيون ، الواحدة عيناء .
(٢) السلاف : الخمر ، ومعين فرات : نبع عذب ، والتشبيه فى البيت بعيد المأخذ .
(٣) الدر بفتح الدال : المدرار أى الغزير السيلان ، وأصله للمطر .

وأُعدّتْ هذا النعيمَ جزاءً ... لسعيدٍ قد فاز بالغفرانِ
يانعيم الجنات رحِّبْ وباركْ ... وتقدمْ بعاطراتِ التهانى
وابتسِمْ يا جمالُ واهتفْ سلاماً ... وتألّقْ فى الحورِ والولدانِ
هاهُمُ الأتقياء حَلُّوا كراماً ... بين فَيْضٍ من الرضى والأمانى
ياعبادَ الرحمنِ ها قد بلغتم ... فاشكروا مَنْ هدَى إلى الإيمانِ
مالكَ المُلْكِ إنَّ وَعْدَكَ حَقٌّ ... مَنْ له الحمدُ غيره كلَّ آنْ
كل شىء يُسَبِّحُ الله حَمْداً ... أَبَدَ الدهرِ خيفةَ الرحمنِ
خالقُ الخلقِ من ضياء ونارٍ ... وترابٍ فى رأفةٍ وحنانِ
عَرْشُهُ الأرضُ والسماء قريبٌ ... لم يَغِبْ فيضُ نورِهِ عن مكانِ

الشمس

صانعٌ مُبْدِعٌ عليمٌ خبيرٌ ... بالغٌ صنعُهُ ذُرَى الإتقانِ
كلُّ حَىٍّ إلى علاهُ مَدِينٌ ... بالغوالى من أَنْعُمِ الإحسانِ
خلَقَ الشَّمْسَ فى السماء سراجاً ... وحياةً للعالم الحيوانى
تملأُ الأرضَ كلَّ يوم ضياءً ... ووهيجاً كلَفْحَةِ النِّيرانِ
تَحْمِلُ الغَيْثَ من أُجاجٍ خِضَمٍّ ... ثم تعلو بِذَرِّهِ كالدخانِ
فَوْقَ مَتْنِ الهواء يعلو جليداً ... طَوْدَ ماس فى صفحةٍ من جُمَانِ
شاء للأرضِ أنْ تموتَ وتحيا ... حكمةٌ جددتْ قُوَى العُمْرانِ
كلما أجدبتْ سَقَاها سحابٌ ... بمعينٍ من غَيْثِهِ الهتَّانِ
هكذا ثمَّ للحياةِ نظامٌ ... يجعلُ الجِسْمَ يانعَ الريعانِ
إن للشمسِ فى العناصرِ سرًّا ... فَهِىَ روحُ الحياةِ للأبدانِ
لو خبا نورها عن الأرض صارتْ ... بَلْقَعاً قد خَلَا من السكانِ

قـدرةٌ حَـيرتْ عقولَ البرايا غاب إدرا كُهَا عن الأذهانِ
أبدعتهـا يد المُهَيْمِن رِفْقاً وحناناً على بَنِى الإنسـانِ
مُلْهِمُ النفسِ والتدابيرُ تجرى محـكماتٍ فى عالم الأكوانِ
فاز من بالتُّقَى أطـاع ووفَّى والذى ضَـلَّ باء بالْخُسْرانِ
أنزلَ النُّورَ رحمـةً وسـلاماً وشفاءً فى مُحْـكَمِ القرآنِ
جاء بالحقِّ هادياً وبشـيراً ونذيراً للشـاردِ الغفـلانِ
فاض عِلماً بالْوَحْىِ صَدْرُ نَبِيٍّ عبقرى النهى فصيح اللسانِ
خَيْرُ نفسٍ حَلَّتْ بأشرف جسمٍ خاتمُ المُرْسَلِينَ فَخْرُ الزَّمانِ
أحمـدُ المجتبى شفيعُ البرايا هادمُ الـكفرِ شائدُ الإيمـانِ
جاهَدَ المشركينَ بالسَّيْفِ حتى دَمَّرَ الحقُّ دَوْلَةَ الأوثانِ

سبيل الإيمان

أيُّهَا النـاسُ آمِنوا وأطيعوا واذكروا الله خِيفةً كل آنِ
سَبِّحُوهُ مستغفرينَ وتوبوا واستعيذوا به من الشيطـانِ
طَهِّرُوا النفْسَ باجتنابِ المعاصى واستزيدوا هَدْياً من القرآنِ
واْتقوا اللهَ رهبةً واشكروه أنْ هَدا كم لِنِعْمَةِ الإيمانِ
واستقيموا فَهُوَ الرقيبُ عليكم ومُحَالٌ أنْ يختفى عنه جانى
واْسلـكوا للهُدَى أعفَّ سبيلٍ وتفانَوْا فى طاعـة الرحمنِ
واطلبوا الرِّزْقَ طيِّباً وحلالا واحفظوه بالـبرِّ والإحسـانِ
واجعلوا العدْلَ إن حكمتمْ شِعاراً واذكروا بَطْشَ صاحِبِ السُّلْطانِ
وتواصَوْا بالحقِّ واسْعَوْا كِراماً واستعينوا بالصـبرِ والإيمـانِ

ضعف ابن حواء

يا ابنَ حواءَ قد خُلِقْتَ ضعيفاً   وحليفاً للسَّهْوِ والنِّسْيانِ
خدَعتْكَ الدنيا فأقبلتَ تلهو   طائرَ اللُّبِّ غارقاً فى الأمانى
قادكَ الجهلُ فارتكبتَ الخطايا   وتزودتَ بالمتاعِ الفانى
وتخبَّطتَ فى دياجى حياةٍ   كنتَ فيها فريسةَ الشيطانِ
يا ابن حواءَ كيف تنقادُ أعْمَى   كيف تنسى عُقْبَى المصيرِ الثانى ؟
كيف تصبو إلى الملاهى وترضَى   يا ابنَ حواءَ وقفةَ النَّدمانِ
قد فقدتَ النُّهى طروباً تُغَنِّى   بين كأس الطِّلا ودَلِّ الغوانى !
لم تفكر فى غيرِ دنياكَ يوماً   آمِناً من تَقَلُّبِ الأزمانِ
ينقضى العمرُ والشبابُ يُوَلِّى   بين حالِ الوسنانِ واليقظانِ
سِنَةٌ كلُّها الحياةُ وصَحْوٌ   فى دياجِى القبورِ والأكفانِ
يوقظ النفسَ بين حربٍ وكَرْبٍ   فى جحيمٍ من زَفْرَةِ الندمانِ
إيهِ يا نفسُ قد تغافلتِ حتَّى   سَكَنَ اللَّهْوُ منكِ غَدْرَ الزمانِ
لا اعتذارٌ ولا شفيعٌ يُرَجَّى   هكذا فاجرعى كؤوسَ الهوانِ
فترة الأرض فى الحياة اختبارٌ   فيه يُجْزَى المطيعُ بالإحسانِ
وبدارِ البقاءِ تَخْلُدُ نفسٌ   فى نعيمٍ أو فى لَظَى النِّيرانِ
تُنْقَلُ النفسُ من حياةٍ لأُخرى   إذ ينادى الحِمامُ آنَ أوانِى
إنه الموتُ لم يَدَعْ أىَّ حىٍّ   فالبرايا جمعاً به سِيَّـــــانْ
فإذا جاء أمرهُ لم يُؤَخَّرْ   وإذا حُمَّ فالمقدَّرُ دانْ
ضجعةُ الموتِ رقدةٌ يُفقد الإنســـانُ فيها ، ويسكنُ الخافقانِ
فهو بابٌ يجتازه كلُّ حىٍّ   وهو كأسٌ لابدَّ للظمآنِ

غرور ابن حواء

يا أبن حواء دع غرورَكَ واعلمْ — أن من عفَّ عاش فى اطمئنانِ
خالفِ النفسَ واجتنبْ كلَّ شرٍّ — وتباعَدْ عن حَمْأةِ العُدوانِ
وافعلِ الخيرَ مااستطعتَ وأَصلِحْ — وتسابقْ فى البرِّ والإحسان
واتّقِ اللهَ إنه خَيْرُ زادٍ — للذى رامَ خالدَ البُنْيانِ
وتواضعْ واصفح وسامحْ كريماً — واجعلِ الحِلْمَ زائدَ الوُجدانِ
وتوكَّلْ على المهيمنِ واصبرْ — واذكرِ الموتَ بين آنٍ وآنِ
إنَّ كيدَ الشيطانِ يفتِكُ فتكا — بِضِعافِ العقولِ والإيمانِ
فتنةٌ تملأُ العيونَ جمالاً — وانطلاقٌ فى كاذباتِ الأمانى
خادعٌ ماكرٌ عدُوٌّ لدودٌ — شر نفس شقَّتْ عصا العصيانِ (١)
لا تُطِعْ كَيْدَهُ وخالِفْهُ حتَّى — لا تُنزِّلْ عليكما لعنتانِ !

مصير ابن حواء

يا أبنَ حواءَ باطلٌ كلُّ شَيْءٍ — زَيَّنَتْهُ مظاهرُ الهذيانِ
جِسْمُكَ الغضُّ هيكلٌ من تُرابٍ — سَوْفَ يَبْلَى على يدِ الحدثانِ
يتوارى تحت الثَّرَى بَعْدَ حينٍ — حيث يغدو فريسةَ الدِّيدانِ
وهشيما عظامُهُ تتداعَى — وإلى التُّرْبِ مرجعُ الإنسانِ
كلُّ جسمٍ مَشَى على الأرض فيها — هى تربٌ وهو الوليدُ الفانى
أخرجَتْهُ يَشْقَى وخجلَى طوَتْهُ — فهى أمٌّ لكن بغيرِ قِرَانِ
إنَّ هذِى دنياكَ فاحذرْ أذاها — وتجنَّبْ مَصَارعَ الأزمانِ
هى أفعَى فى ثوبِ حسناءَ تَسْعَى — بجمالٍ مبرَّجٍ فَتَّانِ

---

(١) تقول شقت عصا الطاعة ، وهذا ماأراده الشاعر ولكنه أخطأ التعبير .

تَنْشِبُ النَّابَ فى الذى نالَ منها   واستمالته مغرياتُ الحِسانِ
والذى كانَ لهوهُ بالأفاعى   كيف ينجو من وَثبةِ الثُّعبانِ ؟
هكذا الدهر صَفْوهُ مستحيلٌ   غَرَضٌ لِلهموم والأحزانِ
ماصفا الدَّهْرُ نِصْفَ يوم لنفس   متَّعَتْها الدنيا بأقصى الأمانى
من هناء إلى شقاء وَذُلٍّ   ومن العزِّ للأَسَى والهَوَانِ
إن هذا كيدُ الليالى فحسبى   ياابنَ حواءَ من صروف الزمان

مطامع ابن حواء

ياابن حواءَ باطلٌ كلُّ شىء   زَيَّنَتْهُ مطامعُ الهذيانِ
فالجمالُ الذى سَبَاكَ خيالٌ   والأمانىُّ خِدْعَةُ الشيطانِ
هَذِّبِ النفسَ لاتطع ما تَمَنَّتْ   وتمسَّكْ بِشِرْعَةِ القُرْآنِ
وتفكَّرْ فى صُنْعِ رَبِّكَ يبدو   لكَ نورٌ من فيضِهِ الربانى
واذكر اللهَ ماخَلَوْتَ كثيراً   فهو أزكى ما يكتبُ المَلَكانِ
وأخْشَهُ إنْ لهوتَ فَهُوَ رقيبٌ   وقريبٌ للقلبِ والشِّريانِ
لاتقلْ إن خلوتَ إنى وحيدٌ   فمع اللهِ أنت فى كلِّ آنِ
إنَّ عَيْنَ الإلهِ ما غاب عنها   أىُّ حَىٍّ فى عالَمِ الأكوانِ
ترقبُ الخَلْقَ فى جلالٍ وحلمٍ   واقتدارٍ ورحمةٍ وحنانِ
أين منها المفرُّ ؟ يانفسُ سِيرِى   فى طريقِ الهُدَى والاطمئنانِ
قدِّمِى الخَيْرَ مااستطعتِ وتوبى   وأطيعى أوامرَ الرحمنِ

ضلال ابن حواء

يا ابنَ حواءَ أنت لله عَبْدٌ ... وعلى العَبْدِ واجبُ الشُّكْرَانِ
كيف تَنْسَى فَضْلَ الإلهِ وتمشِي ... مطمئناً فِي غِبْطَةٍ وأمانٍ ؟
لم تفكر فى غَيْرِ لهوٍ يؤدِّى ... ياضعيفَ النُّهَى إلى الخسرانِ
قد دعاكَ الشيطان فانقدتَ تهوِى ... فِي ضَلالِ الغرور والعِصْيَانِ
تُنْكِرُ الْحَقَّ والهُدَى كبرياءً ... مستحقاً لِنِقْمَةِ النُّكْرَانِ
إن مَثْوَى المستكبرينَ خلودٌ ... فى زفيرِ الجحيمِ والنيرانِ
أيها الأحمقُ الجهولُ تدبَّرْ ... أو تُعاقَبْ بالطَّرْدِ والحِرْمانِ

السماء والأرض

هل لِهَذَا الوُجُودِ غيرُ إلهٍ ... واحدٍ فى العُلا وفى السُّلطانِ ؟
أمره الأمر لم يُشَبَّهْ بشيء ... مطلقُ الْحُكْمُ مبدعُ الأكوانِ
دَبَّرَ الأمرَ فى السماء بِصُنْعٍ ... غايةٍ فى الْجَلال والإتقانِ
رَتَّبَ النَّجْمَ والبروجَ وَأَوْحَى ... للنِّظامِ العجيبِ بالدورانِ
سابحاتٍ تشقُّ جَوْفَ فضاءٍ ... بين مَهْوَى الثَّرَى إلى كيوانِ[1]
خاطفاتِ الأبصارِ كالبرق تسرى ... فى مدارِ الْجَوزاء والميزانِ
قدرةُ اللهِ سَيَّرَتْهَا وحفظاً ... زوَّدتها بنورها الربانى
من بدورٍ كواكبٍ وشموسٍ ... سَبَّحَتْ فى العُلَا عظيمَ الشانِ
تقطع الأفقَ فى سلامٍ وأمنٍ ... لاحظتها عنايةُ الرحمنِ
سَبَّحَ النَّجْمُ فى السماء يؤدِّى ... واجبَ الحمدِ مابدا الملوانِ[2]
تَمَّ أمرُ السماء سبحانَ ربى ... إذ بناها قويةَ البنيانِ
خَلَقَ الأرضَ جذوة من شهابٍ ... لارتباطِ الأفلاكِ بالأكوانِ

---

(١) كيوان : زحل . (٢) الملوان : الليل والنهار .

ودحاها من بعد ذلك دَحْياً   وَهَبَ الأرضَ سرعةَ الدورانِ

القمـــر

ثم أَوْحَى للبدر أن خُذْ مداراً   حول سيَّارِها وسِرْ فى أمانِ
ومن الشمس خُذْ ضياءكَ فاعْكسْـ   ـهُ عليها للسَّارِبِ الوجلانِ
إن للبدرِ فى خُطاهُ بروجاً   تتجلى فى وجههِ كلَّ آنِ
هو يجرى وكوكب الشمس يجرى   وعلى الأرض يشرف الكوكبانِ
آيةُ الشمسِ فى النهارِ ضياءٌ   وحياةٌ لعالَمِ الحيوانِ
وإذا الليلُ أَلْبَسَ الأرضَ سِتراً   من دياجى الظلام كالطَّيْلَسَانِ
ظَهَرَ البَدْرُ فى السماء فألقى   صفحةَ النور من سيولِ الجُمانِ
نورهُ يملأُ القلوبَ انشراحاً   ويمـــدُّ النباتَ بالألوانِ
إن هــذا النظامَ صنعُ إلهٍ   مالكِ المُلكِ واحدٍ منَّانِ
خَلَقَ الشمسَ رحمةً وحناناً   لبقــاءِ الحيــاةِ فى عنفوانِ
وأفاضت يَدُ العطاء على الأر   ضِ غيوثاً من خَيْرِها الهتَّانِ
بعد تقــديرِ قُوتِهَا أودعتها   مايُنَمِّى جواهر الأبدانِ
نعمةُ الخالقِ الحكيمِ فأكْرِمْ   بجنانٍ لم يؤتَهُ الوالدانِ
سَخَّرَ المـاء والهواءَ فراتاً   وعليلا فوق الثرى يجريانِ
جعل اللَّيْـلَ والنهارَ لبَاساً   ومعاشاً كلاهما آيتانِ
جعلَ الشمسَ فى النهارِ عَرُوساً   تتَجَلَّى فى إمْرَةِ السُّلْطـانِ
وأَحَلَّ البدرَ المنيرَ مليـكاً   مشرفاً فى الدُّجَى على الأكوانِ
إن للنيِّرَيْنِ أكبر فضلٍ   أَلْبَسَ الأرضَ حُـلةَ العمرانِ
كلُّ هذا آلاءُ ربٍّ قديرٍ   سخرتهـا رُحْمـاهُ للإنسانِ

ذلك الهيكلُ المفضَّلُ عقلاً وذكاءً عن سائر الحيوانِ
كرَّمَ اللهُ خلْقَهُ واصطفاه وحباه مواهبَ العِرْفانِ

سعة ملك الله

يا بَني الأرضِ إنَّ لِلهِ مُلْكاً واسعَ الأفق بين قاصٍ ودانِ
تَعْلَمُ الأرضُ والسماء مداهُ في سُمُوِّ الجَلالِ والسلطانِ
قَبضَةُ اللهِ تجمعُ الأرضَ في يمنــاه تُطْوى مسارحُ الدورانِ
هي ذات البروج سبعٌ طباقٌ كلَّ يوم بديعها في شانِ
رفعت سمكها بغيرِ عماد قوةُ القاهرِ العزيزِ الباني
عِزَّةٌ تجعَلُ القلوبَ سُجوداً في خُشوعٍ من هَيْبَةِ الديَّانِ
حكمةٌ دبَّرَ المهيمنُ فيها ماخبا نورُهُ عن الإنسانِ
تتراءى غير الذي أبرمته وتُنَافي ماقد بَدَا للعيانِ
شاءها الخالقُ الحكيمُ فتمَّتْ طِبْقَ مافي صحائفِ الأكوانِ
إنما اليُسْرُ ما أرادَ ، وقِدْماً خُطَّ في اللَّوْحِ ماانطوى في الجَنانِ
خبرةٌ أتقنَ المصوِّرُ فيها ما توارَى عن عبقريِّ البيانِ
أَبْدَعَتْ خَلْقَ كلِّ شَيْءٍ وأَوْحَتْ فيه سرًّا من غَيْبِهَا الربَّاني
آيةُ الصانِعِ العليمِ أَمَدَّتْ كلَّ حَيٍّ مابين إنسٍ وجانِ
لم تَدَعْ كائناً بغيرِ حنانٍ من لَدُنْهَا أكرِمْ به مِنْ حنانِ
هيبةٌ خرَّتِ الجبالُ لديهَا ساجداتٍ وكَبَّرَ المشرقانِ
وتجلَّتْ على الوجودِ جمالاً كلُّ شَيءٍ مُسَبِّحٌ بلسانِ
حضرةٌ تجمعُ العوالمُ طُرًّا تحت نِبراسِ نورِها الرَّباني
كلُّ مَن في الوجود بَيْنَ يديهَا يطلبُ العَفْوَ والرضى كلَّ آنِ

نظـرةٌ ملؤها الحُنوُّ وحِـلمٌ ... في اقتـدارٍ وهَيْبةٌ في أمانِ
رأفةٌ عمت البرايا ولطفٌ ... قدسَتْهُ للحمدِ سـبعٌ مثانِ
سَجَدَ الكونُ للمهيمنِ شكراً ... وجلالاً وكبّرَ الخافقانِ
يُخرِجُ الميْتَ من سلالةِ حيٍّ ... وكذا الحيَّ من رميمٍ فانِ
يبعث الخلْقَ من دياجى قبورٍ ... هَشَّمَتْهـا تقلُّبـاتُ الزمانِ
بعثرت مابها العوادى وقِدْماً ... أورثتها البِلَى يدُ الحدثانِ
يأمرُ الشمسَ بالطوافِ مع البـدر ... جميعاً في دورةٍ يسبحانِ
يجعلُ الماءَ من أُجاجٍ معيناً ... رحمـةً بالنبـاتِ والحيوانِ
يُرْسِلُ الغيثَ هاطلا في الروابى ... فتعجُّ الأنهـارُ بالفيضانِ
عاصفاتُ الرياحِ بالأمرِ تجرى ... فتميـدُ الأغصانُ بالأغصانِ
تنثنى ملقحـاتٍ فجلَّتْ ... قدرةُ الخالقِ العـليِّ الشانِ
من بطون الثرى يبارِكُ ماءً ... يحمـلُ الطيباتِ للعُبـدانِ
زَوَّدَتْهُ النُّعمَى عناصرَ شتى ... وأمدتْ به جَنَى النعمانِ
من عبيرٍ ومن أريجٍ زكىٍّ ... يعبق الزهرُ مُشْرِقَ الألوانِ
سُكَّرٌ منعِشٌ وشهدٌ شَهِىٌّ ... وسُلافٌ من طاهرات الدِّنانِ
نِعَمٌ أبدعَ المصوِّرُ فيها ... ما تناءى عن فِطْنَةِ الإنسانِ

عالم الحيوان

ثُمَّ أَوْحى ربُّ الوجودِ إليها ... ماهمات أعيت علوم البيانِ
نَسجَ العنـكبوتُ أوهنَ بيتٍ ... شاده في الوجُودِ أبرعُ بانِ !
وإلى النَّحْلِ أن أَعِدِّى بيوتاً ... في أعالى الرُّبَا وفى الأفنانِ
واطلبى القوتَ بين ماء وزهرٍ ... من ثمـارٍ بديعـةِ الألوانِ

واقتنى بَلْسَم الدواء ورُدِّ يه شفاءً شَهْداً إلى الأبدانِ
وإلى النملِ عالمِ الفطنةِ الجدِّ ورمزِ النشاطِ والإتقانِ
أمْهَرُ الباحثين فى الأرض شعباً وحليفُ النظامِ والعمْرانِ
يعملُ النملُ دائباً وصبوراً فوقَ إدراكِ فِطْنَةِ الحيوانِ
ملهماتٌ قد حُيِّرَ العقلُ فيها أكسبتْ فَهْمَهُ قُوَى العِرفانِ
فى بطون الثَّرَى يُعِدُّ بيوتاً محكماتِ الساحاتِ والجُدرانِ
حَوْلَ جُدرانِها بَنَى حُجُرَاتٍ شَاهِدَاتٍ بخبرةِ الْفَنَّانِ
صالحاتٍ لحفظِ ما ادَّخَرَتْهُ جاهداتٍ بحاثةَ الوديانِ
جامعاتِ الأقواتِ من كلِّ فَجٍّ ما ثناها عن عزمِها ما تُعَانى
غُرَفٌ أَبْدَعَ المهندسُ فيها أَحْكَمَ الوَضْعِ كى تدومَ المبانى
قاهراتٌ يَدَ الْبِلَى وَمُحَالٌ أن يَكِيلَ الأذَى لها العابثانِ
إن للنملِ فى الحياةِ خِلالاً مَيَّزَتْهُ عن عالَمِ الحيوانِ
عاملٌ ماهرٌ مُطِيعٌ صَبُورٌ صادقُ العزمِ مخلصُ الإيمانِ
أُمَمٌ مَثَّلَتْ أَدَقَّ نِظَامٍ لحياةِ الشعوبِ فى العُمْرَانِ
يَتَّقِى البردَ فى الشتاءِ فيبقَى بين دِفْءٍ ومَطْعَمٍ فى أمَانِ
وإذا ما الربيعُ أَذَّنَ يَسْعَى طالب الرِّزْقِ جاهداً غيرَ وَانِ
إن وَحْىَ الإلهامِ أفضى إلى النمـ ـلِ بِسِرٍّ من نَفْحَةِ الْكِتمانِ
يعرفُ الجوَّ والأعاصيرُ فيه سَارِيَاتٌ ما بين آنٍ وآنِ
من رِيَاحٍ ومن سيولٍ ونارٍ لاتِّقَاءِ الأذَى قُبَيْلَ الأوَانِ
عالَمُ النملِ آيةُ الجدِّ فى الأر ض فسبحانَ مُلْهِمِ الحيوانِ

عالم البحـــر

أَوْدَعَ البحرَ رَحْمَةً منه رِزْقًا ... بارك اللهُ مَرْتَعَ الحِيتَانِ
سابحاتُ الأسماكِ تُكْثِرُ ذِكْرَ ... اللهِ فيـه ما سَبَّحَ الجارِيانِ
أُكُلٌ طَيِّبٌ طَرِيٌّ شَهِيٌّ ... فيه شتى الأنواعِ والألوانِ
وَحُلِيٌّ تَأَلَّقَتْ لامِعَاتٍ ... بين أصدافِها كَلَمْحِ الحِسَانِ
لُؤْلُؤٌ نَادِرٌ وَدُرٌّ يَتِيمٌ ... وعقودٌ من فاتِنِ المُرجانِ
نِعَمٌ سَاقَهَا الخِضَمُّ إلى النا ... سِ بأمرٍ من مُبدِعِ الأكوانِ

عالم الطـــير

أُمَمُ الطَّيرِ أكثرُ الخلقِ حمداً ... ما سَهَتْ لحظةً عن الشُّكرانِ
ماتبدَّى نورٌ وغشّى ظلامٌ ... ومع الكونِ كبَّرَ المشرقانِ
إذْ تهادَى النسيمُ يحملُ شَذْواً ... رجّعته الآفاقُ بالألحانِ
سَبَّحَ الطيرُ فيه رَبًّا رحيما ... قد تجلى باللُّطْفِ والإحسانِ
واحدٌ منعمٌ حليمٌ كريمٌ ... غامرُ الخَلْقِ بالنَّدى والحنانِ
يرزقُ الطيرَ أينما حَلَّتِ الطَّيْرُ ... بأَقْصَى القفارِ والوديانِ
عالَمُ الطيرِ فى الوجودِ عجابٌ ... فهو رمزٌ للشاكرِ اليقظانِ
ولكلٍّ فى علمِ الأرضِ نفعٌ ... تلك آلاءُ قدرةِ الرحمنِ
من رسولٍ قد جاء بُلْقَيْسَ يدعو ... ربةَ التاجِ ربةَ الصولجانِ
أمِنَ الجنِّ أم من الإنسِ؟ لا بل ... كان هذا من عالمِ الطيرانِ
هدهدٌ قد أحاطَ عِلماً بما لم ... يعلمِ العاهلُ العظيمُ الشانِ
مَلكٌ يأمرُ الرياحَ فتجرى ... ونبيٌّ دانَتْ له الثَّقَلانِ

خصَّهُ اللهُ منطقَ الطيرِ لمّا نال مُلْكاً غَنّى به النَّيّرانِ
إنَّ يوماً تَفَقَّدَ الطيرَ فيه فَجْرُ مُلْكٍ قد ساسه تاجانِ
تاجُ بلقيسَ تاج قامعةِ الجِنِّ وذاتِ الجلال والسلطانِ
وسليمانُ ربُّ أكبر مُلْكٍ جَمَعَ الخلقَ بين إنسٍ وجانِ
وقفَ الطائرُ الضعيفُ ذليلا فى انكسارٍ ورجفَةٍ وهوانِ
يرتجى العَفْوَ والمليكُ غضوبٌ ويَدُ البطْشِ سُخْطُها منه دانِ
لم تبرئْهُ غير أنباء قومٍ قد تمادَوْا فى الكُفرِ والعِصْيانِ
عَبدوا الشمسَ عاكفين عليها واستجابوا لدعوةِ الشيطانِ
حكَمَتْهُمْ بلقيسُ فى جَبَرُوتٍ قبل أن تهْتَدِى إلى الإيمانِ
وأتاها نورُ الهِدَايَةِ لما رأتِ الحقَّ ساطعَ الْبُرْهَانِ
واستقرت وعرشُهَا بين أيدِى مَنْ تغَنَّى بِمُلْكِهِ الماضيانِ
مَلِكُ المَشْرِقَيْنِ برًّا وبحراً أيْنَما حَلَّ حَلَّقَ الفرْقَدَانِ
رِحْلَةُ الهُدْهُدِ الأمينِ إليها أيقظتْ أهلَهَا مِنَ الْهَذَيانِ
أنقذَتْهُمْ من الهلاكِ فكانت آيةَ النورِ فى جَبِينِ الزمانِ
أُمَمُ الطَّيْرِ تذكرُ اللهَ دَوْماً ضَارِعَاتٍ بالحمدِ والشُّكرانِ
بين أوْكارِهَا وبين الدوالى وأعالى الرُّبَا وفى الأفنانِ
عاطراتُ التسبيحِ فى الكوْنِ تَسْرِى سَرَيَانَ الأرواحِ فى الأبدانِ
تملأ الأرضَ والسمواتِ حَمْداً شاكراتٍ للواحدِ الدَّيَّانِ

عالم الهوام والحشرات

جَلَّ مَنْ أمْطَرَ الخلائقَ رزقاً وتَعَالَى مُدَبِّرُ الأكوانِ
كلُّ حَيٍّ يمشى على الأرضِ هَوْناً لمدينٌ بالشكرِ لِلدَّيَّانِ

فى بُطُونِ الثرَى وغابِ الفيَافِى   زاحفاتٍ مَلأْنَ كلَّ مكانِ
أعجبَ الخلْقَ صُنْعَهُ وحيـاةٌ   دِقَّةٌ أعجزت قُوَى الإمكانِ
عالَمُ الذَّرِّ والبَعُوضِ شهودٌ   باقتدارِ المحيطِ بالأكوانِ
كلُّهذى الأحياء تسبح فى الكو   نِ فيبدو من سَبْحِهَا عالمانِ
عالَمٌ زَائِلٌ مَدَاهُ قصـيرٌ   ومُقَامٌ مداه ليس بِفَانِـ !
تلك دنيا الفناءِ دارُ اختيارٍ   خادعٌ حُسْنُهَا كَذُوبُ الأمانى
ما تَقَضَّتْ حتى تلاها خلودٌ   أَبَدِيُّ الحياةِ ليس بِفَانِـ
تلك دارُ البقاءِ سِيقَتْ إليها   كلُّ نَفْسٍ فى عِزَّةٍ أو هَوَانِ
كلُّ شَىْءٍ فوق البسيطةِ تُرْبٌ   منه صِيغَتْ هَيَاكِلُ الأبدانِ
ولِكلٍّ عُمْرٌ إذا تَمَّ يذوى   ثم يَبْلَى عَلَى تَمَرِّ الزمانِ
من هشيمٍ ومن رُفَاتِ عظامٍ   بَعْثَرَتْ ذَرَّهَا يَدُ الْحَدَثَانِ
طبقاتٍ تَكَدَّسَتْ فوق بعضٍ   فى بُطُونِ الوهادِ والوديانِ(1)
ودفين على بقايا دفين   فى ظلام عنه اختفى النَّيِّرَانِ(2)
وقبور ضاقت بأشلاءِ خَلْقٍ   من قديمِ الآبادِ والأزمانِ
كلُّ جِسْمٍ يَدُ الْبِلَى حَوَّلَتْهُ   من رُفَاتٍ تُرْباً كَذَرِّ الدُّخَانِ
من على عَدِّ ذَرِّهَا ذو اقتدارٍ   غيرُ رَبِّ الصِّرَاطِ والميزانِـ
باعِثِ الخلْقِ فى قيامٍ رهيبٍ   والسمواتُ وَرْدَةٌ كالدِّهانِـ !
ستقومُ الأجسادُ من عالَمِ الذَّرِّ   سِرَاعاً لم تختلط ذَرَّتَانِـ !
قُدْرَةٌ أَوْدَعَ الْمُهَيْمِنُ فيهـا   ما تَنَاءَى عِلْمًـا عن الأذهانِ
عِلْمُهُ قد أحاط بالكَوْنِ قِدْماً   قبل خَلْقِ الأرواحِ والجسمانِـ

(1) الصحيح أن يقال : بعضها فوق بعض .
(2) سبقه إلى ذلك أبو العلاء المعرى فى داليته المشهورة والبيت بأكمله هو :

ودفين على بقايا دفين   من قديم الأزمان والآباد

خَطَّ فى اللَّوْحِ ما أراد ولمّا يَبْدُ لِلنُّورِ هيكلُ الإنسانِ
من سعيدٍ ومن شَقِيٍّ قضاءٌ قـــدرته إرادةُ الرحمنِ
كلُّ شَيْءٍ أَحْصَاهُ عِلْماً وَعَدًّا فى إمامٍ مُفَصَّلِ التِّبْيَانِ

عالم الوحش

فى مُرُوجِ الغاباتِ تحت شعارٍ من كَثِيفِ الظِّلالِ والأغصانِ
وَبِجَوْفِ الأحراشِ بين سُدُولٍ من شِبَاكِ الجذوعِ والسِّيقَانِ
يَسْكُنُ الوحشُ هادئاً فى كُهوفٍ آمِنَاتٍ من وَطْأَةِ الإنسانِ
لم تَنَلْهَا يَدُ الأذَى وبِرِفْقٍ لاَحَظَتْهَا عنايةُ الرحمنِ
بين آجامِهَا تروحُ وتغدو ضَارِيَاتُ السِّبَاعِ فى اطمئنانِ !
فى عَرِينِ الأُسودِ كلُّ هِزَبْرٍ فى فَيَافِيهِ صاحبُ السلطانِ
ضَيْغَمٌ باسِلٌ رهيبٌ مهيبٌ مَلِكٌ قَادَ دَوْلَةَ الحيوانِ (١)
قُوَّةٌ زَانَهَا حنانًا وعِلْماً خُلُقُ الْفَيْصَلِ الجرىءِ الجنانِ
عالَمُ الوَحْشِ من نمورٍ وَفَهْدٍ وذئابٍ وَأَرْقَمٍ أفعوانِ
تلك أَكَّالَةُ اللحومِ افْتِرَاساً واقْتِنَاصاً فى فَجْعَةِ النَّهْمَانِ

عالم الأنعـــام

يملأُ الْبِيدَ حَوْلَهَا رَاتِعَاتٌ من بهيمِ الآرامِ والغُزْلاَنِ
آمِنَاتٍ شَرَّ انقضاضِ الضوارى سَارِيَاتٍ فى العُشْبِ والغُدْرانِ
تأكلُ العُشْبَ وهو يَنْسِجُ لَحْماً ويُنَمِّى عظامَهَا بالدِّهانِ
إنَّ أجسامَهَا مصانعُ لِلَّحْمِ تُغَذِّى الضعيفَ غَذْوَ السِّمَانِ
مَزَّقَتْهَا شَرَاهَةُ الوحشِ ظُلْماً فَأُبِيدَتْ على مرورِ الزمانِ

---

(١) الضيغم والباسل من صفات الأسود ، وقد تسمى بهما .

حَفِظَتْهَا وِقَايَةُ اللهِ لُطْفًا ... وسلاماً من ثورةِ العُدْوَانِ
لاَحَظَتْهَا عَيْنُ العنايةِ حتى ... يحفظَ الأمنُ دولةَ العُمْرَانِ
فى بِقَاعٍ يدومُ فيها صِرَاعٌ ... يَصْبُغُ الأرضَ بالنَّجيعِ القانى
لو تبارت فيها الضوارى لأخلَتْ ... أرضَ قيعانِهَا من السُّكَّانِ
هل يجيرُ الضعيفَ غيرُ قَوِىٍّ ... أو يحسُّ الْجَبَرُوتَ غيرُ الجبانِ
يملأُ الوحشُ رهبةَ الغابِ ذُعْراً ... شَرُّ نَفْسٍ تميلُ للعدوانِ
شَرِسٌ يَسْفِكُ الدماءَ ويُرْدِى ... باغتيالٍ مُسْتَضْعَفَ الحيوانِ

الأسد ملك الحيوان

خَلَقَ اللهُ رَحْمَةً بالضَّحَايَا ... حارساً باسلاً جرىءَ الْجَنَانِ
فَيْصَلاً يَقْهَرُ الوحوشَ جميعاً ... لا يُبَالِى بِمُرْهَفٍ أو يمانى
قُوَّةٌ أكسبتْ مَلِيكَ الضَّوارِى ... أَسَدَ الغابِ هَيْبَةَ السُّلْطَانِ
ضَيْغَماً قاهراً وَلَيْثاً هَصُوراً ... خيرَ مَلْكٍ فى دولةِ الحيوانِ
خَصَّهُ اللهُ بالبسالةِ وَالنُّبْـ ... ـلِ مهيباً جِوَارُهُ فى أمانِ
لا يُجَارِيه فى المباراةِ خَصْمٌ ... ومُحَالٌ يَفِرُّ من مَيْدَانِ
ثابتُ العزمِ فى خُطَاهُ وَقُوراً ... يتهادَى فى خِفَّةٍ وَاتِّزَانِ
نظرةٌ مِلْؤُهَا الرزانةُ والْحِلْـ ... ـمُ وقلبٌ يَحْبُوهُ فَيْضَ الحنانِ
وَزَئِيرٌ كالرَّعْدِ قد رجَّعتْهُ ... جَنَبَاتُ الآجامِ والوديانِ
يَقْذِفُ الرُّعْبَ فى قلوبِ الضوارى ... لِتُوَلِّى عن ساكنِ القيعانِ
جعل اللهُ سَطْوَةَ اللَّيْثِ أَمْناً ... وسلاماً فى صالحِ العُمْرَانِ
حارسٌ ساهرٌ قوىٌّ أمينٌ ... ملكُ الوحشِ حاملُ الصَّوْلَجَانِ

غفلة ابن حواء

يا ابْنَ حواءَ كيف تُلْهيكَ دنيا ... كَ عن الحقِّ بعد هذا البيانِ
كيف تنسى أن الإله سميعٌ ... وبصيرٌ يراك في كلِّ آنِ
كيف تنسى ذكر الرقيب وتمشي ... في ظلامٍ من غَفْلَةِ النِّسْيَانِ
تُنْفِقُ الْعُمْرَ في الضلالةِ تلهو ... مستجيباً لدعوةِ الشيطانِ
زَيَّنَتْ جندُه إليك المعاصي ... فتخبطت في دياجي الأماني
أنكرت نَفْسُكَ الضعيفةُ فضلاً ... للرقيبِ الْمُهَيْمِنِ الرحمنِ
وَضَلَلْتَ الْهُدَى فأعماكَ طَيْشٌ ... وغُروراً جاهَرْتَ بالْعِصْيَانِ
لم تَرَ النُّورَ وهو في كلِّ شَيْءٍ ... يَتَجَلَّى ولستَ بالوَسْنَانِ
أيها الغافلُ الأثيمُ تذكَّرْ ... قدرةَ الخالقِ الجليلِ الشَّانِ
كيف سَوَّتْ منك البنانَ ولمَّا ... تكُ شيْئاً في ذكريات الزمانِ
فأفاضت يَدُ الْمُصَوِّرِ حُسْناً ... أَبْدَعَتْهُ براعةُ الإتقانِ
أَلْبَسَتْكَ النُّعْمَى بأحسنِ خَلْقٍ ... وَحَبَتْكَ الآلاءُ بالإحسانِ
نطفةً كنتَ في الظلامِ جَنِيناً ... ثم طِفْلاً مُطَهَّرَ الأردانِ
فغُلاَماً غضَّ الشبابِ فتِيًّا ... من ربيعِ الحياةِ في رَيْعَانِ
يَصْعَدُ العمرَ سُلَّماً في سِرَاجٍ ... من نشاطٍ وقوةٍ ومِرَانِ
ثم يخبو سِرَاجُهُ حين يُمْسِي ... في مَشِيبٍ مُهَدَّمِ الأركانِ
دَبَّ شَيْخاً عَلَى العصَا في اكتئابٍ ... سابحَ الذِّهْنِ في دُجَى الأحزانِ
طَارَدَتْهُ الهمومُ يبكي شباباً ... كان حُلْماً في خادعاتِ الأماني
يتمنى لو كان يرجعُ يوماً ... حاسرَ القلبِ من فَوَاتِ الأَوَانِ
أَنْهكَ الضعفُ هيكلاً هَشَّمَتْهُ ... روعةُ الْبَيْنِ وانتقامِ الزمانِ

شَـبَحٌ أَشْمَطٌ تَقَوَّسَ ظهراً ... في انحناء عَيْنَاهُ غَائِرَتَانِ[1]
يسمعُ الأرضَ وَهْيَ تدعوه : هَيَّا ... أيها الهيكلُ الرميمُ الفاني
آنَ لِلتُّرْبِ أن يَضُمَّكَ فانظرْ ... كيف تُطْوَى صحيفةُ الإنسانِ
هاهو القبرُ مُسْتَقَرُّكَ حتى ... صحوةِ الناسِ للمصيرِ الثاني
ضجعةُ الموتِ رقدةٌ يتوارى الـ ... جسمُ فيها عن أَعْيُنِ الْحَدَثَانِ

دعوة الإيمان

يا ابْنَ حواءَ باطلٌ كلُّ شَيْءٍ ... لم تُؤَيِّدْهُ دعوةُ الإيمانِ
أنزل الحقُّ دعوةَ الحقِّ نوراً ... وشفاءً في مُحْكَمَاتِ البيانِ
فَصَّلَتْهَا آياتُ ذِكْرٍ حكيمٍ ... من كلامِ الْمُهَيْمِنِ الرحمنِ
خَيْرِ دَاعٍ إلى الْهُدَى بَيَّنَتْهُ ... للبرايا شرائعُ القرآنِ
إنه من لَدُنْ حكيمٍ عليمٍ ... جاء حَقًّا بمعجزاتِ البيانِ
حَضَنَتْهُ عَيْنُ العنايةِ حتى ... لم تُبَدِّلْ حرفاً يَدُ الإنسانِ
أَبَدَ الدهرِ سوف يبقى كريماً ... حُجَّةَ الْمُهْتَدِينَ طول الزمانِ

موسى عليه السلام

بَدَّلَ العابثون تَوْرَاةَ موسى ... وتَمَادَوْا في الظُّلْمِ والعدوانِ
غَضِبَ اللهُ والكليم عليهم ... حيث باؤوا بالخِزْيِ والخُسرانِ

المسيح عليه السلام

وَبِسِفْرِ المسيحِ إنجيلِ عيسى ... حَرَّفَ المفترون آيَ البيانِ
غَيَّرَ الإفْكُ حُجَّةَ الحقِّ مكراً ... وَتَعَدَّى جهلاً على الأديانِ
وَيْحَ يوم الأحزابِ عهد النصارى ... إذ أَحَسَّ المسيحُ بالعدوانِ

---

(١) وصف الشبح بأنه أشمط وهذا غريب لأن الأشمط هو الذى اختلط شعره بياضا وسواداً .

يوم قال المسيحُ : مَنْ أنصارى ؟ وَهْوَ يدعو للرُّشْدِ والإيمانِ
دَبَّرَ الآثمونَ كَيْداً ولكن أَحْبطَ الله فِتْنةَ الشيطانِ
كان صَلْبُ المسيح من قوم موسى ليس إلا ضَرْباً من الْهَذَيانِ
ضَلَّ كَيْدُ اليهودِ إذ سوف تمحو آيةُ الحقِّ ظُلْمَةَ الْبُهْتانِ
صَوَّرَ اللهُ للمسيح شبيهاً حين قاموا بِعَرْضِهِ للعَيانِ
هكذا يُطْهَرُ النضارُ ليصفو وبهذا تمت له آيتانِ
أرضُ كونى على المسيح حراماً فهو سِرٌّ من الْعُلاَ الرَّبَّانى (١)
سوف يرقى إلى السموات حَيًّا جسداً فيه سبح الأطهرانِ
رَفَعَ اللهُ رحمةً منه عيسى قَبَسَ النورِ فى عيونِ الزمانِ
بعد رَفْعِ المسيح ضَلَّتْ يهودٌ كلُّ حِزْبٍ بَدَا لهم فى بيانِ
وَتَفَشَّتْ فَوْضَى أَدارَتْ رَحَاهَا فِتْنَةُ العابثينَ بالأديانِ
خَيَّمَتْ ظُلْمَةٌ تَحَجَّبَ فيها من سَنَا الرُّشْدِ وَالْهُدَى كوكبانِ (٢)
ظَلَّ ديجورُها الْمُضَلِّلُ حِيناً فى سَعيرٍ مُؤَجَّجِ النِّيرانِ
خَبْطَ عَشْواءَ يضربُ الناسُ فيه بين حالِ الوَسْنَانِ واليقظانِ
إنَّ كَيْدَ الشيطانِ كان ضعيفاً وهو يدعو للشرِّ والعصيانِ
يوقع الناسَ خادِعاً وكَذوباً فى شِباكٍ من مُغْرِياتِ الأمانى
يدفعُ النفسَ لِلفُجُورِ فَتَشْقَى والمَلَذَّاتُ طُعْمَةُ النِّيرانِ

محمد عليه السلام

ما انقضتْ فَتْرَةُ التَّخَبُّطِ حتى أعلن الصُّبْحُ دَعْوَةَ الإيمانِ
وَتَبَدَّى نورُ اليقينِ بأفقٍ صَدَعَتْهُ زلازلُ الْهَذَيانِ

---

(١) بضمة على الضاد فى أرض لأنها منادى .
(٢) يريد بالكوكبين موسى وعيسى عليهما السلام .

وَتجلّتْ شمسُ الهِداية لمّا ... أرسَلَتْهَا مَشِيئةُ الرحمنِ
بَيِّناتٌ منَ الهدَى فصّلتها ... مُحكماتُ الآياتِ فى الفرقانِ
ساقها الرّوحُ للأمين ليبني ... ما تداعى من طاهرِ البنيانِ (١)
فاض بالذِّكرِ صدرُ أحمدَ نوراً ... سيِّدِ الخلقِ صفوةِ الإنسانِ (٢)
خاتَمِ الأنبياء خيرِ بشير ... حصنته الآلاء بالقــرآنِ
كان يدعو إلى الهدَى فى خشوعٍ ... طاهرَ النفسِ صادقَ الإيمانِ
أنفقَ العمرَ فى الجهادِ لتعلو ... دعوةُ الحقِّ غفلةَ البُطلانِ
فَأحلَّ الدِّينَ الحنيفَ مقاماً ... كان مجدَ الأجيالِ والأزمانِ

الإســـلام

إنَّ دِينَ الإسلام ذخرٌ سيبقى ... أبدَ الدهرِ ثابتَ الأركانِ
أنزلَتْهُ السماء للناسِ نوراً ... قد قضَتْهُ إرادةُ الدّيّانِ
يُرشدُ النفسَ أينَ تبنِي ليبقى ... ما أقامَتْهُ خالدَ البُنيانِ

القرآن

دعوةُ الحقِّ فى كتابٍ كريمٍ ... أعجزَ الخلقَ ما حوَى من بيانِ
سيَّرتْ آيةُ الجبالِ وأحيَتْ ... سَمعَ مَنْ ماتَ من بنى الإنسانِ
لفظُهُ مُحكمٌ غنيٌّ فصيحٌ ... عربيُّ المبنى جزيلُ المعانى (٣)
فاض مجداً بلاغةً وتسامَى ... فى جلالٍ له انحنَى الثقلانِ
إنه من لَدُنْ حكيمٍ عليمٍ ... معجز الرأى حجةٌ فى البيانِ
لم يُبدَّلْ من آيهِ أيُّ حرفٍ ... هكذا شاءَ فاطرُ الإنسانِ

---

(١) يريد بالروح هنا جبريل ، وأما الأمين فهو محمد صلى الله عليه وسلم وهو فى البيت التالى أحمد .
(٢) سيد في محل جر على أنها بدل من أحمد وكذلك صفوة فى البيت نفسه ، وخاتم وخير فى البيت التالى .
(٣) المبنى : الفاظ .

رَاقَبَتْهُ عَيْنُ العنَايةِ حِفْظاً ... وأنارتْ به فؤاد الزمانِ [1]
هو باقٍ كما تنزَّلَ حتى ... يُبْعَثَ الخلقُ للمصير الثانى
لم يُغَادِرْ من الشرائع شيئاً ... وَهْوَ سِرُّ الرُّقِيِّ والعُمرانِ
جاء نوراً للعالَمِينَ سلاماً ... مُنْقِذاً من حَمَاقَةِ الطُّغْيَانِ
ناسِخاً قَبْلَهُ لتوراةِ موسى ... ولِسِفْرِ المسيح بعد زمانِ [2]
مُعْلِناً للضِّيَاءِ دعوةَ صُبْحٍ ... أَشْرَقَتْ شَمْسُهُ على الأكوانِ
كان نِبْرَاسُهُ عَلَى الأُفْقِ طَهَ ... مُرْسِلاً نُورَ دعوةِ الإيمانِ
خيرَ دَاعٍ إلى الهُدَى أَرْسَلَتْهُ ... رحمةُ الواحدِ العظيمِ الحَنَانِ

الإسراء والمعراج

صَفْوَةُ الأنبياءِ بَدْرُ قُرَيْشٍ ... أَحْمَدُ المُصطفَى رفيعُ الشَّانِ
وعليه صَلَّى الإِلَهُ فَأَكْرِمْ ... بحبيبِ العُلاَ وَحِيدِ الزمانِ
هاشميٌّ أَسْرَى به الحقُّ لَيْلاً ... وبمرْآهُ كَبَّرَ المسجدانِ
بين حَفْلٍ من الملائكِ صَلَّى ... فى جلالٍ من نِعْمَةِ الرضوانِ
سِدْرَةُ المُنْتَهَى وقد كان منها ... قَابَ قَوْسَيْنِ سارعتْ لاحتضانِ
خُطْوَةٌ نالها شفيعُ البَرَايَا ... لم ينَلْهَا من النَّبِيِّينَ ثَانِ
أَعْرَقُ الخَلْقِ رُتْبَةً ومُقَاماً ... خيرُ نَفْسٍ ما شَاغَلَتْهَا الأمانى
جَوْهَرٌ خالِصٌ يتيمٌ نَقِيٌّ ... فاض لألاؤُهُ على الأكوانِ
خُلِقَتْ رُوحُهُ الشريفةُ نوراً ... قبل خَلْقِ المرِّيخِ والميزانِ
مَنْ كَطَهَ صَلَّتْ عليه البرايا ... أَيَّدَتْهُ السماءُ بالقرآنِ

---

(١) لايزال الشاعر يشير إلى القرآن وكيف أن عين الله تراقبه وتحفظه وتنير به قلب الزمن ليهتدى .

(٢) نسخ القرآن الكريم ما نزل قبله من الكتب السماوية ، والنسخ هنا التغيير والإلغاء ، والنسخ فى القرآن قد يكون معنى وقد يكون لفظاً وقد يكون معنى ولفظاً والأخير لم يقع بعد تدوين كتاب الله .

عن شديدِ القُوَى تلقَّنَ عِلْمًا أكبرته مدارِكُ العرفانِ [1]
خصَّهُ اللهُ بالرِّضَى واجْتَبَاهُ وحَبَاهُ فصاحةَ التِّبْيَانِ
جاء للناسِ منقذاً من عذابٍ كان هولاً لو حلَّ بالأبدانِ

جهاد الرسول عليه السلام

ظلَّ يهْدِي إلى صراطٍ سويٍّ ويُعَانِي من الأذى مايُعانى
جاهدَ المُشْرِكِينَ حتى هداهُمْ وأُبِيدتْ عِبَادَةُ الأوثانِ
فوق أنقاضِ جهْلِهِمْ كان يبنى فى ثباتٍ دعائمَ الإيمانِ
بين صَحْبٍ مُصَدِّقِينَ كرامٍ جاهدوا مخلصينَ للرحمنِ
حاربوا الكُفْرَ والضلالةَ حتى طهَّرُوا الأرضَ من أذى الكُهَّانِ
وتجلَّى الدِّينُ الحنيفُ وعمَّتْ شمْسُهُ الأرضَ فازْدَهى المَشْرِقَانِ
سبَّحَ الكونُ ربَّهُ فى خُشُوعٍ وخضوعٍ وكبَّرَ النَّيِّرَانِ [2]
وتسامتْ كنفحةِ المِسْكِ تَسْرِى صلواتٌ تزكو بكلِّ لسانِ
حاملاتٍ إلى النبيِّ سلاماً لم يُكَرَّمْ به رسولٌ ثانِ
كبِّرِى يا بُدُورُ من كلِّ بُرْجٍ وأُبعثى النورَ مُشْرِقاً بالأمانى
نعمةُ اللهِ يابْنِ حواء تمَّتْ فتزوَّدْ من حِكْمَةِ القرآنِ

ظلم ابن حواء

يا ابْنَ حواءَ أنت غِرٌّ خصيمٌ وجمالُ الدنيا متاعٌ فانِ
ساقكَ الطَّيْشُ فانطلقتَ جهولاً لم تُفَكِّرْ فى واجبِ الإنسانِ
فتهالكْتَ فى اقتناصِ الملاهى مُسْتَفِزًّا شراهةَ الحيوانِ
تستحِلُّ الحرامَ غيرَ مُبالٍ بعوادِى تقلُّباتِ الزمانِ

---

(١) كان الرسول يتلقى العلم الشريف من جبريل ويوصف بأنه شديد القوى .
(٢) النيران : الشمس والقمر .

وَتُبِيحُ الفُجُورَ نَشْوَانَ تَهْوِى ... فى دَياجى الفســادِ والعِصيانِ
وكأنَّ الشيطانَ غَاوِيكَ أَلْقَى ... بين عينيك خَــلَّةَ النِّسْيَانِ
فاستبقْتَ الْخُطَى تَجُوبُ ظلاماً ... فيــه قَادَتْكَ لَذَّةُ النَّشْــوَانِ
طائرَ اللُّبِّ سابحاً فى خيالٍ ... عن مَخَازِيكَ مُغْمَضَ الأجفانِ
أَحْمَقٌ أَرْعَنٌ شَــقِيٌّ ظَلُومٌ ... دُنْيَوِىُّ الْهَوَى كَذُوبُ الأمانى
لم تُفَــكِّرْ فى غير لَهْوِكَ يوماً ... بين خمرٍ وبين غِيدٍ حِسَانِ
وَلَيَالٍ سَبَتْكَ فيها عيونٌ ... خادعاتٌ بسحرها الفتَّانِ
قد أَعَدَّ الشيطان فيها شِبَاكاً ... مُحْكَمَاتٍ من كَيْدِهِ الْخَوَّانِ
سلبتك النهى فقادك أعمى ... فى طريقٍ مُهَدَّمِ البُنْيَانِ
زَيَّنَتْهُ للغافلين المَلاَهِى ... وأحاطتــه خادعاتُ الأمانى
مُغْرِيَاتُ الأهواءِ تلعبُ دَوْراً ... كَادَ فيه الشيطانُ للإنســانِ

قصر الحياة والأمل

أيها الغافلُ الْجَهُولُ تَنَبَّــهْ ... وَتَيَقَّظْ من غَفْلَةِ الْوَسْــنَانِ
سِــنَةٌ كلُّها حياتُكَ معها ... طال عهدُ اتِّصَالِهــا بالزمانِ(١)
أيهــا الأحمق الظَّــلُومُ تَدَبَّرْ ... وَاْكْبَحِ النفسَ عن هَوَى العِصيانِ
كلُّ شَىْءٍ تَصْبُو إليه خيــالٌ ... وَسِــنِىُّ الأفراحِ فيه ثَوَانِ(٢)
أيها الجاحدُ الــكنودُ تَذَكَّرْ ... كيف سَوَّاكَ خالقُ الأكوانِ
دَعْ مَلاَهِيكَ ساعةً وَتَفَــكَّرْ ... فى جَــلاَلِ الْمُهَيْمِنِ الرحمنِ(٣)
أَيْنَ منه المَفَرُّ وَهْوَ مُحِيــطٌ ... بالبرايا جمعـــاءَ فى كلِّ آنِ
حاضرٌ شَاهِدٌ سميعٌ بصـــيرٌ ... مانَــأَى فَيْضُ نورِهِ عن مكانِ

(١) سنة : نوم . (٢) سنى الأفراح : سنوات .
(٣) المهيمن : الله المسيطر على كل شيء .

يقظة القلب

أينما كنت فالإلهُ قريبٌ ... عَالِمٌ سِرَّ مَا انْطَوَى فى الجَنَانِ
كلُّ جِسْمٍ يَنَامُ إلا شهيداً ... يَذْكُرُ اللهَ خافقاً بِلِسَانِ
إنه القلبُ يا ابْنَ آدمَ فاعجبْ ... لِمَلاكٍ قد حَلَّ فى شَيطَانِ
صِلَةُ النُّورِ بين عَبْدٍ وَرَبٍّ ... نِعْمَةٌ سَاقَهَا عظيمُ الحَنَانِ
لم تَغِبْ لحظةً عن الذِّكْرِ نَجْوَى ... أَصْغَرَيْهِ ، فؤادِهِ وَاللِّسَانِ(١)

تسبيح الخلائق

كلُّ شَيْءٍ مَشَى على الأرضِ حَيًّا ... أو نَمَا فى مراتبِ الحيوانِ
أُمَمٌ أَوْدَعَ المُهَيْمِنُ فيها ... مُلْهَمَاتٍ من فَيْضِهِ الرَّبَّانِى
شَاكِرَاتٍ لِأَنْعُمِ اللهِ دَوْماً ... ذَاكِرَاتٍ آلاءَهُ كلَّ آنِ
أَلْسُنٌ سَبَّحَتْ بِذِكْرِ إلهٍ ... خالقٍ رازقٍ عظيمِ الحَنَانِ
تلك شَتَّى عَوَالِمِ الأرضِ إلا ... عَالَمَ الظُّلْمِ عَالَمَ الإنسانِ
نَسِيَ اللهَ وهو نَشْوَانُ يَلْهُو ... بين كأسِ الطِّلَا وَدَلِّ الغَوَانِى
فَتَنَتْهُ الدنيا وَأَلْهَاهُ غَاوٍ ... أَبْعَدَ الرُّشْدَ عن مَدَى العِرفانِ
زَيَّنَ الفِسْقَ والفجورَ وَأَمْلَى ... كلَّ كَيْدٍ يدعو إلى العِصيانِ
هَيَّأَ النفسَ لارتكابِ المعاصى ... فاستباحتْ رَذِيلَةَ العُدْوَانِ
مَنْ أطاعَ الشيطانَ لا بُدَّ يَلْقَى ... فى الحياتَيْنِ زَفْرَةَ النَّدْمانِ
تَتَقَضَّى دُنْيَاهُ يوماً فيوماً ... بين حالِ الوَسنانِ واليقظانِ
زُخْرُفٌ خادِعٌ وَصَفْوٌ كَذُوب ... وَمَتَاعٌ مهما تَفَاخَرَ فانِ
مُشْرِقَاتٌ أَعَارَهَا الوَهْمُ ثَوْباً ... من جمالٍ طِلاؤه من دُخَانِ

---

(١) قيل فى المثل : المرء بأصغريه ، قلبه ولسانه .

مَرَّ طَيْفاً كلَمْحَةِ الْبَرْقِ يَسْرِى ... فى قُرُونٍ مرَّتْ كَمَرِّ الثوانى
إنه العمــرُ يا ابْنَ آدم مهما ... طال يُقْضَى فى غَفْوَةِ الوَسنانِ
يُخْتَمُ العمرُ بالردى وهو كأسٌ ... لم تُغَيِّبْ عن وِرْدِهَا شَفَتَانِ
فإذا حُمَّ لا مَرَدَّ لأَمْــرٍ ... قد قَضَاهُ المحيطُ بالأكوانِ
خَطَّ فى اللَّوْحِ ما قَضَى للبرايا ... مِن قــديم الآبادِ والأزمانِ
يُثْبِتُ اللهُ ما يشــاء ويمحو ... وبأُمِّ الكتابِ أصلُ البيانِ
هــكذا كنتَ يا ابْنَ آدم نوراً ... قد تجَـلَّى فى الجَدْيِ والسرطانِ(١)
قُدْرَةٌ أعجزَ التَّفَكُّرُ فيهـا ... أَلْمَعَ النابهين فى العِــرفانِ
قدرةُ الواحدِ المُنَزَّهِ حَقًّــا ... عن شَبيهٍ وعن حُدودِ المكانِ
صاحبُ الأمرِ وَحْدَهُ فى وُجُودٍ ... ما به ذَرَّةٌ بغَيْرِ لِسَــانِ
تمـلأُ الأرض والسموات حمداً ... شاكِراتٍ لِأَنْعُمِ الرحمنِ
إنَّ ذِكْرَ الْإِلَهِ يُرْسِلُ نوراً ... فى قلوبٍ تفيضُ بالإيمـانِ
أَكْثَرَتْ ذِكْرَ رَبِّهَا فَاطْمَأَنَّتْ ... وَسَيَحْظَى المُطِيــعُ بالْغُفْرَانِ
يا ابْنَ حواء مَنْ رَعَاكَ جَنِيناً ... مُطْمَئِنًّا فى عُزْلَةٍ وأمانِ
وَتَوَلَّاكَ بالعنــايةِ طِفلاً ... حافظاً وافياً عظيمَ الحنــانِ
وَأَمَدَّ الشبابَ منكَ بعَزْمٍ ... قد تجَـلَّى فى نضْرَةِ الرَّيْعَانِ
وإذا ما ضَعُفْتَ أَوْلَاكَ نُعْمَى ... تَتَوَالَى بالفضلِ والإحســانِ
تلك آلاؤه وقد صِرْتَ شَيْخاً ... أَوْهَنَتْ عَظْمَهُ صُرُوفُ الزمانِ
عَمَّ فَيَّاضُ رِزْقِهِ كلَّ حَيٍّ ... ضَمَّهُ الروحُ بين قاصٍ وَدَانِ

---

(١) الجدى والسرطان : مداران فلكيان .

عالم الله

يا ٱبْنَ حواء مَنْ أَمَاتَ وَأَحْيَا ... وَٱقْتِدَاراً أحاط بالأكوانِ
يَبْعَثُ الأرضَ كلَّ عامٍ فتَحْيَا ... بعد مَوْتٍ بَهِيجَةَ الأغصانِ
تُنْبِتُ الْحَبَّ والثِّمَارَ وَتَزْهُو ... فى بِسَاطٍ مُرَصَّعِ الألوانِ
يمزج الماءَ وهو يجرى حَثِيثاً ... فى جُذوعِ النَّبَاتِ بالأدهانِ
كلُّ شَرْبٍ له مِذَاقٌ وَطَعْمٌ ... قُدْرَةٌ أعجزتْ قُوَى التِّبْيَانِ
فَيْضُ عِلْمِ الحكيمِ رَبِّ البرايا ... ما بَدَا نُورُ سِرِّهِ فى جنانِ
لم يَدَعْ ذَرَّةً عَلَى الأرضِ إلا ... ضَمَّهَا عِلْمُهُ بِأَجْلَى بيانِ
مَالِكُ المُلْكِ نَافِذُ الأمرِ فَرْدٌ ... كلَّ يومٍ سلطانُهُ فى شَانِ
خلقَ الموتَ والحياةَ لِتُجْزَى ... طَيِّبَاتُ الأعمالِ بالإحسانِ
وَيَنَالُ الْقِصَاصَ كلُّ أَثِيمٍ ... لم يُصَدِّقْ بدعوة الإيمانِ
كلُّ شَىْءٍ خَلاَ من الماءِ مَيْتٌ ... فهو سِرُّ الحياةِ للأبدانِ
أَطْلَقَ الرِّيحَ زَعْزَعاً وَرُخَاءً ... وَجَنُوباً وَشَمْأَلاً تَجْرِيَانِ
مُنْعِشَاتٍ لَوَافِحًا تتَهَادَى ... حيثُ مَالَ النسيمُ بالأغصانِ
وَهَبَ الشمسَ قُوَّةً فَأَضَاءَتْ ... فى فِجَاجَاتِ عَالَمِ الدَّوَرَانِ
تُرْسِلُ النُّورَ من بعيدٍ مَدَاهَا ... بِشُعَاعٍ يفيضُ فى الأكوانِ
يملأُ الأرضَ بهجةً وحياةً ... وَيُنَمِّى عَنَاصِرَ الأبدانِ
تلك أُمُّ الْقُوَى وما الأرضُ إلا ... جَمْعُ ذَرٍّ من جُرْمِهَا النَّيِّرَانِ
هى أُمٌّ والأرضُ للشمسِ بِنْتٌ ... وَبِسِرِّ التَّكْوِينِ تَتَّصِلاَنِ
جَذَبَتْهَا يَدُ الأُمومةِ حتى ... لم تهدد بِطَارِىءِ الْحَدَثَانِ
وهى تَهْوِى كالْبَرْقِ حتى استقرتْ ... فى نِظَامٍ لِلْجَدْىِ وَالسَّرَطَانِ

واستوتْ فى مَدَارِهَا وَهْىَ تجرى ... وعليها قد أشْـرَقَ النَّيِّرَانِ
أطْفَـأَ اللهُ سَطْحَهَا وَدحَاهَا ... وَحبَاهَا الأوتادَ من صَفْوَانِ
دارتِ الأرضُ فى اتِّزَانٍ وَأَمْنٍ ... وجمـالٍ يحُفُّهـا القمرانِ
تم للشمسِ فى السماءِ نظـامٌ ... أبْدَعَتْ سَـيْرَهُ يدُ الإتقانِ
يجْمَعُ الأرضَ فيه والبدر يجرى ... يملأُ الليلَ لألأً من جُمَانِ
عَالَمُ الشمسِ أبْدَعُ الخَلْقِ صُنْعاً ... سَخَّرَتْهُ الآلاءُ للإنسـانِ
وَلَّدَ الليلَ والنهارَ ، وَأَجْرَى الـ ... ـماءَ غَيْثاً من هَاطِلٍ هَتَّانِ
وَأَمَدَّ النَّبْتَ البهيجَ بروحٍ ... أكْسَبَتْهُ الحيـاةَ فى عُنْفُوَانِ
وأطارَ الرِّيَاحَ من كلِّ فَجٍّ ... كى يَعُمَّ الهواءُ كلَّ مكانِ
وَأَبَادَ الْوَهِيـجُ كلَّ كَرِيهٍ ... من خَبِيثِ الأدرانِ والدِّيدَانِ
طَهَّرَ الأرضَ والذى دَبَّ فيها ... وَأَمَـدَّ الحيـاةَ بالريعـانِ
لو توارتْ أشِعَّةُ الشمسِ يوماً ... كلُّ شَىْءٍ نَمَا على الأرضِ فَانِ
يا ابْنَ حواءَ كوكبُ الشمسِ عَبْدٌ ... سَـــيَّرَتْهُ إرادةُ الرحمنِ
هو يرْبُو عن كوكبِ الأرضِ جِرْماً ... فوق عَدِّ المليونَ فى الْحُسبانِ
شَقَّ جَوْفَ السماءِ كالبرقِ يجرى ... فى مَدَارٍ يَحُدُّهُ الأبْعَـدَانِ

فى قبضـة الله

يا ابْنَ حَوَّاءَ أُمُّكَ الأرضُ أَدَّتْ ... طَاعَـةَ الْعَبْدِ للنِّـدَا الرَّبَّانى
جاءت الأرضُ والسمواتُ طَوْعاً ... حين نَادَى مُسَـيِّرُ الأكوانِ
سابحات الأفلاكِ فى كلِّ بُرْجٍ ... تَذْكُرُ اللهَ خِيفَةً كلَّ آنِ
سَـيَّرَتْهَا يدُ العنـايةِ لُطفاً ... وَحَبَتْهـا بفَيْضِهَا النُّورانى
باسمِ رَبِّ السماء كالبرقِ تجرى ... كلُّ نجْمٍ يدورُ فى حسبانِ

قُدْرَةُ الخالقِ العليمِ تعَالَى كلَّ يومٍ تَدْبِيرُهُ فى شَانِ
فَلَكٌ دَائِرٌ بِأَبْهَى نظامٍ رَتَّبَتْ عِقْدَهُ يَدُ الرحمنِ
شاكِراتٌ أجرامُه فَضْلَ رَبٍّ قد حَبَاهَا بِاللُّطْفِ والإحسانِ
صانعٌ مُبْدِعٌ عليمٌ حكيمٌ مُعْجِزٌ وَصْفُهُ قُوَى العِرفانِ
حاضِرٌ شاهِدٌ سميعٌ بصيرٌ وَمُحَالٌ إدراكُهُ بالعيانِ
لم يُكَيَّفْ ولم يُشَبَّهْ بِمِثْلٍ أَبَدِيٌّ لَمَّا يَغِبْ عن مكانِ
كان فرداً ولم يكن ثَمَّ شَىْءٌ تَمَّ خَلْقاً فى عالمِ الأكوانِ
بَدَأَ الخَلْقَ والعوالمِ ذَرًّا والسموات شَادَهَا من دُخَانِ
رَافِعاً سَمْكَهَا بغيرِ عِمَادٍ جَلَّ شَأْناً وَعِزَّةً خيرُ بَانِ
زَيَّنَتْهَا كواكبٌ لاَمِعَاتٌ من شُموسٍ ومن بُدُورٍ حِسَانِ
كالدَّرَارِى تطوفُ فى كلِّ بُرْجٍ فى اتِّزَانٍ من سُرْعَةِ الدورانِ
سَارِيَاتٍ ثَوَابِتٍ مشرقاتٍ سابحاتٍ فى الحُوتِ والسَّرَطَانِ
تلك سَبْعٌ مُحَلِّقَاتٌ طِبَاقٌ قد تَقَضَّى فى صُنْعِهَا يومانِ
وإلى الأرض وهى جرداءُ قَحْلٌ أرسلَ الماءَ فالتقى البحرانِ
من أُجَاجٍ أَجْرَى فُرَاتاً معيناً من أعالى الرُّبَى إلى الوِديانِ
أَنْزَلَتْهُ من السماءِ سُيُولٌ ماطِراتٌ من سَلْسَلٍ هَتَّانِ
صَيَّرَ التُّرْبَ وهو ينسابُ طيناً كى تُسَوَّى عناصرُ الحيوانِ
وبمر الهواءِ دَبَّتْ حياةٌ حَرَّكَتْ فيه دولةَ الدِّيدَانِ
أَكْسَبَتْهَا أَشِعَّةُ الشمسِ دِفْئاً وَنُمُوًّا ونفحةً من دهانِ

الله القــادر

آيَةُ الشَّمْسِ فى الوُجُودِ حياةٌ وعلى الأرضِ آيةُ العُمْرانِ
دَبَّ فوقَ الثَّرَى عَوَالِمُ شَتَّى وَنَمَا النَّبْتُ وَارِفَ الأغصانِ

وَببطْنِ الثرَى أُعِدَّتْ كُنُوزٌ أَوْدَعَتْ ما بِهَا يَدُ الحَنَّانِ
من فُحُومٍ وَمعدِنٍ وعُيُونٍ مُفْعَمَاتٍ بالزَّيْتِ والأدهانِ
وعقاقيرَ من جواهرَ أَعْيَا فَهْمُ إدراكِهَا قُوَي الأذهانِ
حَضَّرَتْهَا يَدُ الحكيمِ لِتحْيَا سَالِمَاتٍ عَوَالِمُ الحيوانِ
خِبْرَةُ الواحدِ المحيطِ جَلاَلاً بجميعِ الأفلاكِ والأكوانِ
أَوْدَعَ الأرضَ رَحْمةً منه رِزْقاً وَحبَاهَا الأقواتَ بيضَ الأمانى
كلُّ جِسْمٍ نَمَا على الأرضِ يَحْيَا لو تَوَلَّتْهُ نُضْرَةُ الرَّيْعَانِ
وأَدِيمُ الأرضِ التى هُوَ مِنْهَا فيه تَسْرِى عناصِرُ الأبدانِ
لم يَغِبْ عنصرٌ عن الأرضِ مهما عَزَّ بُعْداً عن عَالَمِ الإمكانِ
تَمَّ للأرضِ أمْرُها حيث بَاتَتْ خَيْرَ مَهْدٍ لِدَوْلَةِ الإنسانِ
بَارَكَ اللهُ ما بها وعلَيْهَا بَاسِطُ الرِّزْقِ مُقْسِطُ الميزانِ
مَنْ كَرَبٍّ العُلَا تفرَّدَ حُكماً لم يَغِبْ نور ذَاتِهِ عن مكانِ
بين حَرْفَيْنِ كلما شاءَ يقضى وله النَّجْمُ والثَّرَى يَسْجُدانِ (١)
كلُّ حَيٍّ قد ضَمَّهُ الرُّوحُ عَبْدٌ فى نِظَامِ المَلَكُوتِ للرحمنِ
صَاحِبِ الطَّوْلِ فى جَلاَلٍ ومُلْكٍ أزَلِيٍّ مُهَيْمِنٍ صَمَدَانِي
لم يُشَبَّهْ ولم يُمَاثِلْهُ شيء مَالِكُ المُلك لم يشاركه ثَانِ
مُطْلَقُ الحكم لامَرَدَّ لِامْرٍ من لَدُنْهُ جرَى به حَرفَانِ
أمْرُهُ الأَمْرُ بين كَافٍ ونُونٍ قَدَرٌ نَافِذٌ بغير تَوَانِ
إنه من لَدُنْ حكيمٍ خبيرٍ وَاحِدُ الطَّوْلِ فى قُوَى السُّلْطَانِ
وَاهِبُ النورِ للذين اتَّقَوْهُ ومُحِيطٌ بالجهْرِ والكِتْمَانِ
قاهِرٌ قادِرٌ على كلِّ شَيْءٍ وَاسِعُ العفو لم يُعَجِّلْ بجانِ

---

(١) الحرفان هما الكاف والنون فى « كن » .

كلُّ هذا فى اللّوح بادِئ بَدْء قبل ضَمٍّ للأرواح لِلْجِسْمانِ
سَجَّلَتْهُ يَدُ القضاء نفاذًا لم يُؤَخَّرْ عن المَدَى والمكانِ
لم يغادِرْ نَفْساً على الأرضِ إلا ضَمَّ أطْوارَها دقيقُ البيانِ
سُنَّةُ الخالِقِ العظيمِ تجلَّتْ كلَّ يومٍ أقْدارُهُ فى شانِ
لو أُجاجُ البحارِ صارَ مِدادًا وَأَمَدَّ البحارَ سَبْعٌ دَوانِ
نَفِدَ الماء قبل أن تتقضَّى كلماتُ المحيطِ ربِّ البيانِ[1]
فَيْضُ بِرٍّ على الخلائقِ أَسْدَى سابغاتٍ من غَيْثِهِ الهتّانِ
نِعْمَةُ اللهِ لا تُعَدُّ وحاشا أن تنالَ الإحصاء فى الْحُسْبَانِ
مُنْعِمٌ يَمْنَحُ البرايا جميعاً طَيِّباتِ الحياةِ للعُمْرانِ
رازقٌ مُحْسِنٌ رؤوفٌ رحيمٌ كلُّ شَيْء لَدَيْهِ طَوْع البَنَانِ
كلُّ مَنْ فى الوجودِ من كائناتٍ يتبارَى فى الْحَمْدِ والشُّكرانِ

يوم البعث والوعيد

صَيْحَةُ الْقَهْرِ تجعلُ الْوُلْدَ شِيباً وَتَغيضُ الْجنينَ قبل الأوانِ
وَتَهُدُّ القلوبَ ذُعْراً وَهَوْلاً وَبَريقُ الأبصارِ فى لَمَعَانِ
مَوْقِفٌ يُورِثُ الذُّهُولَ عَسِيرٌ مَلأَ الرُّعْبُ فيه كلَّ مكانِ
زائغاتٌ فيه النواظرُ حَيْرَى وسيولُ الرُّحْضاء كالطُّوفانِ[2]
ليس للظالمين فيه نصيرٌ أو مُجِيرٌ من أَلْسُنِ النّيرانِ
لا فِداء من كَرْبِهِ أو شفيعٌ يَدْرَأُ الْوَيْلَ وهو رَأْيُ العِيانِ
خَشَعَ الصوتُ غُصَّةً فهو هَمْسٌ ومشى الخوفُ بين إِنْسٍ وَجانِ
وانكساراً فى ذِلَّةِ العبدِ أَضْحَى كلُّ فَرْدٍ فى حَضْرَةِ السلطان

---

(١) يريد نفد بكسر الفاء وهو يعرض للآية الكريمة « قل لو كان البحر . . . » .
(٢) الرحضاء بضم الراء وفتح الحاء : وهى عرق الحمى وقد سكن الحاء ضرورة .

مَلِكٌ قَادِرٌ قَوِيٌّ عَــزِيزٌ نَافِذُ الأمرِ وَاهِبُ الغُفْرانِ
هَيْبَةٌ تَرْجُفُ العوالم منهــا وجـلالٌ أحاطَ بالأكوان
واقتـدارٌ أَطَاعَهُ كلُّ حَيٍّ ونفوذٌ يقضى بغيرِ تَوَانٍ
حُـكْمُهُ الْحُـكْمُ لايُبَدَّلُ لَفْظٌ سَجَّلَتْهُ مهما نَـأَى الشَّفَتَانِ
ذَرُّهُ يمـلأُ الهـواءَ وجوداً وَصَـدَاهُ يَجُوبُ كلَّ مكان
أَبَدَ الدهرِ لَفْظُهُ سوف يَحْيَا ليزكِّى ما سَــطَّرَ الـكاتبانِ
أَيْنَ منه المَفَرُّ وهو شــهيدٌ سوف يُدْلِي بما جَنَتْهُ اليدَانِ
حَلَّقَتْ رَهْبَةٌ وَسَادَ خُشُــوعٌ واستطارتْ بَوَاعِثُ النِّسْيَانِ
وَتَلَقَّتْ أعمالَهَا كلُّ نَفْسٍ بين خوفٍ ورجفةٍ وهَوانِ
إن هـذا يومُ الوعيد وهَذِى ســاعةُ الفصلِ أيهــا الثقلانِ
يَاغَتَتْـكُمْ مِصْدَاقَ قَوْلِ حكيمٍ جاء حَقًّا فى مُحْـكَمَاتِ البيانِ
كلُّ مَنْ أَنْـكَرَ القِيامَةَ كِبْراً وَجُحُوداً هَوَى إلى النِّيرَانِ
بِئْسَ مَثْوَاهُ فى الجحيمِ وَعَدْلاً سوف يَلْقَى عواقبَ الـكُفْرَانِ
وَسَيَصْلَى السَّعِيرَ فى أصفـادٍ أَثْقَلَتْهَا الأغــلالُ للأذقانِ
دَرَكَاتٌ سَبْعٌ طِبَاقُ عذابٍ من جحيمٍ وَهَّاجَةٍ الأركانِ
سَارِيَاتُ السُّمُومِ تنسابُ فيها وَسُيولُ الْحَمِيمِ فى غَلَيَــانِ
يوم يُدْعَى : هل امتلأتِ؟ وتدعو : رَبِّ زِدْنِى من طُعْمَةِ الإنسانِ.!
مَنْ كَرَبِّ الْعُلاَ يُدِيرُ نظاماً يَشْمَلُ الْـكَوْنَ بين قَاصٍ وَدَانِ
مَلِكٌ عَرْشُهُ السمواتُ والأر ضُ رَقِيبٌ عَلَى الْوَرَى كلَّ آنِ
حَوْلَ أرجائِهِ المَلاَئِكُ صُفَّتْ هم جُنُودُ الْمُهَيْمِنِ الرحمنِ
رُكَّعاً سُجَّداً قِياماً قُعُوداً كلُّ سِرْبٍ مُسَبِّحٌ بِلِسَانِ
ذِكْرُهُ يملأُ الوجودَ جلالاً أَزَلِيٌّ مُطَمْئِنٌ لِلْجَنَــانِ

سَبَّحَ اللهَ كلُّ شَيْءٍ لِتَبْقَى ... فى دوامٍ فريضةُ الشُّكرانِ
جَلَّ شأْنُ القديرِ رَبِّ البرايا ... خير هادٍ لِنِعْمَةِ الإيمانِ
وَارِث الأرضِ والسماءِ جميعاً ... يوم نَادَى القضاءُ آنَ أوَانى
قَوْلُهُ الحقُّ إذ يقول اْخشونى ... ولمن خاف نِقْمَتِى جَنَّتَانِ
يا اْبْنَ حَوَّاءَ يا صَرِيعَ المَلاَهِى ... يا مُجيباً لدعوةِ الشيطانِ
يا جَهُولاً حَمَّلْتَ نَفْسَكَ إثماً ... بِاتِّبَاعِ الْهَوَى وَخَدْعِ الأمانى
وَسَبَتْكَ الدنيا وَغَرَّكَ منها ... ما تبدَّى من زُخْرُفٍ فتَّانِ
قَادَكَ الْحُمْقُ للضلالةِ أَعْمَى ... فتَدَهْوَرْتَ فى مهاوِى الهَوَانِ
وتفَانَيْتَ فى المَلَذَّاتِ حتَّى ... ساقَكَ الطَّيْشُ للطِّلا والغوانى
فتهالكتَ فى ارتكاب المعاصِى ... خالِىَ البالِ من صُروفِ الزمانِ
تَسْهَرُ الليلَ فى سرورٍ وأُنْسٍ ... بين كأس وقينَةٍ وأغانى
مُشْبِعاً ياظلومُ مطْمَعَ نَفْس ... أَشْعَلَتْ نارهَا وعُودُ الأمانَى
زَيَّنَ الشَّرُّ حَوْلَهَا كلَّ شَيْءٍ ... فتمادَتْ فى اللَّهْوِ والعصيانِ
لا تَرَى النُّورَ إذ تَحَجَّبَ عَنْهَا ... وهى تهوِى فى ظُلْمَةِ الطُّغْيَانِ
إنهـا النفسُ يا اْبنَ آدمَ فَانظرْ ... كيف باتت فريسةَ الشيطانِ
ما دعاها إلى الغواية إلا ... سِرُّ إعراضِها عن الإيمانِ
ياأبنَ حواءَ إنما العيشُ نومٌ ... كلُّ شَيْءٍ يبدو لعينيك فَانِ
وَتَمَادِيكَ فى غُرُورِكَ جَهْلٌ ... فتيَقَّظْ من غَفْلَةِ الوَسْنَانِ
واخْشَ عَيْنَ الرَّقيبِ فَهْوَ شَهِيدٌ ... ليس يَخْفَى عليه سِرٌّ لِجَانِى
أيْنَمَا كنتَ ياأبنَ آدمَ فاعلمْ ... أنَّ رَبَّ الوُجُودِ نُورُ المكانِ
لو حَوَتْكَ الجوْزاءُ أو أعماقٌ ... من بُطُونِ الثَّرَى أو القُطْبَانِ
أو تَسَتَّرْتَ تحت لُجٍّ خِضَمٍّ ... فى كُهُوفِ الأصدافِ والحِيتَانِ
يا سَلِيلَ التُّرابِ أنتَ ضعيفٌ ... كُنْ مع اللهِ تَحْظَ بالغفْرَانِ

عظـــة

أيُّهـا النَّاسُ إن هـذا بيـانٌ | فَصَّلَتْهُ شرائِعُ الإيمـــانِ
أرْسَلَتْهُ للعـــالمين سلاماً | رحمةُ الواحدِ العظيمِ الحَنَانِ
فى كتـابٍ آياتُهُ مُحْكَمَاتٌ | من كلامِ المُهَيْمِنِ الرحمنِ
جاء هَـدْياً مُبَشِّراً ونَذيراً | صادقَ الوَعْدِ وَاضِحَ التِّبْيَانِ
يجعل العُرْفَ للعبـادِ شِعـاراً | وَيُوَصِّى بِالعَدْلِ والإحسانِ (١)
وعن البَغْىِ والفواحشِ ينهَى | كى تقَوَّى دعـائِمُ العُمْرَانِ
وَبِنَـارِ الجحيمِ جاء نَذيراً | وَبَشِـيراً بخـالدات الجِنَـانِ
إنه الحقُّ من عليمٍ حكيمٍ | قد أَعَزَّ الإسلامَ بالقرآنِ
كَـنْزُ عِـــلْمٍ آياتُه بَيِّنَاتٌ | فاض نوراً بِسَـامِيَاتِ البيـانِ
زَاخِرٌ بالْهُدَى كتابٌ مُنِيرٌ | عربىٌّ المَبْنَى جزيلُ المعـانى
أنزَلَتْهُ السماءُ للناسِ بُشْـرَى | حين شـاءت إرادةُ الرحمنِ
أن يَبِيدَ الدِّينُ الحنيفُ ضَلاَلاً | ولَّدَتْهُ عِبـادَةُ الأوْثانِ (٢)
لَقِّنَ الْوَحْىَ آيَةً لِنَـبِىٍّ | عَزَّ قَدْراً عَنْ سائرِ الإنسانِ
خَيْرُ رُوحٍ حَلَّتْ بِأَشْرَفِ جِسْمٍ | عَبقَرِىِّ النُّهَى عظيمِ الْجَنَـانِ
هَلَّلَ الـكَوْنُ إذْ تَـلأْلأَ فيـهِ | نُورُ طَـهَ وكَبَّرَ المَشْرِقَانِ
خَاتَمُ الْمُرْسَلِينَ خَيْرُ حَنِيفٍ | رَفَعَ الدِّينَ فَوْقَ هَامِ الزَّمانِ
أَحْمَدُ الْمُصْطَفَى عليـهِ يُصَـلِّى | كلُّ حَىٍّ فى عالَمِ الأكوانِ
جاءَهُ الْوَحْىُ بالرِّسـالَةِ لمـاَّ | حَرَّفَ الْمُفْسِدُونَ فى الأَدْيانِ
وعَلَى الناسِ نِعْمَةُ اللهِ تَمَّتْ | حين وَافَى الأمينُ بالفُرْقَانِ
إنَّ دِينَ الإسلامِ خَيْرُ صِرَاطٍ | يُرْشِدُ النَّفْسَ للمصيرِ الثـانى

---

(١) العرف : المعروف .   (٢) الـكلام متصل بين البيتين .

أيها الناسُ خالِفُوا غيَّ نفسٍ شاغَلَتْها وَساوسُ الشَّيْطانِ
طَهِّرُوهـا مِنَ الرَّذِيلةِ حتى تُنْقِذُوها من ثَوْرَةِ العِصْيانِ
حارِبُوهَا بالطَّيِّبـاتِ عَساهَا تَتَوارَى عن مُغْرِياتِ الأماني
حَذِّروها عَيْنَ الرَّقيب لـكَيْ ما تَذْكُر اللهَ خِيفةً كلَّ آنِ
عَوِّدُوها على الفضيـلةِ حتى تَتَحَلَّى بالسَّابِقـاتِ الحِسـانِ
أَلْبِسُوها من طاعـةِ اللهِ نوراً فيـــه تَبْقَى سعيدةً في أمانِ
زَوِّدُوهَا التَّقْوَى فإنَّ جَنـاهَا خَيْرُ زادٍ للمَنْهَلِ النَّفْسانى
ذَكِّرُوهَا أنَّ الحِسابَ عَسِيرٌ لو تَمادَتْ فى اللَّهْوِ والعِصْيانِ
وجمالُ الدُّنيـا الذى يَسْتَبِيهـا يَتَـلاشَى مهما بَدَا كالدُّخانِ
سنواتُ الأعمـار تجرى سِراعاً كمَنَامٍ يمرُّ مَرَّ الثـــوانى
ساخِراتٌ أيامهـا من ظَـلُومٍ لم يُفَكِّرْ فى يَقْظَـةِ النَّدْمانِ
ضاحِكاتٌ والمُغرِياتُ تُنـادِى ماصَفَا الدَّهْرُ نِصْفَ يومٍ لِهانى
كل عُمْرٍ مهما تَراءَى طويلاً كان حُلْماً فى جَوْلَةِ الوَسْنـانِ
مَحْـوةٌ أيقَـظَ الحقيقةَ منهـا مَلَكُ المَوْتِ فى حُـلُولِ الأوانِ
دَمْعَ النَّفْسَ حين حُمَّ قَضَـاءٌ وهى تَهْوِى فى ظُلْمَةِ الطُّغْيانِ
خَلَّفَ الجِسْمَ فى سُكونٍ وَرَهْبٍ وطَوَاهُ فى وَحْشَةِ الأكفانِ
وإلى الرَّمْسِ حيث وَاراهُ تُرْبٌ فيه أَمْسَى فَريسةَ الدِّيدانِ
ساخِـرات يَدُ البِـلَى فى عِظامٍ حَوَّلَتْها ذَرًّا يَدُ الحَدَثانِ
حِكْمةُ الموتِ فى الوجودِ انْتِقالٌ كلُّ جِسْمٍ يَضُمُّهُ عالَمـانِ
عالَمُ الظُّلْمَـةِ القصيرُ مـداهُ وخلودٌ فى العـالَمِ النُّورانى
أيهـا الناسُ للبقاءِ خُلِقْتُمْ ومقام الخـلودُ ليس بِفَـانِ
كلُّ جِسْمٍ بَعْدَ البِلَى سوفَ يَحْيَا يَوْمَ عَرْضِ الصِّراطِ والمِيزانِ

وَتُوَفَّى ما قَدَّمَتْ كلُّ نَفْسٍ بين خوفٍ ورِجْفَةٍ وأمَانِ
حَصْحَصَ الْحَقُّ والموازينُ قِسْطٌ والمَخَازِى تمثَّلَتْ للعيانِ
وعُيُونُ الجحيمِ من كل فَجٍّ مُرْسِلاَتٌ لَوَامِعَ النِّيرانِ
فى زَفِيرٍ كَقَاصِفِ الرَّعْدِ يجْرِى فى دَوِىٍّ يَرُوعُ كلَّ جَنَانِ
لَهَبٌ يخطف النَّوَاظِرَ رُعْباً وأزِيزٌ يَجُوبُ كلَّ مكانِ
حوْلَ حَشْدٍ تَكَدَّسَ الْخَلْقُ فيهِ كالفَرَاشِ المَبْثُوثِ فى القِيعانِ
وسيُولُ الرُّحْضاء تَنْسَابُ مُهْلاً كَحَمِيمِ السَّعِيرِ فى غَلَيَانِ
وقْدَةُ الْحَشْرِ ضَاعَفَتْ كلَّ كَرْبٍ مَرّ بالقَلْبِ والنُّهَى واللِّسَانِ
هذهِ الساعةُ التى قد وُعِدْتُمْ صَدَقَ الوَعْدُ أيها الثَّقَلاَنِ
مَوْقِفٌ لِلْحِسَابِ لاَ رَيْبَ فيهِ لم يُغَيَّبْ عن حَشْدِهِ أصْغَرَانِ
كم أفاضَ التنزيلُ عنه بَيَاناً وَاعدَ المؤمنين خُلْدَ الْجِنَانِ
أَيُّهَا الناسُ مَنْ رَعَاكُمْ حَلِيماً وَحَبَاكُمْ بالعفْوِ والإحْسَانِ
وأفاضَت أيديه أكْبَرَ نُعْمَى شَمِلَتْكُمْ فى رَحْمَةٍ وحَنَانِ
غيْرُ نُورِ الوجودِ رَبِّ البَرَايا خالِقِ الْخَلْقِ فاطِرِ الأكْوانِ
بَاعِثِ العالمين فى مَلَكوتٍ وحدَه فيه صاحبُ السُّلْطانِ
مِنْ رُفاتٍ تَكَدَّسَتْ فى قبورٍ أوْرَثَتْهَا الْبِلَى يَدُ الْحِدْثَانِ
ناشِطاتٍ تقومُ بَعْدَ رُقُودٍ كان يَطْوِى الأحْقَابَ فى الأكْفانِ
كجَرَادٍ يَفِرُّ من أجْداثٍ يملأُ الْبِيدَ بين قاصٍ ودَانِ
ضاقتِ الأرضُ عن جموعِ سُيُولٍ سَابِحَاتٍ فى لُجَّةِ النَّدْمَانِ
كَشَفَ الموقفُ الرهيبُ غِطاءً كان يَغْشَى مَحَاجِرَ الْوَسْنَانِ
أسْدَلَتْهُ حَمَاقَةُ الجهْلِ كِبْراً وَعُتُوًّا وَشَدَّهُ الغَاوِيانِ
إنه الْحُمْقُ فانظروا كيف تَهْوِى عن رُبَا الظُّلْمِ رايةُ العِصْيانِ

أيها الناسُ قد بُعثتُمْ وَعْدلاً ... قد تلاشَتْ سَفَاهَةُ النُّكْرانِ
وعَمِيتُمْ عن الهِدايةِ حتى ... نبذَتْكُمْ مَرَاحِمُ الغُفْرانِ
فقضَيْتُمْ دُنْياكُمْ فى ضَلالٍ ... مُسْتَجيبينَ دعوةَ الشَّيْطَانِ
قُضِيَ الأمرُ وانتهى كلُّ شيْءٍ ... وَتجلَّى ما أغْفلَ النَّاظِرانِ
فهلُمُّوا إلى الحساب وَحَاشَا ... أن يَرَى الظُّلْمُ نفسَهُ فى مكانِ
إنْ تكونوا مُصَدِّقينَ فأمْنٌ ... وَسَلامٌ وجَنَّةٌ وتهانى
أو تكونوا مُكَذِّبينَ فأنتُمْ ... والشياطينُ طُعْمَةُ النِّيرَانِ
أيها الناس ما خلقتم لِتَحْيَوْا ... كَدَوَابٍّ تَفْنَى بِمَرِّ الزَّمَانِ
بل حَبَتْكُمْ مواهبٌ وعقولٌ ... فَضَّلتكُمْ عن سائِرِ الحَيَوَانِ
نِعْمَةُ اللهِ حِينَ تمَّتْ عَلَيْكُمْ ... زَوَّدَتْكُمْ بالعِلْمِ وَالعِرْفَانِ
كَرَّمَ اللهُ خَلْقَكُمْ وَرَعَاكُمْ ... وهداكُمْ لِلبِرِّ وَالإحْسَانِ
كُلُّ نَفْسٍ تَخْشَى الإلهَ سَتَمْشِي ... يَوْمَ هَوْلِ الخُرُوجِ فى اطْمِئْنَانِ
لَقِيَتْهَا الدُّنْيَا قَرِيرَةَ عَيْنٍ ... وَبِخُلْدِ الأُخْرَى لَهَا جَنَّتَانِ
حَلَّقَ الرُّعْبُ وَالمَلِيكُ يُنادِي : ... ها وعيدِى وَالوَيْلُ مِنْ سلطانى
ياعُصَاةَ الرَّحْمَنِ حَلَّ بَلائِى ... كيف ينجو من نِقْمتى مَنْ عَصَانى ؟
ما جنودَ الشَّيْطَانِ إلّا غُوَاةٌ ... أبْعَدُوكُمْ عن طاعَتِى وَحَنَانِى
لا فداءٌ ولا شفيعٌ يُرَجَّى ... إنَّهُ الفصل أيُّهَا الثَّقَلاَنِ
واقتدارِى وعِزَّتِى وَجَلاَلِى ... سَوْفَ يُجْزَى المُسِىءُ بالحِرمانِ
إنَّ عَفْوِى يَنَالُه كُلُّ عَبْدٍ ... كان يَخْشَى بَطْشى وَلاَ يَنْسَانى
أيُّها المُحْسِنون هذا نعيمى ... قد وُعِدْتُم به وذا غُفْرانى
فَهَلُمُّوا إلى فراديسِ خُلْدٍ ... فى قُصورٍ أعَدَّها رضْوانى
وَسَلامٌ لكم بما صَدَّقْتُمْ ... وَصَبَرْتُمْ على كروبِ الزَّمانِ

إن هذا وعدى وقد تمّ وعدى ... وجزاء الإحسان بالإحسان !
فهنيئاً لكم نعمتم وفزتم ... يا عبادى بالحمد والشكران
أيها النّاس حاربوا النفس زهداً ... يتجلّى اليقين ملء العيان
واشتروا الخلد بامتهان متاع ... عرضىّ مهما ترفّه فان
طهّروا القلب من بذور الخطايا ... وازرعوا فيه زهرة الإيمان !
واجعلوا الذكر زاده فهو نور ... فيه يسعى إلى الرّضا الربانى
واعملوا الطيّبات ما جاء فجر ... بجديد وما بدا النّيران
واسلكوا للهدى صراطاً سويّا ... تأمن النّفس زفرة النّدمان
زوّدوها التّقى فيخبو سراج ... أشعلته حماقة الهذيان
واملئوا القلب رحمة ويقينا ... تبعدوه عن غلظة النهمان
إنما الطّهر للنفوس جمال ... فإذا ضاع ضيّعتها الأمانى
واضربوا الأرض بالخرافات وابنوا ... للحياتين أثبت البنيان
واقصروا فى الخطا وغنّوا وتوبوا ... تأمنوا فى القيام عضّ البنان
وأزيحوا عن العيون ستاراً ... أسدلته أصابع الشّيطان
أيها النّاس لا تطيعوا عدوّا ... شنّ حرباً على بنى الإنسان
لم يطع فى السّجود أمر إله ... مالك الملك أمره حرفان
كلّ من فى السماء والأرض عبد ... للبديع المهيمن الرّحمن
أىّ مقت لمن تمرّد كبراً ... واستفزّته حمأة العصيان
أغضب الله إذ أبى أن يلبّى ... أمر ربّ العلا عظيم الشأن
يا عبادى اسجدوا لآدم إنّى ... خالق منه عالم الإنسان
سجد الكلّ طائعاً فى خضوع ... وتسامى التّقديس للرّحمن
وتأبّى عن السّجود شقىّ ... ضلّلته حماقة الطّغيان

مَـــلأَ الشَّرُّ نَفْسَــهُ كِـبْرِياءً   باءَ منها بالخِــزْيِ والخُسْرانِ
إيهِ . . . إبليسُ لَعْنَةُ اللهِ حَلَّتْ   يا رجيماً خَسِئْتَ من شَيْطانِ !
كَيْفَ تَنْجُو مِنْ نِقْمَتِي وعِقابِي   أَيُّ عَبْدٍ يَفِرُّ مِنْ سُلْطاني ؟
قال : رَبِّي ذَرْني لميقاتِ يَوْمٍ   في ضُحاهُ سَيُحْشَرُ الثَّقَلانِ
سوف يغوى أبناءَ آدمَ مَكْرِي   واختيالاً يُطْغِيهمُ شَيْطاني . .
وَأَبُثُّ الفَسادَ فِيهِمْ وَكَيْدِي   يُلْبِسُ الرُّشْدَ طَلْسَمَ النِّسْيانِ
وَأَؤُزُّ النفوسَ أَزًّا فَتَهْوِي   في حَضِيضٍ من مُهْلِكاتِ التفاني
سابحاتٍ في ظُلْمَةٍ من خيـــالٍ   غارقاتٍ في لُجَّـــةِ الْهَذَيانِ
سوف تَبْقَى كما تَمَنَّيْتَ حتى   يومِ فَصْلٍ ما بين إنْسٍ وجانِ
يومِ عَرْضِي لِمَنْ خَلَقْتُ ولمّا   لم يُبَدَّلْ ما أخرجَتْ شَفَتانِ
وَأُدْعُ إبليسُ مااستطعتَ وَغَرِّرْ   من أَطاعَتْكَ نَفْسُهُ بالأماني
هَا سَعِيرِي وَزَمْهَرِيرِي يدعو   لعذابِ الحريقِ مَنْ قد عصاني
يوم أدعو : هَلِ امتلأْتِ ؟ وَغَيْظاً   تَتَبَدَّى في ثَوْرَةِ الغَضْبانِ
وَتُنادِي غَضْباءَ : هل من مزيد ؟   كيف تَنْسَى وَقُودُها نِيرَاني ؟
أيهـا الظالمُ المُكَذِّبُ هَيَّـا   هَا جَحِيمِي خُلُوٌ من السُّكَّانِ
ذَا سَعِيرِي مُؤَجَّجٌ وَجَحِيمِي   لِعُصَاةِ الرحمنِ ينتظرانِ
فَهَـلُمُّوا إِلَيَّ يا مَنْ كَفَرْتُمْ   ما أشـدَّ العذابَ في أحضاني
آنَ إبليسُ أَنْ أُذِيقَكَ هَوْلِي   في عذابٍ لمـا يُهَيَّأْ لِثانِ
يا سجيني آنَ القصاصُ وهـذا   وَعْـدُ رَبِّي حَقًّا لأولِ جاني
يا عَدُوَّ الإنسانِ قد كنتَ حرباً   أَعْلَنَتْها حمـــاقةُ الطُّغْيانِ
كنتَ تدعو إلى الضلالِ وتسعى   في انتشارِ الفســادِ والعِصيانِ
كم تَرَبَّصْتَ بابْنِ آدم حتى   نَبَذَتْهُ مراحِمُ الغُفْرانِ

وَنَصَبْتَ الشِّبَاكَ كَيْداً ومكراً كى تُضَلِّلَهُ عن هُدَى الإيمانِ (١)
قُضِىَ الأمرُ وانتهى كلُّ شىء دبَّرَتْهُ مكائدُ الشيطانِ
ذُقْ أشدَّ العذابِ يا شرَّ غاوٍ أَبْعَدَ النورَ عن بنى الإنسانِ
يا رَجِيم الدَّارَيْنِ بِئْسَ خلودٌ صَدَقَتْ فيه آيةُ الرحمنِ
يا أُبْنَ حواءَ ما خُلِقْتَ لِتَحْيَا كحياةِ الأنعامِ والحيوانِ
أنتَ بالعقلِ قد بَلَغْتَ مكاناً عبقرِيًّا ، أَكْرِمْ به من مكانِ
صَوَّرَ اللهُ فيكَ أَحْسَنَ خَلْقٍ أَبْدَعَتْ صُنْعَهُ يَدُ الرحمنِ
وَأَمَدَّ الفؤادَ فيكَ بنورٍ جعل الخارقاتِ طَوْعَ البَنَانِ
كلُّ شىء مُسَخَّرٌ لك كَيْماَ تَتَسَامَى دعائمُ العُمرانِ
يا أُبْنَ حواءَ أنتَ أكثرُ خَلْقٍ غَمَرَتْهُ الآلاءُ بالإحسانِ
كَرَّمَتْكَ النُّعْمَى وَأَوْلَتْكَ فَضْلاً أَيَّدَتْهُ مواهِبُ العِرفانِ
فاشكرِ المُنْعِمَ الرحيمَ وَسَبِّحْ فى خشوعٍ بِحَمْدِهِ كلَّ آنِ
واذكرِ الموتَ فهو أحسنُ ذكرَى تنفعُ الناسَ يوم عَضِّ البَنَانِ
واجعلِ اللهَ وَحْدَهُ لك مَوْلَى وَتَزَوَّدْ من حِكْمَةِ القرآنِ
تَقْضِ دُنْيَاكَ ما حَيِيتَ سعيداً وَبِخُلْدِ الأُخْرَى لك الجَنَّتَانِ
إنَّ هذا الفَوْزُ العظيمُ فكَبِّرْ باسْمِ رَبٍّ هَدَاكَ للإيمانِ
حَكِّمِ العقلَ يا أُبْنَ آدم وَأحْذَرْ من أضاليلِ فِتْنَةِ الشيطانِ
لا تُطِعْهُ وَتَتَّخِذْهُ وَلِيًّا فهو يدعو لِلشِّرْكِ بالرحمنِ
يَطْبَعُ الشَّرَّ فى النفوسِ ويُمْلِى كلَّ غَيٍّ يقودُ للكُفرانِ
إنَّ هذا الطاغوتَ شرٌّ لَعِينٌ من أَلَدِّ الأعداءِ للإنسانِ
أيها الناسُ قد أتاكم كِتَابٌ ناطِقٌ بالْهُدَى فَصِيحُ البيانِ

---

(١) جزم «تضله» خطأ لأن «كى» من النواصب ، فإذا حرك بالفتح نصباً اختل البيت .

بَيْنَ الرُّشْدَ والضَّلالَ بَشِيراً   ونَذِيراً يَدْعُو إلى الإيمـــانِ
يَبْعَثُ النُّورَ فى القلوبِ فَيَهْدِى   من يَشَاء المحيطُ بالأكْوَان
والذى صُمَّ قَلْبُه ظِـــلٌّ أَعْمَى   لا يَرَى النُّورَ وهو مِلْء المَكانِ
بيِّناتٌ قد فَصَّلَتْ كلَّ شىْء   أَمَرَتْكُمْ بالعَدْلِ والإحْسَانِ
ونَهَتْكُمْ عن الخبائثِ والمُنكَـ   ـرِ تلكم دســـائسُ الشيطانِ
أىُّ فَوزٍ لِمَنْ أَطَاعَ ولَبَّى   دعوةَ الحقِّ ، ثابتَ الأركانِ
طَاهِرَ النفسِ من جميع المعاصى   مُؤمنَ القَلْبِ صادقَ الإيمانِ
يَسْمَعُ الذِّكْرَ وهو يُتْلَى فَيَجْثُو   ساجِدًا باكِيًا من القُرْآنِ
بين وَعْدٍ مُبَشِّرٍ بنَعِيمٍ   فى فَرَادِيسَ خالداتِ الجِنانِ
وَوَعِيـــدٍ مُصَوِّرٍ لعَذابِ   يُفْقِدُ الرُّشْدَ فى لَظَى النِّيرانِ
من تَوَلَّى ولم يَخَفْ من وَعيدٍ   أىُّ مَقْتٍ يَرَى وهَوْلٍ يُعانِى
خَدَعَتْهُ الدُّنيا فأعْرَضَ يلهو   فى نعيمٍ من المَتَاعِ الفانِى
من أراد الدُّنيـــا تبوَّأَ منها   كلَّ ما يَشْتَهِى ونالَ الأمانى
دارُ لَهْوٍ طاشتْ بعقلٍ جَهُولٍ   منه مَدَّتْ لِلمُوبقَاتِ يدَانِ
مُلِئَتْ نَفْسُه الخبيثةُ شرًّا   فتمَادَى فى الكُفْرِ والعِصْيانِ
أنْكَرَ البَعْثَ والقيامةَ حتَّى   دَهَمَتْهُ لَفَائفُ الأكْفانِ
أوْدَعَتْهُ الدُّنيا بُطُونَ ثَرَاهَا   فتَوَارَى عن أعْيُنِ الحَدَثَانِ
أيهـا النـاسُ آمِنُوا وأطيعوا   واتَّقُوا اللهَ قبلَ فَوْتِ الأوانِ
ما الحياةُ الدُّنيا التى فَتَنَتْكُمْ   وسَبَتْكُمْ بالمُغْرِياتِ الحِسَانِ
غَيْرُ يَوْمٍ أحلامُهُ سابحاتٌ   بين مَوْجِ السُّرُورِ والأحزانِ
سَنَوَاتُ الأعمارِ كالبَرْقِ تجرى   مُسْرِعَاتٍ كأنَّهُنَّ ثَوَانِ
فَتْرَةُ العَيْشِ فى الحياةِ اختبارٌ   للنَّعِيمِ المُقيمِ أو لِلهَوَانِ

فاعْمَلوا الطَّيِّبــاتِ تأمنْ نفوسٌ　　يومَ عَرْضِ الأعمالِ عضَّ البنانِ
واطلُبوا الرِّزْقَ ما حَيِيتُم حلالاً　　واستعينوا بالصَّبْرِ والإيمانِ
واسلُكوا للصلاحِ خَيْرَ سبيلٍ　　منه تَبْدُو مَفَازَةُ الرِّضْوانِ
واضْرِبُوا الأرضَ بالحِرافاتِ وامشوا　　صَوْبَ نورِ اليقينِ في اطْمِئنانِ
وازرعوا اليومَ تحصدوا بعد حينٍ　　واستزيدوا من خالدِ البُنْيانِ
واهجُروا الخَمْرَ فهيَ أكبرُ رِجسٍ　　مُفسدِ الرُّوحِ مُتْلِفِ الأبدانِ
تَسْلُبُ الرُّشْدَ من نُهى مُحْتَسيها　　حين تَسْرِي في الحسِّ كالأفعوانِ
لَقَّبُوها أُمَّ الخبـائثِ حقًّا　　فهيَ أقوى حبائلِ الشيطانِ
وأقيموا الصلاةَ لِلّهِ شُكْراً　　واذْكُروه في السِّرِّ والإعلانِ
سَبِّحُوا اللهَ بُكْرَةً وأصيلاً　　في سجودٍ ما ضَوَّأَ المَشْرِقانِ
وأَعيرُوا خَلْقَ السمواتِ فِيَضًا　　من صفاءِ الإدراكِ والإمعانِ
فكِّروا خاشعينَ في ملكوتٍ　　أبدعَتْ صُنْعَهُ يَدُ الرَّحمنِ
فَلَكٌ حَيَّرَ العقولَ نظاماً　　لم يشبهه في دِقَّةِ الإتقانِ
سارياتٌ فراقدٌ وشموسٌ　　خاطفاتُ الأبصارِ قاصٍ ودانِ
سابحاتٌ كُلٌّ يَشُقُّ مداراً　　في فَضاءِ الآفاقِ والأكوانِ
ملكوتٌ فيه العوالمُ تجري　　آمناتٍ طوارئَ الحدثانِ
لاحظَتْها عَيْنُ الرَّقيبِ لِتَبْقى　　ما أرادتْ مشيئةُ الرَّحمنِ
فإذا جاءَ وَعْدُهُ تتوارى　　آفلاتٍ ويختفي النَّيِّرانِ
إنَّه الفصلُ بين دُنيا وأُخرى　　أعْلَنَتْهُ على الورى صيحتانِ
إنَّ عيشَ الدُّنيا وإنْ طالَ يومٌ　　فيه تَمَّتْ صحيفةُ الإنسانِ
طائرٌ ناطقٌ كتابٌ شهيدٌ　　سُجِّلَتْ فيه صادقاتُ البيانِ
عزَّزَتْ صِدْقَهُ شهادةُ أيدٍ　　وجلودٍ وأعْيُنٍ ولِسانِ

فاخْشَوْا اللهَ واتَّقُوه تَقُوموا | من دَياجِى أجداثِكم فى أمانِ
يَوْمَ يهتزُّ مَنْكِبُ الأرضِ رُعْباً | والسموات وردةٌ كالدهانِ !
يَوْمَ لاتملك النفوسُ فِدَاءً | أو فِرَارًا مما تَرَى وتُعانِى !
وله الأمرُ وَحْدَه فى جُمُوعٍ | تسألُ العفوَ بين إنسٍ وَجَانِ
حُكْمُهُ الفَصْلُ فى مصيرِ عَبيدٍ | ألِدَارِ الجحيمِ أم للجنانِ ؟
فاز بالخُلْدِ فى فَسِيحاتِ عَدْنٍ | من هَدَاهُ الرَّحْمنُ للإيمانِ
وأضَلَّ السبيلَ من تَاهَ كِبْراً | وعُتُوًّا وخَادَعَتْهُ الأمانِى
وإذَا تَمَّ فى المشيئةِ أمْرٌ | لم يُبَدَّلْ ما سَجَّلَ الحَرفانِ
آيةُ النُّورِ بَيَّنَتْ كلَّ شَىْءٍ | وكَفَى الآنَ أيها الثَّقَلانِ
ما سعيدُ الدَّارَيْنِ يانَفْسُ إلا | مَنْ تفَانَى فى طاعةِ الرَّحْمنِ
والشَّقِىُّ الملعونُ دنيا وأُخْرَى | كل غِرٍّ هَوَى مع الشيطانِ
ياإلهَ الوجُودِ نُعْمَاكَ عَمَّتْ | كلَّ حَىٍّ فى سائِرِ الأكوانِ

الهمزية الكبرى

فاتحة

أيها الناسُ أنتُمُ الْفُقَرَاءُ   فاذكروا مَنْ له الْغِنَى والبقاءُ
لا تعيشوا فى الأرضِ ظُلْمًا وبَغْيًا   وَاتَّقُوا اللهَ إنكم ضُعَفَاءُ
واستعينوا باللهِ فى كلِّ أَمْرٍ   أكرم الخلقِ عنده الأتقياءُ
لا يَغُرَّنَّكُمْ نعيمُ حياةٍ   ورخاءٌ وصِحَّةٌ وهَنَاءُ
إنما العمْرُ لَمْحَةٌ فَمَمَاتٌ   فَسُكُونٌ فَحُفْرَةٌ ظَلْمَاءُ
مَلَكُ المَوْتِ يقْتَفِى كلَّ حَىٍّ   فى أَوَانٍ قد آنَ فيه الفَنَاءُ
يترك الجِسْمَ هامِداً ، ليت شعرى   أنَعِيمٌ يَضُمُّهُ أم شقاءُ
كلُّ نَجْمٍ مُهَدَّدٌ بأفولٍ   ولنورِ الإلهِ دام الضِّياءُ
كلُّ شىءٍ غير البديعِ ظلامٌ   واستضاءت بنوره الأشياءُ
يا بنى الأرضِ إنَّ للهِ مُلْكًا   تَعْلَمُ الأرضُ قَدْرَهُ والسماءُ
إنَّ رَبًّا يُدِيرُ مُلْكًا كهذا   قادرٌ دائمًا على ما يشاءُ
حارتِ الخلقُ فى تَصَوُّرِ ذاتٍ   بين حرفَيْنِ أمرُهَا والقضاءُ[1]

* * *

مالِكَ المُلْكِ إنَّ وَعْدَكَ حَقٌّ   مَنْ لَهُ الحمدُ غيرُه والثناءُ[2]
تَرْجُفُ الأرضُ والجبالُ ويُقْضَى   كلُّ أمرٍ ويَسْتَكِنُّ الهواءُ
وتمورُ السماءُ موراً ويهوى   كلُّ نجمٍ وَتفزَعُ الأرجاءُ

---

(١) الصواب فى أمرها والقضاء بالجر لأنه بدل من حرفين ويمكن إعرابها على الابتداء ، بتقدير « هما أمرها والقضاء » .   (٢) فى البيت التفات ، إذ قال وعدك ، فكان الاستمرار أن يقول غيرك .

حلَّقَتْ رهبةٌ وَسادَ سُكُونٌ   وانْجلَتْ قدرةٌ وآنَ الوفاء
كلُّ حيٍّ إلاَّ المُهَيْمِنُ فَانٍ   صَاحَ سُبْحَانَ مَنْ له الْكِبْرِيَاء

الســـاعة

دَنَتِ السَّاعَةُ الرهيبةُ لمَّا   جاء أشراطُهَا وَحُقَّ الجـزاء
وعَلَتْ صَيْحَةٌ تجمَّعَ منها   بالِيَاتُ الرُّفَاتِ والأشـــلاء
دُكَّتِ الأرضَ والجبالَ وَهدَّتْ   كلَّ طَوْدٍ مُرِيعَةٌ بَطْشَاء
صَيَّرَتْ شَامِخَ الرواسخِ عِهْناً   وَتنَحَّتْ عن حملها الْجَرْداء
أَلْقَتِ الأرضُ ما بها وتخلَّتْ   وتَدَاعَتْ عن أُفْقِهَا الصَّمَّاء
هالَها الروعُ فاستحالتْ هَبَاءً   غَـيَّرَ الصَّدْعُ حالَهـا والفنَاء
وانْشِقَاقاً ذاتُ البروجِ ترامتْ   فتَوَارَتْ أقمارُهـا الزَّهراء(١)
ثم غابتْ نجومُهَا واُكْفَهَرَّتْ   واختفى نُورُهَا وَزَالَ الْبَهاء

* * *

إنَّ هذا يومُ الحِسَابِ فطاشتْ   يا بنى الأرضِ مُقْـلَةٌ عَمْيَاء
يوم لا ينفعُ ابنَ آدم إلا   حسناتٌ تقَـدَّمَتْ ووفاء
يومَ يدعو كلُّ امرىءٍ : رَبِّ نفسى!   وَتفِرُّ الأباءُ والأبنـــــاء
يوم يَلْتَفُّ كلُّ سَاقٍ بِسَاقٍ   وَيُسَاقُ الضِّعَافُ والأقوياء
يوم لا ينفعُ المُسِيءَ اعْتِذَارٌ   عن ذُنُوبٍ وَيَدْهَمُ البلاء
يومُ حَشْرٍ حوَى البرايا جميعاً   شَاخِصَاتٍ أبصارها فَزْعاء
يومُ فَصْلٍ تُبْلَى السرائرُ فيه   حائراتٌ من هَوْلِهِ هَلْعَاء
يومَ لا تملِكُ النفوس انتصاراً   وله الأمرُ وَحْدَهُ والقضاء
كلُّ نَفْسٍ يُغْنِي لها فيه شَأْنٌ   عن سِوَاهَا ولا يُفِيدُ الفِداء

---

(١) يريد : وترامت ذات البروج انشقاقاً ، ولو قال ذلك لم يتغير الوزن .

كلُّ نفسٍ لها لِسانٌ وَعَينٌ ... وفؤادٌ وكلُّها رُقَباء
ثم أَيْدٍ وَأَرْجُلٌ وجلودٌ ... تَنْطِقُ الحقَّ أنهم شهداء

البعث

يُهْرَعُ الناسُ مُنْذُ أَوَّلِ خَلْقٍ ... وَاجِفاتٌ قُلُوبُها حَيْرَاء
بَعْثَرَتْها القبورُ تجرى سِراعاً ... أَفزَعَتْها من نَوْمِها الدَّهْماء
مَاجَتِ الأرضُ تحت أقدام خَلْقٍ ... كجرادٍ يضيقُ عنه الفضاء
مُدَّتِ الأرضُ كى تُوَفِّى جُمُوعاً ... فَوْقَهُمْ تُمطِرُ العذابَ السماء

* * *

يا بنى الأرضِ تلك وَقْفَةُ حَشْرٍ ... يا ابْنَ حواء أنتَ طِينٌ وماء
كلُّ فَرْدٍ له كِتابٌ قديمٌ ... سُجِّلَتْ فيه رحمةٌ أو بلاء
لم يُغَادِرْ صغيرةً ما حَوَاها ... قدرةُ الله مَنْ له ما يشاء
كلُّ مَنْ مَدَّ للكتابِ يميناً ... ضَمَّهُ الأمنُ والرِّضا والهناء
وله قالت التهانى سلامٌ ... وَبَدا العفوُ باسِماً والعطاء
وَيْحَ مَنْ كانَ حَظُّهُ بِشِمالٍ ... هالَهُ الخِزْىُ خِيفَةً والعناء
صاح فيه صوتُ العذابِ وَعِيداً ... : قد تَنَحَّى عن مُقْلَتَيْكَ الغِطاء !
أُنْظُرِ النارَ كيف تُزْجِى سَعِيراً ... وعقابُ المُكَذِّبِينَ الشِّواء

* * *

قَبْضَةُ اللهِ تَجْمَعُ الأرضَ جَمْعاً ... وَبِيُمْنَى البديع تُطْوَى السماء
قدرةُ اللهِ حَيَّرَتْ كلَّ لُبٍّ ... فتفانَتْ فى كُنْهِها الأنبياء
قُوَّةُ اللهِ أَذْهَلَتْ كلَّ لُبٍّ ... فَتَفانَتْ فى وَصْفِها العُلَماء
حكمةُ اللهِ أحكمت كلَّ أمرٍ ... فاستنارتْ بِرُوحِها الحُكَماء
خِبْرَةُ اللهِ أَتْقَنَتْ كلَّ شىءٍ ... فَتَبارَتْ فى مَدْحِها الشُّعَراء

رحمةُ اللهِ أدركتْ كلَّ خَلْقٍ فتَلاَشَى فى عدِّهَا الإحصاء

* * *

إنَّ عِلْمَ الإلهِ عِلْمٌ قديمٌ بخلودٍ له يدومُ البقاء
وَصِفَاتٌ تنزَّهتْ عن شَرِيكٍ فتسامتْ من حُسْنِهَا الأسماء
نَافِذُ الأمرِ فى جميعِ البرايا عالِمُ الْغَيْبِ عرْشُهُ الْعَلْياء
كلُّ مَنْ فى الوجودِ لِلهِ عَبْدٌ ودواماً إليه يَسْرِى الدُّعاء

* * *

كلُّ شَيْء يُسَبِّحُ اللهَ حَمْداً أَبَدَ الدهرِ كىْ يدومَ الثناء
وَبِنُورِ الإلهِ أشرقت الأرضُ وجاءَ النَّبِيُّونَ والشُّهَدَاء(١)
وقضى الحقُّ بينهم حُكْمَ عَدْلٍ وَبِوَعْدِ الإلهِ تَمَّ الرِّضاء
يَا نَبِيُّونَ تلك جَنَّاتُ عَدْنٍ فادخلوها وكبِّرى يا سماء
هذه الجنةُ التى قد وُعِدْتُمْ شَهِدَ اللهُ أنكم أمناء
دَارُ خُلْدٍ جزاء ما قد صَبَرْتُمْ تلك عُقْبَى الجِهادِ يا أنبياء
سَيِّدُ الخَلْقِ بينكم يتَهَادَى بِجَبِينٍ يفيضُ منه الضِّيَاء
أشرفُ المُرْسَلِينَ قَدْراً وجاهاً خيرُ بَدْرٍ قد أَنْجَبَتْ حَوَّاء
خَصَّهُ اللهُ بالشفاعةِ لمَّا أَذِنَ الحقُّ وأُسْتُجِيبَ النِّداء
وَبِنُورِ القرآنِ كان إماماً وحكيمًا على يَدَيْهِ الشِّفاء

* * *

أَوَّلَ الدَّاخِلِينَ جَنَّاتِ عَدْنٍ لَكَ نَفْسٌ أَبِيَّةٌ شَمَّاء
صلواتُ الإلهِ ترْعَاكَ دَوْماً يا أبْنَ عَدْنَانَ بَارَكَتْكَ السماء

(١) فى البيت خلل عروضى ، ولو قال « النبى » لاستقام الوزن .

جنات النعيم

سِيقَ أهلُ التُّقى لِدَارِ نَعِيمٍ   يتَهَادَوْنَ حيثُ حَلَّ الهناء
تَتَلَقَّاهُمُ الملائكُ بُشْرَى   بَاسِمَاتٍ وُجوهُهَا سَمْحَاء
خُزَّانَ أبوابَهَا وَمِيضُ الدَّرَارِى   تَتَسَامَى أنوارُها الزهراء
تلك دَارُ الذين نالوا بِحَقٍّ   أَجْرَ إيمانِهِم فَنِعْمَ الجزاء
آمَنُوا بالـكتابِ لمَّا أتاهم   وأطاعوا الرسولَ نِعْمَ الوفاء
صَدَقَ الْوَعْدُ فادخلوا بِسَلَامٍ   دَارَ خُلْدٍ يَطِيبُ فيها البقاء
إنَّ فيها ما تَشْتَهِى كلُّ نَفْسٍ   قَدَّرَ الله أنْ لهـا ما تشاء
حُورُ عِينٍ كأنهن اللآلى   كَاعِبَاتٌ قُدُودُهُنَّ الضِّيَاء[(١)]
يَتَسَابَقْنَ حولَ زَهْرٍ وماءٍ   لَاعِبَاتٌ يَزِينُهُنَّ البهاء
رَاتِعَاتٌ على بِسَاطٍ بديعٍ   تترامى أطرافُه الخضراء
تَتَوَارَى خلف الدَّوالى دَلَالاً   تَتَثَنَّى أعطافُها الحسناء
ثم يُهْرَعْنَ للقصورِ حُسَاةً   من رَحِيقٍ مِزَاجُهُ السَّرَّاء!
حيثُ يَلْقَيْنَ أَهْلَهَا فى نعيمٍ   وَسُرُورٍ بهم أحاطَ الهناء
تَتَجَلَّى على الأرائكِ بِشْرًا   وَابتهاجاً عُيونُها حَوْرَاء
وعليهم تَطُوفُ وِلْدَانُ خُلْدٍ   بكؤُوسٍ سُلَافُهَا الصَّهْبَاء
وأباريقَ من لُجَيْنٍ نَقِىٍّ   صَفَّهَا الحُورُ كَىْ يَدُومَ الصَّفَاء
إنَّ لِلْجَنَّةِ البَهِيجَةِ وَصْفاً   فَوْقَ ما قد تَخَيَّلَ الشُّعَرَاء!
ظِلُّهَا دَائمٌ فَلَا لَيْلَ فيها   عَاطِرَاتٌ رِيَاضُهَا الفَيْحَاء
فَوْقَ أَغْصَانِهَا العَنَادِلُ تَشْدُو   وعليها تُرَفْرِفُ الوَرْقَاء

---

(١) قوله حور عين بالإضافة ليس صحيحاً ، والصواب أن عين وصف للحور بجمال العيون وسعتها .

وَتَفِيضُ ٱلْأَنْهَارُ شُهْدًا مُصَفًّى ... حيثُ تجرى مِنْ تَحْتِهَا رَغْدَاء
ثم تَجْرِى أُخْرَى بِدَرٍّ شَهِيٍّ ... لم تُغَيِّرْ من طَعْمِهِ الأَجْوَاء
وَبِخَمْرٍ كالْأَرْى تَنْسَابُ أُخْرَى ... رِيحُهَا ٱلمِسْكُ رُوحُهَا نَشْوَاء(١)
إنَّ دار ٱلفِرْدَوْسِ كانت مآبًا ... خيرَ دارٍ يَحْظَى بهَا الأَتْقِيَاء
أُدْخُلُوهَا قَدْ بَارَكَ ٱللهُ فِيهَا ... فى خُلُودٍ لا يَعْتَرِيهِ فَنَاء
فانعَمُوا وَٱهْنَأُوا وطِيبُوا نفُوسًا ... عَلِمَ ٱللهُ أَنَّكم حُنَفَاء
رحمةُ ٱللهِ قد تجلَّتْ عليكم ... فاشكُرُوا مَنْ لَهُ ٱلرِّضَا وَٱلبقَاء

دار الجحيم

ثمَّ سِيقَ ٱلكُفَّارُ نَحْوَ جَحِيمٍ ... يَسْتَغِيثُونَ حيثُ حَلَّ ٱلبَلَاء
وَوَقُودُ ٱلسَّعِيرِ زاد ٱشتعالاً ... وٱسْتَشَاطَتْ مِنْ غَيْظِهَا ٱلرَّمْضَاء
ثم هَاجَتْ دارُ ٱلجحيمِ وَمَاجَتْ ... تَقْذِفُ ٱلرُّعْبَ وَالْقُلُوبُ هَوَاء
فى زَفِيرٍ كالرَّعْدِ تَنْدَكُّ مِنْهُ ... هَامَةُ ٱلشُّمِّ وَٱلذُّرَا ٱلشَّمْخَاء
وَشَهِيقٍ يَنْقَضُّ من كلِّ فَجٍّ ... رَجَّعَتْهُ مِنْ هَوْلِهِ الأَرْجَاء
شَرَرًا كالجمالَةِ ٱلصُّفْرِ تَرْمى ... مِثْلُهُ ٱلقَصْرُ بِئْسَ ذَاكَ ٱلتَّوَاء(٢)
تلكَ نَارُ ٱلشَّوَى التى فى لَظَاهَا ... يُسْحَبُ ٱلمُجْرِمُونَ وَٱلأَشْقِيَاء
إنَّ حُرَّاسَهَا غِلَاظٌ شِدَادٌ ... يَتَفَانَوْنَ طاعةً ، أقْوِياء
ما ٱلحديدُ الشديدُ أَعظَمَ بأْسًا ... من قلوبٍ لهم براها ٱلقضَاء
حول أَبوابها الصواعقُ دَوَّتْ ... مُرْعِداتٍ صَيْحَاتُهَا فَزْعَاء
أُدْخُلُوهَا تَطَايَرَ ٱلْهَوْلُ فيها ... فَاغِرَاتٌ أَفْوَاهُهَا غَضْبَاء

---

(١) الأرى : الشهد
(٢) التواء : الهلاك

سَارِيَاتُ اللَّهِيبِ تَنْسَابُ منهَا ... وبريحِ السَّمُومِ يَجْرِى الْهوَاء
من حَمِيمٍ تفيضُ فيها عيُونٌ ... وبماءٍ كالمُهْلِ يَجْرِى السِّقَاء
إنَّ هذا شَرَابُ كلِّ أثيمٍ ... منه تُشْوَى الْوُجوهُ والأمْعاء
وطعامٌ ذُو غُصَّةٍ وعذابٌ ... منه تُكْوَى الجِبَاهُ والأحشاء
إنَّ دارَ الجحيمِ شَرٌّ مكاناً ... لِعَصِيٍّ طَاشَتْ به الأهواء
ما جنودُ الشيطانِ إلا غواةٌ ... قد أطعتم أهْوَاءَهُمْ يا رِعاء
شَاغَلَتْكُمْ بِغَيِّهَا فعَمِيتُمْ ... عن طريقِ الهُدَى وعَزَّ الدواء
إن هذا الشيطانَ كان عَدُوًّا ... منذ وَافَتْ من خُلْدِها حوَّاء
قد سَلَكْتُمْ سُبُلَ الضلالةِ جَهْلاً ... وتركتم ما أنزلَتْهُ السماء
أيها الظالمونَ ذُوقُوا نَكالاً ... إن هذا جزاءُ قَوْمٍ أساءُوا
فَتَنَتْكُمْ أمْوَالُكُمْ وبَنُوكُمْ ... وظَلَمْتُمْ فَحُقَّ هذا البلاء
وكفرتم بِأنْعُمِ اللهِ حتى ... حَلَّقَ الموتُ فوقكم والفَناء
إن هذا تصديقُ ما قد كفرتم ... إنْ صَبَرْتُمْ أو إنْ جَزِعْتُمْ سواء
فهَلُمُّوا إلى الجحيمِ جميعاً ... لا أعتذارٌ لكم ولا شُفَعاء
إن فيها العذابَ من كلِّ نَوْعٍ ... وعليها الملائكُ الرُّقَباء
قد أطاعوا الرحمنَ فى كلِّ أمرٍ ... وبأمرِ العزيزِ يجرى القضاء
دَرَكَاتٌ سَبْعٌ طِباقٌ عذابٌ ... لا ظَلِيلٌ بها يُحِيطُ القضاء
كلُّ مَنْ فى العذابِ يَسْتَصْرِخُ المو ... تَ وَهَيْهَاتَ يُسْتَجابَ النِّداء
وَهَبَاءٌ يضيعُ كلُّ تَمَنٍّ ... حيثُ حلَّ الخلودُ زالَ الفَناء
لا مَمَاتٌ بها يُهَوِّنُ كَرْباً ... أو عذابٌ مُخَفَّفٌ أو رجاء
كلما أنضج الحريقُ جُلوداً ... بَدَّلَ اللهُ غيرَها ما يشاء
إن هذا جزاءُ ما قد صنعتم ... وعلى العدلِ قام هذا الجزاء

* * *

يا ابْنَ حواءَ قد قَضَى اللهُ أمراً   وَبِحُكمٍ عَدْلٍ تجَلّى القضاء
هاهى الأرضُ وُفِّيَتْ ما استحقت   وَتُوَفَّى بمثل هـذا السماء
قد تَسَامَى عرشُ القديرِ جلالاً   فاستضاءت بنورِه الأرجاء
حوله حَفَّتْ الملائكُ تَتْلُو   أحسن الذِّكْرِ كى يَعُمَّ الرِّضاء
لا يَمَلُّونَ لحظةً من دُعاء   هُمْ عَبِيدٌ لِرَبِّهِمْ أَوْفِياء
مَجَّدُوا اللهَ بالثناءِ دواماً   حَمَلَ العرشَ منهم الأكْفاء
هم جنودُ المُهَيْمِنِ المُتَعَالِي   مَظْهَرُ البَطْشِ منهمُ الأقوياء
رُكّعاً سُجَّداً قِيَاماً قُعُوداً   من تَوَالِي تَسْبيحِهِمْ سُعَدَاء

* * *

عَمَّ نُورُ الإلَـهِ سَبْعاً طِبَاقاً   فتلاشتْ أمامَهُ الأضواء
وسع كُرْسِيُّهُ السمواتُ والأر   ضُ جميعاً ، وفاضتِ الآلاء
حَفَّهُ المُولَعُونَ باللهِ حُبّاً   وَحَبَاهُ الأَئِمَّةُ الأُمَنـاء
وَتَدَلَّى الْوَحْىُ الأمينُ ابْتِهَالاً   يا قديراً يا مَنْ له ما يشاء(١)

* * *

أسْفَرَتْ هَيْبَةٌ فأشرقَ عَدْلٌ   وتَجَلَّى عَفْوٌ وعَمَّ رِضاء
يا عِبَادَ الرحمنِ بُشْرَاكُمُ اليو   مَ خلودٌ يدومُ فيه الهناء
وسلامٌ لكم بما قد أطعتم   شَهِدَ اللهُ أنكم رُحَمَاء
فإلى الجنةِ الفسيحةِ سِيرُوا   قد وُعِدْتُمْ بها وتَمَّ الوفاء
فَتَعَالَى الْهُتَافُ من كلِّ صَوْبٍ   جاوَبَتْهُ الآفاقُ والأرجاء
فأفاضَ العطاءَ حَمْداً وَشُكراً   للذى المُلْكُ مُلْكُهُ والبقاء

* * *

أيها الناسُ إن هـذا بَيَانٌ   أنزلته الشريعةُ السمحاء

---

(١) يقصد بالوحى الأمين جبريل عليه السلام .

جاءَ بالحقِّ للقلوبِ ضِيـــاءً فتلاشتْ من نوره الظَّلْماءُ
لم يُغَادِرْ من الشرائعِ شـيئاً حارَ فى فَهْمِ كُنْهِهَا البُلَغـاء
جاءكم بالهدى كِتَابٌ كريمٌ عربىٌّ البيانِ فيه الدواء
إنه من لَدُنْ حـكيمٍ عليمٍ مُحْكماتٌ آياتُهُ عَصْمــاء
عاطِرُ الذِّكْرِ للقلوبِ شِفـاءٌ أعجزَ الخَلْقَ لَفْظُهُ الوَضَّــاء
إنَّ هـذا القرآنَ يـكفيه فخراً أنه رحمـــةٌ قَضَتْهَا السماء
فاض نوراً بالوَحْيِ صدرُ نَـبِيٍّ من قُرَيْشٍ عَزَّتْ به الأنبياء
ورســولٍ للرُّسْلِ جاء خِتَاماً وَبَشِــيرٍ دَانَتْ له العَلْيـاء
جاء برداً للعالمين سـلاماً كَنْزُ عِلْمٍ عليه طَابَ الثنـاء
كافَحَ الْكُفْرَ والضلالةَ حتى شَادَ حِصْنَ الهدى وتَمَّ البناء
وأقام الدِّينَ الحنيفَ وباَتَتْ خافِقَاتٍ أعلامُهُ الخضــراء
آيةُ الحقِّ قد تجلَّتْ عليـكم وبنورِ الإسـلامِ تَمَّ الهنــاء

* * *

أيها الناسُ إن هذا بلاغٌ فُصِّلَتْ فيه رحمـــةٌ أو بَلَاء
إنْ دَنَا الخيرُ فالمَسَاءُ صَبَاحٌ أو دَنَا الشَّرُّ فالصباحُ المَسَاء !
إنَّ هذا الحديثَ أحسنُ ذِكْرَى كلُّ نَفْسٍ يحلو لها ماتشــاء

* * *

أيهـا الظالمون قد شَاغَلَتْـكُمْ وغَزَتْـكُمْ بِطَيْشِهَا الأهـواء
فأجَبْتُمْ نِدَاءَها واتَّبَعْتُمْ شَهَوَاتٍ يفرُّ منها الحيـاء
وضربتُمْ بشرعةِ الحقِّ عَرْضاً فاشْمَأَزَّتْ نُفُوسُهـا العَلْيـاء
وَمَلَـكتم سُبْلَ الضَّلالة جَهْـلًا فخبـا النورُ واستحـالَ الضِّياء
وعَمِيتُمْ عن الهُدَى وَمُحَـالٌ أن تَرَى النُّورَ مُقْـلَةٌ عَمْيَـاء
واندفعتُم إلى المَعَاصِي سُكَارَى وارتـكبتُمْ مافَاضَ منه الإناء

وأتبعتم أهواء غاوٍ مُضِلٍّ زيَّنَ الشرَّ مكرُهُ والدَّهاء
حبَّبَ اللَّهوَ والفسادَ إليكُمْ وحدَتكُمْ جُنُودُهُ الأشقياء
فركبْتُمْ غِمَارَ بحرٍ خضمٍّ هائجاتٌ أمواجُهُ الظَّلماء
ماخراتٌ عُبَابَهُ سُفُنُ اللَّهْـ وِ رمَاهَا أنَّى أرادَ الهواء
حملتكُمْ إلى ضلالٍ بعيدٍ تتلاشى أحلامُهُ الحمقاء
فَمُلِئْتُمْ من الحياةِ غُرُوراً زيَّنَتْهُ لديكم الخُيَلاء
تتوارَوْنَ فى النَّزاهةِ والصِّدْ قِ كما يَسْتُرُ الإناءَ الطِّلاء
وَتُقِيمُونَ للنِّفَاقِ صُرُوحاً شيَّدَتْها المطامعُ الجوْفاء
وتُبِيحُونَ للخمُورِ مجالاً ما أُبيحتْ من أجْلِهِ الصَّهْباء!
قد تناهَى فيه الفُجُورُ وأضحَى والغوَانى عقولهن هواء
وسلبتمْ به عقول الغوانى منه يبكى ويستغيثُ الحياء
فقضيتم على العفاف ووجهٌ زال منه الحياء زالَ الماء
إنما الطُّهْرُ للنُّفوسِ جمالٌ فإذا ضاعَ زال عنْهَا البهاء
سهَّلَ المالُ كلَّ غيٍّ لديكم فلهَوْتُمْ به فحُمَّ القضاء
إنما المالُ قوَّةٌ فتنَتْكُمْ فضحكْتُمْ وراحَ يبكى الوفاء
إنَّهُ للنُّفوسِ خيْرُ اختبارٍ فهو للناسِ رحمةٌ أو بلاء
حكمةُ المالِ أن يُبرَّ يتيمٌ وتُوَفَّى حُقُوقَها الأقرباء
وتُؤَدَّى للوالدَيْنِ فُرُوضٌ واجباتٌ بها يدومُ الولاء
وتَعُمَّ الخيْرَاتُ كلَّ فقيرٍ دهَمَتْهُ بشرِّها النكباء
إن للمُحْسِنِينَ أحسَنَ ذِكْرَى يَشْهَدُ الدَّهْرُ أنهم رُحَماء
خُلِقَ المالُ للفضيلةِ ذُخْراً وسلاحاً تَسْمُو به العَلْياء
فأسأْتُمْ فيه التَّصرُّفَ حتَّى نَفِدَ المالُ ثمَّ ماتَ الرَّجاء

ذَهَب المال حين كنتُمْ سكَارَى وَصحَوْتُمْ وقد عفَا الإغْوَاء
قد رَفعْتُمْ عن الحياءِ قِناعاً وغفوتُمْ حتى اُختفى ذا الغطَاء
أيها الجَاحِدُونَ فَضْلَ إلَهٍ شَملَتْكُمْ من حِلْمِهِ النَّعْمَاء
كيف يَعْصِي الضَّعيفُ أمر قويٍّ قاهرٍ عادلٍ له ما يَشَاء؟
كم أباحت نفوسكم لكمُ الشَّرَّ وكيف اُسْتُطِيرَ هذا البلاء
أَتخَذْتُمْ عند الْمُهَيْمِنِ عهداً أمْ نَسِيتُمْ مَنْ عنده السَّرّاء؟
أَمْ جَهِلْتُمْ بأنكم من تُرَابٍ قاصراتٌ أحلامكم أَغْبِياء
خَدَعتْكُمْ بِسحْرِهَا أُمُّ دِفْرٍ جرّعتْكُمْ سُمُومَهَا الرَّقْطَاء
واُستمالت عقولكم فَجُنِنْتُمْ خاتَلَتْكُمْ مَنْ طَبْعُهَا الإغواء
إنَّ فيها من الفَوَاتِنِ طَيْفاً منذ جاءت لآدم الأسماء
فهى مجبولةٌ على الغَدْرِ لا تحفظُ عهداً وليس فيها وفاء
كلُّ دَمْعٍ منها يسيلُ عليها وَتوَلَّى إذ تصعد الحَوْباء
دائماً تَسْتَرِدُّ ما تَهَبُ الدنيا كأنْ كان خُدْعةً ذَا العطاء
وعجيبٌ أُمٌّ بغير حَليلٍ عَشِقَتهَا أبناؤها التُّعَسَاء
وَلَدَتْهُمْ وَمتَّعَتْهُمْ قليلاً ثم أَرْغَتْ كأنهم أعداء
فَطَوَتْهُمْ فى جَوْفِهَا واُطْمَأَنَّتْ خَشْيَةَ العارِ أن يُقَالَ بِغَاء

* * *

أيها الناسُ باطِلٌ كلُّ شيءٍ زَيَّنَتْهُ بِكَيْدِها الْهَيْفَاء!
فالجمالُ الذى سَبَاكُمْ خيالٌ زائلٌ فوقه يَحُومُ الفَنَاء
كلُّ بَيْتٍ يَبْلَى على الدهرِ مَاعَمَّرَ مهما تفَنَّنَ البَنَّاء
ونعيمُ الدنيا الذى نالَ منكم ما تقَضَّى حتى تَلَاهُ العَنَاء
تعب الناصِحُونَ طَوْعاً وكَرْهاً وملالاً أَعْيَى الطبيب الدواء

لو نظرتم إلى الحقيقة يوماً ... ما سهوتم حتى أذلهمّ البلاء
خُلِقَ الناسُ للبقاء وجهلٌ ... بعد هذى الحياةِ يفنى البقاء
سِنَةٌ كلُّها الحياة وصحوٌ ... فارقَ العينَ بعدَهُ الإغفاء
أَرْجَعَ السَّمْعَ للأصمِّ وصارت ... تُحْسِنُ النُّطْقَ أَلْسُنٌ خرساء
وأعاد الضِّياءَ للعينِ حتى ... أَبصرَتْ منه أعينٌ عَمْياء
ثم رَدَّ المَسْلُوبَ من كلِّ جِسْمٍ ... عذَّبَتْهُ الأمراضُ والأدواء
إنما عَيْشُكُمْ مَنَامٌ قصيرٌ ... فيه تَشْقَى وَتَسْعَدُ الأحياء
وكذا العمرُ والسنونَ خيالٌ ... تتهادَى كما يمرُّ الهواء
تتراءى لكم طِوَالاً ولكن ... لو عقلْتُمْ لزَالَ هذا الخفاء
ينقضى العمرُ بين عُسْرٍ ويُسْرٍ ... حُلْوُهُ المُرُّ والهناء الشَّقاء!
كلُّ مَنْ أَطْلَقَ البَصيرةَ بَحْثاً ... يَتَساوَى سُرُورُهُ والبُكاء
فاسألوا مَنْ قَضَى ثمانينَ عاماً ... كيف مرَّتْ وكيف زال الرُّوَاء؟
لستُ أدرى كيف انْقَضَى وكأنى ... فى مَنَامٍ أحلامُهُ فزْعاء
كنتُ بالأمسِ لاهِياً بالتَّصابى ... لا أُبالى مهما أحاط الشقاء
فَفَقَدْتَ الشبابَ حين دَعانى ... شَيْبُ رأسى واللِّحْيَةُ البيضاء
إنما اللحظةُ التى أنا فيها ... هى عَيْشِى وليكْفِنِى ذَا العزَاء

* * *

ما الحياةُ الدنيا سِوَى دَارِ لَهْوٍ ... تتقَضَّى متى توَارَى الضِّياء
أو كسوقٍ قد هُدِّدَتْ بانْفِضَاضٍ ... سوف يَنْفَضُّ بيْعُهَا والشِّرَاء
رابحاتٌ قُوَى الفطَانَةِ فيها ... خاسراتٌ من جَهْلِهَا الأغبياء
يُنْقَلُ الناسُ من حياةٍ لِأُخْرَى ... قَدْرَ أعمالِهِم يكونُ الجزاء
تلك دارٌ تدومُ فيها حياةٌ ... حيثُ فى هذه الْبِلَى وَالتَّوَاء

خُلِقَ المَوْتُ بين دارٍ ودارٍ ... مُجْفَةً بعدها يكونُ الثَّواء
فهو بابٌ يجتازه كلُّ حيٍّ ... وهو كأسٌ فيه البرايا سَوَاء
أيها الناس إن هذى لَذِكْرَى ... وعِظَاتٌ جاءت بها الأنبياء
أتُرِيدُونَ بعد هذا بلاغاً ... فَصَّلَتْهُ الشرائعُ السَّمْحاء
أيْنَ مَنْ عَمَّرُوا وَشَادُوا وسَادُوا ... أين عُمْرَانُهُمْ وأين البِناء
أين من زَيَّنُوا العُرُوشَ جمالاً ... أين تِيجانُهُمْ وأين البَهاء
أين من عزَّ مُلْكُهُمْ وَتسَامَى ... أين سُلطانُهُمْ وأين العَلاء
أين من كالحوا المَصَاعِبَ حتى ... ذَلَّلُوهَا وأين ذاك الدَّهاء
أين من دمَّروا الحُصونَ ببَأْسٍ ... من حديدٍ وأين تلك الدِّماء
أين من سابَقُوا الرِّياحَ بِخَيْلٍ ... صَافِنَاتٍ تَهابُهَا الْهَيْجاء
أين من جالَدُوا الزَّمانَ بِصَبْرٍ ... أين من صَاوَلَتْهُمُ النَّكباء
أين من شَيَّدُوا الهياكِلَ حُبًّا ... وأحتراماً لها فعزَّ البِناء
أين من هَدَّمُوا المَعابِدَ ظُلْماً ... وعُتُوًّا وأين من قد أساءوا
أين مَن خرَّبُوا المَدائِنَ جبناً ... رينَ بل أين تِلْكُمُ الأشلاء
أين من جاهدوا وماتوا كِرَاماً ... أين إقْدَامُهُمْ وأين المَضَاء
أين من كان هَمُّهُمْ جَمْعُ مَالٍ ... أين أموالُهم وأين الثَّرَاء
أين من أصلحوا فأحيَوْا نفوساً ... أَوْشَكَتْ تَسْتَمِيلُهَا الأهواء
أين من أوقفوا الحياةَ لِنُصْحٍ ... أين إيمانُهم وأين النِّداء
أين من حاربوا النفوسَ بِزُهْدٍ ... أين تَقْوَاهُمْ وأين الوَفاء
أين من أُرْسِلُوا لِجَمْعِ شُعوبٍ ... مزَّقَتْهَا الأديانُ والخُلَطَاء
لم يَضِرْهُمْ مُرُّ الأذَى وبِصَبْرٍ ... وَاصَلُوا الْهُدَى ، نِعْمَتِ الأنبياء !
رَفَعَ الله ثَمَّ إدريسَ حيًّا ... حيث أضحتْ مكانَهُ الْعَلْيَاء(١)

(١) ثَم : بفتح الثاء بمعنى هناك

نوح

أين شيخُ الطُّوفَانِ مِنْ بَعْدِ يأْسٍ   صَنَعَ الفُلْكَ حِينَ حلَّ البَلاءُ
أَنقذته وأهلَهُ وهى تجْرِى   بين موجٍ جبالُهُ الدَّأْماءُ
بَرَكَاتُ الإِلَه يا نوحَ حَلَّتْ   قُضِيَ الأمر أَقْلِعِى يا سَمَاءُ
هدَأَ الرَّوْعُ بَعْدَ أَن قيلَ بُعْداً   ونجا الرَّكْبُ حين غِيضَ الماء
أَيْنَ هُودٌ وَقَدْ دعَا قَوْمَ عادٍ   فعَصَوْهُ فَحَلَّ فيهم وباء
وثمودُ الذين قَدْ أَخذَتْهُمْ   صَيْحَةُ القَهْرِ وِفْقَ ماقد أساءوا
ناقةُ الله أنكروها وَظُلْماً   عقَرُوها فَحَقَّتْ النَّكْبَاء

إبراهيم

أَيْنَ مَنْ حطَّمَ الْهيَاكِلَ حَتَّى   فارَقتها أَصْنَامُهَا الصَّمَّاء
أَوْقَدُوا النَّارَ فاستحالَتْ هبَاءً   ومحالٌ تَذُوقُهَا الأَنْبِيَاء
إنما النَّارُ للعُصَاةِ عَذَابٌ   وهى للمُشْرِكِينَ بِئْسَ الجَزَاء
نارُ كُونى على خَلِيلِىَ بَرْداً   وسلاماً وفى السَّلاَمِ الوِقَاء
وأرادوا كيداً فزادُوا خَسَاراً   حيثُ شاء القَدِيرُ بالخِزْىِ بَاءوا

* * *

يا أَبَا الخَلْقِ والرِّسالةُ وَحْىٌ   وَيَقِينٌ وَمِلَّةٌ وابْتِلاَء
أَنْتَ خَلَّفْتَ ثَمَّ آلِهَةَ القَوْ   مِ جُذَاذًا وهم لَدَيْكَ سَوَاء
بعد أَنْ سِيلَ كُلُّهم هَلْ يُرَجُّو   نَ طعاماً وهل يُجِيبُ الفَضَاء
وَرَمَيْتَ الكبيرَ مِنْهُمْ بِجُرْمٍ   هو فينا المَحَجَّةُ البَيْضَاء
ثم أوقَفْتَهُمْ لديه حيارى   يتَمَارَوْنَ ، حين ضَلَّ المِرَاء
يَوْمَ لم تَخْشَ غَيْرَ رَبِّكَ قهَّا   رًا ولم يَنْتَقِصْكَ طينٌ وماء

بل تَقَدَّمْتَ والنَّوَاظِرُ حَسْرَى ... وَرَفَعْتَ التَّوحِيدَ وهو اللِّوَاء
ثم لم تَعْتَصِم بأَجْنِحَةِ الرُّوحِ ... وَلِلطَّيْرِ في الجحيمِ انْطِوَاء
فتأَبَّيْتَ عن سِوَى اللهِ غوثاً ... يا رسولاً يرادَ مِنْهُ شِوَاء
وبها كنتَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّـــهِ واللهُ في يديه العطَـــاءَ
واهبُ الشيخِ بَعْدَ ضَعْفٍ وَبأْسٍ ... فَلِذَاتٍ نَعِمَّتِ الأَبْنـــاءَ
ثم لما أُرِيتَ مِنْهُمْ ذَبِيحـاً ... قُمْتَ للهِ ثُمَّ سِيقَ الفِدَاء

يعقوب

أين مَنْ وَاصَلَ البُكاءَ حزيناً ... فتوَارَى عن مُقْلَتَيْهِ الضِّيَاء
يوم جاءوهُ بالقَمِيصِ عِشَاءً ... وعليـه للإفْكِ تجـرى دِماء
وادَّعُوا كاذِبينَ أَنَّ أخاهم ... خانَهُ الذِّئْبُ واعتراهم بُكاء
قال بل سَوَّلَتْ نفوسكم الكَيْـ ... ـدَ فَصَبْرٌ ورحمـةٌ ورجاء
كَظَمَ الغَيْظَ بالتَّصَـبُّرِ دَهراً ... وإلى اللهِ حَقَّ منه الْتِجـاء
ودَعا اللهَ وَالِهــاً مُسْتَغِيثاً ... خاشِعاً قانِتاً فَحَلَّ الرِّضـاء
يأبا الغائبِ العزيزِ سـلامٌ ... بعد طُولِ الفِرَاقِ آنَ اللِّقاء
حين رَدُّوا قميصَ يوسُفَ فارْتَـ ... ـدَّ بَصِيراً وزال عنه العَنَاء

يوسف

وَابْنُ يعقوبَ إذْ رأَى الشمسَ والبَدْ ... رَ مَنَاماً وللرُّؤَى فيـــاء
وبمرآها رَأَى أَحَـدَ العَشْـ ... ـرِ وَمَجْـلاَهُ كوكب لألاَء(١)
سُجَّداً كلُّهم له وهو عَبْدٌ ... ذُبِحَتْ عنه سَـخْلَةٌ عجفـاء
وتَجَلَّتْ كأنهـا فَلَقُ الصُّبْـ ... ـحِ لِسِبْطِ الذَّبِيحِ فيها رجاء(٢)

(١) قوله أحد العشر خطأ .
(٢) سبط الذبيح : يراد به يوسف بن يعقوب بن إسحق ، وفى رواية ينسب الذبح إلى إسحق والأصح أنه إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

وَنَهَاهُ عن الإباحةِ بالسِّرِّ ... وفى الصُّبْحِ لِلدُّجَى إفشاء
هكذا يَجْتَبيكَ رَبُّكَ بالتَّأْ ... وِيلِ والله فَاعِلٌ ما يشاء
وَرَأَوْهُ أَحَبَّ منهم إليه ... فَأَسَرُّوا كَيْداً وضاع الإخاء
وَرَأَوْا قَتْلَهُ فقال أخوهُ ... إنما القتلُ سُبَّةٌ شَنْعاء
قال أَلْقُوهُ فى غَيَابَةِ هذا الْجُ ... بِّ حتى يُقْصِيهِ عنه الدِّلاَء
وإذا بِيعَ مرَّتَيْنِ نَبِيٌّ ... ورسولٌ كَفَى الْأُبَاةَ الإباء
كلُّ ضَرَّاء تَرْجُفُ النفسُ منها ... هى بالصبرِ والتُّقَى سَرَّاء!
يا صَبِيًّا رَأَى الكواكبَ فى النَّوْ ... مِ سجوداً يَشِعُّ منها الضِّيَاء
حكمةُ الله فى القضاءِ فأَكْرِمْ ... بصَبُورٍ تحوطُهُ الأَرْزَاء
إن زَوْجَ العزيزِ أوسعُ عُذْرًا ... فيكَ والنفسُ صَرْصَرٌ هَوْجَاء
إذْ رأت مشهد النبوَّةِ نوراً ... زانه منكَ مظهرٌ وَضَّا
وعزيزٌ على القلوبِ التَّجَنِّى ... هل عن الْحسنِ تَذْهَلُ الحسْنَاء
غير أن الحياء أدنى إلى الإفْ ... كِ وهذا لتَسْتَرَ الفَحْشَاء
حينَ هَامَتْ وحين هَمَّتْ رأَيْنَا ... كَ وفيًّا ودُونَكَ الأَوْفيَاء
نفسُهَا سَوَّلَتْ وأسْبَاطُنَا أَنْ ... فُسُهُمْ سوَّلَتْ وَهَذَا بلاَء
وكفى نِسْوَةَ المدينةِ عُذْرًا ... فى خِضَابٍ تسيل منه الدِّمَاء

* * *

حَسَمُوا فِتْنَةَ الجمَالِ بِسِجنٍ ... ضَمَّ مَنْ كُلُّ أَهْلِهِ أَنْبِيَاء
بيع بَيْعَ الرَّقيق مِنْ بَعْدِ رُؤْيَا ... وإلى السِّجْنِ سيقَ وهو بَرَاء
وبرؤيا النديم صادف عَهْدًا ... بدأ الوعظُ فيه والإلقاء
قال ما تَعْبُدُونَ إلا خَيَالاً ... قَلَّدَتْهُ وشَاَحَهَا الأَسْمَاء
وبرؤيا العزيزِ حطَّمَ أصفا ... د البلاَيا فزالت اللَّأْوَاء

وَدَعَوْهُ وللبرىء احتِكامٌ ... واحتجاجٌ وهكذا البُرآء
قال ما بالُهُنّ قطّعن أيديهِنّ من قبلُ أيها الوُزَرَاء؟
قالت الآن حصحص الحقُّ إنى ... أنا راودتُه وقُدَّ الرداء!
ليسَ لى أنْ أخُونَ بالغَيْبِ عَهْدًا ... ثورةُ النَّفْسِ فى ابْنِ آدمَ دَاء
هى نَفْسى وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسى ... إنما النفسُ لومُها إغْرَاء!
فتلقوه طاهر اليَدِ والذَّيْلِ ولاحت بأُفقِهِ الجَوْزَاء
وأَحَلَّتْهُ عند ذى العرش حَقًّا ... مَقْعَدَ الصِّدْقِ نَفْسُهُ العَصْمَاء
واجتباهُ لنفسه وَخَليقٌ ... بابن يعقوبَ عِنْدَها الاجتِبَاء
هكذا يُصْهَرُ النُّضَارُ لِيَصْفُو ... والبلايا يَتِمُّ فيها الصَّفَاء

أيوب

أيْنَ مَنْ قَاوَمَ البَلاَءَ بِصَبْرٍ ... وَثَبَاتٍ ولم يُفِدْهُ الدَّوَاء
مسَّهُ الضُّرُّ وانبرى الدَّاءُ يَفْرِى ... جِسْمَ طَوْدٍ فانهارَ هذا البناء
صَيَّرَتْهُ يد النُّحُولِ خَيَالاً ... وتعدَّى على الصَّبُورِ البَلاَء
إيه أَيُّوبَ قد بَرَتْكَ سِقَامٌ ... كاد يدعوكَ لو جَزِعْتَ الثَّوَاء
كلَّما ازْدَادَ كَرْبُهُ زَادَ صَبْرًا ... هَزَمَ الدَّاءَ حَمْدُهُ والثَّنَاء
كَشَفَ الله ضرَّه حين عادَتْ ... لرميمِ العظام تجْرِى الدِّمَاء

شعيب

أَيْنَ مَنْ قال أهل مَدْيَنَ أَوْفَوا ... واتَّقُوا الله مَنْ لَهُ مايَشَاء
فَتَوَلَّوْا عنه وقالوا ضعيفٌ ... أنتَ فينا وهُمْ هُمُ الضُّعَفَاء
وأَصرُّوا على العِنادِ عُتُوًّا ... ونُفوراً ولم يُفِدْهُمْ دَوَاء
وأهانوا شُعَيْبَ بِئْسَتْ نفوسٌ ... قادها الكُفْرُ والعَمَى والرِّيَاء
فاستحقُّوا العذابَ لمَّا تعَالَوْا ... كِبْرِيَاءً وحلَّ فيهم شقاء

موسى

أيْنَ موسى مَنْ جاءَ فِرْعَوْنَ طِفلاً ... تَرْقُبُ النَّجْمَ عَيْنُهُ النَّجْلاء ؟
أُودِعَ الْيَمَّ خَوْفَ بَطْشٍ عَدُوٍّ ... وتَوَلَّى مَهْدَ الكليمِ الماء
أَكْرَموهُ إذ قِيلَ قُرَّةُ عَيْنٍ ... تَمَّ حَقًّا ما قَدَّرَتْهُ السماء
إن فرعونَ قد طغَى وتعَالَى ... بِئْسَ عهدٌ أُبِيحَ فيه الدماء
آلُ فرعونَ عَذَّبُوا قَوْمَ موسى ... فاستجارتْ رِجالُهم والنِّساء
ودَعَوْا رَبَّهُمْ فأرسل سَيْفًا ... كان حِصْنًا عَزَّتْ به الأبرياء
عَزَّ قَدْراً فى قصر فرعونَ حتى ... إذ بدا الرُّشْدُ دَبَّتْ البَغضاء
ثم لما آتاه حُكْماً وعِلْمًا ... وأُسْتَوَى حين فاضت الآلاء
بات فى مِصْرَ للمليك ظَهيراً ... وتوارتْ أمامه الأقوياء
وأتى القَوْمَ يَرْقُبُ الأمْنَ فيهم ... فالْتقَتْهُ الجناية النَّكْراء
فَدَعَا رَبَّهُ فأَوْلاَهُ عَفْواً ... نِعْمَةً منه وأُسْتُجِيبَ الدعاء
جاءَهُ مُؤْمِنٌ المدينةِ يسعى ... حَذَرَ الموتِ هكذا النُّصَحاء
فَرَّ يعدو تِلْقَاءَ مَدْيَنَ خَوْفاً ... خَشْيَةَ الغَدْرِ يوم تَمَّ العَدَاء
وعلى مَائِهِ تَزَاحَمَ قَوْمٌ ... وعنِ الْوِرْدِ أُبْعِدَ الضُّعفاء
ما لِبِنْتَيْ شُعَيْبَ عنه تَذُودَا ... نِ انكساراً إذ هَزَّ موسى الوفاء
فى مَضَاءٍ كَعَزْمَةِ اللَّيْثِ وَفَّى ... وسَقَى وَأُتَّقَى وَحُقَّ الثناء
ودعاهُ شُعَيْبُ يَجْزِيهِ أجراً ... وهو من مَوْقِفِ الأجيرِ بَرَاء
فالْتَقَى عندها نَبِيَّانِ شَيْخٌ ... وفَتِيٌّ فَنِعْمَ هذا اللِّقاء
هذه (صَفْوَةُ) العزيزةُ فاهْنَأْ ... زانها الطُّهْرُ والوفا والحياء
بعد عشرٍ سَعَى فآنَسَ ناراً ... ما رآها حتى تَعَالَى النِّداء
إخلع النَّعْلَ وَأُسْتَمِعْ مايُوحَى ... وَتَجَلَّدْ لا تَضْطَرِبْ يا هَوَاء

جانِبَ الطُّورِ كلَّم اللهُ موسى وَاُجْتَبَاهُ وفاضتِ النَّعْمــاء
قال أَلْقِ الْعَصَا فأَدْبَرَ خَوْفاً قِيلَ خُذْهَا تَجِدْ بها ما تشاء
وَتَبَدَّتْ بيضاءَ من غيرِ سُوءٍ يَدُ موسى وَأَيَّدَتْهُ السماء
آلَ فرعونَ قد أتاكم رسولٌ فأطيعوه أو يَحِيقَ البــلاء
قال فرعونُ إِنَّ هــذا لَسِحْرٌ ثم طارت بالساحر الأنباء
حين أَلْقَى عَصاهُ خَرُّوا جميعاً سُجَّداً واُعتلَتْ ضُحاهاَ ذُكاء
شَهِدَ الــكلُّ أَنَّ موسى رسولٌ وَتوَلَّتْ فِرْعَوْنَهُمْ كِبْرِيَاء
فَتَمَادَى وَجُنْدَهُ فى ضــلالٍ وَغَوَتْهُمْ بِطَيْشِهَا الْخُيَــلاء
أدركَ البحرَ قبل أن يُدْرِكُوهُ وَهَوَى بالْعَصَا فَشُقَّ المــاء
وَاُقْتَفَاهُ عوفرنُ وَالْجُنْدُ سَــعْياً كان قبراً لهم وتَمَّ الجــزاء

قارون

إِنَّ قارونَ كان من قَوْمِ موسى غَرَّهُ الْجــاهُ والمُنَى وَالثَّرَاء !
أَيْنَ ما حازَ من كُنوزٍ ومالٍ خَبَّأَتْهَا فى جَوْفِهَا الجــرداء ؟
كلُّ من يفْــتَرِى ينــالُ جزاءً وَيْحَ قارونَ هَــدَّهُ الأفْــتِرَاء
دَبَّرَتْ نَفْسُهُ الخبيثةُ كَيْداً وعلى الحقِّ لا يفوزُ المِــرَاء
وَاُعْتَدَى ظالماً غويًّا كذوباً وَاُسْتَفَزَّتْ عُتُوَّهُ كِبْرِيَاء
فَرَمَاهُ القضـــاء منه بِخَسْفٍ عِــبْرَةً للذينَ عاثوا وَرَاءوا(١)

طالوت وجالوت

أَيْنَ جالُوتُ مَنْ تَعَاظَمَ بَأْساً أَرْضَعَتْهُ لِبَانَهَــا الْهَيْجَــاء
أَوْقَدَ النارَ ثم شادَ حُصوناً لجيوشٍ ضاقت بهــا الْبَيْدَاء

---

(١) الصحيح : وراءوا بفتح الهمزة وضمها للضرورة .

ما تمادى جالوتُ فى الظُّلْمِ حتى أمرَ اللهُ قومَ موسى فجاءوا
كان طالوتُ قد تملَّكَ فيهم وهو بَدْنٌ وكلُّهم ضُعفاءُ(١)
قادَهُمْ مُرْغَمِينَ نحو الضَّوارى جَيْشُ جالوتَ صَخْرةٌ صَمَّاء
أظلمَ الجوُّ حين ماجَتْ جيوشٌ وبَدَا الرُّعْبُ وادْلَهَمَّ البلاء
صَالَ جالوتُ حين آنسَ ضَعْفاً وتمشَّتْ فى جَيْشِهِ الكبرياء
أذْهَلَ الخوفُ جيشَ أبناءِ إسرا ئيلَ أو كاد فيه يخفى الهواء
صَاحَ طالوتُ بينهم لا تخافوا كم ضعيفٍ دَانَتْ له الأقوياء
وَانْبَرَى كالْحُسامِ يطلبُ خَصْماً لا يُبَارِيهِ فى الْوَغَى قُرَنَاء
رحمةُ الله أرسلتْ خلفَ طالو تَ غُلاَماً قد عزَّزَتْهُ السماء
كان هذا داودُ سابعَ رَهْطٍ أينما حلَّ زالت النَّكْبَاء
رفع النصرَ حين صَالَ لِوَاءً وكَسَاهُ ثوْبَ الجلالِ الضِّيَاء
لم يُرَوِّعْهُ بَأْسُ خَصْمٍ عَنيدٍ وجِيادٌ مَاجَتْ بها الصَّحْرَاء
فتَمَشَّى كاللَّيْثِ يطلبُ قُوتاً ثم نَادَى جالوتَ آنَ الفَنَاء
ورماهُ فَخَرَّ يَهْوِى صَرِيعاً وتَرَامَى على العَدُوِّ القضاء
سَبَّحَ اللهَ وهو يرمى حَصَاهُ جَاوَبَتْهُ الْقِفَارُ والأرجاء
نَزَلَ الهَوْلُ واقْتَفَتْهُمْ جُنُودٌ لم يَرَوْهَا وسالت الرُّحْضَاء(٢)
تَمَّ نصرُ الضَّعيفِ حينَ تجلَّتْ قُوَّةُ اللهِ واستقامَ البِنَاء

داود

أيْنَ دَاوُدَ من أنَابَ بِقَلْبٍ خَشْيَةَ الله حَلَّ فيه الحيَاء
وأقام الصَّلاةَ خمسينَ عاماً لم يَشُبْ حُسْنَ صِدْقِهَا إعْيَاء !
حَوْلَهُ أوَّبَتْ جميعُ الرَّوَاسى ثمَّ حنَّتْ لصوتِهِ الشَّمَّخَاء

(١) بدن : عظم البدن ، وفى القرآن : « وزاده بسطة فى العلم والجسم »
(٢) الرحضاء : العرق

وكذا الطيرُ جاوَبَتْهُ بِشَدوٍ رَجَّعَتْ حُسْنَ شَدْوِهَا الأرْجَاء
وَأَلَنَّا لَهُ الحديدَ أنِ أعْمَلْ سابغاتٍ هى الدُّروعُ رداء(١)

سليمان

أَيْنَ من سُخِّرَتْ لَهُ الجِنُّ والإِنْسُ وَغَنَّتْ بِمُلْكِهِ الجَوْزَاء
يأمُرُ الريح حَيْثُمَا شاءَ تجْرى مَلِكٌ صَدْرُ تَاجِهِ الزَّهْراء
زاده اللهُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ عِلْماً وتباهت بِمُلْكِهِ الشُّعَرَاء(٢)
وَرِثَ المُلْكَ عن أَبيه وملكٌ شاده الحمدُ طاب فيه الثناء
يا ابن دَاوُدَ قد ظَفِرْتَ بحُكْمٍ كم تَمَنَّتْ منالَهُ الأكفاء
كنتَ فى الأرْضِ خَيْرَ من حازَ مُلْكاً يا سليمانُ تمَّ فيه العطاء

يونس

أَيْنَ ذُو النُّون إِذْ تَوَلاَّهُ كَرْبٌ فامْتطَى الفُلْكَ حين طَابَ الهواء
وقف الفلكُ بغْتَةً حين قالوا أيها القَوْمُ ساهِمُوا أو تُساؤُوا(٣)
قَدَّرَ اللهُ أنِ يونس يُجْزَى لاختبارٍ وآنَ هذا الجزاء
فرموهُ فى اليَمِّ والحوتُ يجرى سَاقَهُ الوَحْىُ رحمةً والنِّدَاء
ظَلَّ فى بَطْنِهِ يُسَبِّحُ حتى أمر الله أنْ يَزُولَ العنَاء
فَرَّجَ اللهُ كَرْبَ يونس عَدْلاً وبهذا تَمَّ الرِّضَا والصَّفَاء

زكريا

أَيْنَ مَنْ قال لا تذَرْنِى فَرْداً وَهَنَ العظْمُ وَاضْمَحَلَّ البِنَاء
يا سميعَ الدُّعاء هَبْ لِى وَلِيًّا يَرِثُ النور كى يدوم الضِّيَاء

---

(١) لاوجه لرفع كلمة رداء ، وكان يصيب لو قال : (هى الدروع الرداء)
(٢) زاد : زود
(٣) قوله تساءوا خطأ ، صوابه تساءون ، أى يقع عليكم سوء .

هَدِّئِ الرَّوْعَ وَابْتَهِجْ زكريّاً يا كَفِيلَ العذراء آن الوفاء
رحمةُ الله أكرمتك بيَحْيَى نَالَ حُكْماً ما نَالَهُ أَبْنَاء

عيسى

ظلَّ حيًّا مَنْ كلَّمَ الناسَ فى المَهْدِ وطِفلاً وَعَظَّمَتْهُ السماء
خيرُ رُوحٍ حلَّتْ بِأَطْهَرِ أُمٍّ شَهِدَ اللهُ أنها عذراء
جاءها الْوَحْىُ فاستعاذتْ بِرَبِّ الناسِ منه وَدَبَّ فيها الْحَيَاء
قال إِنِّى رسولُ رَبِّكِ حقًّا فاْحمِلِى النُّورَ نِعْمَ هذا العطَاء
فتوارتْ به مكاناً قَصِيًّا وأضاءت مِحْرَابَها الزَّهراء
وأتاها المَخَاضُ إذْ تَتَنَاجَى لَيْتَنِى مِتُّ أو دعانى الثَّوَاء
وَضَعَتْهُ وَالْجِذْعُ يحنو عليها واستنارت بوَضْعِها الأرجاء
إِيهِ أُمِّى لا تحزنى واْحمِلِينى سوف يبدو لِلْقَوْمِ هذا الضِّيَاء
فَأَتَتْ قَوْمَهَا به وهى خَجْلَى فرَمَوْهَا بأَنَّ هذا بِغَاء
أُخْتَ هارونَ كيف تَرْضِينَ هذا آلُ عِمْرَانَ كلُّهُمْ أتقياء
إن هذا بَيْتُ العفافِ قديماً كنتِ نَذْراً فكيف ضاع الوفاء
فأشارت إليه فاهتزَّ عيسى وتَجَلَّى على المَسِيحِ الإباء!
بُوغِتَ القومُ إذ تكلَّمَ فى المَهْدِ صَبِيًّا وَخَيَّمَ الإصغاء
قال إِنِّى عَبْدٌ لِرَبِّ البرايا أَرْسَلَتْنِى بِالْبَيِّنَاتِ السماء
حَمَلَتْنِى أُمِّى كما شاء رَبِّى فهى أُمٌّ ما شَابَهَتْهَا نِسَاء
أَحْسَنَ اللهُ نَبْتَها واْجْتَبَاهَا وحَبَاهَا الرِّضَا فنِعْمَ العطاء
واْصْطَفَاهَا على النِّساء جميعاً آيةُ الطُّهْرِ دُرَّةٌ عَصْمَاء
آمَنَ الكلُّ بابنِ مَرْيَمَ حقًّا أَمْطَرَتْهُمْ فى عَهْدِهِ الآلاء
كان يدعو إلى الصلاةِ وَجِيهاً فَتَفَانَتْ فى حُبِّهِ الأوفياء

منه جاءت بالخارقات عِظَاتٌ حَدَّثَتْنَا عن صِدْقِهَا الأنباء
طَالَمَا أَبْرَأَ المسيحُ وأَحْيَـــا حكمةُ الله نالها مَنْ يشاء
ســـألوه أَنْزِلْ علينا طعاماً عَـلِمَ الله ما أَصَرُّوا وشاءوا
قال عيسى: اللَّهُمَّ أَنْزِلْ علينا ما أرادوا حتى يَـتِمَّ الوَفاء
فَرِحَ القومُ حين قال بَشِيرٌ إيهِ يا قوم قد أُجِيبَ الدعاء
وتَوَالَى نزولُهـا فى أَوَانٍ كان عيداً لهم وزال المِرَاء
ظَلَّ يدعو عيسى بنُ مريمَ فيهم للهُدَى ناصحاً فَســادَ الوَلاء
بِئْسَ قَوْمٌ كانُوا لعيسى عَدَاءً عَـلِمَ الله أنهم سُفَهـــاء
دَبَّرُوا للمسيح كَيْداً وَدَوْماً يُحْبِطُ الله كَيْدَ مَنْ قد أساءوا
رفَعَ الله رحمـــةً منه عيسى أَكْرِمِى الضَّيْفَ رَحِّبِى يا سماء

محمد صلى الله عليه وسلم

من كُنوزِ الْيَقِينِ بَدْرُ قُرَيْشٍ (أحمدُ) المُصْطَفَى عليه الثنـاء
خاتَمُ المُرْسَلِينَ مَنْ بَشَّرَتْنَا قبل مِيلَادِهِ به الأنبيـــاء
أَرْسَلَتْهُ للعالمين ســلاماً رحمـةُ اللهِ واصطفاهُ العَلاء
ورُقِيًّا أَسْرَى به الحقُّ لَيْلاً فأَعَزَّتْ من شَأْنِهِ الإسراء
وبفضلِ الإلهِ أحرز مجـــداً لم تَحُزْ بعضَ قَدْرِهِ الأَكْفَاء
وتدانَتْ له الصِّعابُ وأَضْحَى يتسامى إلى السماء البِنـــاء
وأنار القلوبَ بِالْهَدْيِ حتى عَمَّ نورُ الهُدَى وسادَ الضِّياء
وأقام الدِّينَ الحنيفَ بِسَيْفٍ كُتِبَ النصرُ فوقه والمَضَـــاء
وأَعَزَّ الإســلامَ رغم أُنُوفٍ خَيَّمَ الكُفْرُ حَوْلَهَـا والعَـداء
رَدَّ كَيْدَ العَدُوِّ شرقاً وغرباً بجيوشٍ رجالُها أَوْفِيـــاء
عَزَّزَتْهُمْ من السماء جنودٌ لا يُبَالُونَ بالوَغَى أقوياء

طاردوا المشركين من كلِّ صَوْبٍ فَتَفَشَّى فى الكافرين الفناء
وَعَدَ المؤمنين جنَّاتِ عدْنٍ فتمنَّوْا لو أنهم شُهداء
جاهدوا طائعين أمرَ نَبِيٍّ كم تفانت فى حُبِّهِ أتقياء
شرَّفَ اللهُ قَدْرَهُ واُجتباهُ فأضاءت بنُورِهِ العَلْياء
جعل اللهُ نورَهُ بَدْءَ خَلْقٍ وعلى نورِهِ سَعَى الحُنَفاء
رفع الله ذِكْرَهُ واُصطفاهُ وحَبَاهُ من الكريمِ العطاء
جاءهُ الْوَحْىُ بالرِّسالةِ لمَّا تَمَّ ميقاتُهَا وحانَ الوَفاء
كانَ للناسِ هادياً وبشيراً ونذيراً لِمَنْ عَصَوْهُ فباءوا
كان فى الأرضِ والسمواتِ عِيداً يوم ميلاده وعَمَّ النِّداء
كَبِّرِى يا بُدُورُ من كلِّ بُرْجٍ وأُمائى الأرضَ رحمةً يا سماء
ها هو النورُ يا شُموسُ تجلَّى فانظروا كيف تَسْطَعُ الأضواء
سَيِّدُ العالمينَ خيرُ بَشِيرٍ قد أَقَرَّتْ بِبَعْثِهِ الأنبياء
كوكبُ الفاتحينَ أشْرَفُ بَدْرٍ صافحتْ سَيْفَ نَصْرِهِ الجَوْزاء
أول الخلْقِ رُتْبَةً ومقاماً خاتَمُ الرُّسْلِ نورُها الْوَضَّاء
شَرَفٌ عَزَّ أن يُنَالَ ومجدٌ واُقْتِدَارٌ وهَيْبَةٌ ومَضاء
هِمَّةٌ جاوزت أقاصى الأمانى ووفاء وحِكمةٌ وإباء
مُعْجِزاتٌ تَحَيَّرَ العقلُ فيها لم تَنَلْ بُعْدَ شَأْوِهَا أَصْفِيَاء
خيرُ رُوحٍ حَلَّتْ بأشرفِ جِسْمٍ لم يُمَادِلْهُ فى الوجودِ نَقَاء
جَوْهرٌ خالِصٌ تَلَأْلَأَ نوراً لم يُمَاثِلْهُ فى السَّنَاءِ صَفَاء
رحمةٌ ساقَهَا المُهَيْمِنُ للنَّا سِ دَوَاءً فكان منه الشِّفَاء
أحمدُ المُجْتَبَى شفيعُ البرايا يوم يَشْتَدُّ كَرْبُهَا والعَنَاء
جامِعُ الأنبياءِ تحت لِوَاءٍ رَفَعَتْهُ يَمِينُهُ السَّمْحاء

قائدُ الْمتّقين نحو خُــلودٍ لم يُشَبَّهْ نَعيمُهُ والهنـــاء
صاحبُ الْحَوْضِ فى فسيحاتِ عدْنٍ يوم يحْـلو وُرُودُهُ والسّقـاء
أمرَ اللهُ أنْ تُصَلِّى عليه ســائرُ الـكائناتِ والآلاء
ثم باتت فَرْضاً على كلِّ نَفْسٍ تتَنَاجَى بِذِكْرِهَا الأوفياء
يا ضِياءَ الأبصارِ يا بَدْرَ كَوْنٍ أَبَدِيٍّ نُجُومُهُ الأنبيــــاء
يا شِفَاءَ القلوبِ من كل دَاء يا طبيباً ما غابَ عنه الدواء
يا مُنيرَ العقولِ فى ظُلْمَةِ الجهـ ـلِ ســلامٌ ورحمةٌ وولاء
يا رجاءَ العيونِ فى كلِّ آنٍ يا عظيمَ النُّهَى عليك الثناء
يا مُجيرَ النفوسِ من كَرْبِ يومٍ يُفْقِدُ الرُّشْـدَ هَوْلُهُ والبلاء
يا سِرَاجَ الْهُدَى عليك صلاةٌ وسلامٌ يَعُمُّ منهُ الرِّضاء

* * *

كلُّ نَفْسٍ لابُدَّ ذائقةُ المَوْ تِ يقيناً متى دعاها الفَناء
سُـنَّةُ اللهِ فى جميعِ البرايا وَنفَاذٌ لما أراد القضـــاء
إنما الْحَيُّ يا ابْنَ آدم فَرْدٌ لم يُنَازِعْهُ ما قضَى شُرَكاء
وَاحِدٌ لم يَـلِدْ قَوِيٌّ عزيزٌ نَافِذُ الأمرِ صانِعٌ ما يشاء
عالِمُ الْغيْبِ لم يُماثِلْهُ شىءٌ وله وَحْدَهُ العُلاَ والبقــاء

* * *

أيها الناسُ خالِفُوا طَيْشَ نَفْسٍ صَرَفَتْهَا عن الْهُدَى الأهواء
واتركوا اللّهْوَ ما استطعتم فعَارٌ أنْ تولى فى غيِّهَا الْحَوْباء
واعملوا الطَّيِّبَاتِ ما لاحَ فجرٌ إنَّ لِلطَّيِّبَاتِ نِعْمَ الجزاء
واصنعوا الخيرَ للحياتَيْنِ حتى تأْمَنَ النفسُ إنْ تَدانَى القضاء
واستعينوا بالصبرِ فى كلِّ خَطْبٍ فهو للنفسِ والفؤادِ الدواء

أنفقوا المالَ فى المبرّاتِ حتى ... لم يُهَدِّدْهُ بالنَّفادِ الفنـــاء
واطلبوا الرِّزْقَ طَيِّباً وحلالاً ... فإذا طَابَ عَزَّ منه البنـــاء
وأقيموا الصــلاةَ للهِ فرْضاً ... فهى للقلبِ واليقينِ الضِّيـــاء
وهى تَهْدِى إلى العفافِ وتَنْهَى ... كلَّ نَفْسٍ طَاشَتْ بها الفَحْشاء
وأقيموا الميزانَ بالْقِسْطِ حتى ... لا يقولَ الـكِرامُ ضاع الوفاء
واجعلوا الْبِرَّ والزكاةَ شَفِيعاً ... يوم تَجْرِى بالمَوْقِفِ الرُّحَضاء
وأَتِمُّوا شهرَ الصيامِ قِيَاماً ... إنَّ قرآنَ فجرِهِ لَألاء
وأقيموا مَنَاسِكَ الحجِّ سَعْياً ... حول بَيْتٍ عِمَادُهُ العَلْيـــاء
حَرَمٌ طاهرٌ ورُكْنٌ شريفٌ ... وَحَطِيمٌ وكعبةٌ ولِوَاء
وَاتَّقُوا اللهَ فى الضَّعِيفَيْنِ عطفاً ... وحناناً نِعِمَّتِ الرُّحَمـــاء
وَأَغِيثُوا المَلْهُوفَ جوداً وحلماً ... وَاطْمَئِنُّوا فلا يَضِيعُ الجزاء
وَاكْظِمُوا الغَيْظَ واصْفَحُوا عن مُسِئٍ ... واذكروا عَدْلَ مَنْ له الـكِبْرِياء
وأطيعوا أوامرَ اللهِ حُبّـــا ... وَاتَّقُوا يوم لا يُفِيدُ الفِـداء
واحذروا الشِّرْكَ فالْمُهَيْمِنُ فَرْدٌ ... لا شَــبِيهٌ له ولا شُرَكاء
قادرٌ قاهرٌ سميعٌ بصـــيرٌ ... خالقُ الخلْقِ فاعِلٌ ما يشـــاء
واقْصِرُوا فى الْخُطَا وسيروا الْهُوَيْنَا ... فمع العَدْوِ تَعْـثُرُ الشَّهْبـــاء
واغْضُضُوا الطَّرْفَ فالعيونُ شُهودٌ ... واكبحوا النفسَ فالـكمالُ الحْيَاء
واجعلوا حِلْيَةَ التَّوَاضُعِ تاجاً ... واحذروا أن تَغُرَّكُمْ كِبْرِياء
وازرعوا اليوم تحصدوا بعد حينٍ ... وَابْتَنُوا حيث لا يزولُ البِنَاء !
وصِـلُوا العهدَ بالوَفاءِ دَوَاماً ... فمن الظلمِ أنْ يموتَ الوَفاء
واجعلوا العدلَ إنْ حكمتُمْ شِعَاراً ... وانصروا الحقَّ يستحقُّ الثناء
واذكروا الموتَ بين آنٍ وآنٍ ... فهو وِرْدٌ تجتازُهُ الأحيـــاء

أين كنتم يُدْرِكْكُمُ الموتُ حتى ... لو حَوَتْكُمْ فى بُرْجِهَا الجَوْزاء
سَارِعُوا لِلْهُدَى وَعِفُّوا وَتُوبُوا ... وَاْهدِمُوا إِفْكَ ما اْدَّعَى الأدعياء
وَاْتَّقُوا النَّارَ دار كُلِّ أَثِيمٍ ... فهى مَثْوَى مَنْ أَنْكَرَتْ حَوَّاء
يوم يُدْعَى : هل امتلأتِ ؟ وتدعو ... بزفيرٍ : إِلَيَّ يا أَشْقِيَـــاء !
وَاْدْرَأُوا النفسَ عن سُمومِ الأفاعى ... فَهَوَى النفسِ حَيَّـةٌ رَقْطَاء
بَادِرُوا بالسُّجودِ لِلّهِ شُكْراً ... وأطيعوهُ فالنعيمُ الجـــزاء

* * *

أيهـا الناسُ لا تُعِيرُوا اْسْتِمَاعاً ... لِهُرَاءِ مما اْدَّعَى الأَغْبِيَـــاء
وَاْضْرِبوا الأرضَ بالخُرافاتِ واْمْشُوا ... مُطْمَئِنِّينَ حيث شـــاءَ القضاء
وَاْسْتَعِيذوا بالله من شَرِّ غَاوٍ ... وَمُضِـــلٍّ قد أنذرته السماء
قد عَصَى اللهَ فى السُّجودِ فَصُبَّتْ ... لَعْنَةُ اللهِ فوقه والبـــلاء
قال رَبِّ أَنْظِرْنى حتى تُوَافى ... من دَيَاجِى أجداثِهَا الأشـلاء
يوم تجرى الأجسادُ لِلْحَشْرِ حَيْرَى ... وَيُنَادِى القضاءُ آنَ الوَفاء
إِبْقَ حتى مِيقَاتِ يومٍ عَبُوسٍ ... قَمْطَرِيرٍ أَهْوَالُهُ صَعْقَاء [1]
حارِبوهُ بالصـــالحاتِ وَأَدُّوا ... كُلَّ فَرْضٍ يدعو إليه العَلاَء
واتركوا الخمرَ فهى أكبرُ رِجْسٍ ... زَيَّنَتْهُ جُنُودُهُ الأغـــوِياء
سَهَّلَتْ للنفوسِ كُلَّ المَعَاصِى ... تحت إغرائها جَنَى الأشقياء
لَقَّبُوهَا أُمَّ الخبائث قِدْمَاً ... حيث مَالَتْ بالنفسِ زال الحَيَاء
وادفعوا بالعفافِ كُلَّ حرامٍ ... بَيَّنَتْهُ الشـــريعةُ الغَرَّاء
وانشروا العِـلْمَ والفضيلةَ حتى ... تَتَوَارَى الرذيلةُ الحمقـــاء
واقطعوا دَابِرَ الفُجُورِ وَإِلاَّ ... تَتَمَشَّى مع الدَّمِ الفَحْشـاء

(١) ابق : جواب قوله « أنظرنى » فى البيت الأسبق .

وابذلوا النفسَ فى صِيَانَةِ عِرْضٍ ... كى يُوارَى عَنِ العيونِ البغاء
واجعلوا الصِّدْقَ والأمانة نوراً ... فيه تمشون حين يَخْبُو الضِّياء
وامنعوا بالتُّقَى مَطَامِعَ نَفْسٍ ... تَسْتَبِيهَا بمكرِها الأهواء
طَهِّرُوهَا من الذنوبِ عَسَاهَا ... تُمْنَحُ العَفْوَ يوم تُطْوَى السماء
وَتَفَانَوْا فى صُنْعِ كلِّ جميلٍ ... إنما المَكْرُمَاتُ نِعْمَ العطاء
وَتَوَاصَوْا بالحقِّ وَاسْعَوْا كِراماً ... واطلبوا العَفْوَ يَكْتَنِفْكُمْ رِضَاء
وَأَمْلَؤُا القلبَ رحمةً وحناناً ... وَيقيناً إيمانُهُ لا يُرَاء (١)
وَأشْتَرُوا الخُلْدَ باجْتِنَابِ الخطايا ... صَحْوَةُ العَيْشِ لمحةٌ فالتَّوَاء

* * *

يا ابْنَ حَوَّاء قد خُلِقْتَ ضعيفاً ... فَإِلاَمَ الجَهَالَةُ الحمقاء ؟
جِسْمُكَ الغَضُّ هَيْكلٌ من تُرابٍ ... هَيْمَنَتْهُ عَلَى الثَّرَى الخُيَلاء
سوف يَبْلَى مهما حَبَتْهُ الأمانى ... خاضعاتٍ وَمَاجَ منه الهواء
وَاتقَتْهُ الأُسُودُ بَرًّا وبحراً ... وَالتقَتْهُ المَوانِعُ الشَّمَّاء
وَبَكَتْهُ العيونُ شرقاً وغرباً ... وَرَثَتْهُ الأئمَّةُ الشُّعَرَاء
وَتَدَانَتْ له المطالبُ سَعْياً ... واستنارت حياتُهُ الرَّغْداء
وأتاحت له المَعَالِى كُنوزاً ... لم تَهَبْهَا لغيرِهِ العَلْيَاء
وَأَعدَّتْ له المَوَاهِبُ حُكْماً ... ما استطاعت بُلُوغَهُ الحُكَماء
وَتَمَشَّتْ له المَصَاعِبُ طَوْعاً ... حين طارت بِمُلْكِهِ الأنباء

* * *

يَنْعَمُ الجِسْمُ بالحياةِ قليلاً ... ثم يدعوهُ بعد ذاك الفَنَاء
فَيُلَبِّى نِدَاءَهُ وَتُوَلِّى ... عنه تلك النَّضَارَةُ الحَسْنَاء

---

(١) لعله يريد أن يقول إن إيمانه حق لارياء فيه .

وَيُوَارَى عن العيونِ وَيَبْلَى وهشيمًا تَضُمُّهُ الغَبْرَاء
إنما النفسُ للخلودِ فحَسْبِي يا ابْنَ حَوَّاءَ يوم يدنو القضاء
موقفٌ حاشِدٌ وَحَشْرٌ رهيبٌ وقيامٌ أَهْوَالُهُ فزْعاء
يَجْمَعُ الخلْقَ كلَّ قاصٍ ودَانٍ منذ عاشت عَلَى الثَّرَى حَوَّاء
فَادَّرِعْ مَا يَقِيكَ هَوْلَ عذابٍ وَادَّخِرْ مَا يَفِرُّ منه البَلاء
إنَّ تَقْوَى الإِلَهِ أكبرُ ذُخْرٍ وهي كَنْزٌ لا يَعْتَرِيهِ الفنَاء

* * *

أيها الناسُ هذه بَيِّنَاتٌ وَعِظَاتٌ قامت لها الخُطَبَاء
أَوْقَفَ النفسَ وَالنَّفِيسَ عليها عُلَمَاءٌ أَئِمَّةٌ أَنْبِيَاء
فخذوها مِلْءَ اليقينِ وَوَفُّوا ما أُمِرْتُمْ به يَحِلَّ الرِّضاء
ها هو العقلُ رائدٌ فَذَرُوهُ يَتَخَيَّرْ لِحَظِّكُمْ ما يشاء
إنْ تكونوا مُصَدِّقِينَ فَأَمْنٌ ونعيمٌ ورحمةٌ وهناء
أو تكونوا مُكَذِّبِينَ فَوَيْلٌ وعذابٌ ونِقْمَةٌ وشقاء
فاسْلُكُوا ما حَلاَ لكم من طريقٍ خَيْرُهُ النُّورُ ، شَرُّهُ الظَّلْمَاء
لا يرى الظالمون فيه سبيلاً وَبِنُورِ الْهُدَى يَرَى الأتقياء
فاستقيموا وآمِنُوا وَأَطِيعُوا يَهْدِكُمْ رَبُّكُمْ وَيَحْلُو الثناء
وَاعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ تَنَالُوا أَجْرَ إيمانِكُمْ وَتَرْضَى السماء
واذكروهُ وسَبِّحُوهُ كثيراً ما تَغَشَّى دُجًى وَلاَحَ ضِيَاء

مرآة الزمن

هوِّنْ عليك فكلُّ حيٍّ فانِ ... وَاذْكُرْ بقاءَ مُدَبِّرَ الأكوانِ
واصْبِرْ على ماقد أصابك وَاحْتَمِلْ ... مُرَّ الأَذَى وَمَظَالِمَ الإنسانِ
واجعل لنفسك من ثباتِكَ قُوَّةً ... تكفيك شرَّ وَساوِسِ الشيطانِ
وانْظُرْ (لمرآةِ الزمان) بناظِرٍ ... رُسِمَتْ عليه عجائبُ الحَدَثَانِ
صَوِّرْ على إنسانِ عَيْنِكَ مسرحاً ... لَعِبَتْ بِساحَتِهِ ذَوُو التِّيجَانِ
من كل عاتٍ كم تَخَيَّلَ أنه ... بلغ السماء بِقُوَّةِ السلطانِ
فَطَغَى وَتَاهَ بملكه مُتَأَلِّهاً ... وَدَعَتْهُ عِزَّتُهُ إلى العِصْيَانِ
كم من قصورٍ بالمظالمِ شَادَهَا ... بَاتَتْ لِسُكْنَى البُومِ والغِرْبَانِ
سَفَكَ الدماءَ وجَارَ جبَّاراً وقد ... نسى الحسابَ وَهَيْبَةَ الرحمنِ
ومشى وَمَقْتُ الكِبْرِياءِ يَقُودُهُ ... وَالعُجْبُ يملأُ ساحةَ الإيوانِ

* * *

يروى لك الماضى عجائبَ مارأى ... ويمرُّ بالذِّكْرَى على الأذهانِ
فإذا وَهَبْتَ له التَّأَمُّلَ لحظةً ... تبدو إليك شَرَاسَةُ الحيوانِ
طوراً تُبَاغِتُكَ العِظَاتُ وتَارَةً ... تُدْمِى فُؤَادَكَ قَسْوَةُ الإنسانِ
كم فى العصورِ السَّالِفَاتِ تَمَثَّلَتْ ... عِبَرٌ جَرَتْ بالمَدْمَعِ الهَتَّانِ
نُقِشَتْ عَلَى صُحُفِ الزمانِ فَسَجَّلَتْ ... غَضَبَ السماءِ على الأثيمِ الجانى
بينا الجرائمُ يَسْتَفِزُّكَ بَطْشُهَا ... والظلمُ يَفْتِكُ بالبرىءِ العانى
يَنْجَابُ دَيْجُورُ المظالمِ مُسْرِعاً ... ويلوح فجرُ العدلِ والإحسانِ
ويروقُ لِلعَيْنِ التَّمَتُّعُ حيناً ... تبدو الفضيلةُ فى أجلِّ معانى

يَصِفُ الـكِرامَ العاملين ومالهم   فى المجدِ من عِزٍّ ومن سُلْطَانِ
ويُعيدُ ذِكْرَ مآثرٍ قد سَطَّرَتْ   لِذَوِى الإنابةِ آيةَ الشُّكرانِ

* * *

هِمَمٌ تجاوزت السِّماكَ مـكانةً   وعَلَتْ عَلَى الْجَوْزَاءِ والمِيزانِ
لم يُبْلِها مَرُّ العصورِ ولم تَزَلْ   ما عُمِّرَتْ مرصوصةَ البُنْيـانِ
تبقى بقـاءَ العالمين مَصُونَةً   تزهو بِثَوْبِ نَضَـارَةِ الرَّيْعَانِ
تلك الـكنوزُ الخالداتُ براءةٌ   للعاملين بدعوةِ الإيمـــانِ
الباذِلِينَ النفسَ فى طَلَبِ الْعُلاَ   والطالبين مَرَاحِمَ الْغُفْرَانِ
والعاكِفِينَ عَلَى الفضيلةِ والتُّقَى   والذاكرينَ اللّهَ كلَّ أَوَانِ
بِيضُ الصنائعِ خيرُ من قد أَنْجَبَتْ   حَوَّاءُ من أَسْمَى بنى الإنسانِ
نورٌ تَلأْلأَ من سناءِ مواهبٍ   سَطَعَتْ بجوهرِ أَطْهَرِ الأبدانِ
شَهِدَتْ بما للمحسنين أُولِى النُّهَى   فى الْبِرِّ من سِرٍّ ومن إعلانِ
وبما أقامَ المُصْلِحُونَ من الْهُدَى   فى عالمِ الذِّكْرَى بكلِّ مكانِ
وبِصِدْقِ عَزْمِ الْمُتَّقِينَ وما لهم   بالزُّهْدِ من قَدْرٍ عظيمِ الشَّانِ

* * *

تَتَمَثَّلُ الْحُسْنَى وما قد خَلَّدَتْ   بصحائفِ التاريخِ من رضوانِ
تبدو وآياتُ الرِّضـاءِ تَضُمُّهَا   لِلْخُلْدِ ضَمَّ الروحِ للأبدانِ
سِيَرٌ تَمُرُّ على البصائرِ والنُّهَى   مَرَّ الكريمِ الْمُزْنِ بالْوِدْيانِ
فَيَفِيضُ ماءُ الْغَيْثِ بين سهولها   ويسوقُ سَيْلَ الْخِصْبِ للعيدانِ
حتى إذا أَزْدَهَت الْمُرُوجُ وَأَيْنَعَتْ   لَعِبَ النسيمُ بِمُورِقِ الأغصانِ
وَجَرَتْ يَنَابِيعُ الحياةِ وَنَوَّرَتْ   شَتَّى الزُّهُورِ بأبدعِ الألوانِ
هَذِى قلوبُ المهتدين وماحَوَتْ   بالْهَدْىِ من صِدْقٍ ومن إيمانِ

فَدَعِ التَّمَرُّدَ يا ابْنَ آدم واتَّعِظْ ... واعلم بأنك فى نعيمٍ فانِ
مهما بَلَغْتَ من المكانةِ وَالْغِنَى ... والحظِّ والإقبالِ والسُّلْطَانِ
وَتَقَرَّبَتْ منك المحاسِنُ كلُّهَا ... وَسَعَتْ إليك مواهبُ العِرفانِ
وَمَشَتْ تُحَيِّيكَ الجنودُ وفَوْقَهَا ... رَفْعَ اللِّوَاءِ بَوَاسِلُ الفُرْسَانِ
وَالْمُلْكُ أَقْبَلَ نحو بَابِكَ حاملاً ... بِيَدِ المَهَابَةِ أَنْفَسَ التِّيجَانِ
وَانْقَادَتِ الآمالُ حتى أصبحت ... كلُّ المطالبِ منك طَوْعَ بَنَانِ
وَحَسِبْتَ أنك قد تملَّكْتَ السُّهَى ... وَأَمِنْتَ شَرَّ تَقَلُّبِ الأزمانِ
وَنَعِيمُكَ الزَّاهِى خيالٌ زائلٌ ... كالوَهْمِ حول فَطَانَةِ الأذهانِ

* * *

بَسَمَتْ لك الدنيا وَغَرَّكَ حُسْنُهَا ... فَغَدَوْتَ عَبْدَ جمالِها الْفَتَّانِ
وَانْقَدْتَ مدفوعاً بِطَيْشِكَ لِلْهَوَى ... وَسَبَاكَ منها ساحرُ الأجفانِ
سَلَبَتْ نُهَاكَ بِغَيِّهَا ودهائها ... ورَمَاكَ سَهْمُ خِدَاعِهَا الْخَوَّانِ
مَرَّ الشبابُ وأنت مسلوبُ النُّهَى ... تَلْهُو وَتَلْعَبُ فى صَفَا وأمانِ
وَدَنَا المشيبُ مُبَاغِتاً لكَ نَاعِيًا ... عهدَ الشبَابِ لِسَالِفِ الأَزْمَانِ
فَصَحَوْتَ مرتجفَ الفؤاد مُقَلِّباً ... كَفَّيْكَ تَصْلَى زفرةَ النَّدْمَانِ
تبكى صِبَاكَ وكيف ضاعَ بَهَاؤُهُ ... والنفسُ طامِحَةٌ إلى العِصْيَانِ
فَيُرِيقُ دَمْعَكَ ذِكْرُ أَيَّامِ الصِّبَا ... والذكرياتُ مُثِيرَةُ الأشْجَانِ
تُمْسِى وتُصْبِحُ نادماً مُتَحَيِّرًا ... وتَبِيتُ فوقَ مَرَاجِلِ النِّيرانِ
يَالَيْتَ عُمْرَكَ ما تَقَضَّى غَضُّهُ ... فى اللَّهْوِ بينَ الكأسِ والنُّدْمَانِ
والكاعباتِ الساحراتِ رَشَاقَةً ... واللَّاعِبَاتِ فَوَاتِنِ الغِزْلَانِ
والشارداتِ الْغِيدِ رَبَّاتِ البَهَا ... النَّاعِسَاتِ مريضةِ الأجفَانِ
وبواعثِ الأُنْسِ القصيرِ زَمَانُهُ ... مهما طَرِبْتَ لِرِقَّةِ الأَلْحَانِ

والمُغْرياتِ الصَّافياتِ وما لَهَا ... فى النَّفْسِ من شوقٍ ومن تَحْنَانِ

* * *

إنَّ الحيــاةَ سُرُورَهَا وبُــكاءَهَا ... ونعيمَهَــا وشقَاءَهَا سِيَّــانِ[1]

وصفاءَ عَيْشِكَ يستحيلُ دَوَامُهُ ... والنَّفْسُ لا تخلو من الأحزانِ

والدهرُ لا يبقى على صَفْوِ المُنَى ... يلقاكَ بين مخاوفٍ وأمانِ

بينا يسوقُ لك السَّعَادَةَ باسِمًا ... ويزيدُ فيكَ مهـابةَ السلطانِ

ينسابُ كالأفْعَى فينشِبُ نَابَهُ ... فى أَمْنِـكَ المُتَغَافِلِ الوَسْنَانِ

فتهبُّ مُلْتَاعَ الفُؤَادِ مُعَذَّبًا ... وتذوقُ سوءَ عواقبِ الخُسْرَانِ

تبكى على مافاتَ من زمن الهنا ... وتَنُوحُ نَوْحَ الحائرِ الولهـانِ

* * *

إذْ ذَاكَ ينقشِعُ الظلامُ وَيَنْجَلِى ... نورُ اليقينِ بيَقْظَةِ الوُجدانِ

فَتُذِيقُكَ الأيَّامُ مُرَّ كُؤُوسِهَا ... لِتَعيشَ بين مَذَلَّةٍ وَهَوَانِ

عَدْلًا يُبَكِّيكَ القضاءُ جزاءَ ما ... أَسْرَفْتَ فى حُبِّ المتاعِ الفانى

فاقْنَعْ مِنَ الدُّنيا بزادِكَ راضيـًا ... واهْجُرْ نعيمًا عاد بالخسرانِ

واتْرُكْ هَدَاكَ اللهُ غَيَّكَ وَاستقِمْ ... واخْتَرْ لنفسكَ خَالِدَ البُنْيَانِ

واذكرْ هَوَانَكَ تحتَ أطباقِ الثَّرَى ... فى المُفْزِعَيْنِ الرمْسِ وَالأَكْفانِ

* * *

أيْنَ الذينَ عنَا لِسَطْوَةِ مُلْكِهِم ... قاصى المدائنِ رَهْبَةً وَالدَّانى

وَمَشَتْ مُلُوكُ الأرض تحت لوائهم ... طَوْعًا تحيطُ بهم عُتَاةُ الجَانِ

وبِأَمْرِهِمْ جرَتِ الرِّيَاحُ وَسُيِّرَتْ ... لَهُمُ الجِبَالُ وسُخِّرَ الثقَلَانِ

---

(١) سيان تقال للاثنين وسواء لما زاد عن ذلك ، وفى البيت مطابقة بين السرور والبكاء من جهة ، والنعيم والشقاء من جهة أخرى .

أَيْنَ الأكاسرةُ الذين تفاخَرُوا ... بعروشهم وجلالةِ الإيوانِ
ونخـامةِ المُلْكِ الرفيعِ عِمادُهُ ... فى عهد أعْدَلِهم أنو شِرْوَانِ
أين الغُزَاةُ الفاتحونَ وبأْسُهُمْ ... أين الأُسُودُ قياصِرُ الرُّومانِ
أين الرؤوسُ العبقريَّاتُ التى ... نَزَلَتْ عليها حكمةُ اليُونَانِ
تلك الكنوزُ الغالياتُ شهادةٌ ... لبلوغهم أقْصَى مَدَى العِرفانِ

* * *

أَيْنَ العَمَالِقَةُ العُتَاةُ وأين ما ... تركوه من تَرَفٍ ومن عُمْرَانِ
من قَوْمِ عادٍ والعراقِ وتُبَّعٍ ... وثمودَ مَنْ شَقُّوا عَصَا العِصْيَانِ

* * *

أَيْنَ العصورُ المُدْهِشَاتُ وماحوَتْ ... من فِطْنَةٍ أعْيَتْ قُوَى الإنسانِ
عهدٌ له شَهِدَ الزمانُ عجائباً ... ضَنَّ الوُجودُ بها لعهدٍ ثَانِ
نَالَتْ به مصرُ الفريدةُ هَيْبَةً ... لجلالها قد كبَّرَ القمرانِ
عِلْمٌ يُحَارُ الفكر فى تكييفه ... بَعُدَتْ مَدَارِكُهُ عن الأذهانِ
سِرٌّ أصولُ العلم فيه طَلَاسِمٌ ... أوْحَى بها الكَهَنُوتُ لِلْكُهَّانِ
دَرَسَتْهُ بين هياكلٍ ومعابدٍ ... متعاقدين بأغلظِ الأيمـانِ
حفظاً لأسرارِ الحياةِ ومالهم ... فى الأرض من حُكْمٍ ومن سُلْطَانِ
فأطاعهم شُمُّ الجبالِ وَصَلْدُهَا ... والماء لبَّاهُمْ بكلِّ لِسَانِ
وأنْصَاعَ مختلفُ الرِّياح لأمرهم ... ومَشَتْ سِبَاعُ الطَّيْرِ والحيوانِ
رَصَدُوا الكواكبَ وهى بين بروجها ... تجرى بقُدْرَةِ مُبْدِعِ الأكوانِ
ومواقعَ النجمِ البعيدِ مَدَارُهُ ... فى الشَّاسِعَيْنِ الحُوتِ والمِيزانِ[1]
والثاقباتِ الشُّهبِ سابحةَ الفَضَا ... كالبَرْقِ بين الجَدْىِ والسرطانِ

---

(١) الحوت والميزان : برجان معروفان ، ويريد بالشاسعين البعيدين

حَسَبُوا طَوَالِـعَ كلِّ نجمٍ وَاهْتَدَوْا ... لعجائبِ الأفلاكِ فى الدَّوَرانِ
وَتَبَيَّنُوا تلك البروجَ وفِعْلَهَا ... فى مصر أُمِّ المجـد والعمرانِ
فبنوا هياكلهم على أسرارها ... لِتَدُومَ رغم طوارىء الْحَدَثَانِ
عَلِمُوا بأن الشمسَ سَيِّدَةُ الْقُوَى ... رمزُ الحياةِ لهيـكلِ الإنسانِ
ولـكلِّ حِسٍّ حَالٍّ تحت شعاعها ... وهى النموُّ لسائرِ الأبدانِ
فالنَّبْتُ والحيوانُ مُفْتَقِرٌ لهـا ... والطَّيْرُ بين خمائلِ الأغصانِ
والمـاء لولاها لأصبح رَاكِداً ... عَفِناً من الأقذارِ والدِّيدَانِ
فهى التى جعلَتْهُ عَذْباً جارِياً ... فوق السُّهولِ وفى رُبَا الْوِدْيانِ
بَعَثَتْ لسطحِ الأرضِ أعجبَ آيةٍ ... حَفِظَتْ نظامَ العالَمِ الحيوانى
نوراً وناراً من وَهِيـجِ سنائها ... مَلَأَ الفضاءَ وعَمَّ كل مكانِ
حملتْ بخارَ المـاء عذباً طاهراً ... خِلْواً من الأملاحِ والأدرانِ
صَعِدَتْ به مَتْنَ الهواء كأنه ... أَطْوَادُ مَاسٍ فى سهولِ جُمَانِ (١)
حتى إذا اصطدمتْ لِسُرْعَةِ سَيْرِهَا ... تلك الجبالُ هَوَتْ من الذَّوَبانِ
طَوْراً تُمَزِّقها الرِّياحُ وتارَةً ... تجتاحُهَا قِمَمٌ من الصَّوانِ
فالغيثُ يكسو الأرضَ ثَوْباً يانِعاً ... والسَّيْلُ يُهْدِى الخِصْبَ لِلْقِيعَانِ
ولهـا على سَيْرِ الرِّياحِ قيـادةٌ ... وعلى العناصرِ إمرةُ السلطانِ
والأرضُ لولاها لـكانت بَلْقَعاً ... جَرْداء خاليةً من السُّكَّانِ
شادوا لهيـكلها العظيمِ معابداً ... مُزْدانةً بنفائسِ الْقُرْبانِ
نَسَبُوا لها مجدَ الألوهةِ رهبةً ... فانْدَكَّ صَرْحُ عبـادة الأوثانِ
عـكفوا عليها عابِدِينَ وَهَدَّمُوا ... ما شَيَّدُوا لِلْعِجْـلِ والْجِعْرَانِ
واستخدموا تلك القوى لنبوغهم ... ما لم يكن من قبلُ فى الْحُسْبَانِ

(١) كلمة ماس خطأ شائع وصحتها : ألماس ، وبأداة التعريف : الألماس .

نحتُوا بباطنِ «منْفَ» أقْدسَ معْبَدٍ جعلوه بَيْتَ سرائرِ الأكوانِ
صنعوا له مِفْتاحَ سِرٍّ غامضٍ نُقِشَتْ عليه طلاسِمُ الكِتْمانِ
صانُوهُ فى أعماقِ قلبٍ ساهرٍ للرَّابضِ المُتحفِّزِ اليقظانِ
رمزَ المَهابةِ والرزانة والحِمَى للِصَّمْتِ فيه وللسكونِ معانِ
يرمى الفضاءَ بنَظْرَةٍ قد أوقفتْ كَيْدَ العوادِى وَقْفَةَ الحَيْرانِ
جَسَدٌ حوَى أسمى القُوَى رمزاً له جِسْمَ الهِزَبْرِ وهامةَ الإنسانِ
هذا أبو الهَوْلِ الرهيبُ ثَبَاتُهُ مُفْنِى العصورِ وقاهرُ الأزمانِ
عَهِدُوا إليه حِراسةَ الوادى الذى ضَمَّ الكنوزَ غَوَالِيَ الأثمانِ
واستخدموا أرصاده لبلوغهم مجداً تَعَذَّرَ عن ذوى التِّيجانِ
حتى أتى (مينا) وأَسَّسَ مُلْكَهُ وطوَى الزمانُ صحيفةَ الكُهَّانِ

* * *

أَيْنَ الفراعنةُ الملوكُ وأين مَنْ ربطوا السَّفِينَ بِمُقْلَةِ الرُّبَّانِ
أَيْنَ الأُسُودُ الفاتِحُونَ وأين ما بلغته مصرُ بهم من العُمرانِ
آثارُهُمْ فى مصرَ تشهد أنهم كانوا الأَئِمَّةَ فى قوى الإمكانِ
عهدُ العجائبِ عصرُ (منفيس) الذى قامت لِذِكْرَى مجده الهَرَمَانِ
وطَلَاسِمُ السِّرِّ الذى أهدى إلى وادى الملوكِ سِيَادَةَ الوِدْيانِ
وَادٍ كنوزُ الأرضِ تحت أديمِهِ مخبوءةٌ عن أَعْيُنِ الحَدَثَانِ
لو أن قِيمَتَهَا وما فوق الثَّرَى فى الوَزْنِ نَالَتْ رجحةَ الميزانِ[1]
أَخْفَى مَخَابِئَهَا العديدةَ طَلْسَمٌ أسرارُهُ غابت عن الأذهانِ
حُرَّاسُهُ ترمى الفضاءَ بناظرٍ يَقِظٍ تَتَبَّعَ خُطْوَةَ العُدْوَانِ
سَهِرَتْ عَلَى تُحَفِ الملوكِ أمينةً من بطن مَنْفَ إلى رُبَا أسوانِ

---

(١) فى الوزن : أى فى الميزان .

وعلى الْقِبَابِ الْبِيضِ قام أَشَدُّهَا ... عَزْماً يُؤَدِّى واجبَ التِّيجانِ
كَهْفٌ حَوَى كَنْزَ الكنوزِ ولَمْ يكن ... أبداً لِتُدْرِكَهُ يَدُ الإنســانِ
قد هَيَّأَ الْـكَهَنُوتُ أرصاداً له ... أَلْقَتْ عليه طَلاَسِمَ النِّسْيَانِ
تِيجانُ بَيْتِ المُلْكِ من (مينا) إلى ... مَلِكِ الوَغَى (سيزوستريس) الثانى!
وصوالجُ الأُسْـدِ الفراعنة التى ... سحرت عيونَ قياصرِ الرُّومانِ
وحُـلِيُّ رَبَّاتِ الخُدُورِ قلائدٌ ... منضودةٌ من جَوْهَرٍ فتَّـانِ

☆ ☆ ☆

أَيْنَ الجبابرةُ المـلوكُ وَبَأْسُهُمْ ... يوم اشتدادِ الْـكَرْبِ فى الميدانِ
وجماجمُ الأعداءِ جَنَىُ سُيُوفِهِمْ ... تنهـالُ تحت سَنَابِكِ الْفُرْسَانِ
والجو أَقْتَمُ وَالدُّرُوعُ تطايرت ... من هَوْلِ ما قد حلَّ بالأبدانِ
وَجِيَادُهُمْ تنسابُ تحت عجاجةٍ ... ظَلْمَاءَ بين أسِنَّةٍ ودُخانِ
كالأُسْدِ تَنْقَضُّ انقضاضَ صواعقٍ ... تجتاحُ ما تَلْقَاهُ من بُنْيَانِ
تتـكدسُ الأشلاءُ تحت رِكَابِهَا ... فى مَوْجِ بحرٍ من نجيـعٍ قانِ
لم يَثْنِهَا حَشْدُ الجموعِ عن المنى ... كلاَّ ولم تَحْفِلْ بِهَوْلِ طِعَـانِ
مهما تلاَحَمَت الصفوفُ لِرَدِّهَا ... فَشَلَ العـدوُّ وباءَ بالخُسْرَانِ
وَانْدَكَّ صرحُ حصونِهِ وتَشَتَّتَتْ ... أبطالُهُ فى ظُلْمَةِ الْوِدْيانِ
ومشى القضاءُ إلى العدوِّ ومزَّقَتْ ... يُمْنَاهُ قهراً رايةَ العِصْيَانِ
وتَقَدَّمَ النصرُ المبينُ مُصَافِحاً ... أبطالَ مصرَ ضَيَاغِمَ المَيْدَانِ

☆ ☆ ☆

فى كلِّ وَادٍ كان مَيْدَاناً لهم ... نقشوا مواقعهم على الصَّوَّانِ
أثراً يُمَثِّلُ بطْشَهُمْ بِعَدُوِّهِمْ ... فَتْكَ الجِيَاعِ الأُسْدِ بالْغِزْلاَنِ!

صُوَراً تدلُّ على سلامةِ ذَوْقِهِمْ ... وهُيَامِهِمْ بالْغَزْوِ والعُمرانِ !
دخلوا المدائنَ فاتحينَ وعَمَّرُوا ... ما هدَّمَ الجَبَرُوتُ من بُنْيَانِ
وَبَنَوْا لمِصْرَ المجدَ رغم مطامعٍ ... للفُرْسِ والآشُورِ والرُّومانِ
دُوَلٌ تمنَّتْ ما لمِصْرَ من العُلاَ ... ولكم تضيعُ مع الغرورِ أماني
قامت لِتَبْنِي المجد لكن خانَهَا ... بَطْشُ الأُسُودِ بها وجَهْلُ البانى
أَيْنَ الفرَاعِنَةُ الذين تألَّهُوا ... فى مِصْرَ من (خُوفُو) إلى الرَّيَّانِ [1]
زَعَمُوا بِأَنَّ اللهَ حلَّ بِرُوحِهِمْ ... نوراً وهَيْمَنَهُمْ على الإنسانِ
فطغَوْا وعاثُوا مُفْسِدِينَ وأَسْرَفوا ... فى الظُّلْمِ وَالجَبَرُوتِ والطُّغيانِ
كَفرَوا فما الإنسانُ إلا هيكلٌ ... جَسَدٌ سيُصبحُ طُعْمَةَ الدِّيدانِ
والكبرياءُ إذا تمكَّنَ غَيُّهَا ... من نفسه دَفعَتْهُ للعِصْيَانِ
فَهِيَ الجُنُونُ لكلِّ غرٍّ جاهلٍ ... قد هاجَهُ مَسٌّ من الشَّيْطَانِ
أَو فهى مَقْتُ اللهِ صُبَّ على الذى ... نَسِيَ الإلَهَ وباءَ بالخُسْرَانِ
ظلموا وجاروا واستَبَدُّوا قسوةً ... واستسلموا لأوامرِ الكُهَّانِ
ظَنُّوا بأن نَعِيمَهم وهَنَاءَهُمْ ... فى مُلْكِ وادى النيلِ ليس بِفَانِ
واستخدموا الإنسانَ فى أهوائِهِمْ ... واستعبَدُوهُ بِرَهْبَةٍ وهَوَانِ

* * *

نحتُوا الجبالَ وشَيَّدُوا من صَلْدِهَا ... فوق الهِضَابِ غرائبَ الأَوْثَانِ
رمزاً (لآمونَ) الذى عكفُوا على ... تقْديسِهِ رَدْحاً من الأَزْمَانِ
ولمجدِ (إيريس) التى ظَنُّوا بها ... سِرَّ الحياةِ وصحةَ الأَبدانِ
والعجل منف وماله قَدْ هَيْكَلُوا ... جسداً يمثِّلُهُ بكلِّ مكانِ

---

(١) الريان بن الوليد ، وهو فى قول بعض المفسرين العرب اسم لفرعون موسى .

(آبيسُ) حيًّا أكرموه وميّتًا قد جهّزوه بأنفسِ الأكفانِ
ومشتْ تُشيّعهُ الملوكُ يحفّهمْ كهنوتُ منفَ لمدفنِ الثيرانِ
عَبَدُوهُ فى ظلِّ الحياةِ وبعدهَا سجدوا لهيكله الرّميمِ الفانى
كفروا بمَنْ خلقَ الوجودَ وأشركُوا بالواحدِ المتكبّرِ الدّيانِ
وبنوا من الصَّخرِ الأصمِّ معابداً تحت الرُّبَا وبباطنِ الودْيانِ
دُوراً ببطن الأرضِ لم تجسُرْ على تدْميرِهَا يوماً يدُ الحدثانِ
قد أودعوها ما استحالَ وجودُهُ مهما تولى الأرضَ من عُمْرانِ
صوراً من الذّهبِ المُصفّى مَثّلتْ أشْباحَ ما عبَدُوا من الهذَيانِ
وعلى الهياكلِ حولها تُحفٌ لها قد رُصِّعَتْ بالدُّرِّ والمرْجانِ
وبأبدع الصُّورِ الجميلةِ سجّلوا أسرارَ ما اعتقَدُوا على الجدْرانِ
نقشاً على الصخر الذى عجزَ البِلَى عن مسِّهِ لدقيق صُنْعِ البانى
مرّتْ به الأجيالُ وهو كأنه لم يَمْضِ بعدُ لصُنْعِهِ يوْمانِ !
ترْمى معانيه العجيبةُ عن مدَى بُعْدِ المُفكّرِ فى المصيرِ الثانى !
علِمُوا بأن الرُّوحَ لا تفْنَى وإنْ عبَثَ البِلَى بالهيكلِ الجسْمانى
والجسمُ يقضى فى الحياةِ نَصِيبَهُ حتى يَحِينَ من الحِمَامِ تدَانى
فيفارقُ الدنيا إلى الدار التى بسعادةٍ تلقاهُ أو بِهَوَانِ
كلُّ النفوسِ إلى الخلود مَصيرُهَا والحظُّ موْكُولٌ إلى الغفْرانِ
قد برْهَنَ الإيضاحُ فى تَصْويرِهِمْ بأدقِّ فهمٍ فى أتمِّ بيانِ
عن صحوةِ الأجسادِ بعد رُقُودِهَا وقيامِهَا للحشر والميزانِ
حَيْرَى تُبعْثِرُهَا القبورُ كأنها سَيْلُ الجرَادِ يهيمُ فى الودْيانِ
هذا هو البعثُ الذى جحَدتْ به أمَمٌ غوَتْهَا فتْنَةُ الشيطانِ !
حقًّا له فَطِنُوا ولما تأتِهِمْ رُسُلٌ لتَهْدِيَهُمْ إلى الإيمانِ

ولقد رأى الحكماء أن يدَ البِلَى لا بُدَّ أن تَسْطُو على الأبدانِ
فتظلُّ تُنْشِرُ فى عظامٍ رَطْبَةٍ حتى تجرِّدَهَا من الديـــدانِ
فإذا تجرَّدَ أَصْلُهَـا وتطهَّرَتْ من كلِّ ما حَمَلَتْ من الأدرانِ
أخذ البِلَى يَسْرِى فينْخَرُ هيكلاً ينهارُ تحتَ عواملِ الذَّوَبَانِ
عِهْنًا فَـتُرْبًا كى يُرَدَّ لأصـله والتربُ أصلُ سُلاَلَةِ الإنسانِ
لا بدَّ يوماً كلُّ من فوق الثَّرَى ذرًّا يـكون على مَدَى الأَزْمَانِ
لمـا بدَا ليقينِهِمْ مَارَاعَهُمْ وتبيَّنوا أنْ كلُّ شىءٍ فانِ
خافُوا على أجسادهم من هَوْلِ ما يَنْتَابُهَا فى وَحْشَةِ الأكفانِ
فتمـكَّنوا بالعـلم من تَحْلِيلِهَا ودَمُ الحيـاةِ يَدِبُّ فى الأبدانِ
فحصُوا كُرَاتِ دَمِ الوريدِ وكيف قد ردَّ الحيـاةَ لهـا دَمُ الشُّرْيَانِ !
وتبيَّنوا القلبَ العجيبَ بُطَيْنُهُ وأُذَيْنُه فى الصدر يَنْقَبِضَانِ !
ليحوِّلا مَصْلَ الوريدِ إلى دَمٍ حىٍّ إذا مادار يَنْبَسِطَـانِ
بحثُوا العِظَامَ وماحوَتْ أدوارُهَا فى الشِّيبِ والإطفَالِ والشُّبَّانِ
بحثاً يحـارُ الطبُّ فى تَعْلِيلِهِ عرَفُوا به ماهيَّةَ الحَيَوَانِ
وبقاءَهَا عُمْراً طويلاً غَضَّةً فى قوةٍ وســـلامةٍ ومِرَانِ
فنخاعُهَـا واللحم سرُّ حياتِهَـا وهما لحفظ كِيَانِهَـا حِصْنَـانِ
ماغابَ عنهم عنصرٌ لم يفقهوا تأثيرَهُ فى الهيـكلِ الجثمانى
لهم انْطَوى العِلْمُ العجيبُ وصرَّحَتْ بالرغم منه غوامضُ الـكِتْمَانِ
فتوصَّـلُوا لنوالِ ما قد أَمَّـلُوا ومع الهزيمةِ لا تَضِيعُ أمانى

* * *

كانت نتيجـةُ بحثهم أَنْ وُفِّقُوا عِلْمًا بسرِّ صيانةِ الأبـدَانِ

بعدَ المماتِ من اتِّصال يد البِلَى   يوماً لتبقى آيةَ الأزْمَانِ
أَمْناً تمرُّ بهَا القُرُونُ وبعدَهَا   تتعاقبُ الأَحْقَابُ فى اطمئْنَانِ
وقوامُهَا صلْبٌ فَتِيٌّ ذَابِلٌ   قد غادرتْهُ نضارةُ الرَّيْعَانِ.
ألقى السُّبَاتَ عليه سلطانُ الكرى   وقد اختفى عن أعين الحَدَثَانِ
لم تنتقِصْهُ سوى الحياةِ ولم يكُنْ   بالميت أَحْرَى مِنْهُ بالوَسْنَانِ
ترمى مناعتُهُ الزمانَ بنظرةٍ   سَخِرَتْ بفتك كوارثِ العُدْوَانِ
والدهرُ يَعجَبُ أن سلطانَ البِلَى   مكتوفةٌ بالرغم منهُ يَدَانِ
مرّتْ به تلك العصورُ وتَنْقَضِى   أَمْثَالُهَا وقُوَاهُ فى نُقْصَانِ
سدٌّ رهيبٌ كُلَّمَا قَدْ هَمَّ أَنْ   يَجْتَازَهُ لايستطيعُ تَدَانِى
هذا هو السرُّ الذى هَزَمَتْ به   حكماء مصرَ عوَادِىَ الملوانِ
أقصى عن الإغريق كلَّ حضارةٍ   وقضى على مدنيــة الرومانِ
ما أبعد الإنسان فى تفكيره   لو كان منصرِفاً إِلَى العِرْفَانِ
تأْتى المَواهبُ لو تكامل نورُهَا   بالمُعْجِزَاتِ بعيدةِ الإمكانِ
هل بعدَ تلك الخارقات فطانةٌ   أو بعد ذيَّاك النجاح أَمانى ؟
أجْسَادُهُمْ شهدَتْ بقوّةِ عزمهِمْ   وثباتِهِمْ وبحدَّةِ الأَذْهَانِ
ظهرتْ لنُورِ الشمسِ وهى كأنَّها   لم تقض بعد المَوْتِ غيرَ ثوَانِ !
وكأنَّ آلافَ السنىِّ تبدلت   يوماً مضى فى راحةٍ وأمانِ
هى بيننا وتظل دهراً بعدنا   وهى التى شهدت ضحى الطوفانِ !
قد أظهر التحنيط أعجبَ آيةٍ   وصلت إليها حكمةُ الإنسانِ
عجزَتْ شعوبُ الأرضِ عن إدراكه   وخبا سراجُ الطبِّ فى اليونانِ

وَخَلَتْ بحارُ ٱلعِلْمِ من أَصْدَافِهِ   مُذْ كفَّ كوكبُهُ عن ٱلدَّوَرَانِ
عِلْمٌ توارى أَصلُهُ وتحجَّبَتْ   أسرارُهُ ونأى عن ٱلبُرْهَانِ
صَعَدَتْ مواهِبُهُ ٱلسماءَ فأَصبحَتْ   ممزوجةً بٱلعالَمِ ٱلرُّوحانى
قد كان إِحدى المعجزات ولم يَزَلْ   أُعجوبةَ الدنيا مدى الأَزمانِ
وكفى به فخراً لمصر وأَهلها   أُمِّ القرى سُلْطَانَةِ الوِدْيَانِ
هى جنةُ الدُّنيا التى قد أَحْرَزَتْ   ما عز من مُلْكٍ ومن عُمْرَانِ

رحلة

يا مَنْ نَفَى عَنِّى لَذِيذَ مَنَامِى ... مِنِّى إليك تَحِيَّتِى وسلامى
يا منْ لِأَوَّلِ نَظْرَةٍ قد خِلْتُهُ ... ملكاً تَرَبَّعَ فوق عرشِ غرامى
فَوَهَبْتُهُ قلبى وكلَّ سَعَادَتى ... وَحَسِبْتُ أَنِّى قد بَلَغْتُ مَرَامى
عامانِ قد مَضَيَا لِعَهْدِ غرامنا ... أَمْسَى بها جِسْمِى أَلِيفَ سَقَامِ
إنى سأشرحُ قِصَّتِى لـكِنَّما ... أَخْشَى دُخُولَ الْوَجْدِ طَىَّ كلامى

* * *

قَدِمَ الربيعُ ففاض بالإنعام ... ودرجتُ أرسمُ للرُّبَى أحلامى
أعدو على النيلِ الحبيبِ هنيهةً ... وهنيهةً أَرْتَادُ أرضَ سلامِ
حتى نزلت بروضةٍ فَوَّاحةٍ ... هى مسرحُ الْغِزْلَانِ والآرامِ (١)
حَوَتِ العجائبَ من فَصِيلاتِ الْفَلَا ... وبَدَتْ جمالاً فى أَتَمِّ نِظَامِ
فَوَلَجْتُهَا والقلبُ يَرْقُصُ غِبْطَةً ... وسمعت فيها صَيْحَةَ الضِّرْغامِ !
مَاسَتْ غُصُونُ الْبَانِ طَوْعَ نَسِيمِهَا ... فانجاب من فَرْطِ الهناءِ ظلامى
يا نِعْمَهَا من روضةٍ فى مصرَ قد ... جَمَعَتْ جميلَ الطَّيْرِ والأنعامِ
تَتَسَرَّبُ الْحُورُ الْحِسَانُ لِدُورِهَا ... من فاتِكَاتِ اللَّحْظِ وَالْهِنْدَامِ !
أَلْفَيْتُ فى وَسْطِ الحديقةِ جَوْقَةً ... صَدَحَتْ تُوَقِّعُ أطيبَ الأَنْغَامِ
فَرَغِبْتُ أَن أَبْقَى لأُطْرِبَ مِسْمَعِى ... وكَأَنْ سَرَى بِالزَّائرِينَ مَرَامِى
فتسابقَتْ نحوَ الْمكانِ الْكاعِبَا ... تُ الْغِيدُ يَجْذِبُهُنَّ صَدْحُ حَمَامِ
وَتَزَاحَمَتْ حَوْلَ الْكواعبِ فِتْيَةٌ ... كُلٌّ له شَغَفٌ بكأسِ مُدَامِ

---

(١) فى هذا البيت والأبيات التالية يصف الشاعر حديقة الحيوان بالجيزة . ويلاحظ فى هذه القصيدة بعض الأبيات الضعيفة مما يوحى بأنها من حيث موضوعها وصياغتها من أوائل نظمه .

بَيْنَا السِّهَامُ من العيُونِ تبَادَلَتْ   نحو القُلُوبِ على أَثَمٍّ وثَام (١)
كنتُ الوحيدَ بمَعْزِلٍ عن جَمْعِهِمْ   وتكادُ تُسْعِدُ وحْدَتِي أَحْلَامي
سَرْعَانَ ما انقطع الخيَالُ لأنني   حالاً شُغِلْتُ بما استحقَّ هُيَامي
ظَبْيٌ تنَازَلَ من سمَاءِ نعيمهِ   لا بَلْ مَلاكٌ فاقَ بَدْرَ تمَامِ
حُلْوُ الشَّمائلِ أَهْيَفٌ مُتَرَبِّبٌ   جَذَبَ القُلُوبَ بِثَغْرِهِ البَسَّامِ
يُزْرِي بِغُصْنِ البَانِ في حرَكَاتِهِ   وَيفُوقُهُ حُسْناً بِلِينِ قَوَامِ
وَيُمَاثِلُ الطَّاوُوسَ في خُطُوَاتِهِ   متفاخراً بجمالِهِ النَّمَّامِ
بَهِجُ الرِّداءِ إذا تبسَّمَ ضاحكاً   صَرَعَ القلوبَ وصادَهَا بسهامِ
رَشَأٌ تَسَرْبَلَ بالجَمَالِ فَوَجْهُهُ   قد صِيغَ من نُورِ الغرام السَّامي
فإذا رنا للشَّمْسِ أوقف سَيْرَهَا   رَمَتِ القِنَاعَ وأردفتْ بِسَلَامِ
والبدرُ يَخْجَلُ من ضياءِ جبينِهِ   ويخافُ أن يَبْدُو بغيرِ لِثَامِ
أَهْدَتْهُ مُبْدِعَةُ الدَّلَالِ لِحَاظَهَا   فكأَنَّهَا طَيْرٌ وكان الرَّامي
بَاهِي المُحَيَّا زانَ حُمْرَةَ خدِّهِ   وَرْدُ الصِّبَى وتوقُّدُ الأَحْلَامِ

☆ ☆ ☆

مَرَّ النَّسِيمُ بها فَحَيَّا باسماً   وَجَرَى يُوَجِّجُ بالأَريجِ ضِرَامِي
ومضت ثوانٍ خِلْتُ فيها أنَّنِي   زُرْتُ الجِنَانَ وَحُقِّقَتْ أَحْلَامي

☆ ☆ ☆

بَيْنَا أنا في بحرِ وَجْدِي سابحٌ   أَشْتَاقُ أن لا تَنْقَضِي أَوْهَامِي
إذ قَدْ تحَوَّلَ نَحْوَ وَجْهِي وَجْهُهُ   فَتَسَعَّرَتْ في مُهْجَتِي آلَامي
وتحركت قَدَمَايَ لا أَدْرِي إلى   أيِّ الجهاتِ تحرَّكتْ أَقْدَامي !
ومشيتُ من خَمْرِ الهَوَى مُتَمَايِلاً   ثَمِلاً ولكنِّي بغيرِ مُدَامِ

---

(١) الأصح أن يقول « تبودلت » .

دَخَلَ الهَوَى قلباً خلياً لم يَكُنْ يَدْرِي الهَوَى حتى اكتوى بغَرامِ
وطفِقْتُ لا أدرِي أحُلْماً ما أرَى أم يقظةً أم فترةَ الأوهــامِ
وتحركت قَدَماهُ نحوِي فاغْتَدَى قَلْبِي يَدُقُّ وخانَنِي إقدامي !
يا نِعْمَهَا من ساعةٍ فيها جرى ماءُ الحديثِ فجاءَ طِبْقَ مرامي
وتحركتْ شَفَتاهُ نحوي وانحنى بعوائدِ التركيِّ عندَ سَلامِ
ورَنَا وقالَ : الوقتَ أرجُو سيدى إيضاحَهُ إذ حان أخْذُ ترَامِي !
فأجَبْتُهُ ويدى تُلاعِبُ ساعتى والقلْبُ يرقصُ من لَذِيذِ مَنَامي :
قد مرَّ بعد الستِّ عشرُ دقائقٍ وأرى الغزالة أعلنَتْ بسلامِ (١)
فتلفَّتَ الظبيُ الجميلُ كأنَّهُ يَخْشَى هجومَ الباطش الضِّرْغامِ !
وتلفظت شفتاه : هيَّا ساعتى إنى أرى قد حان وقتُ طعامي
وتحركت يُمْناهُ نحْوِي وانثَنَى يَنْوِي الرَّحِيلَ مضاعِفاً آلامي
فرأيْتُ نجمَ سَعادَتِي قد أظلمتْ أنوارُهُ وغرِقْتُ فى أوْهامي
وجمعتُ كلَّ قُوَايَ بل وبَسَالتى وأفقتُ حالاً من لذيذِ منامي
وتحركت شفَتَايَ رغمَ إرادَتِي كيما أقاوم عِلَّةَ الإبكامِ
وسألتُهُ : ما الإسم ؟ قالَ ولحظُهُ كالسيف يلعَبُ في يد الصَّمْصَامِ (٢)
إن شئتَ أسْقِطْ ستَّةً من مائةٍ هذا الحسابُ بجُمَّلِ الأرقامِ
فصبرتُ حيناً لم أذُقْ طعْمَ الهُدَى وكأنني قد صُدِّعَتْ أقْلامي
ومضَتْ ثوانٍ والسكونُ مخيِّمٌ من حوْلِنا والفِكْرُ فى آلامِ
حتى عثرتُ بمطلبي فغدوتُ من طرب المسَرَّةِ راقصَ الأقدامِ
ناديتُهُ فاهتزَّ تِيهاً جيدُهُ وكأنْ تهَلَّلَ وجهُهُ بكلامي

---

(١) الغزالة : الشمس ، وأعلنت : يريد غربت ، وقوله بعد الست عشر دقائق : يريد أن الساعة بلغت عشر دقائق بعد السادسة . (٢) الصمصام : هو السيف أيضاً بينما يقصد الشجاع .

وأَجاب والإِعجابُ صَيَّرَ خدَّهُ ... مابين لون الوَرْدِ والأَغْنَامِ [١] :
كيفَ اهتديْتَ إلى أُصُولِ حروفهِ ... كيف اتَّصلت بفائهِ والَّلامِ ؟
من أَين تَدْرِى أنه من أَرْبعٍ ... قد صِيغَ والتكرار بالإِلزَامِ [٢]
فأَجبْتُهُ : هذا الحساب صناعتى ... إِنى أُعَلِّمُ صِيغَةَ الأَرْقامِ [٣]
فرَنَا وقالَ : سأَلْتُمُوا فأَجَبْتُكُمْ ... وَعَلَيَّ حقُّ سُؤَالِ الاستفهامِ !
لكَ ماتشاء فَمَايَتَانِ وعَشْرَةٌ ... وَأَضِفْ إليها اثنين ياابنَ كِرَامِ
وحروفُهُ سَبْعٌ أقولُ بِوَصْفِهَا ... إِسماً بهِ قد عِيلَ صبرُ غَرَامى [٤]
وبه وقد إن أُخرجت فاستُبْدِلَتْ ... باليـاء بعد الراءِ تم مرامى
فتنبَّهَ الظبىُ الجميلُ وتَمْتَمَتْ ... شفتاهُ : صُنْ ياابن الخليلِ زِمَامى
فكأَننى يعقوبُ أَبْصَرَ بعدمَا ... قَضَّى زماناً فى بكاً وظَلاَمِ
وكأَنَّ دُرَّ حديثِهِ قد جاءَنى ... كقميصِ يُوسُفَ فانجلت أَيَّامى
والروضُ هبَّ به النسيمُ مباركاً ... والطير أَشْدَتْ مُنْعِشَ الأَنْعَامِ [٥]
وَبَلاَبِلُ البُسْتَانِ طارتْ حولَنَا ... وكأَنَّهَا تدعُو لَنَا بِدَوَامِ
والنَّرْجِسُ الغضُّ الجميلُ تمايَلَتْ ... أَعْطَافُهُ بالورْدِ والأَكمامِ
وتراقصتْ أغصانُهُ وَتَبَسَّمَتْ ... أزهارُهُ وَعَلاَ هَدِيلُ حَمَامِ
فوقفتُ من طَرَبِ المَسَرَّةِ حائراً ... أَشْتَاقُ حكم النقض والإبرامِ
هَدَأَ النسيمُ وكلُّ حَيٍّ حَوْلَنَا ... قد صار يُشْبِهُ صورةَ الأصنامِ

---

(١) الغنم : زهر أحمر اللون ، جمعها على أغنام .

(٢) يريد أنه مكون من أربعة أحرف ، ويريد بالتكرار تكرار الفاء واللام ، ولعله يقصد الباء واللام فيكون الاسم المراد « بلبل » ومجموعه بحساب الجمل ٦٤ وهو أقرب إلى رقم ٩٤ الذى أشار اليه فى بيت سابق

(٣) يشير فى هذا البيت إلى أنه كان مدرساً للحساب . (٤) يريد أن اسمه إسماعيل صبرى .

(٥) الصواب: والطير شدت ، ولو قال « تشدو » لاستقام الوزن أيضاً .

هَبَّ النسيمُ فشاغلتْ حركاتُهُ عيني وقلبي ثم نارَ غرامي
وَتَدَفَّقَتْ عَنِّي حُنُوًّا نحـوه وكأنَّ وَجْدِي قد أذابَ عِظَامي
وتحركتْ يُمْنَايَ تَلْمسُ زَنْدَهُ فاهتزَّ جسمي وَارْتَخَتْ أقدامي
واشتدَّ في خَفقَانِهِ قلبي وقد أمْسَى بجسمي كلُّ عضوٍ دامي
وَحَسِبْتُ أَنِّي عندما صَاحَبْتُهُ قد صِرْتُ حارسَ رايةِ الإسلامِ!
وكأنَّ مُوسِيقَى الحديقةِ خَلْفَنَا عزفتْ لِصُحْبَتِنا بحُسْنِ خِتَامِ
والشمس عند مَغِيبِهَا قد قَبَّلَتْ وَجنَاتِهِ فَتَلَهَّبَتْ بِضِـــرامِ
والطيرَ عند فراقِهِ قد أَبْدَلَتْ أنغامها بالْوَجْـــدِ والآلامِ
وَحَنَا عليه الْبَـانُ يمنعُ مَشْيَهُ حتى الغصونُ تَعَلَّقَتْ بالْهَامِ
عَشِقَتْهُ كلُّ الـكائناتِ لحُسْنِهُ قدْ جاء يجمعُ غايةَ الإحـكامِ
خَطَّتْ يَدُ التكوينِ فوق جبينه (هذا مَلاَكُ الطَّوْلِ والإنعامِ)
وَعَشِقْتُهُ لا للجمـــالِ وإنمـا لجميلِ أخلاقٍ وَحُسْنِ نِظَامِ
ما زال يُطْرِبُنِي بِعَذْبِ حديثِهِ حتى تركنا منزلَ الضِّـرغامِ

☆ ☆ ☆

خَرَجَ الأمينُ عليه يستدعي لنا سَيَّارَةً من شارعِ الأهرامِ!
وخرجتْ وَالْيُسْرَى تُطَوِّقُ خَصْرَهُ فـكأنه بَدْرٌ بَدَا بظـــلامِ
شَخَصَتْ له كلُّ العيونِ وَلَيْتَـنِي ثوبٌ عليه لـكي أُرِيحَ غرامي
ساعَدْتُهُ حتى جلست جِوَارَهُ إيوانُ كِسْرَى كان دون مقامي!
وعدت هنالك صافناتُ جِيَادِنا مدت مفاتنهـا كَفَرْخِ نَعَـامِ
والجوُّ رَقَّ نَسِيمُهُ من حولنا والبدر أجلى مُزْعِجَ الأحلامِ
وتجلَّت الهيفـاء تلعبُ بالنُّهَى لَعِبًا تضيقُ لِوَصْفِهِ أفهـامي
وكواكبُ الْعَلْيَاءِ زاد وَمِيضُهَا واصطفت الْحُورُ الْحِسَانُ أمامي

ما زال سائقُنا يسوقُ جيادَهُ حتى وصلنا مَلْعَبَ الأقدامِ (١)
فسألْتُهُ إنْ كان يَسْمَحُ وَقْتُهُ كيما أقومَ بواجبِ الإكرامِ
فرَنَا بلحظِ جُفُونِهِ وأجابنى شكراً ولكن حانَ وقتُ مَنَامى

* * *

فرأيْتُ أنْ وَجَبَ الوصولُ لِدَارِهِ حتى أفُوزَ بِصُحْبَةٍ وَتَدَانِى
قَصْرٌ بمصرَ على الولاءِ مُشَيَّدٌ بيت الكرام لِقَاصِهَا والدانى (٢)
تلتفُّ حول فنائهِ فيحاء قد عبقت بسرِّ الوَرْدِ والرَّيْحَانِ
غنَاء تبسم والزهورُ تَزِينُهَا كقلائد الياقوتِ والمَرْجَانِ
والطير كانَ صفيرُهُ يدعو إلى تحريكِ أعطافٍ لِغُصْنِ البَانِ
وَخَرِيرُ أفْوَاه الجداولِ شاركت أنغامَ طَيْرِ الرَّوْضِ فى الألحانِ

* * *

وَلَجَ العزيزُ عَرِينَهُ من بَعْدِ أن أهْدَى سلاماً ضاع فيه بيانى
والبدرُ أسفر والزهورُ تَبَسَّمَتْ واستقبلته شقائقُ النُّعْمانِ
نطق اللسان مُتَرْجِماً عن مُهْجَتِى : سِرْ فى سلامٍ دائمٍ وأمانِ !
يا أيها البدرُ الذى عَنِّى نَأَى ترعاكَ عَيْنُ عنايةِ الرحمنِ
إن كنتَ قد أظلمتَ جَوَّ مَسَرَّتى فكذاكَ شَأْنُ البدرِ فى الدَّوَرَانِ
صبراً فؤادى كلُّ بُعْدٍ ينقضى والدهرُ ضدَّ رغائبِ الوَلْهانِ

* * *

غادَرْتُ ذاكَ القصرَ أحْسُدُهُ عَلَى سِحْرٍ به يُزْرِى بِسِحْرِ بيانى
وقفلتُ مكتئباً أحِنُّ إلى الذى مَلَكَ الفؤادَ بِلَحْظِهِ الفَتَّانِ

---

(١) لعله يريد ملعب كرة القدم بالجزيرة . (٢) قول قاصها : خطأ ، والصحيح : قاصيها .

سُبْحَانَ مَنْ زَرَعَ الورودَ بِخَدِّهِ ... وَجَلَتْ سَنَاهَا زهرةُ الرُّمَّانِ
مَنْ لِي بِدَمْعِي كى أُرَوِّيهَا به ... حتى تضاعف حُسْنَهَا نِيرَانى
سِيانِ فى حُلْمٍ أَرَى أم يقظةٍ ... داعٍ إلى خدِّ الحبيبِ دعانى
وقضيت داجى لَيْلَتِي مُتَقَلِّباً ... حَيْرَانَ لا يَهْوَى الكرى أجفانى
يهفو النُّعَاسُ بِمُقْلَتِي فيرُدُّهُ ... طَيْفٌ يُجَدِّدُ ذِكْرُهُ أشجانى
حتى إذا ذهب الظلامُ وأشرقتْ ... شمسُ الضُّحَى تزهو على الأفنانِ
بادرتُ حالاً بارْتِدَاءِ ملابسى ... وخرجتُ أقصدُ مَسْرَحَ الْغُزْلانِ
والشمسُ قد نَشَرَتْ ذوائبَ شَعْرِها ... تكسو الرُّبَى حُلَلاً من الألوانِ
فعرَجْتُ نحو القصرِ أَذْكُرُ ما مضى ... وَأُعَلِّلُ الآمالَ بالوِجْدَانِ
وَأُرَاقِبُ الظَّبْىَ الغريرَ لَعَلَّهُ ... يَنْسَابُ بين مَعَاقِلِ الوِدْيانِ
ومضى طويلُ الوقتِ حتى خِلْتُنِي ... فى مِرْجَلٍ والجوُّ أحمرُ قانِ
بينا أنا والجوُّ حولى مُعْتِمٌ ... عَصَفَتْ رياحُ صَبَا الحبيبِ الجانى
فَتَحَوَّلَتْ عَنِّى الكآبةُ وَاعْتَلَتْ ... وجهى المَسَرَّةُ وانْجَلَتْ أحزانى
ورأيتُ أَحْسَنَ منظرٍ يدعو إلى ... نَظْمِ القَرِيضِ يَحَارُ فيه البانى
غُصْنَيْنِ بينهما مَهَاةٌ قد بَدَتْ ... فَتَنَتْ قلوبَ الحُورِ وَالوِلْدَانِ
كَسَفَتْ جمالَ الشمسِ وَجْنَتُهَا وما ... للبدرِ ضَوْءُ جَبِينِهَا الفتَّانِ
فاقَتْ غزالَ الأمسِ عَشْرَ مراحلٍ ... وَعَلَتْ تُشَاهِدُ دارةَ المِيزانِ
وَالثَّوْبُ لم يَحْجُبْ خفايا جسمها ... غُصْناً تَرَبَّعَ فوقه نَهْدانِ
باح القميصُ بِسِرِّ مكنونِ الهوَى ... فَجَلا سَنَا فجرٍ أضاءَ عَيَانى
يا ليتنى كنتُ القميصَ وَلَيْتَهُ ... كان المُعَذَّبُ فى الغرامِ مكانى !
حُورِيَّةٌ ضَمَّ الوِشَاحُ قَوَامَهَا ... فكأنها وَوِشَاحَهَا قَمَرَانِ
سَلَّتْ صوارمَ لَحْظِهَا من غِمْدِهَا ... فَسَطَتْ على الآسادِ والغِزْلانِ

وَتَبَسَّمَتْ عن لُؤْلُؤٍ مُتَمَنِّعٍ — (مرَجَ النُّهَى بَحْرَيْنِ يلتقيانِ)(١)
تركته لِلعُشَّاقِ يَنْسِبُ خَدَّهَا — وَاصَبْوَتى منه بِأَحْمَـرَ قانِ
خَـدٌّ يُرِيكَ نَعِيمَهُ فى نَارِهِ — يامَنْ يَرَى الفِرْدَوْسَ فى النِّيرَانِ !
تَرْنُو لَوَاحِظُهَا إلى عُشَّاقِهـا — فَتَصُولُ فى أحشائهم كَيَمانى
صَاغَ الجمـالُ جَبِينَهَا مُتَعَمِّداً — (فأتى كَبِسْمِ اللهِ فى العُنْوَانِ)
شَخَصَتْ إلى الزَّرْقاءِ منها مُقْلَةٌ — وترفَّعَتْ عن رُؤْيَةِ الثَّقَلَانِ(٢)
وَعَلَتْ إلى الجَنَّاتِ تطلبُ أن ترى — هل فى السماءِ لهـا شبيهٌ ثانِ

* * *

فحسبتُ أنى عُدْتُ أحقاباً إلى — عهـد الخرافةِ أعصرِ اليونانِ
وعجبتُ حين رَأَيْتُهَا قد شابَهَتْ — تمثالَ (أورانيا) عظيمَ الشَّانِ
وجرى بها نِبْتُونُ يَسْبَحُ فى الفضا — وغَدَتْ لها الأفلاكُ طَوْعَ بَنَانِ
وكأن (كاليبو) تَغَارُ لأنهــا — مَلَكُ الجمالِ إلٰهَةُ الأغصانِ
لـكنما (جُوبِتِيرُ) تخْشَى بَطْشَهُ — فهو المُنَظِّمُ خُطَّةَ الأكوانِ
صَدَرَتْ أوامِرُهُ إلى الأُلى بأن — تَبْـقَى تُرَاقِبُ دِقَّةَ الدَّوَرَانِ
وأشارَ للأُخْرَى إلى الأرضِ اهْبِطِى — كى تُظْهِرِينَ مَحَاسِنَ الإنسانِ(٣)
وَعَلاَ وكلُّ الـكائناتِ مُطِيعَةٌ — رغمَ الأُنُوفِ إطاعةَ العِبْدَانِ

* * *

هَبَّ النسيمُ فأَقْشَعَتْ حركاتُهُ — سِنَةَ الخيالِ وعُدْتُ لِلوِجدانِ
فَوَجَدْتُنِى مازِلْتُ أَقْتَحِمُ اللَّظَى — والشمسُ هَزَّ لَهِيبُهَا أركانى
والرَّئم يُظْهِرُ أنها قد لاحَظَتْ — أنى أُصِبْتُ بِسَهْمِهَا الخَوَّانِ

---

(١) فى البيت تضمين على عادة الشاعر .
(٢) الصواب أن يقول : الثقلين . (٣) الصواب أن يقول : كى تظهرى .

فَكَسَا الْحَيَاءُ وُرُودَ خَدَّيْهَا دماً ... ومشت وَذَيْلُ قميصِهَا يرعانى
وتمايَلَتْ كالْغُصْنِ حَرَّكَهُ الصَّبَا ... وَتَسَتَّرَتْ عن نَاظِرِى وَعِيَانى
ناحتْ لها الورقاء عند فِرَاقِهَا ... وأحاط جَيْشُ الليلِ بالْبُسْتَانِ
وبقيتُ كالتمثالِ ليس بِجَوْفِهِ ... قلبٌ يَدُقُّ بِفُرْقَةٍ وتدانى !
لم أستطعْ تحريكَ أعضائى ولم ... يَجْسُرْ عَلَى نُطْقِ الكلامِ لسانى
لو أنها عَرَضَتْ لأقيالٍ لما ... هَامَ الملوكُ ببهجة التِّيجَانِ
ولو أنها عرضت لأشْمَطَ عابدٍ ... أَلِفَ السُّجودَ مَحَبَّةَ الْغُفْرَانِ
لرَنَا لِطَلْعَتِهَا وألهاه الهوى ... عن ذِكْرِ آى الواحد الدَّيَّانِ
أنا لم أكن من هؤلاء وليس لى ... أَمَلٌ بأن أغدو وحيدَ زمانى
لكنما ما حيلَتِى وَالسَّهْمُ قد ... راش الفؤادَ وبات طَىَّ جنانى
هذا جزاء فَتًى تلاعبَ بالهوى ... فاعتاض حلو الْعَيْشِ بالأحزانِ

* * *

وَظَلِلْتُ أنتظرُ الْغزَالَ وإنما ... نَارُ الغزالةِ أحرقتْ أبدانى
وسألتُ نفسى هل تكونُ شقيقةً ... للبدرِ أم هذا مَلاَكٌ ثَانِ
ظَهَرَ الغزالُ وَثَغْرُهُ مُتَبَسِّمٌ ... سَرْعَانَ ما بِيَمِينِهِ حَيَّانى
(هَجَمَ السرورُ عَلَىَّ حتى أنه ... من فَرْطِ ما قد سَرَّنى أبكانى)
لله ما أبهَى جميلَ رِدَائِهِ ... ثَوْبٌ يُغَازِلُ حُلَّةَ السُّلْطَانِ
لو أَنَّ كِسْرَى كان فى أيَّامِهِ ... لأُخْتَارَهُ لخلافةِ الإيوَانِ
مَدَّ الْيمينَ مُصَافِحاً وَمُصَبِّحاً ... خِلْتُ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ بِبَنَانى
صافحتُهُ وضغطت بالْيُسْرَى على ... قلبى أُخَفِّفُ وَطْأَةَ الْخَفَقَانِ !
وسألْتُهُ ماءً لِأُطْفِئَ ما بَدَا ... فى القلبِ من ظَمَإٍ ومن نِيرَانِ
فأشار نحو القصرِ ثم تَلَهَّبَتْ ... وَجَنَاتُهُ كعشيقِ بِنْتِ الْحَانِ

وافرحتي لو تسمحن بزيارتي ... فأقابل الإحسان بالشكران
نقضي قصير الوقت حتى ينقضي ... وقت الهجير براحة وأمان
فتحركت قدماي تتبع سيره ... والفرح عاق عن الثناء لساني
وولجت داراً بالجمال تسربلت ... ما حازها قدماً أنو شروان
ما أمها ليل ولم تدر الدجى ... وتكاد تجحد دورة الملوان
وجلست أرشف كأس حب طاهر ... ضن الزمان بها على التيجان
وخلوت بالظبي الجميل وبيننا ... غزل كعذب الماء للظمآن
طوراً نكلم بالشفاه وتارة ... يكفي العيون الهمس بالأجفان
ما كان أشهى خلوتي بمسامري ... لو كان يسمح أن يدوم زماني !

٭ ٭ ٭

غاب العواذل والوشاة ولم يكن ... بالسر يعلم غير غصن البان
ولو اعتقدت بأنه واش بما ... قلنا لصنت السر بالكتمان
ولئن وشى للزهر ما من زهرة ... إلا بعين صبابتي ترعاني
خفت النسيم يذيع أسرار الهوى ... ويبوح بالمكنون من أشجاني
فسألته كتمان ما قد لاحظت ... خطراته والسمع والعينان
فأجابني خفض عليك وليتني ... كهف أعوقك طارئ الحدثان
وجرى يقبل وجنتيه وينثني ... يهدى إلى قلائد العقيان
فتبودلت بيني وبين مغازلي ... قبل يقطعها غرام هاني
يهفو الفؤاد لوقعها فيرده ... باللطف صوت الطهر والإيمان
ما أسعد الولهان حين يضمه ... بيت المحب بخلوة وأمان
ياليتها كانت تدوم وليتني ... قبل انقضاها كنت في الأكفان
سرعان ما تجري أويقات الهنا ... ومن المحال يدوم وقت تداني

نوديتُ وَالظَّبيَ الجميلَ : تفضَّلا ... يدعوكما الطاهى إلى الألوَانِ !
بئسَ النداء فقد حُرِمْنا خَلوَةً ... كانَتْ دَوَاءً للفؤَادِ العــانى
ما كان أَقْصَرَ مُدَّةً أَنِسَتْ بِهـا ... منهُ العيُونُ فكان وَصْلَ غَوانى
كرَّتْ ولكن لم تَطُلْ فكأنها ... طَيْفُ الخيـالِ يَلَذُّ للوَسْنَانِ

* * *

لو أَنَّ أيَّامى تَفِي تمنًا لهَـا ... لبَدَلْتُ أَيَّامى لها بثَوانى
أوأَنَّ عمرَ المرءِ طوعُ بنـانه ... لجعلتُها عُمْرى وَقُلْتُ كَفانِي

قصائدُ اجتماعيّة ووجدانية

حرب طرابلس[1]

التَّاجُ أَثْبَتُ من رَضْوَى يُحِيطُ به ... جيشٌ على الحقِّ مكتوبٌ له الظفَرُ
اللهُ يَحْرُسُهُ والدِّين يَنْصُرُهُ ... كأنه كوكبٌ يَسْمُو له النَّظَرُ
يا آلَ عثمانَ لا زلتم بِمَنْعَتِكُمْ ... تَعنُو الملوكُ لكم والدينُ يفتخِرُ
والغربُ يَعْرِفُ يَوْمَ الحَرْبِ بَطْشَكُمُ ... بقوّةِ اللهِ لا يُبْقِي ولا يَذَرُ
لكنْ تجاهلت الطِّلْيَانُ قَدْرَكُمُ ... فأصبح الذئبُ قُرْبَ الليثِ يُحتضَرُ
يا ذئبُ مالكَ والآجام تَدْخُلُها ... إن غابت الأُسْدُ فالأشبالُ تَنْتَصِرُ!
(يا جيشَ روما) عليكَ اليومَ قد نَقَمَتْ ... أهلُ السماءِ وجِنُّ الأرضِ والبشَرُ
(يا جيشَ روما) فلا ذُقْتَ الهوى أبداً ... أَغرّكَ بالجهلِ سيفٌ كاد يَنْكَسِرُ
وكيف جَرَّدْتَهُ والأُسْدُ رابضةٌ ... تحمي العرينَ وجَمْرُ اللحظِ يستعِرُ
أَهَلْ نَسِيتَ أُسُودَ التُّرْكِ من وَطِئَتْ ... أقدامُهُمْ هامةَ اليونان فاندحروا
فسل (أثينا) و(فِرْسالوس) كم فعلتْ ... جيوشُ (أدهمَ) لما ساقها القدَرُ
إن كان أَدْهَمُ لبَّى أمْرَ خالقِهِ ... فكلُّهمْ (أدهمٌ) في السِّلْمِ مُسْتَتِرُ
ويومَ يعلَنُ أمرُ الحَرْبِ بينهمُ ... تُرى فعالُهُمُو ما ليس يُنتظَرُ
سل بيضَ عُثْمَانَ في الهيجاءِ كم حَصَدَتْ ... من الرؤوس ودمعُ البيض ينهمِرُ
للتُّرْكِ كم طأطأتْ هامُ الملوكِ وكم ... عنتْ وجوهٌ علاها الجُبْنُ والضَّجَرُ
فرسانَ روما أفيقوا من سُبَاتِكُمُ ... جَبْرُ الزجاجِ عسيرٌ حين ينكسِرُ
أَهَلْ نسيتُمْ أمام التُّرْكِ موقفَكُمْ ... وكيف يَثْبُتُ ذئبٌ جاءه نَمِرُ

(١) قيلت في قنا في ١٥ أكتوبر ١٩١١ بمناسبة حرب طرابلس وإيطاليا وقد نشرت في الصحف في حينها.

خليفةُ اللهِ ربُّ العرش حافظهُ ‏ ‏ ‏ والمسلمونَ لمثلِ اليومِ تُدَّخَرُ
(محمَّدُ الخامس) المولى العظيمُ ومن ‏ ‏ ‏ ألقت إليه مقاليدَ النُّهى البَشَرُ
أَنْعِمْ به من مَليكٍ ساس دولتَهُ ‏ ‏ ‏ وما بغير علاءِ الدين يفتكِرُ
يادولة السيفِ أين الضيغمُ الأَسَدُ؟ ‏ ‏ ‏ قرصان رُوماَ عليكِ اليومَ تأْتمِرُ(١)
ما مِنْ شُرُوطِ الوَفَا أن تتركى بَلَداً ‏ ‏ ‏ يحتلُّها الذئبُ والأعداء تفتخِرُ
فبادرى وأظهِرى كالبَدْرِ فى أُفُقٍ ‏ ‏ ‏ لِتجعلى دَوْلَةَ الطِّليانِ تَعْتَبِرُ
بَنِى الهلالِ العدوُّ اليومَ يطمع أن ‏ ‏ ‏ يحتلَّ داراً عليها القلبُ ينفطِرُ
لاكان يومٌ نَرى القرصان ظافرةً ‏ ‏ ‏ على طَرابُلُسٍ يا بِئْسَ ذا الخَبَرُ !
قَوْمٌ أساطيلُهُمْ فِى البحر واقفةٌ ‏ ‏ ‏ تكاد من لطمةِ الأَمواج تنفجِرُ
قومٌ جيوشُهُمْ فى البر شاردةٌ ‏ ‏ ‏ خوفاً من السَّيفِ والأرواح تُحْتَضَرُ
ومن عجيبٍ نرى أسطولهم طَمَعاً ‏ ‏ ‏ خاضَ الظَّلامَ ولكن غرَّهُ القمرُ
هم يحسبون بأن الدهرَ يبسمُ وأل ‏ ‏ ‏ واشِينَ ينفعهم أن أحدق الخطرُ
ويجهلون بأن الدِّين يأْمرُنا ‏ ‏ ‏ يومَ الجهادِ بأَن للموت نبتدِرُ
سيَعْلَمُونَ قريباً أَىَّ مُنْقَلَبٍ ‏ ‏ ‏ ومن سَيَنْزِلُ فى ساحاتِه الكَدَرُ(٢)
ونُشرِقُ الشمسُ والآفاقُ باسمةٌ ‏ ‏ ‏ ويظهرُ الحقُّ والأعداء تنبهِرُ
وَيخفِقُ العَلَمُ المنصورُ فوقَ ربًى ‏ ‏ ‏ فرَّتْ جيوشُ العدا إذْ هالَها الخطَرُ
لكنْ على المسلمينِ اليومَ مَدُّ يَدٍ ‏ ‏ ‏ فالحربُ يلزمُهُ الإِنْفَاقُ والسَّهَرُ
والمالُ مالٌ إذا جادَ الكريمُ بهِ ‏ ‏ ‏ ماالمالُ مافى كنوزِ الأرضِ يُدَّخَرُ

* * *

يامُسْلِمِى الهندِ شُدُّوا أَزْرَ دولتكمْ ‏ ‏ ‏ عن مجدِكمْ حدَّثَ التاريخُ والسِّيَرُ

---

(١) فى البيت خلل عروضى فى قوله « الأسد » .
(٢) تمام القول أن يقول : « أى منقلب ينقلبون » .

يا مسلمي الصينِ واليابانِ همّتكمُ ... فالمال أحسنُ ما يُجْنَى به الثمرُ
يامُسْلمي الفُرْسِ كِسْرَى كان أكْرَمَ مَنْ ... ببذل أمْوالِهِمْ قد تَشْهَدُ العُصُرُ
سكانَ أطْلَسَ إنَّ الدينَ يأْمركم ... ببَذْلِ أرواحكم ياحبَّذا السَّفَرُ[(١)]
أبناءَ مصرَ أعيدو اليومَ مَجْدَكُمُ ... النيلُ يشهدُ والأهرامُ والأثَرُ
قد كان مجدكمو فاقَ السُّهى وسَمَا ... إلى العُلَا منزلاً يَسْمُو له البَصَرُ
فبادِرُوا بأداءِ الفَرْضِ واُسْتَبِقُوا ... للاكتتابِ بمالٍ تحسن الذِّكرُ[(٢)]
فالجيشُ يحتاجُ منكم بعضَ ماملكتْ ... أيديكمو فأعينوا الجيشَ ينتصرُ
ياعالِمَ الغَيْبِ عَجِّلْ نَصْرَ دَوْلتِنا ... واحفظ لنا تاجَهَا يا مَنْ لهُ القَدَرُ

---

(١) يريد بسكان أطلس : بلاد المغرب العربى .
(٢) تمام القول أن يقول « تحسن به الذكر » .

الى الأمير (١)

بُشْرَى فحجُّكَ للبـلادِ سَلَامُ　　وَبهِ تَصافَتْ مِصْرُنَا والشامُ
وَبهِ سَمَا الحَرَمُ الحَرَامُ وقد غَدَتْ　　تَعْلُو قَوَاعِدُهُ بِكُمْ وَتُقَامُ
فالدَّهْرُ عَبْدُكَ والسِّنِينُ أَسِيرَةٌ　　وَالأَمْرُ أَمْرُكَ والزَّمَانُ غُلَامُ

* * *

جاءَ العَزِيزُ فمرحَباً بِقُدُومِـهِ　　بالبِشْرِ عادَ وَثَغْرُهُ بَسَّامُ
وَافَى فَحَلَّ بأَرْضِ مِصْرِ مَجْدُهَا　　إِذْ أَمَّهَا الإِسْعَادُ والإِكْرَامُ
بالْيُمْنِ آبَ عَزِيزُ مِصْرَ مُبَجَّلاً　　ياطالَمَا خَفَقَتْ لَهُ أَعْـلَامُ
يامِصْرُ تِيهِى واطْرَبِى وَاسْتَقْبِلِى　　رَاعِى بَنِيكِ فَشَهْمُنَا مِقْدَامُ
بالحجِّ أَتْمَمْتَ الفُرُوضَ جَمِيعَهَا　　ياخَيْرَ مَنْ بَسَمَتْ لهُ الأَيَّامُ
قد زُرْتَ مَـكَّةَ والنَّبِىَّ مُحَمَّداً　　منـا عَلَيْهِ تحِيَّةٌ وَسَـلَامُ
أَرْضاً حَلَلْتَ يمجُّ رَيّاً عُودِهَا　　للخِصْبِ أَو نُعْمَى يدَيْكَ غَمَامُ
بِكَ زُيِّنَتْ أَرْضُ الحِجَازِ لِأَنَّهَا　　رأت الهِلَالَ وأَمَّهَا الإِنْعامُ
فاهْنَأْ بِزَوْرَتِكَ المَدِينَةَ إِذْ بِهَا　　قَبْرُ النَّبِىِّ وَصَحْبُهُ الأَعْلَامُ
أَرْضٌ حَبَاهَا اللهُ مِنْهُ رِعَايَةً　　تَمْشِى المَلَائكِ حَفَّهَا الإِعْظَامُ
فِيهَا جُنُودُ التُّرْكِ خَيْرُ بَوَاسِلٍ　　مِنْ كُلِّ لَيثٍ دأْبُهُ الإِقْـدَامُ
هُمْ خيرُ مَنْ سَلُّوا سُيوفاً فى الْوَغَى　　وَبهم يفوزُ الدِّينُ والإِســلامُ
قَوْمٌ حُمَاةُ الدِّينِ يَشْهَدُ بَأْسُهُمْ　　أَنَّ الْوَغَى لِلتُّرْكِ فيه غرامُ (٢)

(١) تهنئة الخديو عباس بالحج ٢٧ يناير ١٩١٠ — ١٥ محرم ١٣٢٨ .

(٢) كان من حق الشاعر أن يضع كلمة «العرب» بدلا من كلمة « الترك » وإنما يلتمس له العذر فى ذلك لأن الخلافة الإسلامية كانت قائمة وقتئذ .

أنْعِمْ بهم وبمجدِهم وبمُلْكِهم إذْ بالتَّآزُرِ أدركوا ما راموا

* * *

نِلْتَ المُرَادَ وَنَجْمُ سَعْدِكَ ساطع بسماء مِصْرَ تجلُّهُ الأقوامُ
وَالبِشْرُ لاحَ مُهَنِّئاً بِقُدُومِكُمْ كالبدرِ نِصْفَ الشهرِ وَهْوَ تَمَامُ !
بُشْرَاكِ يا مصرُ فقد وَافَى الذى دوماً تَرُومُ بَقَاءَهُ الأعوامُ
كم شَادَ (عباسٌ) لنا بالْعِزِّ فى أيامِهِ يا حَبَّذَا الأيَّامُ
أَيَّامُهُ ضَنَّ الزمانُ بها على مَنْ شَأْوُهُمْ فى المُلْكِ ليس يُرَامُ

* * *

ياعَهْدَ (طِيبَةَ) إنَّ مَجْدَكَ فاقَهُ مجدٌ لنا بأميرنا وَوِئَامُ
(رمسيسُ) هَيَّامن سُبَاتِكَ كى ترى فى مصرَ ما لا تبْلُغُ الأوهامُ
(أحميسُ) أَجْلَيْتَ الرُّعاةَ فكنتَ فى ذاك الزمانِ تُظِلُّكَ الأعلام
(سيزوستر يسُ) اليوم عهدٌ غيرُ ذا كَ العهدِ إذْ ضَاءَتْ به الأفهامُ
(مُمْيَاءُ) خوفو أيها الجسمُ الذى عَبَثَتْ به الأعوامُ والأيامُ
خَلَّفْتَ آثاراً بمصرَ عجيبةً (هرماً) يشيبُ الدهرُ وهو غُلامُ
قُمْ من مَنَامِكَ (أبسماتيكُ) ترى قد أرَّخَتْ أعمالَكُمْ أقْلَامُ
(يانيخاوُسَ) اليوم أصبح قُطْرُنَا من نُورِهِ السامى يَزُولُ ظَلَامُ
يا أيها الأملاكُ قوموا كى تَرَوْا من للأريكةِ عَزَّزَتْهُ كِرَامُ
إنْ كان مَجْدُكُمُو (بمَنْفٍ) قدسَمَا فى (عابِدِينَ) اليوم جَلَّ هُمَامُ
فاق السُّهَا فَضْلاً ومجداً فِعْلُهُ فى النِّيلِ كم خَضَعَتْ له أقْوَامُ(١)

* * *

يا بَدْرُ حَيَّاكَ السُّرُورُ فمرحباً لِعُلَاكَ فى مصرٍ يدومُ سلامُ

---

(١) من العجيب أن يورد الشاعر هذه الفقرة فى قصيدته فى موطن التهنئة بالقدوم من الحج ..

عاد الأميرُ لحبّذا يومٌ أتى ... فيه لمصرَ المجدُ والإعظامُ
فاليوم تجْدُرُ بالقلوبِ مَسَرَّةٌ ... حيثُ النّدَى للبائسينَ يُرَامُ
(مصرٌ) بمَقْدِمِكَ السعيدِ تَشَرَّفَتْ ... ولقد غدَتْ غِمْداً وأَنْتَ حُسَامُ(١)
والنيلُ فاض من السرورِ وَأَهْلُهُ ... يهمُو إلى مرْأَى العزيزِ هُيَامُ
لازال نجْمُ عُلاكَ يزهو ساطعاً ... فى مصرَ دَوْماً ماسَمَتْ أَهْرَامُ
وَافَيْتَ وَالْبَدْرَ التمامَ فَأَرَّخَتْ ... بُشْرَايَ عَوْدُ البدرِ وَهْوَ تَمَامُ(٢)

(١) لانعتقد أن هناك من يقر الشاعر على هذا التشبيه ، الذى جعل به الممدوح سيفاً يغمد فى قلب مصر ... ولكن لعل الحق جرى على لسانه وهو لايدرى .

(٢) يقصد بقوله « والبدر التمام » بأن عودة الخديو كانت فى ١٥ من شهر المحرم عام ١٣٢٨ ، كما حرص على تسجيل هذا التاريخ فى تقديم القصيدة .

تشريف الأمير(١)

إنى أُرى نُورَ وَادِى النِّيلِ ينْتَشِرُ   فهَلْ صَحِيحٌ بَدَا فى بُرْجِهِ القمَرُ ؟
إنى أَرى الْجوَّ قَدْ رَقَّتْ نسائِمُـهُ   حتَّى السَّما لمَعَتْ فى أُفْقِهَا الدُّرَرُ
إِنِّى أرى كلَّ وَجْهٍ بَشَّ مُبْتَهِجًا   كأنما الغيْثُ وَقْتَ الْجدْبِ ينْهمِرُ
إِنىأرى قَلْبَ وَادِى النِّيلِ فى طَرَبٍ   منالسُّرُورِ وَعَرْفُالمِسْكِ يَنْتَشِرُ
إنى أرى القُطْرَ قَدْ غنَّتْ بلَابِـلُهُ   والـكيرَوَانُ لربِّ الدَّارِ يَنْتَظِرُ(٢)
إنى أَرى نَسماتِ الصُّبْحِ شَافِيةً   من السَّقَامِ لِمَنْ قَدْ شَفَّهُ السَّهَرُ
إنى أَرى النِّيلَ تُغْرِى النفسَ لذَّتُهُ   وماؤُه ليس يعْرُو صَفْوَهُ كَدَرُ
إنى أَرى مِصْرَ فى أبْهى مَنَاظِرِهَا   كأنَّهَا جَنَّــةٌ قَدْ حَفَّهَا ثَمرُ
وكيفَ لَا وأَمِيرُ الشَّرْقِ شَرَّفَهَا   فبعد أَنْ أَجْدَبَتْ قَدْ جَادَهَا المَطرُ
يامصر تيهى دَلَالاً فالْعَزِيزُ أَتى   مَنْ كَانَ للمَجْدِ والعَلْيَاءِ يُدَّخَرُ
وافَى الأَمِيرُ فَلَاحَ البِشْرُ مُبْتَسِماً   وأَسْفَرَ القُطْرُ عن عَيْنٍ بها حَوَرُ
يَمَّمْتَ نَحْوَ أَمِــيرِ المؤْمنين لقَدْ   نِلْتَ الُمــنى بِرِضَاهُ حبذا السَّفَرُ
أَنْعِمْ به من مليكٍ ساسَ دَوْلَتَهُ   وعزَّ بالنَّصْرِ مـكتوباً له الظَّفَرُ
(محمدُ الخامسُ) المَوْلَى الرَّهِيبُ ومَنْ   أَلقَتْ إِليه مقاليدَ النُّهَى البَشَرُ(٣)
يا آلَ عُثْمَانَ يامَنْ عَزَّ نَصْرُهُمُ   تَعْنُو الْمُلُوكُ لَـكُمْ والدِّينُ يَفْتَخِرُ

* * *

اللهُ أَكْـبَرُ عبَّاسُ العَزِيزُ له   عندَ الْخَلِيفَةِ مايحـلو به الأَثَرُ
أَهلاً به مُقْبِلاً من بَعْدِ رِحْلَتِهِ   كأنه كوكبٌ يســمو له النَّظَرُ
طُوبَى لِتُرْبٍ عليه اليوْمَ قد وُضِعَتْ   أَقدامُهُ فهو مِسْكٌ أَذْفَرٌ عَطِرُ

---

(١) بعد مقابلة الخديو عباس لجلالة السلطان فى أكتوبر ١٩١٠

(٢) يريد « بالـكيروان » نفسه ، وصحتها « الـكروان » بكسر الـكاف وسكون الراء

(٣) الشطر الثانى منقول من أبيات للحطيئة وجهها للخليفة عمر بن الخطاب وقد ورد البيت بأكمله فى قصيدة حرب طرابلس ، أول هذا الباب .

يامنهلاً قد تمتَّعْنَا بــكَوْثَرِهِ إليكَ نَشْكُو اشتياقاً هاجَهُ السَّفَرُ
ولوعةً أَحْرَقَتْ منَّا الفؤادَ بما وقاكُمُوهُ قَضَاهُ اللهِ والقَدَرُ !
جدَّدْت بالعَوْدِ ياعبَّاسُ بَهْجَتَنَا وأَسْعَدَتْ قُطْرَنَا آلاؤُكَ الغُرَرُ
العَوْدُ أَحْمَدُ والعَلْيَا تُؤَرِّخُهُ يامَجْدَ مصر أَتى عبَّاسُك القَمَرُ !

تهنئـــة (١)

البَدْرُ عَنْ وَجهِ البشاشة أسْفَرَا ... وَالجـو رقَّ نَسِيمُهُ وَتَعطَّـرَا
وَالنِّيلُ من طربِ المَسَرَّةِ ماؤُهُ ... رَوَّى بلذَّتِهِ القُلوبَ وَأَسْـكَرَا
وَكواكبُ العلياءِ زَادَ وَمِيضُهَا ... وعقودُهَا أَمْسَتْ تَفُوقُ الجَوْهَرَا
وَتجلَّتْ الهيفَاءُ تَلعَبُ بالنُّهى ... لَعِباً تُبَاعُ بِهِ القُلوبُ وتُشْتَرَى
عَصْماءُ كلُّ الـكائناتِ غَدَتْ لَهَا ... أَمَةً ترى من سَعْدِهَا أَنْ تُؤْمَرَا
شَخَصَتْ إلى الزرقاءِ منها مُقْلَةٌ ... أَهْدَتْ إلى هَاتُورَ لحظاً ساحِراً
وَعَلَتْ على عَرْشِ الجَمَـالِ بِعِزِّهَا ... فَكَسَتْ أَدِيمَ الأَرْضِ ثوباً أَخْضَرَا
مرَّ النَّسِـــيمُ بها فَحَيَّا بَاسِماً ... وَجَرَى فَحَفَّ بِزَهْرِهَا وَتَبَعْثَرَا
وَالتَفَّتِ الأَقْمَارُ تَسْطَعُ حَوْلَهَا ... كالخَاتَمِ المَـاسِيِّ زانَ الخِنصَرَا
وَاصطفَّت الحُورُ الحِسَانُ كأَنَّهَا ... نَظْمُ الصُّفُوفِ يُمَجِّدُ الإِسْكَنْدَرَا
وَكأَنَّنِي وَالسَّعْدُ كَانَ مُرَافِقِي ... زُرْتُ الجِنَانَ وقدوَرَدْتُ الـكَوْثَرَا
فسأَلْتُ نَفْسِي هَلْ مَنَامٌ ماأَرَى ... أَم يقظـةٌ أَم ذَا خَيَالٌ صُوِّرَا ؟

* * *

هبَّ النَّسِيمُ فشَاغَلَتْ حَرَكَاتُهُ ... سِنَةَ الخَيَالِ وأَبعدَتْ طَيْفَ الـكَرَى
فذكرتُ شَهْماً قد دُعِيتُ لِعرْسِهِ ... فى ذَا المَسَاءِ وَحُقَّ لى أَنْ أَحْضَرَا
بَدَرتْ إليه يَدُ الزَّمَانِ كأَنَّهَا ... وَجدَتْهُ مَشْغُولَ اليَرَاعِ مُفَـكِّرَا
نَثَرَتْ عليه قلائداً من جَوْهَرٍ ... جَعَلَتْهُ نَافَسَ فى الجلالِ القَيْصَرَا
وَكَستهُ من حُلَلِ المَهَابَةِ بُرْدَةً ... لجمالِهَا قام الزمانُ مُكَبِّرَا

---

(١) ألقيت فى حفل عرس الشيخ طاهر العشى الحسبي ، رأس علماء قنا ، والعضو العلمى بمجلس المديرية . هذا وقد وجدنا للشاعر قصيدة أخرى رائية ردد فيها معظم أبيات هذه القصيدة ، . ووجهها إلى الوزير إبراهيم الدسوقى أباظة فلم نثبتها تجنباً لتكرار ممل ومطلعها :

يا مرسل الآيات من فيض الهدى ... حيي المهابة والجلال الأكبرا

وَسَمَتْ به عرشَ البلاغةِ فاعْتَلَى ... بفصاحةِ التعبيرِ هاماتِ الذُّرَى
خاض الْقَرِيضَ بِفُلْكِهِ حتى إذا ... عَبَرَ السريعَ أَتَى يَؤُمُّ الْوَافِرَا
(الطَّاهِرُ الْعَشِّيُّ) مَنْ نفحاتُهُ ... فى الشِّعْرِ مِسْكٌ قد يُخَالِطُ عَنْبَرَا
الكاتبُ اللَّبِقُ البليغُ بيانُهُ ... الشاعرُ المطبوعُ مشدودُ العُرَا
شمسُ التُّقَى وَشُعَاعُ أقمارِ الْهُدَى ... وسليلُ مجدٍ بالعَلاَءِ تفاخَرَا
روضٌ بِزَهْرِ عُلُومِهِ فاقَتْ (قِنَا) ... أَتْرَابَهَا وَغَدَتْ مكاناً عامرا
حَسَنَاتُهُ نَفِدَ الْمِدَادُ لِحَصْرِهَا ... وَغدَا اليراعُ لِمَدِّهَا مُتقَاصِرَا
شَغَلَتْ مَحَاسِنُ فَضْلِهِ وخصاله ... أَسْبَى مهاةً للقلوبِ وَجُؤْذَرَا[1]
جمعت مكارِمُهُ مكارِمَ حاتمٍ ... وأعاد هَاطِلُهَا زماناً غابِرَا
يا مَنْ لِجُودِ يدَيْهِ فى أَمْوَالِهِ ... نِعَمٌ تَفِيضُ عَلَى الْيَتَامَى أَنْهُرَا
فى شأْنِهِ وَجَنَانِهِ وَلِسَانِهِ ... وَبَنَانِهِ حِكَمٌ تُثِيرُ الشَّاعِرَا
لو أَنَّ مَوْجَ البحرِ مَسَّ يَمِينَهُ ... لرأيتَ ماءَ البحرِ خالَطَ سُكَّرَا
يا ابْنَ الذى ما ضَمَّ بُرْدٌ كابْنِهِ ... لا زال نجمُ عُلاَكَ يبدو زَاهِرَا
قد شِدْتَ سُوقاً للثناء ولم تكن ... بأقلَّ من سوقِ الْقَرِيضِ مآثِرَا!
منكَ الشُّمُوسُ أَخَذْنَ ضوءَ جَبِينِهَا ... وَأَتَتْ تَقُودُ إلى الصَّبَاحِ الْعَسْكَرَا
صاغَ النُّحَاةُ اللَّفْظَ وَقْتَ نباتِهِ ... وَظَلِلْتَ تُصْلِحُ فيه حتى نَوَّرَا!
يا طاهِرَ الأجدادِ أَبْلَغُ خاطبٍ ... قَلَمٌ لك اتَّخَذَ الصحائفَ مِنْبَرَا
لو أمكن الأقلامَ أن تَسْعَى عَلَى ... قَدَمٍ لِعُرْسِكَ عَزَّ أن تتأَخَّرَا
من كلِّ مَنْبِتِ شَعْرَةٍ لو كان لى ... قَلَمٌ يُجِيدُ الوصفَ كنتُ مُقَصِّرَا
صَبْرِى إذا ما تَمَّ بَدْرُ قِرَانِكُمْ ... وَحَلاَ لَهُ التاريخُ قال مُسَطِّرَا
بِظَرِيفِ عُرْسِكَ طَاهِرٌ وَقُدُومِهِ ... أَمَّ السُّرُورُ قِنَا وَزَارَ الأَقْصُرَا

(١) الشطر الثانى من قصيدة المتنبى لابن العميد ، وتمام البيت :
يحملن مثل الروض إلا أنها ... أسبى مهاة للقلوب وجؤذرا

في تهنئة محمود وهبي (١)

رَبِّ ساعِدْ عَلَى البَيَانِ لِسَانِي ... في جمالٍ قَدْ ضَاعَ فيه بيَانِي
مُبْدِعَ النَّثْرِ وَالقَرِيضِ أَغِثْنِي ... أَنْتَ عوَّدْتَنِي رَقِيقَ المَعَانِي
كيف أَسْلُو هوى غَزالٍ رشيقٍ ... ماسَ عُجْباً بكأسِهِ وَسَقَانِي
أَضْرَمَ الوَجْدُ في الفؤادِ سعيراً ... وبسهمِ الجُفُونِ منه رَمَانِي
أَهيفٌ أَغْيَدٌ تَمَلَّكَ لُبِّي ... في مَجَالٍ قد رَاقَ فيه زَمَانِي
يَسْتَحِي البَدْرُ أَنْ يَرَاهُ ويأْبَى ... بِدَلَالٍ من البُدُورِ التَّدَانِي
فاقَ شَمْسَ الضُّحَى بِضَوءِ جبينٍ ... وقوامٍ يُزْرِي بِغُصْنِ البَانِ
يانَسِيمَ الصَّبَا تَرَفَّقْ بِقَلْبٍ ... بَاتَ يَشْكُو من الأَسَى ويُعَانِي

* * *

سَاقِيَ الرَّاحِ هات بنت الدِّنَانِ ... مِنْ رَحِيقٍ مَزْفُوفَةً لابن حَانِ
هاتِ تِبْراً عَلَاهُ دُرُّ حَبَابٍ ... كنضارٍ مُنَضَّدٍ بِجُمَانِ
عاطِنيهَا وَغَنِّ يابَدْرُ أُنْسِي ... وَاطرب السَّمْعَ رَنَّةً بِجِنَانِي (٢)
وتفضَّلْ على النَّدَامى بِسُؤْرٍ ... من رحيقٍ تعتَّقَتْ في القناني !
رَشْفَةُ الرَّاحِ مالها من مَثِيلٍ ... لَعِبَتْ بالعقولِ لِعْبَ القِيَانِ !
هاتِهَا يانديمُ في الكأس تُجْلَى ... بَيْنَ غَنَّاءَ رَوْضَةٍ وَأَغَانِي
وغزالٍ يَرْنُو إلى كلِّ كأسٍ ... بعيونٍ وَاللَّحْظُ منه يرَانِي
نالَ منه الرحيقُ نشوةَ صَبٍّ ... منه مُدَّتْ إلى الكؤوسِ يدَانِ

* * *

---

(١) بمناسبة نقله من وظيفة وكيل مديرية قنا إلى محافظة السويس ، وقد ذكر الشاعر أنه طبع من هذه القصيدة ٥٠٠ نسخة ورسم نسخة خصوصية لمن أهديت إليه .

(٢) قوله « واطرب » بوصل الهمزة خطأ ، وصحته إظهارها .

يا حُمَاةَ القَريضِ هلْ من بَليغٍ ينظِمُ الدُّرَّ وَاصفاً ما أُعَانِى ؟
ينظرُ البدر بَيْنَ بُرْجٍ وَبُرْجٍ هكذا البَدْرُ دَائبُ الدَّوَرَانِ
أَشْعَلَ الجمْرَ فى فُؤَادِىَ لمَّا غَابَ عَنِّى بِحُسْنِه الفَتَّانِ
وتجلت لِىَ الطَّبيعَةُ تكْسُو سُنْدُسَ الأَرَضِ حُلَّةَ الأُرْجُوَانِ
مَطْلَعُ الشَّمْسِ أَوَّلُ المِهْرَجَانِ يا سماء ا كتسى خدود الغوانى
شَفَقٌ يَفْتِنُ الشَّقَائِقَ فى الرو ض وَيصْبِى قُلُوبَ حُورِ الجِنَانِ
لونه يَمْلأُ العُيُونَ جَمَالًا وَيُثِيرُ السَّعِيرَ بالْوَلَهَانِ
بينما كنت غارقاً فى خَيَالِى ولذيذُ المَنَامِ قد عَادَانى
كان زَهْرُ الرُّبى وطَيْرُ الأَرا كى وَنسيمُ الصَّبَاحِ من نُدْمَانِى(١)
هَبَّت الرِّيحُ أَحْيَتِ القلبَ مِنِّى أَنْعَشَتْنِى فَضَاعَفَتْ أشجانى
زَفَّ نَحْوِى النسيمِ أحسنَ بُشْرَى وَجرَى لِلسُّوَيْسِ يُهْدِى التهانى !
فَتَنَاشَدْتُ ذِكْرَ مَنْ رَقَّ طبعاً وَغدَا حائزاً جميلَ المعانى
وَترَنَّمْتُ عاشَ (محمودُ وَهْبِى) رَاقِىَ المجدِ ما بَدَا الفَرْقَدَانِ
جاء وادى قِناَ وكان وكيلاً فامْتَطَى الجِدَّ رغبةَ العُمْرَانِ
بات فيه حليمَ طَبْعٍ كريماً مُعْلِىَ الحقِّ مُقْسِطَ الميزانِ
ناصراً للضعيفِ خيرَ شفيقٍ بَاسِمَ الثَّغْرِ صَادِقَ الإيمانِ
جاذِباً نحوَهُ النفوسَ بفضلٍ وَحَنَانٍ يدعو إلى الإذعانِ
كَوْكَبَ المجدِ نُورُهُ قد تجَلَّى فى قِناَ فَازْدَهَتْ عَلَى الْبُلْدَانِ
جاء بَرْداً على قِناَ وسلاماً عاطرَ الذِّكْرِ يستحقُّ التهانى
شَادَ لِلأَمْنِ حِصْنَ مجدٍ مَنِيعاً زادها رِفْعَةً فَصِيحَ اللِّسَانِ
وَتَجَلَّى عَلَى المَعَارِفِ فيها فاستنارت بالْعِلْمِ وَالعِرفانِ

(١) لاوجه لإضافة الياء فى كلمة «الأرا كى» ، إنما هو الأراكِ نبات معروف .

كم دِيَارٍ لِلْعِلْمِ عنها تَخَلَّى ... هَاطِلُ الْغَيْثِ فَارْتَوَتْ بالأمانى
جادها الغيثُ فارتوى الْعُودُ حتى ... عَمَّ مَاءُ الحياةِ بالْعِيدانِ

* * *

أصبح الْعِلْمُ شاكِراً سَعْىَ شَهْمٍ ... رَقى المجدَ فوق هَامِ الزمانِ
مَدَّ وادى قِنــا إليه يَميناً ... ثم أَبْدَى له مزيدَ امْتِنَانِ
وتَمَشَّتْ قِنــا إليه وقالت : ... دُمْ بِنَيْلِ الْمُنَى عزيزَ الشَّانِ
لستُ أَنْسَى عُلاكَ ماأهْتَزَّ غُصْنٌ ... بنسيمٍ وما بَدَا النَّيِّرانِ
كلُّ مَنْ فى قِناَ وَمَنْ فى الضَّواحى ... بين نائى الْهِضَابِ وَالوِدْيانِ
إنْ يكن عَزَّ أمرُ بُعْدِكَ عنهم ... إذْ مَلَكْتَ القلوبَ بالإحسانِ
فَصُعُودُ الْعُـلاَ لمثلك يدعو ... كلَّ قلبٍ لأنْ يَزُفَّ التهانى
أيها الْمُولَعُونَ بالشِّعْرِ جُودُوا ... كيف لم يَدْعُكُمْ قَرِيضٌ دعانى ؟
أيها السَّاكِنُونَ فى الْحَوْضِ بُشْرَى ... أَنَّ بَدْرَ الْعُلاَ قريبُ التَّدَانى
أيها السَّيِّدُ العظيمُ لِسَانى ... لم يَزَلْ قاصِراً عن التِّبْيَانِ

* * *

يارَعَى اللهُ يوم سَافَرْتَ وَهْبِى ... من قِناَ والقلوبُ فى خَفَقَانِ !
حين هَلَّ الْقِطَارُ كُنْتَ مُحَاطاً ... بِلَفِيفِ الْوُجُوهِ والأعيانِ
يرأسُ الكلَّ خيرُ شَهْمٍ مُدِيرٍ ... باتَ وَالسَّعْدُ طَوْعُ أمرِ الْبَنَانِ
دُمْ خَلِيلَ الْعُلاَ « مُحَمَّدَ نَايِلْ » ... يا عظيماً يَهَابُهُ الثَّقَلاَنِ (١)
يا كريماً أَتى يُوَدِّعُ وَهْبِى ... عِشْ وَوَهْبِى فأنتما آيتانِ
حين هَمَّ الْقِطَارُ مُدَّتْ أَيَادٍ ... لِوَدَاعٍ أَجْرَى الدموعَ القَوَانى (٢)

---

(١) لاوجه هنا أيضاً لتسكين اللام فى لفظ « نايل » ، إلا هذه الضرورات الشعرية التى تثقل كاهل الشاعر بين حين وحين . (٢) جمع قان على قوان وهو غريب .

وتمشّتْ بين الضُّلوعِ قلوبٌ   هزّها الوَجْدُ فاشتكتْ ماتُعانى
آسِفاتٍ لبُعْدِهِ راقصاتٍ   باسماتٍ لفَضْلِهِ المُزْدانِ
غَرَّدَ الطيرُ فوق رأسِ جُنُودٍ   أطْرَبَتْنَا بناعِمِ الألحانِ
حين طار القطارُ يحملُ وَهْبِى   صاحَ جَمْعُ الأحبابِ : سِرْ بأمانِ !
هامَ (صَبْرِى) به فأنشدَ يشدو   رَبِّ ساعِدْ عَلَى البيانِ لِسانى
عامَ وَهْبِى رُقِّىَ فِينا أرَّخْتَهُ   أنْتَ فَرْدٌ حَجَّتْ إليه الأمانى

وداع (١)

أَلاَ مَنْ لِي بِنَظْمٍ كاللآلى أُقَلِّدُ منه أَجْيَادَ الليالى
وَمَنْ لى أن أُحَلِّيَهُ بِشُكْرٍ تُضِيءُ به فَرَائِدُهُ الْغَوَالِي
وَأُهْدِى من مَحَاسِنِهِ عُقُوداً لأَهلِ الفضلِ أربابِ النَّوَالِ
رجالِ الخيرِ أشرافِ السَّجَايَا كِرَامِ العصرِ خُطَّابِ المَعَالى
فمنكم كلُّ سَمْحٍ أَرْيَحِيٍّ تَحَلَّى بالفضائلِ والكمالِ
ومنكم كلُّ مُحْتَرَمٍ شريف كريمٍ فى الْعَطَايَا وَالْخِصَالِ
تَجَمَّعْتُمْ فَأَلَّفْتُمْ قلوباً وَبَرْهَنْتُمْ عَلَى حُسْنِ اتِّصَالِ
وَهَذِى لَيْلَةٌ أَحْيَيْتُمُوهَا لِذِكْرَى مَنْ تَبَدَّى كَالْهِلاَلِ
شريفِ الْعُنْصُرَيْنِ عريقِ مجدٍ كريمِ الرَّاحَتَيْنِ عزيزِ خالِ
تَزَاحَمَتِ القلوبُ عليه حتى تَشَاغَلَتِ العيونُ عَنِ الْغَزَالِ !

* * *

عَلِقْتُ به فَتَيَّمَنِى هَوَاهُ وَهِمْتُ به فَأَنْعَشَنِى خيالى
دَخَلْتُ بِحُبِّهِ بُسْتَانَ وَجْدِى فَأَلْفَيْتُ الطُّيُورَ عَلَى الدَّوَالِي
تُغَرِّدُ والنسيمُ جَرَى بَلِيلاً يُحَرِّكُ خَصْرَ رَبَّاتِ الجمالِ
تلاَعَبُ بالنفوسِ ذَوَاتُ حُسْنٍ كَحُورِ الْخُلْدِ تَرْمِي بالنِّبَالِ
كَنِسْوَةِ يُوسُفٍ لما تَجَلَّى يُقَطِّعْنَ الأناملَ بالنِّصَالِ !
وقد بَدَتِ الكواكبُ مُسْفِرَاتٍ تُضِيءُ من اليمينِ إلى الشِّمالِ
تَبَاعَدَ عن رياضِ الْقَوْمِ جَفْنِي وَهَامَ بِمُهْجَةِ السِّحْرِ الحلالِ
نَخَلت الرَّوْضَ لِلتَّمْثِيلِ داراً تُمَثِّلُ فيه رَبَّاتُ الدَّلاَلِ

---

(١) ألقيت فى حفلة الوداع بمنزل إسحق أبادير ، بمناسبة نقل إبراهيم صفوت مأمور سجن قنا ، إلى سجن أسيوط ، أول مايو ١٩١٢ .

وفاق سَـناهُ نُورَ البدرِ لما ... تجَـلَّى حُسْنُهُ فَأَهَـاجَ بَالِي
ترَنَّمَ تحت غُصْنِ الْبَانِ رِيمٌ ... رَشِيقُ الْقَدِّ فتّانُ الجمَـالِ
وَأَوْمَأَ باليمينِ إِلَيَّ يرجو ... حديثاً قُلْتُ : أَسْرِعْ بالسُّؤالِ
تمَايَلَ عِطفُهُ واهتزَّ تِيهـاً ... وَأَجْرَى ماء لَفْظٍ كالزُّلالِ

* * *

تجَمَّعْنَا هُنَا لِوَدَاعِ شَهْـمٍ ... يرَى يَوْمَ الْوَغَى يَوْمَ الْوِصَالِ !
قَضَى فى الجيشِ أعواماً كَسَتْهُ ... لِبَاسَ النصرِ بالْبِيضِ الصِّقَالِ
رَقَى بالجيش حتى نال مجـداً ... يُذَكِّرُهُ بساحاتِ الْقِتَـالِ(١)
كأنّى قد سَمِعْتُ شِفَـاهُ قالت ... وقد وَثَبَ الرِّعالُ عَلَى الرِّعالِ
بِبِيضِ الْهِنْدِ وَالسُّمْرِ الْعوَالِي ... غرامى لا بِرَبَّاتِ الجمَـالِ
وَأَفْدِى يوم أَقْتَحِمُ المَنَايَا ... بِأهلى كلِّهِمْ وَأَبِى وَمَـالِي

* * *

أَتَى بعد الجيوشِ يُدِيرُ سِجْناً ... فَأَحْيَا أَمْنَهُ طُولَ الليـالى
تنقَّلَ بَيْنَهَـا شَرْقاً وغَرْباً ... وسار من اليمينِ إلى الشِّمَالِ
أَسِجْنَ (قنا) لقد نِلْتَ الأَمانى ... وبتَّ بِفَضْلِهِ فى خَـيْرِ حَالِ !
أَتاكَ الشَّهْمُ أَصلح مِنْكَ شَأْناً ... فَبِتَّ مُفَاخِـراً قِمَمَ الْجِبَالِ
وبتَّ بِفَضْلِهِ مأْوًى حَصِيناً ... وكنتَ بِعَزْمِهِ أَقْوَى الثمال
فإِنْ تكُ قَدْ سَمِعْتَ بما تَأَتَّى ... فإِنَّكَ نادبٌ حُسْنَ الخـوَالِي

* * *

سَيَرْحَلُ قاصـداً أَسْيُوطَ حتَّى ... يُفَاخِرَ سِجْنُهَا الشهبَ العوَالِي !
فودِّعْ فيـه إِنْسَـاناً عَظِيماً ... تهلَّلَ بالْهنـاء وبالجـلالِ

* * *

(١) الصواب رقى بفتح فكسر ، وأما ماورد فى البيت فهو من الرقية وهو خطا .

فَدَتْكَ النَّفْسُ يا مَنْ غَابَ عَنِّى ... فغـابَ لبُعْدِهِ عَقْـــلِى وَبَالِى
ولـكنِّى سُرِرْتُ لِأَنَّ هــذَا ... سَبِيلٌ فى ارتقـائِكَ لِلْمَعَالِى !
وخُذْ معَكَ الْفُؤَادَ فإنْ هَذَا ... لِخَيْرُ هـــديةٍ عِنْدَ الرِجَالِ !
لأنا قَدْ وَجَـدْنَا فيكَ شهماً ... هماماً لايخافُ ولا يُبَـــالِى
وسافِرْ (صَفْوَتَ) الإِحْسَانِ أَنْتُمْ ... كَمَالٌ فى كَمَالٍ فى كَمَالِ

☆ ☆ ☆

أَمُقْتَبِــلٌ أَنَا أَمْ ذَا ودَاعٌ ... وهل فَرِحٌ أَنَا أَمْ غَاب بالى(١)
إِذا كان الْمُدِيرُ أَتَى حديثـاً ... فمَالى قد سكتُّ عن الْمَقَالِ ؟
أَلا أَهْــلاً بهِ من كلِّ قَلْبى ... فنِعْمَ الشَّهْمُ فى أَبْهَى مجَالِ
ونعمَ الفَرْدُ ربُّ العَدْلِ مَنْ قَدْ ... أَضـــاءَ قِنَا تحيَّتُهُ الأَهَـالى
نَعَمْ قَدْ جاءَهَا عطفاً عليهـا ... لِيُوصِلَهَا إِلى أَوْجِ الـكمالِ

---

(١) توجه الشاعر بالأبيات الآتية إلى المدير الجديد حافظ حسن ولـكنه لم يحضر قنا يوم الاحتفال ، فلم تلق هذه القطعة . . .

فى قطار [1]

تَقُولُ لِصَبْرِى أَتَنْسَى الْهَوَى ... وهل أنتَ تَذْكُرُ ذَاكَ الْهَنَاءَ؟
وقد أَغمضَ الدهرُ عَيْنَ التَّجافِى ... وغابَ الْعَوَاذِلُ وَالرُّقَبَاء
فَقَبَّلْتُ شَعْراً كَسُودِ الليالى ... وَوَجْهاً مُنِيراً كَبَدْرِ السماء
ولما الْتَقَتْ مُقْلَتَانَا بَكَيْنَا ... سروراً فَيَانِعْمَ هذا الْبُكَاء
ولما الْتَقَتْ شَفَتَانَا ارْتَعَشْنَا ... لأنَّ الْمَحَبَّةَ كالْكَهْرَباء!
أُقَبِّلُ خَدَّيْكِ طَوْراً وَطَوْراً ... عُيُونَ الْمَهَى وَجُفُونَ الظِّبَاء
وَجِيداً طَرِيًّا وَكَفًّا نَدِيًّا ... وَوَجْهاً تَهِيمُ به الأتقياء

* * *

وَلَسْتُ لأَذْكُرَ كلَّ الحديثِ ... وَخَيْبَةَ قلبى وَمَوْتَ الرَّجاء
وَأَخْذَكِ مِنِّى الْمَوَاثِيقَ أَنِّى ... أُمِيتُ الْهَوَى وَأُقِيمُ الإخاء
أَتَرْضَى بِمَوْتِ الْهَوَى لِفُؤَادِى ... ومَوْتُ فؤادى بِذَاكَ الرِّضاء؟
وأنتَ الذى عَذَّبَ القلبَ عاماً ... فَأَدْمعَ عَيْنِى بِنُورِ الذَّكَاء
عليك التَّحِيَّةُ يانورَ عَيْنِى ... تحيةَ صَبٍّ شديد الوفاء
تحيةَ مَنْ أَثْقَلَتْهُ الرَّزَايَا ... وَحَمَّلَهُ الْبُعْدُ كلَّ الشَّقَاء
أَتَنْسَى الْوَدَاعَ وَدَقَّاتِ قلبى ... أَتَنْسَى هَوَى لَيْلَةِ الأربعاء؟!
وقد جِئْتَ تبكى بِدَمْعٍ غزيرٍ ... وكنتَ تُنَاجِى إِلَهَ السماء
وَدَمْعُكَ يَرْوِى وُرُودَ الْخُدُودِ ... وَضَاعَفَ حُسْنَكَ وَرْدُ الحياء
فخِلْتُ مَلاَكاً تَدَفَّقَ لُطْفاً ... وَأَبْصَرْتُ بَدْراً جميلَ الرِّدَاء
ولم تَخْشَ جَمْعاً يَمُوجُ كَبَحْرٍ ... وَأَيْقَنْتَ أَنْ سَيَزُولُ الهناء
تَشَجَّعْتُ لَمَّا رَأَيْتُكَ تبكى ... وَفَتَّتَ قلبى أَلِيمُ النِّداء

(١) قالها فى القطار بين قنا ومصر — الثلاثاء ٦ يوليه ١٩١١ .

ولمّا القطارُ بَدَا لم تَعُدْ تُشَاهِدُ عَيْنِي بَهِيجَ الضِّيَاءِ
وَقَطَّعَ قلبي دُنُوُّ الفراقِ وَأَظْلَمَ عَيْنِي نُزُولُ القَضَاء
رَأَيْتُكَ تُسْرِعُ نحو القطارِ كأنك ترجو دوام البقاء
ولما رأيتَ البقاءَ مُحالاً وَأَيْقَنْتَ أَنْ لا يُفيد الدواء
وَضَعْتَ يَمِينَكَ فوق جَبِينٍ تَبَارَكَ مَنْ خَصَّهُ بالبهاء
وقلتَ : حبيبي أَتَتْرُكُ قلبي أَسِيرَ الْفِرَاقِ شهيدَ الوفاء ؟
أَتَذْرِفُ من نَرْجِسِ الْعَيْنِ دمعاً ؟ خَلِيقٌ بجفنك سَفْكُ الدِّماء !

تقريظ (١)

إنَّ الكتابَ إذا حلاَ وَازْدانَا ... نِعْمَ السَّميرُ إذا أَردْتَ بيَانَا
يُهْدِى إليكَ فُكَاهَةً وروايةً ... وَيَصُونُ سِرَّكَ إنْ أردْتَ أَمَانَا
تَخْلُو بهِ فترَى صديقاً مخلصاً ... كالبحْرِ يحوى الدرَّ المَرْجَانَا
وَتَرَى به رَوْضاً تَمُجُّ غُصُونُهُ ... ريًّا وتشدو طَيْرُهُ الأَلْحَانَا
ولئن بَلوْتَ مَدَارِكَ الإِخْوَانِ ما ... غَيْرَ الكِتابِ يُقَدِّمُ البرهانَا
تتراوح الأسفار بين محدِّث ... عما جرى للأقدمين وكانَا
ومخبرٍ عن رحلةٍ ومنسق ... عِقْدَ الدَّرَارى يُنْعِشُ الأَبْدَانَا
ومنظِّمٍ روضَ العُلُومِ وباحثٍ ... عن كُنْهِ لَفْظٍ حَيَّرَ الأَذْهَانَا
بينا أُطَالِعُ فى العُلُومِ وَبَحْثِهَا ... ثَمِلاً بِخَمْرِ حَدِيثِهَا ولُهَانَا
إذْ راقَ فى نَظَرِى كِتَابٌ قد حوَى ... لِلمُنْشئينَ بَلاَغَةً وبيَانَا
قاماَ بِجَمْعِ أُصُولِهِ شَهْمَانِ قد ... نَبَغَا فجاءَ يُقَوِّمُ العرْفَانَا
ذَا (أَحْمَدٌ) وَأَخُوهُ نُودِىَ بِاسْمِهِ ... اسماً وَعِلْماً حكمةً وجَنَانَا
لله دَرُّهما قَد اتَّفقاَ معاً ... صِنْوَانِ حَوْلَهُمَا الصَّفَا قَدْ رَانَا
ياباقةً من زَهْرِ رَوْضِهِمَا بَدَتْ ... قد حُزْتِ إعجاباً يدومُ زَمَانَا
قَدْ لَقَّبَاكَ لِحُسْنِ سَبْكِكَ مُرْشِداً ... لِلْمُنْشئِينَ فَهاَ زمانُكَ آنَا
كم فيكَ من حِكَمٍ أَتَتْنَا آيَةً ... سَتُهَذِّبُ الْفَتَيَاتِ وَالفِتْيَانَا
إنْ كُنْتَ بِكْرَ بَنَاتِ أفكارٍ فلاَ ... عجبٌ إذا رَبِحَ الْجَوَادُ رِهَانَا
أَنعِمْ بِمَنْ وَضَعَ الكتابَ ومَنْ بِهِ ... دَارُ العُلُومِ تُحَدِّثُ الرُّكْبَانَا
أَهْلًا بِمُرْشِدِ أَحْمَدَ السِّفْرِ الَّذِى ... بِوُجُودِهِ روضُ العُلُومِ ازْدَانَا
صَبْرِى إذَا مَاتَمَّ قالَ مُؤَرِّخاً ... نِعْمَاهُ سِفْرٌ عَطَّرَ البُسْتَانَا

(١) لكتاب «مرشد الناشئين» بقلم الأديبين الشيخ أحمد على والشيخ أحمد الدماطى .

يا عظيما [١]

يا عظيماً قد نالَ عِــزًّا وَمَجْدَا   لستُ أَنْسَى نَدَاكَ قُرْباً وَبُعْدَا
كلما قلتُ أَعْتَقَ الشُّكْرُ رِقِّي   صَيَّرَتْنِي لَكَ الْمَكَارِمُ عَبْدَا
فابْقِ عُمْرَ الزَّمَانِ كيما أُؤَدِّي   شُكْرَ إِحْسَانِكَ الَّذِى لا يُؤَدَّى [٢]
أَبْعَدَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا لَسْتُ أَدْرِي   هل مُرُورُ الأَيَّامِ يَقْطَعُ وُدَّا
أَمْ نَسِيتُمْ مَنْ لا يَرَى فِى سِوَاكُمْ   خَيْرَ شَهْمٍ لَمْ يَأْلُ لِلْخَيْرِ جُهْدَا
آنَ أَنْ أَحْتَسِي بِبَابِكَ كَأْساً   يا طبيباً قد حَوَّلَ الْمُرَّ شُهْدَا
لا تضنُّوا على العَلِيلِ بِكَأْسٍ   رُبَّ كَأْسٍ تُعِيدُ لِلعَيْشِ عَهْدَا
علَّمَتْنِى طَلَاقَةُ الوَجْهِ مِنْكُمْ   أَنْ أُجِيدَ القَرِيضَ وصفاً ووجْدَا
كيف لا والذى أُرجِّي نَدَاهُ   صاحبُ الفَضْلِ وهو أَصْدَقُ وَعْدَا
إِنَّ كَفَّ المعونةِ اليَوْمَ قَصْدِي   فهى كفٌّ من هاطلِ الغَيْثِ أَنْدَى
عِيلَ صَبْرِي وَضَاقَ رَحْبُ نَعِيمِي   وسواكُمْ لا يَجْعَلُ العُمْرَ رَغْدَا
لا عَدِمْنَا وُجُودَكُمْ فى نعيمٍ   وَرُقِيٍّ ما اهتزَّ طيرٌ وأَشْدَا [٣]

---

(١) وجه الشاعر هذه القصيدة إلى السيد خالد حسنين فى ٢٣ مايو ١٩٢٠ ، وكان قد وجهها قبل ذلك إلى ممدوح آخر فى ١٥ يوليه ١٩١٣ ، وفيها نسج على منوال قصيدة مشهورة للبحترى وجهها للمتوكل ، وقد أشرنا إلى ذلك فى المقدمة

(٢) هذا البيت بأكمله من قصيدة البحترى المشار إليها .

(٣) يريد شدا .

فقيدا الطيران (١)

ماللمَنُونِ سَطَتْ على أُسْدِ الشَّرَى ... ما للضياءِ غَدَا ظلاماً أَعْكَرَا
خطبٌ دَهَى الأَبطالَ فى رَحَلَاتِهَا ... بكت العيونُ لهُ نجيعاً أَحمرا
رُزْءٌ تفطَّرَت القلوبُ لِهَوْلِهِ ... لَبِسَتْ عليه حِدَادَهَا أُمُّ القرى (٢)
ياشَرْقُ مالكَ كلَّمَا رُمْتَ العُلا ... حكمَ الزمانُ عَلَيْكَ أَن تَتَقَهْقَرَا
يا شَرْقُ مالَكَ كلما آنَ الشِّفَا ... خَلَعَ السَّقَامُ عليك ثوباً أَصْفَرَا
يا شرقُ كنتَ إلى المعالى كعبةً ... وإلى المَعَارِفِ كنتَ بدراً أَزْهَرا
ياشرقُ مَالَكَ وَالكَرَى أَعَشِقْتَهُ؟ ... هَلاَّ عَلِمْتَ بحالِ مَنْ عَشِقَ الكرى ؟
يا شرقُ أهداكَ الزمانُ حسامَهُ ... لما رآكَ بَلَغْتَ هاماتِ الذُّرَى
خَلَّفْتَهُ فى غِمْدِهِ حتى انْبَرَى ... من فَرْطِ مالَعِبَ البِلَى وَتَكَسَّرا
ماذا دَهَاكَ وهل مَنَامٌ ما أرى ... أم ذاكَ فى عَيْنَيَّ حُلْمٌ صُوِّرا
يا دولةَ الأُسْدِ البَوَاسِلِ لَيْتَنَا ... كنا الفداءَ لمن غَدَوْا تحت الثَّرَى
يا سائدِينَ الْمُلْكَ بالهِمَمِ التى ... وقف السُّهَى يرنو لها مُتَحَيِّرَا
يا مَنْ تَرَوْنَ دَمَ العدوِّ مُدَامَةً ... وشرابَ جيشهم الحديدَ الأخضرا
صعبٌ علينا كلَّ يومٍ نكبةٌ ... صَعِقَ الفؤادُ لِهَوْلِهَا وَتَسَعَّرَا
خَطْبٌ تلاَ خَطْباً فضاعف حُزْنَهُ ... أبكى ضريحَ المُصْطَفَى وَالمِنْبَرَا
فلو استطعتُ قذفتُ حَبَّةَ مُقْلَتِى ... نحو الشَّآمِ لكى تُشَاهِدَ ماجرى
خاض الفضاءَ سَمَيْدَعٌ فى مُلْكِهِ ... شهدت به الرِّيحُ العصيبُ غَضَنْفَرَا (٣)
قطع البحارَ وما ثناه عَجَاجُهَا ... شَهْمٌ يُمَاثِلُ فى الجلالِ القَيْصَرَا
وَعَلاَ رُبَا (لُبْنَانَ) فوق هِضَابِهَا ... فَصَبَا شَذَا تلك الرُّبوعِ وأسكَرا

---

(١) قيلت فى فقيدى الطيران العثمانيين فتحى ونورى ، وقد نشرت بالصحف فى حينها (٢) أم القرى : مكة .
(٣) سميدع : كريم شجاع ، ويقال فى الرجل السريع فى حوائجه سميدع ، الغضنفر : اسم من أسماء الأسد .

وَالْتَفَّتِ الأقمارُ تسطعُ حوله | كالخاتم الماسىِّ زَانَ الخنصَرَا
هبطتْ سفينتهُ الشَّآمِ فشاهدتْ | بالْبِشْرِ وَالتَّرْحابِ عيداً أكبرا
أرضٌ حَباهَا الله منه رعايةً | ساحاتُهَا حَوَت المكانَ الأعطَرَا
تمشي الملائكُ حوله وَأَدِيمُهُ | مِسْكٌ يُخالِطُ فى العَبِيقِ الْعَنْبَرَا
هتفتْ لِرُؤْيَتِهِ القلوبُ تقول يا | (فتحى) لقد جَدَّدْتَ مجداً غابِرا
حَمَلَتْكَ أكنافُ الرِّياح مُطيعةً | كَرْهاً كما حملتْ أخاكَ الطائرا[1]
وقضى قصيرَ الوقتِ بين رُبوعِهَا | حتى انْقَضَى ما كان قبلُ مُقَدَّرا
سَلَّ الْحِمامُ عَلَى الْحَمام حُسامَهُ | فَهوَى صَرِيعاً مُرْغَماً فتحَسَّرَا
بكت النسورُ الجارحاتُ على الذى | عرضت مَنِيَّتُهُ له فتعَثَّرَا
عَمَّ الأَسَى وَالْحُزْنُ جوَّ صفائنا | وَالدَّمْعُ فاض من المحاجرِ أَنْهُرَا
ما كاد يَنْضُبُ دَمْعُ أولِ حادثٍ | حتى فُجِعْنَــا فى هُمامٍ آخَرَا
إنَّا لَنعْجَبُ منك (نُورِى) كيف قد | لاحظْتَ أَنَّ أخاكَ رَامَ الْكَوْثَرَا
فَلَحِقْتَهُ وَصَديقَهُ مُتَبَسِّماً | فَرِحاً لأنك قد طلبتَ الْجَوْهَرا
وضممتَ جِسْمَيْهِمَا إليك وَحَوْلَكُمْ | جيشُ السماءِ مُهَلِّلاً وَمُكَبِّرَا
وسكنتمو بَيْنَنَّا تقَادَمَ عَهْدُهُ | نجداً حَوَى مُلْكاً عظيماً أَشْهَرَا
هذا صلاحُ الدِّينِ مَنْ غَزَوَاتُهُ | أَهْدَتْ إلى العُرْبِ الكرامِ مَفَاخِرا
يا أَيُّهَا الشهداءُ هُنِّئْتُمْ بمـــا | نِلْتُمْ من الفردوس فوزاً أكبرا
إنا سنذكر عهد رِحْلَتِكُمْ فقد | ضَمَّتْ إلى التاريخ ذِكْراً عاطِرا
يا مُبْدِعَ الأكوانِ عَزِّزْ جَيْشَنَا | واحْفَظْ لنا تاجَ القيادةِ (أنْوَرَا)

---

(١) أكناف : جمع كنف ، وهو الناحية .

على أبو الفتوح

خل عَنْكَ الهوَى وخَلِّ الأماني ... كلُّ حيٍّ إلاَّ المُهيْمِنُ فانِ
وانْثُرِ الدَّمْعَ حوْلَ رَمْسِ فقيدٍ ... خَلَّفَ الشَّرْقَ باكِيَ الأَجْفانِ
خَلَّفَ العِلْمَ والمَعاهِدَ تنْعِي ... بيْنَ حالِ الوَسْنانِ واليقْظانِ
في سبيلِ العُلا غَمامٌ تولَّى ... رصَّعَتْهُ كواكبُ الميزانِ
كيف ولَّى بحْرُ العُلومِ وأبْقَى ... ماءَ دَمْعِ العيُونِ أحمر قاني(١)
أيْنَ بدْرُ العُلا الَّذي قد ورِثنا ... عنْهُ مافي الحَشا من النِّيرانِ
أيْنَ ربُّ الأقْلامِ يوم نِداءٍ ... كعَوالِي الرِّماحِ يوْمَ الطِّعانِ
أيْنَ من نالَ في قَصيرِ زَمانٍ ... ماتناهَى عن قُدْرةِ الإنْسانِ
أيْنَ من أصْلَحَ الإدارةَ في مِصْـ ... ـرَ فباتَتْ تَموجُ بالعُمْرانِ
أيْنَ من قام بالمَعارفِ فينَا ... فنَهَضْنا بالعِلْمِ والعِرْفانِ
كم ديارٍ للعِلْمِ عنها تخلَّى ... هاطِلُ الغيْثِ فارْتوَتْ بالأماني
جادَها الغيثُ فارْتوَى الغُصْنُ حتَّى ... عمَّ ماءُ الحياةِ بالعِيدانِ
أيْنَ ولَّى ذاكَ الهَتُونُ وخَلَّى ... مِصْرَ تخْشَى طَوارِئَ الحَدَثانِ
فأتَتها والشَّبابُ لمَّا تقَضَّى ... بل ذَوَى غُصْنُهُ قُبيْلَ الأوانِ
مدَّ روْضُ العُلومِ مِنْهُ يَميناً ... ثُمَّ أبْدَى له مزِيدَ امْتِنانِ
وتدَانَتْ إليه مصرُ وقالَتْ ... أنْتَ قلَّدْتَني عُقودَ الجُمانِ
لستُ أنْسَى نَداكَ ماهْتزَّ غُصْنٌ ... بنسيمٍ وما بدَا النَّيِّرانِ
إنَّ تُرْبي حِيالَ جِسْمِيَ أدْنَى ... أنْ يُوارِي جَلالَهُ النُّوراني
فاسْكُنِ الخُلْدَ حيثُ تبقَى عزيزاً ... بين حُورِ الجِنانِ والوِلْدانِ
واتْرُكِ الأرْضَ لاهياً من عليها ... وترفَّعْ عن رُؤْيةِ الثَّقَلانِ

(١) الصواب أن يقول : « قانيا » .

إيهِ يامِصْرُ قَــدْ فَقَدْتِ عظيماً كادَ يُعْليكِ فَوْقَ هامِ ٱلزَّمانِ
إيهِ ياشَعْبُ قد نَبَابكَ دَهْرٌ مِنْهُ مُدَّتْ إلى حَشَاكَ يَدَانِ
فأمالَتْ من عرشِ رَوْضِكَ غُصْناً كان من أصدقائه الفرْقَدَانِ
باتَ جَمْعُ ٱلزُّهورِ يَنْعِيهِ حُزْناً وأدْلَهَمَّ ٱلدَّيْجُورُ بالأَغْصَــانِ
أيُّهــا الطَّالِبُونَ للعِلْمِ جُودُوا كيفَ لم يَرُعَكُمْ قَرِيضٌ رَعَانِى
من ثَوَانِى يَرَاعِهِ فَوْقَ طِرْسٍ فَدُمُوعُ ٱلحزينِ تأبى التَّوَانِى
كيفَ لا يَنْدُبُ النَّجِيبُ أَبَاهُ كَيْفَ يَرْضَى لِنَفْسِهِ بِٱلهَوَانِ
حَوْلَ دُورِ التَّهْذيبِ سالَتْ دُمُوعٌ من جُفُونِ الفَتَيَاتِ والفِتْيَانِ(١)
يندُبُ الكلُّ حظَّ مِصْرَ وَيَشْكُو جَوْرَ دَهْــرٍ يُسِيءُ للإِحْسَانِ

* * *

كلَّما شَبَّ من بنِيهــا هُمــامٌ مُخْلِصُ القَلْبِ صَادِقُ ٱلوِجْدَانِ
أَسْرَعَ ٱلدَّهْــرُ نَحْوَهُ فَرَمَاهُ بِسِهــامِ ٱلمُخاتِلِ ٱلخوَّانِ
يا رَجاءَ العُيُونِ فى أرضِ مصر لَيْسَ بِدْعاً إذا بكا الهَرَمَانِ
ليتَ كنَّا يومَ الرَّحيلِ فِـداءً يافقيداً قــد فاز بالرِّضْــوَانِ
كم لِيُمْنَاكَ من أيادٍ علينـا كنُضَارٍ بَدَا لنا مِنْ جُمَانِ
غابتِ الرُّوحُ عَنْكَ للعَرْشِ تَسْعَى تتَهَادَى فَرَائد الإيمانِ
جادَ مثْــواكَ ياعَلِيُّ غَمَامٌ دائِبُ الصَّوْبِ مُفْعَمٌ بالحَنَانِ
أيُّهــا الراحلُ ٱلمُشَيَّعُ مِنَّـا نَمْ هَنيئاً فى طَيِّبَاتِ الجِنَانِ
أنتَ فى جَنَّةِ النَّعيمِ مُقيمٌ وَفُؤادِى عَلَيْكَ فى النِّـيرانِ !
كلُّ قَلْبٍ لِفَقْدِكَ اليومَ يبكى آسِفاً نادِباً صُرُوفَ الزَّمانِ
وَاشْـكُرِ اللهَ قد تَرَكْتَ رجالاً مِنْكَ نَالُوا محبَّةَ الأَوْطَـانِ
وتعطَّفْ على ذَوِيهِ بِصَــبْرٍ ياقَدِيمَ ٱلوُجُــودِ وَٱلغُفْرانِ

(١) فى البيت قلق عروضى فى كلمة «الفتيات» .

رثاء(١)

دَهَانَا مُصابٌ فادحُ ٱلخطبِ مُؤْلِمُ ... لَهُ في السَّما والأَرْضِ قَدْ بَاتَ مَأْتَمُ
مصـابٌ عظيمٌ فى عَزِيزٍ شَبَابُهُ ... تَوَارَى يُخَضِّبُ وَرْدَ وَجْنَتِهِ ٱلدَّمُ
فيأيُّها المحمولُ فَوْقَ مَوَاكِبِ ٱلـ ... ـمَلائكِ والأَطْيارُ تَبْكِي تَرَحَّمُ(٢)
ويا ثاوِياً لما نَعَوْهُ لِوَاضِحِ ٱلـ ... ـنَّهارِ توارى ضَوْؤُهُ فهـو مُظْلِمُ
ويامَنْ إِذا ماٱلْخَطْبُ أَرْسَلَ جَيْشَهُ ... تَرَاهُ شجاعاً يلتقيهِ وَيَبْسِمُ
لسانٌ تعوَّدَ أَنْ يَقُولَ صراحةً ... وقَلْبٌ وديعٌ بالتآلُفِ مُغْرَمُ
عَزِيزٌ إِذَا ما حَلَّ بالبَدْرِ رُزْؤُهُ ... أَو البَحْرِ ما كُنَّا لِذا ٱلحَدِّ نَنْدَمُ
فَوَاحَزَنِي لو أَنَّ حُزْنِي يَرُدُّه ... وَوَاأَلَمِي لو كان يُجْدِي التَّأَلُّمُ
أَتاهُ ٱلرَّدَى والقَوْسُ فَارَقَ سَهْمَهُ ... وَقَدْ كادَعَنْهُ فى دُجَى النَّقْعِ يُحْجِمُ
أَتاه ٱلرَّدى والسَّيْفُ كانَ صَدِيقَهُ ... فخـرَّ صريعاً والجيادُ تُحَمْحِمُ
ذَوَى غُصْنُهُ قَبْلَ الأَوانِ فَمُزِّقَتْ ... قُلُوبٌ لِهَوْلِ مُصَابِهِ تَتَضَرَّمُ(١)

* * *

خَليلَيَّ طُوفَا بِٱلمَدَائِنِ وَٱبْكِيَا ... فإِنِّى أَراها أَوْشَكَتْ تَتَهَدَّمُ
وتلكَ ٱلجِبَالُ ٱلْمُسْتَقِرَّاتُ حَوْلَهَا ... سَتُنْسَفُ فى كَفِّ ٱلرَّدَى وَتُحَطَّمُ
وإِنْ تَسأَلانى عَنْ زَمَانى فإِنَّمَا ... لِسَانِى بما فى صَدْرِهِ مِنْهُ أَعْلَمُ
فما ٱليومَ إلا والعَجَاجُ تُثِيرُهُ ... حَوَافِرُ خَيْلِ النَّائباتِ فَيُظْلِمُ
وما شَمْسُهُ إِلا سُيُوفٌ يَسُلُّهَا ... فهل أُغْمِدَتْ إِلا وَأَطْرَافُهَا دَمُ

---

(١) عبد المجيد إسماعيل كان ضابطاً بالجيش المصرى ، ولد بميت النصارى مركز سمنود دقهلية . وقتل فى واقعة الانواك فى شهر أبريل عام ١٩١٢ أرسلت إلى شقيقه عثمان فهمى محمد الضابط بمدرسة طنطا الثانوية

(٢) قوله ترحم : أصله تترحم ، حذفت إحدى التاءين للتخفيف .

(٢) فى الشطر الثانى خلل عروضى له شبيه فى بعض الأبيات السابقة لأنه كثيراً مايخلط بين بحرى الطويل والكامل وهما متقاربان .

تُغِيرُ عَلَيْنَا كلَّ يومٍ صُرُوفُهُ ... فتَنْهَبُ منّاً مَنْ تشاء وتَغْنَمُ

* * *

وياقبرُ يامَنْ لا يَرَى الدَّمع إنْ جرَى ... عليهِ ، ولا شكوَى المحبِّين يَفْهَمُ !

لقد بتَّ أعلا منزلٍ جادَهُ العُلَى ... ورَوَّاكَ غيثٌ دائبُ الصَّوْبِ مُفْعَمُ

أعبْدَ المجيدِ العَيْشُ بَعْدَكَ عَلْقَمُ ... أجَلْ وَبقَائى فى شَقائى تَوَهُّمُ

فلو كانَ سَفْكُ دَمِى يَقيكَ مِنَ الرَّدَى ... لَجُدْتُ بِرُوحِى إذ حَيَاتى تُحَرَّمُ

فنَمْ آمناً أنْتَ الشُّجاعُ وأنتَ مَنْ ... ذَهَبْتَ شهيداً فى الْجِنَانِ تَنَعَّمُ

تناجيكَ حُورُ العِينِ أنعم بِضَيْفِنَا ... عَفيفٌ شَرِيفٌ عاطِرُ الذِّكرِ يُكْرَمُ (١)

فيارَبِّ أَلْهِم آلهُ الصَّبْرَ وأرْعَهُ ... وأسكِنْهُ دَارَ الْخُلْدِ فيهاَ فَيُرْحَمُ

---

(١) سبقت الإشارة إلى قوله « حور العين » وصحتها « الحور العين » على الوصف لا الإضافة .

إلى زوجة راحلة

حـول رمسٍ تظـلُّه الأَوفيـاء　　وعليــــه ترفرف الوَرْقاء
وغصونٌ الاراك منحنياتٌ　　كالبـواكى والأدمعُ الأنـداء
ونجومُ السماء تحجبها السحـ　　ـبُ وتبـدو كأنها رُقَبـاء
وقفت غادةٌ سمـاويةُ الوجـ　　ـهِ عليها من الضياء رداء
يَسْتَبى النـاظرينَ منها جمالٌ　　لم تصف بعضَ حسنهِ الشعراء
إن بدا الوجهُ فالمساء صباحٌ　　أو بدا الشَّعْرُ فالصباحُ مساء !
يحسب القلبُ حين ترنو بعينٍ　　أن ما فى عيونها كَهْرَباء
ولها من شجونها زَفَراتٌ　　محرقاتٌ من دونها الرمضـاء
تلطم الجِيـدَ تارةً وتدق الـ　　ـصدرَ طوراً كأنها الخنساء
وتُرِيقُ الدموع جمراً على الأر　　ض فتروى أعشابُهَا الخضراء
وشَـكَتْ حالَهَا الطبيعةُ حتى　　ركد الماء وأسْتَكَنَّ الهواء
وعلاَ ذلك المكانَ وقارٌ　　أنزَلَتْهُ عَلَى الضَّرِيحِ السماء
لَهْفَ قلبى على شريكةِ عمرى　　ذهب العِزُّ بعـدها والوفاء[1]
ليس لى بعد نَأْيِهَا من حبيبٍ　　أَرْتَجيـهِ وليس إلا العـزاء
كنتِ لى فى الْوَرَى أَعَزَّ مقامٍ　　دونه الْفَرْقَدَانِ والجوزاء
كنتِ لِلْغِيدِ خيرَ من عفَّ طُهْراً　　ولها جِـلَّةُ الْوَرَى أصفياء
يا زمانَ الشقاءِ لو عاتبَ اللهُ　　زماناً لـكنتَ أنتَ الشـقاء
لا يُرَى فى بَنِيكَ وَافٍ بِعَهْدٍ　　أو صديقٌ إن حَقَّت الأصدقاء
ذاك يسعى فى قلبه أَرْقَمُ الحِقْـ　　ـدِ وهـذا تَهُزُّهُ الْكِبْرِيَاء

(١) فى هذا البيت إشارة إلى أن الشاعر يرثى زوجته بهذه القصيدة ولعلها الزوجة الأولى ، وقد أشار فى آخرها إلى أن اسمها زينب .

حَسَدٌ زائدٌ وخُبْثٌ شديدٌ وَخِـداعٌ وغَيْبَةٌ ورِياء
يتوارون فى النزاهةِ والصد قِ كما يستر الإناءَ الطِّلاَء
ويشيرون بالدواءِ عَلَى مَنْ حاز فضلاً ، كأنما الفضلُ داء
بِكِ ضاع الجميلُ واشتهر النكـ ثُ كثيراً وعَمَّت الْبَلْوَاء
والمُرَاءون فيك حَظُّهم الْوُ دُّ من الناس أحسنوا أم أساءوا
وإذا كان منك بعضَ كرامٍ (كان أهلَ الحبيبةِ الأوفياء)
ياحياتى قد عِيلَ بعدك صبرى ودَهَتْني المصائبُ الدهماء
أَبْتَغِى الموتَ وهو غاية ما يُرْ جَى دَوَاءً وليس فيه الدواء
أنتَ يا قبرُ قد حويتَ جمالاً وملاكاً قد احتوته السماء
فُتِـحَ الرمسُ فيه «زينبُ» غابتْ كيف يارمسُ منك يبدو الضِّيَاء ؟
ودوَى منه فى المَسَامِعِ صَوْتٌ رَجَّعَتْهُ الجِبَالُ والأدواء[1]
إنَّ هـذى هى الأمانةُ ضُمَّتْ فى ضَرِيحٍ به أخوها الوفاء
إن صبرى حِيَالَ هـذا يُنَادِى يا إلَهَ السماء أين العـزاء ؟

---

(١) الصواب دوى بالتشديد . والشاعر كثيراً مايجرى على هذا الاستعمال فى شعره . ولعله يريد بالأدواء جمع دو ، وهى الصحراء المترامية .

فيدورا[1]

هَيفاء زَيَّنَ خَدَّهَا وَرْدُ الصِّبى ... فَتَمايَلَتْ كالْغُصْنِ حَرَّكَهُ الصَّبَا
حسناء طاهرةٌ كزهرةِ روضةٍ ... ما مَسَّهَا غيرُ النسائمِ والنَّدَى
بيضاء يُحْدِقُ شَعْرُهَا بجبينها ... فتُرِيكَ وَجْهَ الصُّبْحِ فى غَسَقِ الدُّجَى
نَشَأَتْ وحيدةَ أهلها فى قريةٍ ... كالزَّهرِ ينشأُ زاهياً بين الرُّبَا
لم تَدْرِ غيرَ الحقلِ والنَّبْتِ الذى ... يزهو عليه وَوَرْدُهُ الْغَضُّ الْجَنِى
والشمسُ غاربةٌ تُوَدِّعُهَا مَتَى ... غابت وتلقاها مَتَى لاَحَ الضُّحَى
والبدر تَنْظُرُهُ فتحسبُ رَسْمَهَا ... فيه ويحسبُ رَسْمَهُ فيها بَدَا
وَقَفَتْ عَلَى بابِ الْخِبَاءِ عَشِيَّةً ... كالشمسِ قد وقفتْ عَلَى أُفْقِ الضِّيَا
وَجَرَى النسيمُ بها يُلاَعِبُ شَعْرَهَا ... حيناً فيخفقُ مثلما خفقَ اللِّوَا
وإذا بِوَقْعِ حَوَافِرٍ فى قُرْبِهَا ... وَفتًى عَلَى سَرْجِ الجوادِ قد اُسْتَوَى
ذُو قَامَةٍ هيفاء تُزْرِى بالْقَنَا ... وَلَوَاحِظٍ نَجْلاَء تُزْرِى بالظُّبَى
وقد اُنْتَضَى سَيْفَ الْقِتَالِ وَلَحْظُهُ ... أَمْضَى وَأَفْتَكُ مَقْتَلاً مما اُنْتَضَى
وعلى ملابسِهِ الْحُلِيُّ لَوَامِعٌ ... كالبدرِ فى زُهرِ النجومِ قد اُنْجَلَى
وَافَى فحياً باسِمـاً مُتَلَطِّفاً ... وَدَنَا لها مُسْتَسْقِياً يشكو الظَّمَا
فمضت لخِبَاءِته بكأسٍ وَاُنْثَنَتْ ... ترنو لِطَلْعَتِهِ كما ترنو الْمَهَى
يَحْسُو الشَّرَابَ وَتَحْتَسِى من حُسْنِهِ ... خمراً بها قلبُ الفتاةِ قد انكوى
حتى اكْتَفَى وأعاد كأسَ شرابِهِ ... مملوءةً بعد الْمِيَاهِ من الثَّنَا
وَمَضَى فَوَدَّعَهَا وَأَوْدَعَ قلبها ... بَدَلاً لبردِ شرابِهَا حَرَّ الْجَوَى

---

(١) هذه القصيدة تروى قصة حب ، وهى جيدة السبك ، وربما أحسسنا فيها تأثر الشاعر بالبارودى فى إحدى قصائده التى تجرى على نفس الروى ، وقد كتب الشاعر فى آخرها كلمتى « الفصل الأول » ولكننا لم نجد منها غير هذه الأبيات ومعها العبارة التالية : الرمل — الاسكندرية — ١٧ يوليه ١٩١١ » فلعلها إذا كان مشروع قصة طويلة لم تتم . . .

دَخَلَ الهوى قلباً خليًّا لم يكن … يدرى الهوى حتى تَمَلَّكهُ الهوى
فقضتْ دَياجِى لَيْلِهَا فى ظُلْمَةٍ … لليأْسِ يُوشِكُ لايُضِىءُ بها الرَّجَا
يهفو النُّعَاسُ بِجَفْنِهَا فَيَرُدُّهُ … من تَمَلَّكَهَا خَيَالٌ قد سَرَى
حتى إذا ذهب الظلامُ وَأَشْرَقَتْ … شمسُ الضُّحَى تزهو على تلك الرُّبَا
وَافَى رسولٌ من حبيبِ فؤادِهَا … بِهَدِيَّةٍ تُهْدَى لِرَبَّاتِ الْبَهَا
وَدَنَا وقال : هَدِيَّةٌ من سَيِّدِى … تُهْدَى لِسَيِّدَتِى ! وَسَلَّمَ وَانْثَنَى
كانتْ جزاءً للشَّرَابِ وَلَيْتَ لَمْ … يكنِ الشَّرَابُ وَلَمْ يكن هَذَا الْجزَا
فلقد سَبَا قَلْبَ الفتاةِ صبابةً … وهوًى لذيالكَ الجميلِ ومادَرَى
كالقَوْسِ أَطْلَقَ سَهْمَهُ فَجَنَى وَلاَ … لومٌ عليهِ فَلَيْسَ يَدْرِى مَاجَنَى
ما زال يُذْكِيهَا الهوَى وَيُذِيبُهَا … حتى غَدَتْ شبحاً أَرَقَّ من الهوَا
وهوتْ على مَهْدِ السَّقَامِ عَلِيلَةً … تَشْكُو الذى يَبْدُو وتكتمُ ما اخْتَفَى
حَارَ الجميعُ بها فلم يَدْرُوا لَهَا … داءً تُكَابِدُهُ ولم يدروا الدَّوَا
وأقام يندب وَالِدَاهَا حَسْرَةً … وأَسًى وما يُجْدِى التَّحَسُّرُ والأَسَى
والظبىُ مُخفيةٌ حقيقةَ دائِها … وتقولُ لاأَدْرِى فَذَا حكمُ القَضَا(١)
حتى إذا ذهبَ الظَّلاَمُ وأَشْرَقَتْ … شَمْسُ الضُّحى تَزْهُو عَلَى تِلْكَ الرُّبا
وافَى رَسُولٌ من حبيب فُؤَادِهَا … بهديةٍ تُهْدَى لرباتِ البَهَا(٢)
سَمِعَتْ بِقُرْبِ الباب وَقْعَ حَوافِرٍ … ورأَتْ حبيبَ فُؤَادِهَا مِنْهُ أَتَى
وافَى ولكنْ بعد ماانْقَطَعَ الرَّجَا … وَوَفَى ولكنْ حِينَ لايُجْدِى الوَفَا
وَحَنَى عليها وهو يَسْأَلُ جَازِعاً … ويقولُ كيفَ أَصَابَهَا سهمُ الردى
فَرَنَتْ إليه بمُقْلَةٍ فَتَّانَةٍ … وَكَسَى اصْفِرَارَ جبينِها وَرْدُ الحَيَا

---

(١) قصد بالظبى الفتاة ، ولذلك قال «مخفية» .
(٢) هذا البيت مكرر ولعله زائد وقدوجدناه فى هذاالموضع فأثبتناه فى موضعه .

وتنهّدتْ أسفاً وقالت إنّ بى مَهْماً أصابَ القلْبَ من عيْنَيْ فتى
هَذَا هو الدّاء الذى أقْضِى بهِ حُبّاً وكَمْ مِنْ عاشِقٍ قَبْلِى قضَى
فأجابَ مَنْ هَذَا الفتى ؟ فتناوَلتْ مُهْدَاتِهِ بيدٍ يُصافِحُها الفتَى
ورَنتْ وقالتْ عِنْدَمَا يبْدُو الضُّحَى وتكون رُوحى فارَقتْ هَذَا المَلاَ
إنْ شِئْتَ تعْرِفُ من قَضَيْتُ بحُبّهِ أنْظُرْ إلى المرآةِ تلْقَى مَنْ جَنَى !

المنصورة(١)

قُلْ للغَرِيبَةِ عن أَهْلٍ وعَنْ بَلَدِ ... وعن عزيزٍ وعن صَبْرٍ وعن جَلَدِ
هل تذْكُرِينَ ليالِينَا التى سَلَفَتْ ... وليلةً لَسْتُ أَنسَاهَا إلى الأَبَدِ
سرقت فيها من الواشينَ خَلْوتَنَا ... ونلتُها منك عن وعْدٍ يداً بيدِ
وبتُّ لا ريبةٌ أَخْشَى بَوَادِرَهَا ... كلاَّ ولا عَذَلٌ أَخْشَاهُ من أَحَدِ

والنورُ فى مَعْزِلٍ عنَّا له لَهَبٌ
يَبْدُو ويَخْفَى كفعل القَلْبِ ذى الحَسَدِ

وأنتِ فى ثَوْبِكِ النَّاقى البياض على ... جِسْمٍ نَقِيٍّ بِنُورِ الحُبِّ متَّقِدِ(٢)
أَرَى عليه ضياء البدْرِ مُنْعَكِساً ... يكادُ يفْضَحُنَا فى دَارَةِ البلَدِ
أَهوى إلى رَشْفِ ثغرٍ فيه مُنْتَظِمٍ ... يُهْدِى لى النَّارَ من صَفَّيْنِ من بَرَدِ
وبيننا غزَلٌ رقَّتْ مَوَارِدُهُ ... كأنه نَغَمَاتُ الطائرِ الغَرِدِ
شَكْوَى تُقَطِّعُهَا مابيننا قُبَلٌ ... ولو أردنا سِوَى هٰذَيْنِ لم نَجِدِ!
يهفو الفؤادُ على آثارها طرَباً ... حتى يُنَادِيهِ صَوْتٌ : قِفْ ولاتزِدِ
صوتٌ هو الطُّهْرُ فى لَفْظِ العفافِ بَدَا ... والطُّهْرُ خيرُ صفاتِ النفسِ والجَسَدِ
حتى رَجَعْتُ بجسمٍ عنك مُبْتَعِدٍ ... يَشْتَاقُ عِنْدَكَ قلباً غيرَ مُبْتَعِدِ
يا منهلاً قد تَمَتَّعْنَا بِكَوْثَرِهِ ... حيناً رَوِينَا به لو دام رِيُّ صَدِى

ما كنتُ أَرْضَى وِصَالاً منكَ عن كَثَبٍ
فصرتُ أَرْضَى خيالاً منك عن بُعْدِ!

---

(١) هذه القصيدة تروى قصة حب وأغلب الظن أنها قصة واقعية جرت للشاعر فى مدينة المنصورة ، ولذلك اتخذ من اسمها عنواناً للقصيدة .

(٢) الناقى خطأ ، وصحته « النقى » .

وردة

لِشَخْصِكِ من زَهْرِ الرُّبى لَقَبُ الوردِ
وَهَيْهَاتَ ماللْوَرْدِ حُسْنكِ فى الوُدِّ

تَفُوقينهُ لوناً وريحاً وَمَنْظَراً وَبُقْيا عَلَى عَهْدِ الصَّبَابَةِ والوَجْدِ
فلِلْوَرْدِ شَهْرٌ واحِدٌ ثم ينقضي وَوَرْدُكِ بَاقٍ لايَزُولُ عن الْخَدِّ !
وللوَرْدِ ريحٌ واحــدٌ لايَجُوزُهُ وَنَشْرُكِ ريحُ الوَرْدِ والمِسْكِ والنَّدِّ
ويقطفُ كلٌّ زهرةَ الوَرْدِ فى الرُّبَى وَوَرْدُكِ لم يَقْطِفْهُ إلا أنا وَحْدِى
وَتَعْرَى قُدُودُ الوَرْدِ فى العَامِ مُدَّةً وَقَدُّكِ دوماً بيننا ضَافِي البُرْدِ[1]

وَتَنْشَا غُصُونُ الوَرْدِ مَبْلُولَةَ الثَّرَى
وَمَنْشَاكِ فى قَلْبِي الذى جَفَّ من وَجْدِى !

فَسُبْحَانَ مَنْ أَنْشَاكِ شخصاً وقد حَوى
جِنَانَ رِيَاضِ الْخُلْدِ باسْمٍ من الوَرْدِ

(١) لاوجه لنصب « ضافي » إذ أنه خبر مرفوع .

ناظك[1]

مَنْ لِغُصْنِ النقَا بِلِينِ قَوَامِكْ أو لِزَهْرِ الرُّبى بِحُسْنِ ابْتِسَامِكْ
من لِقَلْبي بأَنْ يَعِيشَ سَعِيداً أَوْ يَذُوقَ الرَّدَى شَهِيَّ غَرَامِكْ
من لِدرٍّ البحارِ يَخْرُجُ مِنْهَا يَـتَرَامَى نَـثْراً عَلَى أَقْدَامِكْ
من لِهذِى الأَفْلَاكِ تَغْدُو سريراً وَدَرَارِيُّهَا وِسَـادَ مَنَامِكْ
من لِزُهْرِ النَّجُومِ يُصْبِـحُ منهَا لكِ قُرْطٌ أَوْ حِلْيَةٌ فَوْقَ هَامِكْ
مَنْ لِبَدْرِ الدُّجى بِحُسْنِ مُحَيَّا كِ إِذَا ما أَزَحْتِ عَفْواً لِثَامِكْ[2]

إليهــــا

كم تـكتمى عنِّى هَوَاكِ وأَ كْتُمُ وتـكلمتْ مَابَيْنَنَا النَّظَرَاتُ[3]
فَـكَـفَى كَفَى هذَا السكوتُ لأَنَّهُ فى الحبِّ قَدْ رُفِعَتْ لنا رَايَاتُ
عَلَمُ الهوَى أَمْسَى يُرَفْرِفُ حَوْلَنَا كُتِبَتْ لنا مِنْ فَوْقِهِ آيَاتُ
لاتَقْطَعِى عَهْـدَ المَحَبَّةِ بَيْنَنَا ياغَادَةً سُـكِبَتْ لَهَا العَـبَرَاتُ

---

(١) ليلة ١٥ أبريل ١٩١١ — قنا — الـكلوب .
(٢) وضع « لثامك » موضع الجر خطأ نحوى ، وصحته النصب لأنه مفعول لأزحت ؛
(٣) الصواب : كم تـكتمين ، وقوله أ كتم : لايتفق والعروض .

هى أشعر

أَحَبِيبَ قَلْبٍ تنتظـــــرُ　　فَدُمُـــوعُ عَيْنِكَ تُمْطِرُ ؟
أم أَبْرَقَ العَلَمَـــينِ أَمْ　　هَجْـرَ الْحَبِيبَـةِ تَذْكُرُ ؟
أَمْ راشَ قَلْبَكَ جُـــؤْذَرٌ　　أَحْوَى اللَّوَاحِظِ أَحْـــوَرُ
أَمْ هَبَّ مِنْ مِصْرٍ صَبَا　　أَمْ طَارَ بَرْقٌ أَشْقَـــرُ ؟
أَمْ قَدْ ذَكَرْتَ سُهُـــولَهَا　　وَهِى البِسَاطُ الأَخْضَرُ ؟
والنِّيـــلُ فى أَحْشَائِهَـــا　　عِقْدٌ يَلُوحُ مُجَوْهَـــرُ
والجـــوُّ صَحْوٌ مُشْرِقٌ　　وكَأَنَّمَا هُـــو مُمْطِرُ
هِىَ وَشْىُ نَسْجِ نيلهـــا　　فيـــه الطِّرَازُ الأَحْمَـرُ
هى جَنَّةٌ يُجْنَى العُـــلاَ　　فِيهاَ ويَجْـــرِى الكَوْثَرُ
أنَا شَاعِرٌ فى وَصْفِهِـــا　　لكنَّـــما هى أَشْعَـــرُ!

مطارحة[١]

أتانى فى قميصِ النَّوْمِ يسعى ... مــلاكٌ لى يُلَقَّبُ بالحبيبِ
وقد لَعِبَ الشرابُ بِوَجْنَتَيْهِ ... فَصَيَّرَ خَــدَّهُ كَسَنَا اللَّهِيبِ
فقلتُ له لِمَ اسْتَحْسَنْتَ هذا ... لقد أقبلتَ فى زِىٍّ عجيبِ
أَحُمْرَةُ وَجْنَتَيكَ كَستْكَ هذا ... أم أنتَ صَبَغْتَهُ بِدَمِ القلوبِ
فقـال الرَّاحُ أَهْدَتْـنِي قميصاً ... كلَوْنِ الشَّمْسِ فى وقت المَغيبِ
فَثَوْبِى والمُدَامُ وَلَوْنُ خَـدِّى ... قريبٌ من قريبٍ من قريبِ !

مدح

فَـتًى كَمُلَتْ أخلاقُهُ غيرَ أنه ... سَحَابٌ إذا اسْتَمْطَرْتَهُ كان نَادِيَا
فَـتًى كلُّ ما فيه يَسُرُّ صَدِيقَهُ ... وإن كان هذا مايَسُوءُ الأعادِيَا

ثنـاء

عَـلَّمَ الْغَيْثَ النَّدَى حتى إذا ... ما حَـكَاهُ عَلَّمَ الْبَأْسَ الأسدْ
فَـلَهُ الْغَيْثُ مُقِرٌّ بالنَّــدَى ... وله اللَّيْثُ مُقِرٌّ بالْجَــلَدْ

مديح

تَصْلَى عَزَائِمُهُ فى قلبِ حاسِدِهِ ... ناراً تجــرُّ عليه زائدَ الأوَدِ
إليك أرفعُ إجلالى وَتَهْنِئَـتِي ... لازلتَ تَرْقَى المَعَالِي آخِرَ الأبَدِ

---

(١) يبدو أن الشاعر قد تأثر ببعض تراثنا الشعرى فى هذه االمقطوعةلبقة وبعض لر المقطوعات التالية لها ،

وصف الحبيبة

والذى زاد مُقْلَتَيْكِ اقْتِدارا   أنَّ (صَبْرِى) قد آنَسَ اليومَ نارا
يا غزالاً رَنَا وَغُصْناً تَثَنَّى   وَهِلالاً بَدَا وبدراً أَنارا
كان دَمْعِى عَلَى هَوَاكِ لُجَيْناً   فَأَحَالَتْهُ نارُ قلبى نُضَارا
لكِ جِيدٌ وَمُقْلَةٌ تَرَكَا النَّا   سَ سُكَارَى وما هُمُو بِسُكَارَى
وَثَنَايَا أَخَذْتُ من رِيقِهَا الخَمْـ   رَ ومن لَوْنِهَا أَخَذْتُ الْجِمَارَا
حِلْيَةٌ لا أُعِيرُهَا لِمُحِبٍّ   لا يَظُنُّ الْوُشَاةَ إِلاَّ غَيَارَى

(القاهرة ١٨ يونيه ١٩١١)

غزل

بَدَتْ فى رِدَاءِ الْحُسْنِ بَاسِمَةَ الثَّغْرِ   مُرَنَّحَةَ الأعطافِ محلولةَ الشَّعْرِ
فَقَبَّلْتُهَا (تُرْكِيَّةً) حُلْوَةَ اللَّمَى   وَعَوَّذْتُهَا بالشَّمْسِ والليلِ والفجرِ
أَرَى الشمسَ منها فى الْعِشَاءِ مُنِيرَةً
وإِنْ خَطَرَتْ ظُهْراً أَرَى النَّجْمَ فى الظُّهْرِ !
سَقَتْنِى سُلافَ الرَّاحِ من لَحَظَاتِهَا
فَصِرْتُ أُجارِى خَدَّهَا نَشْوَةَ السُّكْرِ
تَدَاوَيْتُ من أَلْحَاظِهَا بِرُضَابِهَا   كما يَتَدَاوَى شَارِبُ الخمرِ بالخمرِ

(١٥ إبريل ١٩١٢)

عزيزة الروح

عَزِيزَةَ الرُّوحِ جُودِى بالْوَفاءِ على   قليلِ صبرٍ كسته الذُّلَّ عَيْنَاكِ
أَوْ فاتْرُكِينِى أَمُتْ وَاللهُ يَرْحَمُنِى   فَرَحْمَةُ اللهِ تَأْتى فَوْقَ رُحْمَاكِ !

(٥ يونيه ١٩١٢)

صبرى

يا رَبِّ قَدْ قَلَّ صَبْرِى ... وضاق بِالْحُبِّ صَدْرِى
وَاُشْتَدَّ شَوْقِى وَوَجْدِى ... وَسَيِّدِى لَيْسَ يَدْرِى
مُضَاعِفٌ فى عَذَابِى ... وليسَ يَرْحَمُ صَبْرِي[1]
إنْ كَانَ تَاهَ دَلالاً ... وَلَسْتُ أَمْلِكُ صَبْرِى
أنا ٱلَّذِى لِغَزَالٍ ... رَنَا فَأَشْغَلَ فِكْرِى

(قنا ١٩٢١)

إلى صديق

لو كنتُ أَهْوَى سِوَاكَا ... ماكنتُ يَوْماً أَرَاكَا
يا مُنْيَتِى وَعِمَادى ... مالِى حَبِيبٌ سِوَاكَا

* * *

عبدَ ٱللَّطيفِ تَأَكَّدْ ... صَبْرِى غدا فى اُشْتِيَاقِ
معذَّبٌ فى هَوَاكُمْ ... يَرُومُ يَوْمَ التَّلاَقِ

* * *

يا خَيْرَ شَهْمٍ هُمَامِ ... صَبْرِى غَدَا فى هُيَامِ
فَاُعطِفْ عليهِ لِيُشْفَى ... مِنْ صَائِبَاتِ السِّهَامِ

(١) يريد الشاعر نفسه .

تطريز

زكِّى جمالاً أنتَ فيه غَنِيَّةٌ　　وتَصَدَّقِى منه عَلَى المِسكين(١)
يا ظبية ألوت ديونى فى الهوى　　كيف السبيل إلى اقتضاء دُيونى
ناديتُ كَتْمَ الحبِّ بين جوانحى　　حتى تكلم فى دموع شؤونى
بالله لا تخفى علاماتِ الهوى　　كاد المحبُّ بأن يقول خذونى !

الشيخ فهمى الصيرفى

اللهُ يعلمُ ما بالقلبِ من شَغَفٍ　　ياصيرفىُّ فمنك الحبُّ يكفينى
جُدْ بعــلمٍ ولا تبخل علىَّ به　　يا كعبتى أنت بدرٌ بات يهدينى

تهنئة (٢)

لَقَدْ سَرَّنِي فَوْزُ العَزِيزِ (مُحَمَّدٍ)　　فَلاَ زَالَ دَوْماً لِلْمَسَرَّاتِ غَانِماَ
فتًى لَبِسَتْ مِنْهُ اللَّيَالى قَلاَئِداً　　أَضَاءَ بِهَا ٱلأُفْقُ ٱلذى كان مُظْلِمَاَ
أُهَنِّئكُمْ من كلِّ قَلْبِي وَإِنَّنى
أَرَانِي وإنْ أَبْدَعْتُ فى ٱلوَصْفِ مُلْجَماَ

(١) انظر هذا البيت فى قصيدة فى باب غزل الأغانى مطلعها :

دمعى أهاج صبابتى وشجونى　　والسهد أتلف مهجتى وعيونى

(٢) تهنئة بنجاح محمد صفوت حجازى نجل أحمد حجازى رئيس نيابة قنا ، فى الشهادة الابتدائية عام ١٩١٣ .

متناثرات فى الهجاء

(١)

أرى الجهل طبعاً فى أبيكَ وَفيكا   جَهُولاً بَرَاهُ اللهُ وابْنَ جَهُولَةٍ
وأَنْتَ ولىُّ العَهْدِ بَعْدَ أبيكَا !   أبُوكَ إمامُ الناسِ فى الجَهْلِ كلِّهِمْ

(٢)

ويرحل إنْ مرَرْتَ بنا السُّرُورُ   يطولُ بِقُرْبِكَ اليوْمُ القَصِيرُ
وَوَجْهُكَ أرْبِعَاءُ لاتدُورُ   صباحُكَ للمُبكّرِ فألُ سُوء

(٣)

والتَّيْسُ من ظَنَّ أنَّ التَّيْسَ مَحْلُوبُ[1]   أتيْتُ أسأل شيئاً لامَدَرَّ له

(١) النكتة ظاهرة فى قوله (لامدر له) ...

رسالة (١)

أَيْنَ الْحَبِيبُ الَّذِى قَدْ بَاتَ يَشْغَلُنِى ... فِرَاقُهُ عن صَفَائِى بَيْنَ خِلاَّنِى
أَين الحبيب الذى نَفْسِى لهُ هِبَةٌ ... وَحُبُّهُ قد غَدَا (صَبْرِى) به هَانِى
أَين الحبيب الذى (صبرى) به دَنِفٌ ... قَرِيحُ جَفْنٍ أَسِيرٌ مُغْرَمٌ عَانِى
أَين الحبيب الذى عِنْدِى لَهُ شَغَفٌ ... وكيف عنى نَأَى أو زاد أَحْزَانى
أَين الحبيب (حُسَيْنٌ) أَيْنَ طَلْعَتُهُ ... ياديبُ مَهْلًا فَمُرُّ الصَّبْرِ أَضْنَانى !
أَين الحبيب (حسينٌ) أَيْنَ بَهْجَتُهُ ... إِنى أَخَافُ غداً إِذْ رُبَّ يَنْسَانى !
عنِّى نأَيْتَ وخَلَّيْتَ الدِّيَارَ أَلاَ ... تَرْثِى لحالى فهذا النَّوْمُ جَافَانى ؟
فَارَقْتُكُمْ وَبِوُدِّى لا أُفارِقُكُمْ ... ياخيرَ من أَرْتَجِيهِ يَوْمَ سُلْوَانى
فَارَقْتُمُو مِصْرَ تَصْبُو يَوْمَ أَوْبَتِكُمْ ... وَالدَّمع يَجْرِى غَزِيراً ملءَ أَجْفَانى
قُمْتُمْ عَلَى عَجَلٍ وَالقَلْبُ فى وَجَلٍ ... وَالدَّمْعُ مُسْتَرْسِلٌ ياخَيْرَ إِخْوَانى
صبراً على أَلِفٍ قَدْ بَاتَ يَنْشُدُكُمْ ... ياديبُ فى روضِ أُنْسٍ بَيْنَ أَغْصَانِ (٢)
سَافَرْتَ فى سَاعَةٍ قد كنتُ أَرْقُبُهَا ... وكنتُ أَرْجُو وَدَاعاً دَمْعُهُ دَانِى
لكِنْ أَرَادَ زَمَانُ الظُّلْمِ يَمْنَعُنِى ... قهراً فَكَدَّرَ عَيْشِى ثُمَّ أَعْيَانى
ياديبُ سَافَرْتُمُو وَالقَلْبُ فى أَلَمٍ ... من الفِرَاقِ وَأَنْتُمْ خَيْرُ نُدْمَانى

(١) وجه هذه الرسالة إلى صديقه الشاعر حسين الديب السويفى فى المنصورة عام ١٩٠٩ .

(٢) قوله «أَلِف» بفتح الهمزة وكسر اللام خطأ فى هذا الموضع ، إنما هو «إِلْف» بكسر الهمزة وسكون اللام وهو الصديق الذى يألف .

عاشق

وَنَزَّهتُ فِكْرِى فى بَدَائِعِ حُسْنِهَا فأَرْكى جمالُ جَبِينِهَا النارَ فى صَدْرِى (١)

أمَا وَنَحِيلِ الْخَصْرِ إنَّكَ بالبُكَا وبالسُّهْدِ يا إنْسَانَ عَيْنِي لَفِى خُسْرِ

مُعَنًّى بوَسْنَانِ اللَّوَاحِظِ سَارِقٍ

كَرَى مُقْلَتِى من حَيْثُ أَدْرِى ولا أدْرِى

يَجُرُّ بنُونِ الصُّدْغِ قَلْبِىَ للأَسَى وَمَا خِلْتُ أنَّ النُّونَ مِنْ أحْرُفِ الْجَرِّ

يُقَابِلُ دَمْعِى باسِمًا فَكأَنَّمَا ينظِّم ما أَمْلَتْ جُفُونِى من النَّثْرِ

ومالى لا أبكِى على دُرِّ مَبْسَمٍ كما بكت الخنساءُ قَبْلى عَلَى صَخْرِ

وأجرى عُيُونَ الدَّمْعِ فائِضَةً عَلَى عُيُونِ المَهَى بَيْنَ الْجَزِيرَةِ وَالْجِسْرِ

للصباح (٢)

لا وأجفانكَ المراض الصحاح لست أدرى ماذا تقول اللواحى

مادرى مَنْ يلوُم هَطْلَ دموعِى أنَّ قلبى عليكَ دامى الجراح

يامليحاً عيناه قبلةُ حسنٍ سجدت دونها وجوهُ المِلاح

لك شَعْرٌ وقامةٌ إنْ يكونا رايةً فهى رايةُ الأفراح !

وجبينٌ إذا ذكرتُ سناهُ بتُّ أبكى صبابةً للصباح !

(١) فى الشطر الثانى خلل عروضى واضح .
(٢) ٢٥ يونيه ١٩١٠ .

مصر

سلبتَ عقلى بأَحْدَاقٍ وَأَقْدَاحِ ... ياساجِىَ الطَّرف أو ياساقِىَ الراحِ[1]

سكران من رشفة الساقى ومقلتهِ ... فاترك ملامكَ فى السُّكرَيْنِ ياصاحى

واطرح بحسنك أَشْبَاكَ الغرامِ فما ... حُمِّلْتَ وِزْرى ولا كُلِّفْتَ إصلاحى[2]

دعنى إذا صح نجمى فى هوى قمرى ... بحبة القلب أُنْشىء بيت أفراحى

بجوهر الكأس يجلو لى بها عرضاً ... ظبى يُفَدَّى بأموالٍ وأرواح

يا مُثْرِىَ الخدِّ بالحمرِّ من ذهبٍ ... داركْ ضرورة محتاجٍ ومُجْتَاح

يا فاضحى فى السهوى خالٌ بوجنته ... لقد لويت على عشقى بفضَّــاح

ما أنس لا أَنْسَ لقيانا وقد غَفَلَتْ ... عين الهوى عن قريح العين طمَّاح

قابلت شَعْرَكَ بعد الوجه مبتسماً ... فأَنْعَمَ الله إمسائى وإصباحى !

حيث الرضى فى جبين الصبِّ مكتئبٌ ... أيام لم يمح أسطار الصبا ماَح

وحامل الكأس تحت الدَّجْنِ يُعْمِلُهَا ... كأنه مدلجٌ يمشى بمصبــاح

والرُّم وانٍ لكأس الراح يمزجهاَ ... يكاد يُمْسِكُهُ من قام بالرَّاح

والآن كأس دموعى والتذكُّر أَنْ ... أعيي التذكر يشدو شدو إفصاح

ياعنبر الخاَل فى ريحان سالفهِ ... هل باب حبى مغلوقٌ بمفتاح ؟

أغرَّ طامى بحور الشعر ناسبهــا ... بفائضٍ فى بحور الشعر سبَّاح

ياليت شعرى أهل فى قصتى كلَفٌ ... عنكم وها أنا أرويها لجرَّاحى ؟

---

(١) نشير للقارىء إلى جمال المقابلة بين أحداق وأقداح .

(٢) لولا قوله أشباك فى موضع شباك لكان هذا البيت من أجمل الأبيات .

رثاء (١)

أَقيمُوا فُرُوضَ الحُزْنِ فالْوَقْتُ وَقْتُهَا ... لِشَمْسِ ضُحًى عِنْدَ الزَّوالِ نَدَبْتُهَا
ولاتبْخَلُوا عنِّى بإِنْفَاقِ أَدْمُعٍ ... مُعَنْدَمةٍ أُكْوَى بها إنْ كَنَزْتُهَا
لغائبةٍ عنِّى وَفى القَلْبِ شَخْصُهَا ... كأَنِّى مِنْ عينى لِقَلْبِى نَقَلْتُهَا
يقولُونَ كَمْ تَجْرِى (لِزَيْنَب) باكياً ... وَمَاعَلِمُوا النُّعْمَى التىقَدْ فَقَدْتُهَا
أَلاَ فى سَبيلِ الله شَمْسُ مَحَاسِنٍ ... وإِنْ لم تَكُنْ شَمسَ النَّهَارِ فأُخْتُهَا
تعرَّفْتُهَا دهراً يسيراً فأَعْقَبَتْ ... دوامَ الأَسَى يَالَيْتَنِى ما عَرَفْتُهَا
وقالَ أُناسٌ إِنَّ فى الدَّمْعِ راحةً ... وتلكَ لَعَمْرِى رَاحَةٌ قَدْ نَكِرْتُهَا
هل الدَّمْعُ إلا مُقْلَةٌ قد أَذَبْتُهَا ... عليك و إِلَّا مُهْجَةٌ قد غَسَلْتُهَا
نَصَبْتُ جُفُونِى بَعْدَ بُعْدِكِ للدُّجَى ... وأَمَّا أَحاديثُ الكَرَى فَرَفَعْتُهَا
وقال زَمَانِى هاكَ بَعْدَ تَنَعُّمٍ ... كُؤُوسَ الأَسَى وَالحُزْنِ مَلأَى فقلتُها(٢)
بكيتُكِ للحُسْنِ الّذِى قَدْ شَهِدْتُهُ ... وللشِّيَمِ الغُرِّ التى قد عَهِدْتُهَا
كِلاَنا طَرِيحُ الجِسْمِ بَالٍ فلودَرَتْ ... إِذًا نَدَبَتْنِى فى الثَّرَى من نَدَبْتُهَا
بِرُوحِى مَهَاةٌ ضَمَّهَا الرَّمْسُ بَعْدَمَا ... تأَلَّفَ قَلْبِى للغرَامِ وَقَلْبُهَا
حبيبةُ قَلْبٍ كنتُ مغتبطاً بها ... ولكنْ بِرَغْمِى فى التُّرابِ دَفَنْتُهَا
وآنسةٍ قد كان لى لِينُ عِطْفِهَا ... فلم يَبْقَ مِنهَا غير فَانِى خَيَالِهَا
أُنادى أُنْهَضِى وَالتربُ بَيْنِى وَبَيْنَهَا ... يعزُّ على (صَبْرِى) الْمُتَيَّمِ صَمْتُهَا
كَفَى حَزَنًا أن لا مُعِينَ على الأَسَى ... سوى أَنَّنى تَحْتَ الظَّلَامِ بعثتها
وليس أمامى غَيْرَ دَمْعِى وها أَنَا ... لجيدكِ من دَمْعِى عُقُودٌ نَظَمْتُهَا
قَضَيْتِ فما فى العيشِ بَعْدَكِ لَذَّةٌ ... وكل ليالٍ بَعْدَ (زَيْنَب) يا لَهَا
سلامٌ عَلَى الدُّنيا فقَدْ رَحَلَ الذى ... تَطَلَّبْتُهَا من أَجْلِهِ وأَرَدْتُهَا

---

(١) سبق فى القصيدة الهمزية إشارة إلى زينب ورجحنا أنها هى زوجة الشاعر فلعله يرثيها بهذه القصيدة أيضاً

(٢) المعنى أن الزمان يقول له : هاك ، وهو يجيب بقوله : هات .

غزل

قفا نبك من ساجى اللواحظ أغيد … يصول بأسياف الجفون ولا يَدِى (١)
غزال يناجينى بلفظٍ معرَّبٍ … ولكنه يسطو بلحظٍ مهنَّدِ
وقدٍّ روت عن لينه واعتداله … صحاحُ العوالى مسنداً بعد مسند
إذا قعدت أردافه قام عطفُه … فياطولَ شجوى من مقيمٍ ومقعد !
كلفت به من قبل ماطال قده … فطوَّله فرط العناق المردَّدِ
وعاينت من فيه العقيقَ خاتماً … فصغتُ له باللَّثْمِ فصَّ زبرجد
وحدثنى من ثغره ورضابه … عن الجوهرىِّ المنتقى والمبرّد
وكنت حَذَرْتُ الْخودَ حين تمردت … فأَوقعنى حظى لأمردَ أمردِ
يخيَّل لى أنى له لست عاشقاً … لأنْ ليس لى فى حبه من مفنِّدِ
ولولا الهوى مابت بالدمع غارقاً … عليه وأشكو للورى غُلةَ الصدى
وألْثُم عِطفيه وجفنيه بَعْدَ ما … قُتِلْتُ برمحٍ منهما ومهنَّدِ
وأبصر فيما تحت صدغيه من سنا … خيالى خَلُوقاً تحت محراب مسجد
ورب مُدَامٍ من يديه شربتها … معتقةً تدعو لعيشٍ مُجَدَّدِ
إذا جئتَه تسعى إلى ضوء كأسه … (تجدْ خيرَ نار عندها خير موقد)
تحدثك الأنفاس فيها عن اللَّمَا … (ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد)
فشم بارقاً قد خوَّلتك ولا تشم … (لخولة أطلال ببرقة ثهمد) (٢)
من اللاَّتى راقت فى يمين مديرها … فلو أهرقتها الكأس لم تتبدَّد
مصفرَّة من حيث تمَّ كيانها … تطاف علينا فى إناء مجسد (٣)
فأحسِنْ بها من كفِّ ساقٍ كأنَّه … غزال تجلى فى وشاحٍ مورَّدِ

---

(١) لا يدى : أى لايقدم الدية .
(٢) الصواب فى الشطر الثانى أن يقول « لخولة » أطلالا ولكنه أبقى التضمين على حاله وإن خالف الإعراب
(٣) يريد يطاف بها علينا .

إذا قهقه الإبريق فى فمه انثنى ... يمثل غصناً ماس تحت مُغَرِّدِ
كأن سنا الإبريق حولَ شرابه ... حبالُ شعاعِ الشمسِ تُفْتَلُ باليدِ
كأن بقايا ما نَضَا مِنْ كُؤُسِهِ ... أساورُ تبرٍ فى معاصم خُرَّدِ
كأن مليك الفُرْسِ صوَّرَ نفسَهُ ... على هامهِ عمداً فمن يدنُ يسجدِ
سقى الغيثُ عنى ذلك العيشَ إنه ... تولى هنىءَ الوِرْدِ غير مصرَّدِ
وفرَّقَ إلا مُهْجَتِى وحنانَها ... وجَمَّعَ إلا مدمَعى وتجلُّدى
وبدراً سرى فى طيَّةِ السُّحْبِ مسرعاً ... فيا صاحبى دمعاً لعلك مُنْجِدى
وقال التسلِّى بعدنا لجفونه ... سهرتِ زماناً يانواعسَ فارقدى!
حبيبٌ قسمتُ الشعرَ ما بين حسنه ... فسبحان من وقاه شر الحواسد
فلا غزلٌ إلا له فى قصيدةٍ ... ولا مدح إلا للحبيب (المخلد)

غزل

لا ورشف اللَّما ولثمِ الخدود ... ما عذولى عليك غير حسودى
هائم فى هواك مثلى ولكنْ ... يدفع الوهم عَنْهُ بالتفنيدِ
يا مليحاً (صبرى) عليك تقضَّى ... وفؤادى فى النار ذات الوقودِ
لا تسل عن مسيل دمعى بِخَدِّى ... قتلَ الدمعُ صاحبَ الأخدود
كل يوم تروع قلباً خليًّا ... يا بديع السنا بحسنٍ جديد
حبذا فى سناك لامُ غرامى ... لابتداء الهوى وللتوكيدِ
لك وجه يُعْزَى له كلُّ حسنٍ ... كاعتزاء العُلَى إلى محمود!

صدودك

صدُودُكِ ياحسناء عنى ولا البعدُ إذا لم يــكن من واحدٍ منهما بدُّ
بروحى من حسناء عطفٌ إذا بدا على الغصن قال الغصن ماأنا والقدُّ
وجيدٌ قد استحسنت دمعى لنظمه وفى الجيد ياحسناء يستحسَنُ العِقْدُ
من التُّرْكِ إلا أن بين جُفُونهــا ألاعيبُ سحرٍ لا يقوم بها الهندُ(١)
على مثلها يكوى العذولَ وإنمـا على مثلهــا تحيي الصبابةُ والوجد
(عزيز) على (صبرى) المعنَّى دلالها يف بها لم تدر أنى أنا العبدكَ؟
أعُذَّالَنَا مهلاً فقد بان حمقُــكُمْ وقد زاد حتى مالعذلــكُمُ حدُّ
وقلتم قبيحٌ عندنا العشقُ بالفتَى ومن أنتمُ حتى يكون لــكم عِنْدُ ؟
سمحتُ برُوحى للمهاةِ فمالــكم ومالى ، وماهذا التعسُّفُ والجُهْدُ
وثغرٍ يتيم الدرِّ سُلِّمَ مُهْجَتِى فأتلفها من قبل ماثبَتَ الرُّشْدُ
هو البَرَدُ الأشهى لغُلَّةِ هائم هو الغيثُ أونور الأقاحىأو الشهدُ
ومرشفه المنُّ الذى لايشوبه خمول أو الراحُ الشَّمُولُ أو النَّهدُ
عهدت الليالى حـلوةً بارتشافه وتلك الليــالى لايدومُ لها عهد
فلا ابتَسَمَ البرقُ المنير (جَبِينَهَا) غداة تفرَّقْنَا ولا لعلعَ الرعدُ
تولت شموس السعد عنى فنى العلا سناها وفى قلبى المعنى لها وَقْدُ
فيا قلبُ مهلاً فى التقطُّع بعدهم وهذا لعمرى جهدُ من لا له جهدُ
ويادمع فض وخداً بذكرخُدُودِهَا فإنك ماء الْوَرْدِ أنْ ذهب الوردُ
رعى الله دهراً كنت ألهو بحبها أروحُ إلىوصلِ (لزينبَ)أوأغْدُو
جوادىمن الكاساتِ فىخمرةالهوى كميتٌ وإلا من قوام المها نهد
وفى مُهْجَتِى بدرُ الجمال مُوَسَّدٌ وقد قُدِحَتْ للراحِ فى خدِّه زَنْدُ

---

(١) يوجه الشاعر هذه القصيدة إلى حسناء تركية ، وقد أشار فى آخرها إلىأنهـا زينب أيضا . . فلعلها هى الثى ورد ذكرها فى القصيدتين السابقتين على أنها زوجته . أولعله يكنى باسم زينب عن كل محبوبة . . خاصة وهذه قصيدة غزل بينما القصيدتان السابقتان فى الرثاء .

زمانٌ تَوَلَّى بالمَلِيحَةِ وانقضى
وما زال بالأكدار حولى له جُنْدُ

فياليتنى لم أبغ عشقكِ (زينبٌ)
وشيمةُ (إسماعيلَ) أن يَصْدُقَ الوعْدُ[1]

ويا ليت يوماً مال غُصْنُكِ كان لى
كأيامِ حِلْمٍ قبل أن ضَمَّنِى المَهْدُ

(١) تنوين زينب للضرورة وفى الشطر الثانى إشارة لقوله تعالى عن إسماعيل عليه السلام (إنه كان صادق الوعد)

ســلام . . .

حيـــاةُ ابن آدم مهما تطولُ ... خيالاً تمرُّ كلمحِ البصـــر[1]

فيولد صبحاً ، وظهراً يَعُول ... وعصراً يُوارَى فيمحى أثَرْ[2]

وما العيشُ إلا منامٌ قصـيرٌ ... وما الدهرُ للناس إلا سفَرْ

فتقوى الإلَه وصُنْعُ الجميــل ... لأقوَم زادٍ قبيل السفــر

وأمر العــلى لا مردَّ له ... ومن دونه لا يفيد الحَذَر

ليجرِ القضـــاء بأحكامه ... ومن يستطيعُ عِنادَ القَـدَر ؟

دَهَتْنِي الليــالى بأرزائها ... فلازم جفنى البُكَا والسهر

خـدمت المعارف عهداً طويلا ... أميناً وفيًّا حميـدَ الذكر

مُجِدًّا نشيطاً سـايمَ القُوَى ... حليفَ النجاح ، حـديدَ النظر

وبعد اجتهادى ثلاثين عاماً ... أحاطت حياتى غيومُ الكَدَر

ومَنْ كلَّفَ النفس فوق الذى ... تطيق احتمالاً سعى للخطـــر

لذلك كان لإرهاق عينى ... من الحظ مالم أكن أنتظر

خَبَا النورُ عن مُقلتى فانتهت ... حياةُ اجتهادى بِفَقْدِ البصر[3]

سـلامٌ على يانِعاتِ الربيـع ... ســلام على باسماتِ الزَّهَر

سـلامٌ على طلعــةِ النيرَيْنِ ... سَنَا الشمس حسناً وضوء القمر

سـلامٌ على ما حَوَاهُ جمــال ... تحلَّت به مُتْقَنَاتُ الصُّـــوَر

سـلامٌ على نابغَاتِ الفنون ... ســلام على عبقرىِّ الفكر

سـلامٌ على خطرات النسيم ... برَوْض العـــلوم ، وَجَنْى الثمر

سـلامٌ على حالياتى اللواتى ... لهـا فى الثقافة ذكر عطر

لقد ضاع حقى الذى قدَّروه ... كما ضـــاع مالى الذى أدخر !

أيُرْضِى الإلَهَ ؟ ويرضى النبىَّ ؟ ... ويرضيكَ أنتَ ؟ ويرضى البَشَرْ ؟

---

(١) خيالا منصوب على أنه حال مقدم (٢) يعول : أى يصبح رب عائلة ، وأثر ساكن لضرورة الشعر .

(٣) فى هذا البيت وماقبله إشارة واضحة إلى أن الشاعر فقد بصره فى آخر أيامه نتيجة الإرهاق والعمل المتواصل

استنهاض

أيها الشرقُ تيقَّظ واهجر اليوم الهُجُوع
ها هو المجد يُنادى وهو يبكى بالدُّموع
أين أبناء بلادى أين سكان الربوع
قاوِمُوا الجهل وهبُّوا أَلْبِسُوا العلمَ الدروع
واطردوا من بات يسعى نحو تفريقِ الجموع
كلكم عُرْبٌ كرامٌ كلكم يأبى الخضُوع
آية الله تجلَّت فهىَ فى أجلى سطوع
فاعملوا للمجد دوماً واتركوا ذل الخنوع
بلِّغوا مصر التهانى بعد تَسْكَابِ الدموع
فهى عنوانُ الأمانى أو كشمسٍ فى الطلوع
وهى فى الدنيا عروس حليُها تلك الزروع
أهلها امتازوا بلطفٍ ذكرهم مسكٌ يَضُوع
حبذا النيل بمصرٍ حبذا هذى الربوع

تحية(*)

بأبلغ لفــظ روته العربْ — أحيّ احتراماً رجالَ الأدبْ
يرحّب قلبي بفنّ الأغانى — وكلّ مُجِدّ إليه انتسبْ
تطيب النّفُوس بفضلِ الغناء — ويذهب عنها الأسى والتّعبْ
تُنير العقولَ وتُحيي القُلوبَ — وتعطيك نشوةَ بِنْتِ العِنَبْ
بنى الفرسُ مجداً أضاءت به — نجـومُ الأغانى سماءَ الطّرَبْ
وأخرجت الدر من كَنْزِهَا — ومن بعدهم هذّبَتْهَا العربْ
وللترك فخرٌ بمـا أجهدَتْ — ونالت من الفوز أسمى الرُّتَبْ
أذاع لهـا الفنُّ أسْرَارَهُ — وكلُّ الأمانى لها قد وَهَب
وأثمر فى مصر روضُ الفنون — وسرُّ التقدُّم منها اقترب
وها قـد تجلّت لنا همّة — تبرهن أن العـلا مُكْتَسَبْ
هنيئـاً لمصر بأبطالهـا — كبار النفوس كرام الحسب
رجال دعاهم لحبٌّ المعـالى — فخار جدودٍ أتوا بالعَجَبْ
بكل الفنون سَمَوْا وارتقَوا — وها هو يشهد فنُّ الطّرَبْ
إلى المجدِ يا مصرُ فى عزّةٍ — وتحيا الأغانى ويحيا الأدب

(*) ألقيت فى الحفلة السنوية الأولى لنقابة ومعهد الموسيقى الشرقى التى أقيمت بمسرح حديقة الأزبكية بالقاهرة فى ٥ يونية عام ١٩٣٠ .

تكريم (*)

دعاكَ حُبُّكَ للعلياء والرُّتَبِ ... إلى اكتشافِ كنوزِ العِلمِ والأَدَبِ

أجهدْتَ نفسكَ بحثاً عن جواهرها ... ونلتَ بالجدِّ منها غايةَ الأَرَبِ

حتى وصلتَ بساتينَ الفُنُونِ وقدْ ... قامت تحيِّيك فيها زهرةُ الطَّرَبِ

عشقت فنَّ الأغانى واتجهت له ... وما بخِلْتَ بما أنفقتَ من ذهبِ

كان اختيارك للفنِّ الجميل هُدًى ... لكشف سرِّ كنوزِ الفُرْسِ والعرَبِ

قضيتَ عشرَ سنينٍ فى دراستهِ ... ولحظةً عنك بدرُ الفَنِّ لم يَغِبِ

وفى اغترابك كم قاسيتَ من ألَمٍ ... جميلُ صبركَ فيه آيةُ العَجَبِ

ثبات عزمِكَ (يا حِفْنِى) أتاح لنا ... سرَّ التقدُّم معصوماً من الرِّيَبِ

هذا اجتهادك قد جلَّت موارده ... وذا ذكاؤُكَ بادٍ غير محتجِبِ

جدَّدت فى الغرب المصرىِّ منزلةً ... فى العلم كانت تُسامى أرفع الشُّهُبِ

أكسبت مصرَ فخاراً نعم ماوضعت ... يداكَ فى عالم الأنغام والطَّرَبِ

فاقبلْ تحيتها واعملْ لرفعتها ... وانفعْ بفنِّكَ فيها كلَّ مُنْتَسِبِ

لازِلتَ للوطن المحبوبِ نجمَ هُدًى ... تضىء بين رجال الفضلِ والأدبِ

(*) ألقيت فى الحفلة التى أقامتها نقابة ومعهد الموسيقى الشرقى فى ٢٧ مارس سنة ١٩٣١ بمسرح حديقة الأزبكية لتكريم الدكتور محمود الحفنى مفتش الموسيقى بوزارة المعارف .

مصر (*)

مصر العزيزة تاهتْ فيكِ أشْجَانى زدنى هياماً بها ياطائرَ البَانِ
قم فوق أهرامها واصدحْ بما نظرت عيناك من ساحرٍ منها وفتَّانِ
يادرة فى جبين الدَّهْرِ لامعةً يا كعبةَ العلمِ للقاصى وللدَّانى
آثار مجدكَ لا زال الشبابُ بها فى عُنْفُوانٍ وريْعَانٍ وسُلْطَانِ
يامصر تيهى فرباتُ القُصُور بَنَتْ لخالدات المعالى خَيْرَ بُنْيَانِ
ما زال قَدْرُكَ يسعي المادحون له بالمبدعاتِ ، بألبابٍ ، وآذانِ

(*) قطعة ألقيت في حفلة افتتاح دار الكتب الجديدة بثغر الاسكندرية .

غـزل الاغانى

ستريس

عذراء منف

يامَنْ عَواطِفُهَا تفيضُ حنَانَا ... غَذِّى القُلُوبَ وَرَجِّعى الأَلحَانَا
ياربَّةَ الصَّوْتِ الشَّجِيِّ حَنِينُهُ ... رنَّاتُ صَوْتِكِ تَبْعَثُ الأَشْجَانَا
شيَّدْتِ صَرْحاً للزَّمانِ مُقدَّساً ... مَغْنَى الأَوَائلِ فارْفَعى الْبُنْيانَا
بَسَمَتْ أَغَارِيدُ الأَغَانِى عِندَمَا ... صَدَحَ الهزَارُ فجدِّدِى الأَزْمَانَا
جَذَبَتْ عَواطِفُكِ القُلوبَ فأَقْبلَتْ ... فَرْحَى تُحَيِّ الفنَّ وَالوُجْدَانَا
فإذا شَدَوْتِ صَرَفْتِ عن أَلم الهوَى ... قلباً أَسِــــيراً حائراً وَلْهَانَا
وَمنَعْتِ عَنْ مُضْنَى الْغرَامِ عذَابَهُ ... وَكأَنَّ خَفْقَ فُؤَادِهِ ما كَانَا
وَإذَا بَسَمْتِ بعثْتِ أَحْلامَ المُنَى ... وَبدَا السُّرُورُ فبدَّدَ الأَحزَانَا
وَإذاخطَرْتِ مَلأْتِ أَنْفاسَ الصَّبَا ... صِباً وَأَخجَلَ قَدُّكِ الأَغْصانَا (١)
وَإذانظَرْتِ تَكَشَّفَتْ لُغَةُ الهوَى ... عن سحرِ مَعْنًى أَذْهَلَ الأَذْهَانَا
لُغَةٌ تفهَّمَتِ العوَاطِفُ سِرَّهَا ... أُمُّ اللُّغاتِ فَصَاحَـــةً وَبيَانَا (٢)
شَفتَاكِ يُحْيِي المَيْتَ دُرُّ حَدِيثِهَا ... وَتُبَدِّلُ الخَوْفَ الشَّدِيدَ أَمَانَا
عَصْمَاءُ حَصَّنَهَا الْعفَافَ وَزَادَهَا ... عِزُّ الحِجَابِ صِيانَةً وَجنَانَا
حُسْنٌ تَمنَّعَ عن مطامعِ عاشِقٍ ... دَنِفٍ تَشَبَّبَ ساهِراً نَشْوَانَا
خَدٌّ تُقبِّلُهُ النَّسَائِمُ وَحْدَهَا ... يَسْبِى البُدُورَ ويفتِنُ الإِنْسَانَا
سهرَتْ سُيُوفُ اللَّحْظِ تحرُسُ وَرْدَهُ ... وَإذا غفَتْ تَسْتَنْجِدُ الأَجْفَانَا

---

(١) الصبا : ريح طيبة تهب من الشمال .

(٢) أم اللغات : يقصد اللغة العربية .

وَمُقَبَّلٌ عَذْبٌ شَهِيٌّ وِرْدُهُ ... تَخِذَ الْوُصُولَ الْمُسْتَحِيلَ مَكَانَا
وَجْهٌ حَبَاهُ الْحُسْنُ أَجْمَلَ صُورَةٍ ... جَعَلَتْهُ بَدْراً سَاحِراً فَتَّانَا
يَامُنْتَهَى الآمَالِ قَلْبِي لَمْ يَمُدْ ... مِنْ سُقْمِهِ يَتَحَمَّلُ الْكِتْمَانَا
وَالدَّمْعُ لَمْ يَتْرُكْ جُفُونِيَ لَحْظَةً ... لَيْلِي نَهَارِي بَاكِياً حَيْرَانَا
فَإِلَامَ وَجْدِي وَالسُّهَادُ وَلَوْعَتِي ... وَإِلَامَ أَلْقَى فِي هَوَاكِ هَوَانَا (١)
هَذَا فُؤَادِي بِعْتُهُ لَكِ رَاضِياً ... وَصلاً حكمتِ عَلَيْهِ أَمْ هِجْرَانَا
فَإِذَا مَنَحْتِ لَهُ الْحَيَاةَ فَإِنَّنِي ... صَبٌّ وَإِلَّا فَامْنَحِي الْغُفْرَانَا

---

(١) هوانا : مهانة .

هو القـــدر !

تمنَّتْ جُفونى أن ترى النَّوْمَ لحظةً ... ولم تَدْرِ أَنَّ القلبَ لم يستطعْ صبرَا
وكيف ينامُ الجفنُ والفكرُ ساهِرٌ ... تُشاغِلُهُ النَّجْوَى وتَحْرِقُه الذِّكْرى
إلى الله أشكو حُرقتى وصَبابتى ... وسُهْدِى وآلامى ومُهْجَتى الحَيْرَى
ظَنَنْتُ دوام الحُبِّ حُلْواً كما بَدَا ... وسَرْعانَ ما صارت حلاوتُهُ مُرَّا
فياليت قلبى خالف العَيْنَ فى المُنَى ... وياليت عينى لم تَذُقْ للهوى خمرا
هو القَدَرُ الجارى عَلَى مُهَجِ الورى ... إذا شاء من يَعْصِى لأحكامِهِ أمرا
تحمَّلْتُ ما لا يُسْتطَاعُ احتمالُهُ ... وعَانَيْتُ وَجْداً حَيَّرَ القلبَ والفكرا
أُحاوِلُ أن أُخفِى لهيبَ محبَّتى ... ويرفضُ دَمْعُ العَيْنِ أن يكتُمَ السِّرَّا
فياقلبُ لا تجزَعْ ويانفسُ أَمِّلِى ... بلوغَ المُنَى فالعُسْرُ لن يَغْلِبَ اليُسْرَا
سأبقى وَفِيًّا حافِظَ العهدِ صادقًا ... أميناً وَرَبِّى يعلمُ السِّرَّ وَالجَهْرَا

العاشق

إذا لم يُرَجَّ شَـفاءُ العِلَلْ   تمنَّى العليلُ دُنُوَّ الأجـلْ
وَأيُّ عليلٍ كمضنَى الهـوى   جريح الفـؤادِ صَريـع المُقَلْ
حليف السُّهادِ بعيـدَ المُـنَى   قريح الجُفونِ ضعيف الحِيَلْ
تَعَدَّى السَّـقَامُ على جِسْمِهِ   وفوق الذى يستطيع احْتَمَلْ
تمرُّ الليالى وَطَيْفُ الكَرَى   عن الجَفْنِ عَمْداً نَأَى وارتحلْ
فيا للْهَوَى كم أذَلَّ الأُسُـودَ   وَأَخْضَعَ للحبِّ قلبَ البطلْ
بقـاءُ الوَفِيِّ عَلَى عهـدِهِ   أميناً يُنيلُ بلوغَ الأمـل
فإن فاز عاش سعيدَ الحيـاةِ   وإن لم يُوَفَّقْ شهيداً رَحَـلْ !

عيون وعيون

قُوَّةُ السِّحْرِ في عيونِ العذارى — زادتِ الحُسْنَ والدلالَ اقتدارا
وأضافت إلى الجمـــالِ جلالاً — صَيَّرَ الناظرين حَيْرَى سُكَارَى
وإذا تَمَّ في المشـــيئةِ أمرٌ — مَنْ عَسَاهُ يُعـــانِدُ الأقدارا
يا سِهامَ الجُفونِ كُفِّي فهذي — مُهَجُ العاشقين جَرْحَى حَيَارَى
نالَنِي من نِبالِ لَحْظِكِ سهمٌ — طائشُ العقلِ قد تَعَدَّى وجارا
صـــالَ في مُهْجَتِي فمزَّقَ قلبي — وانبرى في الحَشَـا ظَلُوماً أغارا
ورماني في لَوْعَةِ الوَجْدِ حتى — ضاق صدري ولم أجد لي اصطبارا
كان دمعي يجري لُجَيْناً فأضحى — من لَهِيبِ الهوى يسيل نُضَارا
حالَفَ السُّهْدُ مُقْلَتِي طولَ ليلي — والليـــالي تُجَدِّدُ الأفكارا
يا نعيمَ الوِصَـــالِ رِفْقاً بِصَبٍّ — أَضْرَمَ النَّأْيُ بين جَنْبَيْهِ نارا

حيرة

بِرَبِّكِ ما الذى أقْصَاكِ عَنِّى ... وما تَبْغِينَ من هـذا التَجَنِّى ؟
نُوَاحُكِ حارتِ الأفكارُ فيه ... بُكَاءٌ يا حمامةُ أمْ تَغَنِّي ؟
شَدَوْتِ فمالتِ الأغصانُ عُجْباً ... ويُعْجِبُنِى من الغُصْنِ التَّثَنِّى
وَجدَّدْتِ الحيـاةَ إلى فؤادى ... وقلبُ الصَّبِّ يُحْيِيهِ التَّمَنِّى
حَنِينُكِ صَيَّرَ الدنيا خيالاً ... وَمَكَّنَ شارِداتِ الفكرِ مِنِّى
سَلِى الأقمارَ عن دَقَّاتِ قلبي ... وَعن نَوْمِى وكيف جَفَاهُ جَفْنِي
نجومُ الليلِ تَعْجَبُ من سُهَادِى ... وتعلمُ صادِقَ الأخبـارِ عَنِّى
يُسَاهِرُنِى النَّوَى فيزيدُ وَجْدِى ... ويَحْرِقُنِى الجَوَى فتجودُ عَيْنِي
سَقَامى لَوْعَتِي دمعى أنِينِى ... تُهَدِّمُ قسوةً ما كنتُ أبْنِي
سأحفظُ يا حياةَ الرُّوحِ عهدى ... لأنى قد وَهَبْتُكِ حُسْنَ ظَنِّى

لواعج

قد أودعَ الحبُّ لحظَيكِ ابنةَ العنبِ ... لمّا تقرّبَ منكِ الحسنُ بالنّسبِ
وناولتكِ كنوزُ السّحرِ مُعجبةً ... سِرَّ الجمالِ وتاجَ الطُّهرِ والأدبِ
تستّرَ البدرُ خلفَ السُّحْبِ مِنْ خَجَلٍ ... لما رأى الشمسَ تُبدِي آيةَ العجَبِ
باللهِ يانَسَماتِ الصبحِ أينَ أرى ... مَنْ باتَ قلبي لِنَجواها على اللّهَبِ
ياليلةً لستُ أنسَى مارأيتُ بهَا ... خيالُ ذكراكِ عن عينيَّ لم يغِبِ
ويامِلاكاً رماني قوسُ حاجبِهِ ... بمُرهفٍ من سيوفِ اللّحظِ مُلتهبِ
أصابَ قلباً بريئاً لم يكن أبداً ... يدرِى الغرامَ ولم يأنَسْ إلى الرِّيَبِ
قد شاغلَ الحُسنُ عيني واستباحَ دَمِي ... فالقلْبُ في الحربِ والعينانِ في اللّعِبِ
سَطَا هواكِ على جِسْمِي فأتلفَهُ ... والحبُّ يفتِكُ فتكَ النّارِ بالحطبِ
مُهْدِي أنيني دُموعي لوعتي سَقمي ... لواعجٌ عرّضتْ قلبي إلى العطَبِ
إنّي على العهدِ باقٍ لا أضيّعُهُ ... عسَايَ بالصّبرِ ألقَى غايةَ الأربِ

إليها

يانَسيماً حَمَلْتَ طيِّبَ الأغانى ... سِرْ إليْهَا وَصِفْ لَهَا ما أُعانِى
عجِبَ الروضُ وَاخْتَفى الطَّيْرُ لمَّا ... وقفَ البَدْرُ وَقْفَةَ الْحيْرَانِ
ياحنيناً ملكتَ سَمْعى وَقلْبى ... أَنْتَ كالسِّحْرِ فى عُيُونِ الحِسَانِ
كنتُ أَغْشَى الغرَامَ حتى رَمَتْنِى ... فى شِبَاكِ الهوَى وُعُودُ الأمانى
إنَّ للغيدِ فى الغرَامِ دَلالاً ... كمْ مُحِبٍّ غدا صَريعَ الغوَانى
أَتلَفَتْ مُهْجَتى وأَدْمَتْ فؤَادِى ... غادةٌ سهمُ جَفْنِهَا قد رَمانى
يَخجَلُ البَدْرُ أَنْ يرَاهَا وتأْبَى ... بدلاَلٍ من البُدُورِ التَّدَانى
أَيْنَ أَلْقى يا دَهْرُ من غادَرَتْنِى ... بين حالِ الوَسْنَانِ وَاليقْظَانِ
أنتِ أَشْهَى من الكُنُوزِ وَأَحْلى ... من نَسيمِ الحياةِ فى وجدانى
إنَّ طُولَ النَّوَى أَعَدَّ لجِسْمِى ... من ثياب الضَّنى نُحُولاً كسَانِى
أَشْعِلى النارَ ما استطَعْتِ فَقلْبِى ... لم تُرَوِّعْهُ زَفْرَةُ النِّيرانِ
أنا راض بمَا أَرَدْتِ حيَاتى ... أَو مماتى حيثُ الوَفَاء دَعَانى

وهبتك قلبى

لِمَنْ أَشْتَكِي ياليْلُ باسِمَةَ الثَّغْرِ   وما نالَنِي مِنْهَا من البُعْدِ والهَجْرِ
ليالى الهنَا ولَّتْ سراعاً وخلَّفَتْ   فؤَادِى لِذِكْرَاهَا يبيتُ على الجمْرِ
سَقَى اللهُ أيَّامَ الهنَاء التى خَلَتْ   من السُّحْبِ أحْلَى مايَسِيلُ من القطْرِ
إليكِ اشتياقى ربةَ الحُسْنِ إنَّنِي   وحقِّ الهوَى مابات غيركِ فى فِكْرِى
تطـــولُ الليالى والسُّهَادُ مُلازمى   وَسَيلُ دُمُوعِى من لهيبِ الجوَى يجْرِى
سَلِي اللَّيْلَ هَلْ جَفْنِي يَرَى النَّوْمَ لحظَةً   وهل غيرُ أنَّاتى بجَوْفِ الدُّجى تَسْرِى
وهل أَسْهَرُ اللَّيْلَ الطَّويلَ مُسامِراً   سوى سارياتِ النَّجْمِ أوْ طلعةِ البَدْرِ
رَعَى الحُسْنُ ثَغراً فى مُحيَّاكِ باسماً   تبدَّى كبدر التمِّ فى ليـــلةِ القَدْرِ
وَأَهْدَى الجمـــالُ السِّحْرَ عَيْنَيْكِ مُعْجَباً
بما فيهما من فاتِكَاتِ الهوَى العُذْرِى !
وَهَبْتُكِ قَلْبِي عندَ أوَّلِ نَظْرَةٍ   وَشَاهِدُ حُبِّي عَالِمُ السرِّ والجهْرِ
سأَحْفَظُ فى قَلْبِي عُهُودَ مَحبَّتِي   وَمَنْ غَيْرُهَا ياحُبُّ عَوْنِى على الدَّهْرِ
وأَصْبِرُ مَهْمَا أَتْلَفَ الصَّبْرُ مُهْجَتِي   ولو أَنَّ فى طُولِ النَّوَى ضَيْعَةَ العُمْرِ

راقبوها

رَاقَبُوهَا خَوْفَ التَّأَوُّهِ حَتَّى   لا يُذِيعَ النَّسِيمُ سِرَّ هَوَاهَا
وأَراقُوا دَمَ المَحَاجِرِ مِنْهَـا   قسوةً حين أسرفوا فى أَذاها
وأَعَدُّوا لِصَفْوِهَا كُلَّ كَيْدٍ   وادَّعَوْا أَنَّهُمْ أَرَادُوا صَفَاهَا
وأَقَامُوا من العُيُونِ شُهُوداً   ساهراتٍ تَعُوقُهَا عن هَنَـاهَا
عذَّبُوا قَلْبَهَا الكَلِيمَ المُعَنَّى   وأَهاجوا بين الضُّلُوع جَوَاهَا
فارق النومُ جفنَهَا وَتَوَارَى   نورُ آمالهـا وَطَيْفُ مُنَاهَا
وتَعَدَّى السَّقَامُ ظلماً عليهـا   فبكاها رغم التَّشَفِّى عِدَاهَا
نال منها الضَّنَى فصارت خيالاً   بعد أن أحرق اللهيبُ حشاها
أقسمت أن تصونَ للحب عهداً   وتقاسى العذابَ مهما ضَنَاهَا
بات طيف الكرى مناها وأضحى   وَالِهَ الصبرِ زادها وعَزَاهَا
مثلت آيَةَ الوفاء فضحت   كل ما عزَّ فى سبيل وفاها
عَلمتْ أطهر القلوبِ غراماً   أنما الصبرُ خيرُ وِرْدٍ سقاها
زهرةُ الحبِّ أشرفُ الزهرِ نبتاً   أبد الدهرِ لا يضيع شَذَاها
هكذا يرفع الغرام نفوساً   طاهراتٍ قد أخلصت فى هواها

سحر الجمال

تاهَتْ بسحرِ جمالها عَيْنَاكِ ... لما تملك فى القلوبِ هواكِ

لعبت بِمَيْدَانِ الغرامِ سيوفُهَا ... وَهَوَتْ مَوَاضِيهَا عَلَى قَتْلاكِ

رُدِّى عَنِ المُهَجِ السيوفَ فقد جَرَى ... بدم القلوب تَوَرُّدًا خَدَّاكِ

يا ربةَ الوجهَ الجميلِ تَدَلَّلِى ... ما شئتِ كلُّ العاشقين فداكِ

قسماً بمن جعل القلوب لك الفدا ... وبفاتن الحسن البديع حَبَاكِ

أنت الرجاء لعين صَبٍّ ساهرٍ ... هجر المنامُ جفونه لنواكِ[1]

يا من على الدنيا تَتِيهُ بحسنها ... إن الجمال لملكه وَلاَّكِ

لا تمنعى عنى لِقَاءكِ وارحمى ... صَبًّا يجودُ بنفسه ليراكِ

وَجْدِى وما بالقلب من ألم النوى ... نَارٌ تُجَدِّدُ دائمًا ذِكراكِ

جُودِى عَلَى أَوْفَى مُحِبٍّ ماله ... سَلْوَى على الدنيا بغير رِضَاكِ

---

(١) النوى : البعد .

شكوى

إلى الحُبِّ أشكو حبيباً هجر ... وعلم جفنى البُكَا والسهر
ليالى هنائى عجيبٌ لها ... تمرُّ سِرَاعاً كلمح البصر
تطيل الليالى صروفُ النَّوَى ... وتمنَعُ عنى ضياء القمر
عيونٌ تكامل فيها الجمالُ ... تبارك من زانها بالحَوَرْ
تُدَاعِبُ بالسحرِ مُضْنَى الهوى ... فتكشف من سره ما استتر
يمر فينعش ورد الصبى ... عَلَى وَجْنَتَيْكِ نسيم السَّحَرْ
ترامى الغرامُ عَلَى مُهجتى ... وقد كنتُ منه شديدَ الحَذَر
فأَوْدَعَ قلبى لهيبَ الجْوَى ... ومن يستطيعُ عِنَادَ القَدَرْ ؟ (١)
سَلِى الليلَ عن لَوْعَتِى إنه ... أمينٌ فيروى صحيحَ الخبرْ
عشقتك لما دعانى العفافُ ... وفرطُ الجمال وسحر النَّظَرْ
تعالى انظرى كيف كاد الهوى ... لأوفى محبٍّ أمين صبَرْ
فؤادى يرضى بما تحكمِينَ ... ولو أن مابى يذيبُ الحجر

---

(١) انظر قول الشاعر فى قصيدة سابقة بعنوان « سلام » :
ليجر القضاء بأحكامه . ومن يستطيع عناد القدر ؟

ياعيونا

ياعيوناً تملأُ الدُّنيــا غَزَلْ إن سرَّ الحبِّ فى سحر المُقَل
ستُ أنسى نظرةً قد أودعت فى صميم القلب نيرانَ الأمل
صوبت عيناك سهماً نزعُــهُ من فؤادى لم تُفِدْ فيه الحِيَــل
لك وجهٌ جلَّ من صــوَّرَهْ فُتِنَ الحسنُ به لما اكتمل
ياجمـالا كل أقمـار السما غيرةٌ منه تولاَّها الخجل
نار حبى أبعدَتْ عنى الـكرى أسقمتنى ، مكنت منى العِلَل
أسهرُ الليــلَ حزيناً حائراً است أدرى فى غرامى ماالعمَل
مَدْمعى ، سُهْدِى ، أنينى ، لوْعَتى كلما طـال النوى أخشى الملل
والذى أعطاكِ لحظاً ساحراً وجمـالاً صار للحسن المَثَلْ
لو كنوز الأرض كانت بدلاً من محيَّاكِ لمـا اخترتُ البدَلْ
فاذكرى صبًّا وفيًّا هائمـــاً واعلمى أنْ سَبَقَ السيفُ العذَلْ

إليك وفائى

إذا أنكر الحسنُ البديع حنينى فهل ينكرُ الليلُ الأمين أنينى ؟
سلى ساريات الليل عن سُهْدِ مُقْلتى ونيران أحشائى وَسَيْلِ جُفونى
وماحلَّ فى قلبى من الوجد والجوى وقد مكنت منى السقام شجونى
خطرتِ فحمَّلْتِ النسائم نفحةً من الطيبِ زادت فى هواكِ جنونى
وأسفرتِ عن وجهٍ تكامل حسنهُ بطلعته نوراً ملأت عيونى
وأرسلتِ سهماً من لحاظك فاتكاً أصاب هوى قلبٍ عليكِ أمينِ
سعيرٌ سرى فى مهجتى فأذابها ومن حرِّ آهاتِ الغرامِ يقينى
ظننت الهوى سهلاً ولم أدرِ أنَّهُ هوانٌ لقلب العاشقِ المَفْتُونِ
تكتَّمْتُ حُبِّى غير أنَّ مَدَامِعى تبوحُ بسرٍّ فى الفؤاد مصونِ
تعلم جفنى السُّهْدَ من روعة النوى وتاهت بأبراج الخيالِ ظُنونى
كسانى ثيابَ السقم عهدُكِ فارحمى فؤاداً بما يُرْضيك غيرَ ضنينِ
إليك وفائى إننى صابرٌ لما قضته يد الأقدارِ فَوْقَ جَبينى

حرب !

بين قلبي وسحر عَيْنَيْكِ حَرْبٌ　　أشعل النارَ فيه وجدُ غرامي
فأرفعي السيفَ ياجفونُ ويكفي　　ما بقلبي من صائبات السهامِ
يا جمالاً تملك القلب مِنِّي　　أنت شغلي في يَقْظَتِي ومنامي
يا رجاء العيونِ إنَّ دموعي　　شاهداتٌ بلوعتي وسَقَامي
ضاع نومي وحاربتني همُومي　　وكستني ثوبَ الضنى آلامي
إن جسمي يكادُ يُخْفِي نحولاً　　من زفير الجوى وسَطْوِ الهُيَام
أسهر الليلَ سابحاً في خيالٍ　　أيقظته من نومه أحلامي
أرتضي المُرَّ في هواك وعندي　　كل شيء يهون حتى حِمَامي
فاذكريني وخفِّفي نار وجدي　　أنت قَصْدِي وغايَتِي ومرَامي

القلب القاسي

القلب من نار الهـوى يتألم   والعين في روض المحاسن تنعمُ
كل الحسان قلوبهن رحيمةٌ   ما بال قلبك قاسياً لا يرحم
عيناك ساحرتي وحسنك فاتني   وسيوف لحظك في دمي تتحكّمُ
يا من أرى الدنيا بقربك جنّتي   قلبي أسيرٌ في هـواك مُتَيّمُ
لم أنس أول نظرةٍ كانت لها   شفتاكِ يا هبـة السّما تتبسّمُ
من سحر جفنكِ قد تعلّمْتُ الهوى   إن العيونِ بسحرها تتكلّمُ
ما حيلتي والجفنُ حالَفَهُ البُـكا   والدمع غاضَ وفاضَ من عيني الدمُ
قد راعني سهدٌ وأتلفَ مهجتي   والسقم أعلن ماله أتكتّمُ
إن كنتُ لا أشكو إليك صبابتي   يا منتهى أملي لِمَنْ أتظـلّمُ ؟

أين العهود

أين الليالي اللواتي سَبَّبَتْ سَقَمِي يا ليلةً بعدها عَيْنَايَ لم تَنَمِ

مَرَّتْ كَطَيْفِ خيالٍ كان يُسْعِدُنِي لو دام لكنه وَيْلَاهُ لم يَدُمِ

يا نظرةً أرسلت سهماً إلى كَبِدِي فبات من جُرْحِهِ في ثورة الألمِ

سَرَى الهوى كلهيب النار في جسدي فالقلبُ في حُرْقَةٍ والجسمُ في سَقَمِ

سُهْدِي حنيني عذابي لَوْعَتِي لَهَفِي دموعُ عيني غَدَتْ ممزوجةً بِدَمِ

ياربةَ الحُسْنِ إن لم ترحمي سَقَمِي لابُدَّ يوماً تُعَانِي زَفْرَةَ النَّدَمِ

أين العهودُ اللواتي عَلَّلَت أملي لو طال هجري لأفضت بي إلى حَكَمِ

إني عَلَى العهدِ مهما طال بي أَمَدِي وحقِّ من عَلَّمَ الإنسانَ بالقَلَمِ

جفون

يا جفوناً أشكو إليها الغَراما جُرحَ القلبُ فاستردّى السِّهاما
أصبح القلبُ للجفون أسيراً يشتكى الوَجْدَ والأسى والهُيَاما
يا مَهَاةً تجمَّع الحُسْنُ فيها وَحبَاهَا الجمالُ منه ابتساما
كم لعينيكِ من مواقف سحرٍ عَلّمَتْ صَامتَ العيونِ الكلاما
لكِ لَحْظٌ وطَلْعَةٌ وقَوَامٌ ودلالٌ أنْسَى الجفونَ المَنَاما
كل بَدْرٍ يتم فى الشهر يوماً ومحياك فى التمام دَوَاما !
نَارُ حُبِّى وَلَوْعَتى ودموعى أورثت مُهجتى الضَّنَا والسقاما
إرحمينى إن شئت أو عذّبينى أقسمَ القلبُ أن يَصُونَ الغراما
أَضْرِمى النار إن أردت عذابى أو فقولى يا نار كونى سلاما !

دولة الحسن

في دَوْلةِ الْحُسْنِ بين اللَّحظِ والتِّيه ... يبدو الجمالُ الذى بالرُّوح أُفْدِيهِ

إن الجمالَ سِلاحُ الغانياتِ به ... تَسطو على قلبِ وَلْهانٍ فَتُدْمِيهِ

يانظرةً أرسلت نارَ الغرامِ إلى ... قلبي فبات وجمرُ الحبِّ يكْوِيهِ

بالله مرحمةً ياخير من جمعتْ ... جواهرَ الحُسْنِ في ثوبٍ من التيه

لاتسألى عن غرامي فهو لى حَزَنٌ ... وللصبابة سرٌّ لست أُبديه

أبيت ليلى حزينَ القلب مكتئباً ... ومدمع العين قد جفت مآقيه

أُلازم السهدَ طول الليل في أرقٍ ... حتى أرى الصبح يحيينى تَدَانيه

ما أجمل الصبر في ذُلِّ الغرَام وما ... أحلى رضا شادنٍ قلبى يناجيه

حاولت إخفاء حبى عن عوازلها ... لكنما دمع عينى كيف أُخفيه ؟

معللتي

معلِّلتي من ليس لي غيرَها شُغلُ هنيئاً لعينٍ لحظةً منك لاتَخْلُو

ألم يكفِ ماعانيتُ من ألَم الجوى وكلٌّ عذابٍ في غرامك لي يحلو

خطرتِ فحيَّتْكِ الورودُ تبسُّماً وسلَّمَتْ الأغصانُ وانتعش الظلُّ

وحسنك فتانٌ ولحظُك قاتلٌ وقدُّك مابين الغصون له العَدلُ

جرى الحبُّ يزجي في دمي نارَ وجدها

ويكذب من قدقال إنَّ الهوى سَهْلُ

فهذي دموعي شاهداتٌ بلوعتي

وعن طول سهدي يسأل النجم والليل

كأن سهادي بات يمشَقُ ناظري

فبينهما في كل هَجْرٍ لنا وصلُ

وما كنت أَدْري قبلَ فتكِ جفونِها

بأنَّ سهامَ الحبِّ ليس لها عقلُ

وكم أرسل السحرُ الذي في لحاظها سهاماً بها مات المحبون من قبلُ

تملَّكَ مني الوجدُ حتى أذابني ومهما انسَلَى جسمي فحبّك لاأسلو

متى اللقاء

تَعِبتْ من السُّهد الطويلِ جُفونى   وَشَكَتْ من الدَّمْع الهَتُونِ عُيونى
وَاشتدَّ مابى من تباريحِ الهوى   حتى جرى يشكو الغَرَامَ أنينى
وَأحاطنى جيشُ الدُّجى بسكونه   فترا كمتْ حولى هُمُومُ شُجُونى
ياليلُ أنتَ عرفتَ سرَّ صَبابتى   بالله بلِّغْ لَوْعَتى وحنينى
صِفْ ماأعَانى فى سكُونِكَ من أسًى   واذ كر أليم مَوَاجِعى وابكينى (١)
واشرح أميناً للحبيبةِ حالتى   فعسى حنانُ فؤادِها يَشْفِينى
يامن وهبتُك عن رضاء مهجتى   ودمى وروحى والسكرى هَنِّينى (١)
لم أستطع إخْفَاءَ طيفِكِ لحظةً   عن ناظرى فمتى اللقاء؟ عِدِينى!
قَسَماً بمن جَعَلَ النفُوسَ لكِ الفدا   سأصون عَهْدِى فى الهوى ويمينى

---

(١) قوله وابكينى — وهنيني — خطأ، إذ موضعه الجزم فى الحالين لأنه فعل أمر.

فدى لك روحى

تعالىْ فقد آن الوداعُ تعالى ... نَهِيمُ بأيامٍ لنا وليـــــال

أمُــــدُّ يمينى للوداعِ و بعدهـا ... أشُدُّ إلى وادى الخُلودِ رحالى

سطا حبُّكِ القاسى فأتلفَ مُهْجَتى ... وجار على قَلْبى وأشغـــل بالى

سلى الليلَ عن دقاتِ قلبى وحُرْقتى ... وكم شتَّتَ الهجرُ الطويلُ خيالى

أُساهرِ أشواقى إليك ومَدْمَعِى ... يسيلُ دماً من لَوْعَتِى ومَلالى

ظَنَنْتُ الهوى سهلاً فلما تمـكَنَّتْ ... لواعجُـهُ منِّى تغـــيَّر حَالى

تحمَّلت فوقَ المستطاعِ من الْجَوَى ... وَمَنْ يحتمِلْ ما راعنى وَجَرَى لى

وهبتُكِ قَلْبى فاذكرى عهدَ حُبِّنَا ... غَرَامِىَ تقديسٌ بغَـــيْرِ وِصَالِ

أُوَدِّعُ فيكِ الطُّهْرَ يا غايةَ المُنَى ... فداً لكِ روحى والفؤادُ ومَالى

جوابها

إذا راعني لَيْلِي بجفنٍ مُسَهَّد عَلِقْتُ بأهداب الخيالِ المُشَرَّدِ
وبتُّ وحُرَّاس الكواكب سَلْوَتِي عيون سُهَيْلٍ في الدجى وعطاردِ
وعني اختفى طيفٌ التي كنتُ دائماً على نورها الهادي أروح وأَغْتَدي
كحيلة طرفٍ أخجلَ البدرَ وجهُهَا جمالاً فأبدى رهبــةَ المتعبِّد
إذا مابدت بينَ الكواعبِ مَثَّلَتْ عقودَ اللآلى تزدهي حولَ فرْقَدِ
هي الدُّرةُ العَصْماء مَنْ نَظَرَتْ لَهُ رَمَتْهُ بسهمٍ صائبٍ ومُهَنَّدِ
سبى حسنُهَا قلبي ومزَّقَ مُهْجَتِي حسامٌ سطامن فاتك الطرفِ أغْيَدِ
فأصبحت ولهاناً جريحاً معذَّباً أرَدِّدُ طولَ الليلِ مُرَّ تَنَهُّدي
شكوتُ لها ما شَفَّنِي من غَرَامِها وما نالني من وَجْدِهَا المتوَقِّدِ
فلم تتكلَّمْ بل أشَارَتْ كأَنَّهَا تقولُ : فلا تهلِكْ أَسًى وتجلَّدِ !
كأن ملاكَ الحُسْن أوقفَ ثغرَهَا عن النطقِ حتى لاتبوحَ فأهتَدِي
ولكنَّ عينَيْهَا الجميلةَ أشفقَتْ على قَلْبِيَ المُضْنَي العليلِ المهدَّدِ
فقالت وآياتُ الرضاء تبسَّمَتْ سأحفظُ عهدَ الحبِّ فاصبر إلى الغدِ !

ملكت الفؤاد

فؤادُ الصبِّ يُحْيِيهِ لِقَاكِ ... وَيُضْنِيهِ التَّمَادِي فِي جَفَاكِ
تَعَجَّبَ فِي السماءِ النجمُ لَمَّا ... ضياهُ الْبَدْرِ أَخْجَلَهُ ضِيَاكِ
وما جَرَّدْتُ سيفَ اللَّحظِ حَتَّى ... تزاحمت الْقُلُوبِ على هَوَاكِ
عيونُكِ فاتِكاتُ السِّحْرِ ترْمِي ... على الْعُشَّاقِ مَحْبُوكَ الشِّبَاكِ
تقبِّلُكِ النسائمُ كلَّ صبحٍ ... كَأَنَّ المُنْعِشَاتِ عَشِقْنَ فَاكِ
ولما فاق حُسْنُكِ كلَّ حُسْنٍ ... تَمَنَّتْ كلُّ عَيْنٍ أَنْ تراكِ
مَلَكْتِ القلبَ حتى صارَ عبداً ... يَجُوسُ النَّارَ حُبًّا فِي رِضَاكِ
عَشِقْتُكِ فارحمى صَبًّا وفِيًّا ... يُعَذِّبُ جِسمَه الْمُضْنَى نَوَاكِ
وَحَقِّكَ لو ملكتُ الْأَرْضَ طُرًّا ... لأَسْلُوَ أو أَميل إلى سِوَاكِ
فَوَالْحُبِّ المقدَّس لست راضٍ ... وكلُّ سَعادة الدُّنيا فِدَاكِ !

عن غادة

إنْ سَطَا الحبُّ فلا يُغنى الحَذَرْ ... فهو سهمُ الحظِّ فى كف القَدَرْ !
كُنْتُ فى حِصْنٍ مَنيعٍ أختفى ... عن جَمالِ الغيد فتَّان النَّظر
أتَّقى شَرَّ الغـــوانى آمِناً ... من شِراكِ اللَّحْظِ أَوْ أَسْرِ الحَوَرْ
لستُ أدْرِى سِرَّ ما قُدِّرَ لى ... فى سَماء الغَيْبِ من سُحْبِ الكَدَرْ
غادةٌ قد أعجبَ الدهْرُ بِهـا ... واشـتياقاً منه حيَّاها القمرْ
أرْسَلَتْ من مُقْلَتَيْها نظـرةً ... تيَّمَتْنِى ، شاغَلَتْ منى الفِكَرْ
خِلْتُ منها أننى أرْقَى السَّمَا ... بين حُورِ العين فى جَوِّ السَّمَرْ[1]
لَيْـلَةُ الأُنْسِ سَريعاً تنقضي ... كوميضِ البَرْقِ أو لَمْحِ البَصَرْ
نارُ حُبِّى حوَّلَتْ دَمعى دماً ... روَّعتنى ، عَلمت جفـنى السَّهَرْ
مزَّق الهجرُ فؤادى فارحمى ... قلبَ صَبٍّ من جوى الحبِّ استعر
واحفظى عَهْدَ غَرَامِى إننى ... يارجاءَ العَيْنِ أوْفى مَنْ صَـبَرْ

---

(١) انظر الهامش ص ٨٠ .

سؤال

نُجُومَ السماءِ علينا اشهَدِي فؤَادِي أَمْ جَفْنُهَا المعتدى ؟
تطـــول الليالى على عاشقٍ نأَى النومُ عن جفنه الْمسْهَدْ
أُساهِرُ شوقى هُيامًا بهـــا كأنىَ منهـــا على موْعِدِ
يطوفُ خيالى بُرُوجَ السَّماءِ لعلِّىَ إلى بُرْجِها أَهْتَدِى
يُشَاغِـــلُ عَيْنِي طيفٌ له نفوذٌ على فِكْرِىَ الشّارد
أعدَّ من السقم ثَوْبَ الضَّنَى لقلبٍ بنار الجوى مُوقَدِ
كسا الحسنُ وجهكِ ثوبَ الجمالِ وأبدع فى غصنك المائدِ
وقد أودع السحرُ أسرارَهُ بعينيكِ يافتنـــةَ العابدِ
يقبل وردَ الصبى باسمـــاً نسيمُ الصبا فوقَ خدٍّ ندى
سطت نارُ حبى عَلَى مُهْجَتِى ومَنْ مِنْ أَليم الجوى مُنْجِدى ؟
أخوضُ غمار الهوى راضياً بمـا خطَّه الدهرُ لى فى غدِ
سأحفظُ للحبِّ أوفى عهـودٍ مددت إليهـا أميناً يدى

وفاء

سَابقِ الرِّيحَ نَحْوَهَا ياغرَامى   فمع الرِّيح قد بَعَثْتُ سَلَامى
وتذلَّلْ لهـــاَ عساهَا حنَانَا   تمنحُ الصَّفْوَ والهنَا أيَّامى
نارَ حبِّى ترفَّقى بفُـــؤَادى   إن قلبى ممزَّقٌ بالسهـــام !
أسهرُ الليلَ راصداً بُرْجَ نجمٍ   صـــوَّرَتْهُ لناظرى أوْهَامى
علَّنى أهْتَدِى إلى نور طَيْفٍ   فرطُ شوقى له أضاع مَنَامى
ماسميرى غير الدُّمُوع وَوَجْدِى   وسهـادى ولوعتى وهُيامى
إن كربى يكادُ يحرِقُ صَدْرِى   وأنينى يشقُّ جَوفَ الظَّلامِ
«لستُ أَدْرِى ولا المنجِّمُ يَدْرِى»   يافؤادى متى يحين ابتسامى
أتلف الهجرُ مُهْجَتى فارحمينى   يارجائى وحقِّقى أحْـــلَامى
أَنا إنْ عشتُ لاأغيِّر عهْدى   وإذا متُّ سوفَ يحيا غرَامى

هو الحب !

قَلْبِي وربِّكِ لايحبُّ سِوَاكِ — مهما هَجَرْتِ وطالَ عهْدُ جفاكِ
إن الغرامَ إذا تملّك مهجةً — رفع النُّهى لعوالمِ الْأَفْلَاكِ
يامن تجمَّعت المحاسنُ كلها — فى وجْنتَيْكِ ولحظكِ الفتَّاكِ
عيناكِ بالسِّحْرِ العَجِيبِ تَكَحَّلَت — واستُودِعَتْ سرَّ الهوَى شفتاكِ
وضع الغرامُ على جبينكِ قُبْلَةً — لما تورَّد بالصبى خدَّاكِ
صعبٌ على قلبي التوجُّعُ والأسى — وعذابُهُ ظلماً بنارِ هواكِ
فإلى متى هذَا الصُّدود ولم أكنْ — أَدرى الهوى وهوانَهُ لولاكِ
إنى سأحفَظُ ما حَيِيتُ محبَّتى — روحى وجسمى والفؤادُ فداكِ

رجاء

شَغَلْتَ فُؤَادى بالصَّبابة والنَّجْوَى		وحمَّلْتَنى ماليسَ يحملهُ رَضْوَى[١]
فيالك من حبٍّ تعدَّيتَ ظالماً		سهامك غير القلب لم تتخذْ مأوى
حملت على قلبى فأضرمْتَهُ جوًى		وأودعتهُ وجداً دعاه إلى الشكوى
يشقُّ هدوءَ الليل مرُّ أنينه		وشكواه تجرى فى الظَّلام مع النجوى
أبيتُ الليالى طائر اللب حائراً		يساهر نى شوقى إلى طيف من أهوى
فيا بهجةَ الدُّنيَا هواكِ أذَابَنى		ولما أجِدْ غيرَ الدُّموعِ له سلوى
فلا تتركينى للغرامِ فريسة		فلى من معانى حُسْنِكِ السببُ الأقوى

---

(١) رضوى : جبل معروف بالحجاز .

يوم الوداع

يومَ الوداع لقد أضعتَ رَشادى وَمنَعتَ عن عَيْنىَّ طِيبَ رُقَادِى
أشعلتَ نار الحبِّ بين جوانحِى وتركتها تشكوى صميمَ فؤادى
مكَّنتَ من قلبي التأوه والضَّنى وسلبتَ منى غَايتى ومُرَادى
لما خضعتُ لحكم سلطانِ الهوى سلمْتُ للصبر الجميلِ قيادى
ياليلُ كم قاسيتُ فيك مَواجِماً هَطَّالُ دمعى شاهدٌ وسُهَادى
ياليـــلُ إنك عالِمٌ بصَبابتى ولَكَمْ شكوتُ إليكَ مُرَّ بِعادى
حمِّلْ نسيمَكَ حَرَّ أشْوَاقى عسى ياليلُ يصفو قَلبُهَا لودادى . .
واشرح لها وَجْدِى وشدةَ لوعتى فلعلَّهَا تَرْوِى غليـــل الصادى
مالى أراك لغيرِ ذَنبٍ شاهراً يادهرُ سيف عدَاوتى وعِنَادى
مهما اعتديتَ فإنَّ حبى صادقٌ واللهُ يعلمُ ما يُكِنُّ فُؤَادى

لمن أشتكي ؟

أضاعَ رشادي يا مُنايَ جَفَاكِ ... فيالَيْتَني ماذُقْتُ طَعْمَ هَواكِ
وهبتُكِ قلباً كان لا يَعْرِفُ الهوَى ... ولم يدر آلامَ الجوى لَوْلاكِ
فكنت منه الوجدَ يكوى صَميمَه ... ولم ترحمى أنات قلْبٍ شاكِ
رَمَتْني العيُونُ السَّاحِرَاتُ بسهمها ... وَمنْ مُنْقِذِي مما جَنَتْ عَيْناكِ
لمن أشْتَكي سُهْدِي وَوَجْدِي وَلَوْعَتي ... وما نالني من لَحْظِكِ الفتَّاكِ
تبيَّنْتُ من عَيْنَيْكِ مارمت كَتْمَهُ ... ومالم تُذِعْ أسرارَهُ شفتاك
ولما بدا صُبْحُ الْيَقِينِ لناظري ... جعلتُ فؤادي والحياةَ فداكِ
يُسَاهِرُني شَوْقي إليك وَمَدْمعي ... يُبَرْهِنُ أني لا أُحِبُّ سوَاك
أرى المرْءَ يحلو والعذابَ كأنَّه ... نعيمٌ لقلبي في سبيلِ رضَاكِ
إليك وفائي ربةَ الحُسْنِ إنني ... وحقِّ الهوى العذريِّ لا أَنْسَاك
سأصبر حتى يحكمَ اللهُ بَيْنَنَا ... وإن كنت راحمةً فسوفَ أراكِ

قسم !

والله ماذقتُ طَعْمَ الحبِّ لولاكِ ... ولا تعودتُ دَمْعَ المُغرَمِ الباكى
ياظبيةً فتكت بالقلبِ مقلتُها ... سبحانَ من ببديعِ الحُسْنِ حلَّاكِ
صُونى جمالَكِ رفقاً بالعبادِ فما ... أقْسَى جفاكِ وما أبْهَى محيَّاكِ
أنتِ الهناء لقلبى والشَّقَاء له ... فما أمَرَّكِ فى قلبى وأَحْلاكِ !
هبت نسيمُ الصبا تجْرِى معطَّرةً ... لأنها لثِمتْ لما سَرَتْ فاكِ
فذكرتنى ليالينا وقد غَفَلَتْ ... عنا العيونُ وعينُ الصَّبِّ ترعاكِ
لما التقينا وكان البدر ثالثَنَا ... أحسَّ قلبى بأن البدرَ يهواكِ !
لو لم يكن حسنُكِ الأعلى لما خَجِلَتْ ... أنواره ياضيائى حين يَلْقَاكِ
نبالُ لحظِكِ لما مزَّقت كبدى ... سألتها رحمةً بالمغرَم الشاكى
قالت تعذَّبْ بحبى كى تشاطِرَنى ... ذلَّ الغرامِ ونارَ الحبِّ ياباكى !
أجبتها ودموع الصدقِ شَاهِدَتى ... : عاهدتُ ربِّى أنى لستُ أنْسَاكِ

استسلام

من يُعِيرُ الغُصُونَ لينَ قَوَامِك ... وجمالَ الزُّهــــور حُلْوَ ابتسامِك
من لِبَدْرِ الدُّجى بأنوارِ وجهٍ ... كل عُشَّاقه ضحـــايا غرامِك
أعجب الحسنُ إذ جمعت الغوالى ... من كنوز الجمال تحتَ لِثَامِك
كوكبٌ أوقف العيونَ حيـارى ... تائهاتٍ فيما بَدَا مِنْ تَمَامِك
رائعاتٌ فى روض حسن بديع ... مشهرٍ للدفاع حَدَّ حسامك
فتك اللحظُ بالقـــلوب وباتَتْ ... مُهَجُ العاشقين صَرْعَى سِهَامِك
يا شقاء القـــلوب إن فؤَادى ... يرتضى السقم خاضِعاً لاحتكامك
لم يفارق خيالُ طيفكِ عيــنى ... مذ غدا القلب وهو عَيْنُ مُقَامك

لقاء خيال

دمعي أهاجَ صبابتي وشُجُوني ... والسُّهدُ أتلفَ مُهجَتي وعيُوني

يا دُرَّةً خُلِقَ الجمــالُ لِوَجْهِهَا ... فــكأنها في لؤلؤ مكنونـِ

حاولت أن أخفي جوَايَ ولوعتي ... ورجوتُ أن تَتَنَسَّى الدموعَ جفوني

لــكنني مااستطعتُ كتمانَ الهوى ... فوشت بمكنونِ الغرامِ شؤُوني

زكِّي جمالاً حُزْتِ فيــه تمامَهُ ... وتصدق منــهُ على المسكينِ (١)

لم أنس حين شكوتُ آلامَ الهوى ... في ليــلةٍ منع المنــامَ أنيني

وجرى النسيمُ إليك في غسق الدجى ... يَسْري بسرٍّ في الفـؤاد دفينِ

أقبلت في ثوبِ العفافِ مصونةً ... ودنا حنــانُك راحماً لحنيني!

ما كان أشهى ذا اللقــاءِ وليتَهُ ... أبداً يدومُ لوالهٍ محزُونـِ

قسماً بحبك ما حلفت على الهوَى ... إلا لأني واثقٌ بيميــني

(١) راجع ص ١٦٨ ·

هبيني لحظة

فؤادي في عذابٍ من هــواكِ ... وجفني دائمــاً بالدمعِ باكِ
فعيني في رياض الحسنِ تهمي ... وقلبي فوقَ جمرٍ من جــواكِ
فيـــاذات الرشاقة والتثني ... متى ألقـــاكِ أو أنى أراكِ ؟
جمالك ساحري وهواكِ وجدي ... وروحي يا معلّلتي فـــــداك
رنوتِ بلحظك السحريِّ تيهـاً ... فما أقوى وأقسى ناظـــراك[1]
عشقتُك مذْ رأيتُ الجفنَ يرْمي ... لخالي القلب تحبـوكَ الشباكِ
فصادتني الجفونُ بنَبْلِ لحظٍ ... وقادتني الشِّباكُ إلى هــواكِ
أبيتُ الليـلَ أرقبُ كلَّ نجمٍ ... أناجي لوعــتي وأسى نواك
عسى ألقى خيالكَ فيــه يبدو ... فأملا نورَ عيني من سنـــاك
هبيني لحظـــةً تُطْفي سعيراً ... تأجّجَ في ضُلُوعي من جفــاك
ويا نورَ المُنَي سيانِ عندي ... حيـــاتي في غرامك أو هَلاَكي
لجسمي قد غـــدا من فرط حبي ... خيـــالا لا يفـــارقه ضياك
شكوت إليك هجري فارحميني ... ويكفيني من الدنيا رضاك

---

(١) الصواب « ناظريك » .

سلى الليل

سلى اللَّيْلَ عن سُهْدِى وَوَجْدِى ومَدْمَعِى

ودقات قلبى والْجَوَى ومَوَاجعى

سكون الليالى شاهدٌ بصبابتى ... وَمَنْ غيرُ ليلى إنْ تنهَّدْتُ سامِعى

يلازمنى سُهْدِى وقد فتَكَ الهوَى ... بقلبٍ لسلطان الْمحبَّةِ خاضِعِ

رمتنى العيُونُ الفاتِناتُ بسحرهَا ... فأَسهرتُ جفنى راصداً نجمَ طالعى (1)

لعلى أَرى فى طلعةِ النجم طيفَهَا ... يردُّ كرى صبٍّ من البعد وَالعِ

يزيد اشتياقى كلَّما طَالَ هجرُها ... لحتَّى متى يا هجر أَلقاك مانعى ؟

دموعى وسهدى والنحول ولوعتى ... تُبرْهِن أنى فى الهوى غيرُ خادع

تعدى علىَّ الدهرُ حتى كأَننى ... إخالُ اجتهادى فى المنى غيرَ نافع

فيامن أَرى فى القُرْبِ منكِ سعادتى ... إلا رحمةٌ بالعاشق المتوجِّعِ

---

(1) الصواب أن يقول « طالع نجمي . . . »

سأصون العهد

عيناى من حـرِّ الجوَى تبكى على قلبٍ صَرِيعِ
يا لوعـةَ القلب الذى أنَّاتُهُ مَنَعَتْ هُجُوعِى
حاولت كتمَ صـبابتى وأَردت أن يخفى ولوعى
لـكنَّ دَمْعِى قـد وَشَى بسرائر القلب الوديـعِ
قاسيتُ آلامَ الهـوى وكم احتملت أَذَى خُضُوعِى
أقضى الليـالى سـاهراً أَبْـكى على زاهى ربيعى
حـولى تزاحمت الهمُومُ وما لكربى من شفيـعِ
حُبِّى سَـقَى قلبِى الضَّـنَى وكَوَى بِلَوْعَتِهِ ضُلُوعِى
مهما يُحَارِبُنى النَّـوَى فالصبْرُ فى حِصْنٍ منيـعِ
سأصون عهـد محبَّـتِى يا ربةَ الحُسْنِ البـديعِ

عهـــد

رويدكَ قد جفا جَفْنِي مَنَامِي وأدْمَى مَدْمَعِي قَاسَى غَرَامِي
تعدَّى ناظراكِ عَلَى فُؤَادِي فبات يَئِنُّ من وَقْعِ السِّهَامِ
جمالُكِ تاهتِ الأفكارُ فيه مُحَيًّا صَوَّرَتْهُ يَدُ التَّمَامِ
تَصَبَّحَ وَرْدَ خَدَّيْكِ الهوادى نسائمُ حُمِّلَتْ نَجْوَى هُيَامِي
تقبِّلُ مِنْك ثَغْرًا أودعته معانى الحُسْنِ حُلْوَ الابتسام
لحاظُك بالفواتِكِ هَاجَمَتْنِي وَكُنْتُ أمامها أخْشَى انْهزامِي
وَلَكِنِّي تَحَمَّلْتُ المَوَاضِي بقلبٍ من سِهَامِ الجَفْنِ دَامِ
كَشَفْتِ بلحظِكِ السِّحْرِيِّ سِرًّا يَرُوقُ الصَّمْتُ فيه عن الكلامِ
عَشِقْتُكِ فَارْحَمِي قَلْبًا جَرِيحًا وجِسْمًا هَدَّمَتْهُ يَدُ السَّقَامِ
نحولى والسهادُ ونارُ وَجْدِى إذا طال النَّوَى سَاقَت حمامى
وَفَائى لا تغـيره العوادِى من الأيام أو قاسى المَلَامِ
وعهدى فى المحبـة سوف يبقى يجدد ذكره دوماً سلامى

كم تحملت

سِرْ بِوَجْدِى وَلَوْعَتِى وَهُيَامِى　　يا نسيمَ الصَّبَا وَبلِّغْ سَلاَمِى
وتهادَى إذا بَلَغْتَ حِمَاها　　وتلطَّفْ إِذَا شَرَحْتَ غرامى
أنتَ تَدْرِى بما يعانيهِ قلبى　　من أليمِ الْجَوَى وَفَتْكِ السِّهَامِ
يا رسولاً أَوْدَعْتَ سِرَّ فؤادى　　سارياتٍ تشقُّ جوفَ الظلامِ
يا أمينى على رسائلِ حُبِّى　　صِفْ سُهَادِى وَمَدْمَعِى وسُقَامِى
كم تَحَمَّلْتُ فى هواكِ هواناً　　فاضَ دمعى له وعز منامى
أَلْبَسَ الهجْرُ مُهْجَتِى ثَوْبَ سقمٍ　　صوَّرَتْهُ من الضَّنَى أَوْهَامِى
فاعطفى رَحْمَةً وَجُودِى حناناً　　أنقذينى من روعة الأحلام
سوفَ أبقى على وفائى أميناً　　فاذكرى ما حييت عهد غرامى

الحقيقة

سلطانُ من فَتَنَتْنِي فَوْقَ سُلْطَانى ... إن شاء عذَّبَنى أو شاء هنَّانى

راشَتْ سِهَامَ جَفُونٍ من لواحِظِها ... وَصَوَّبَتْهَا إلى قلبى ووجدانى

لَحْظَ الحبيبة راقب مهجتى كَرَماً ... متى رضاك يواسينى و يرعانى

لله فرطُ جمالٍ بات يشغلُنِي ... عن كل شيء وللأحزان خَلاَّنِي

يا مَنْ تــكامل فيها الحسْنُ أَجْمَعُهُ ... الوجد أرَّقنى والنوم عادانى

جمال وجهك لا ينجابُ عن نظرى ... وورد خديك ممزوج بنيران

بَسَّامُ ثَغْرِكَ مطبوعٌ على كَبِدِى ... وليلُ شَعْرِكِ تَهْمِى فيه أجفانى

يا ليلةً لَذَّ لى كأسُ الغرام بها ... حتى تخيلت أن الدهر صافانى

مضت سريعاً وذكراها تحملنى ... ذلَّ الغرامِ وَمُرُّ البعد أبكانى

كأنَّ وَعْدَكِ حُلْمٌ زَارَنِي وَمَضى ... كانت حقيقتهُ وَجْدِى وأحزانى

لولا الهوى

بَدَتْ قمراً بالفاتـكين تَقَـلَّدَا ... وقد أشْهَرَتْ باللحْظِ سيفاً مُهَنَّدَا
وقد أغْمَدَتْ فى حبةِ القلبِ سَيْفَهَا ... فأصْبَحَ جِسْمِى بالغرام مهدَّدَا
ولم تَدْرِ عينِي ما بقلبِي لأنها ... رأَتْ فى رياض الحسن خدًّا مورَّدَا
فشاغَلَهَا وردُ الخدود عن الذى ... تأَجَّجَ ناراً فى الهوَى وَتَصَعَّدَا
كلِفْتُ بها من قبل أَنْ أَعْرِفَ الهوى ... فأصبحَ جَفْنِى فى الغرام مُسَهَّدَا
وكنت حَذَرْتُ الغيدَ حين تمرَّدَتْ ... فأوقعنى قلبِى بأهيفَ أَغْيَدا
ولولا الهوَى ما بِتُّ بالدمع غارقاً ... وقد كنت خلوًا قبـله متباعِدا
لعوبٌ لها من باهر الحسن طلعةٌ ... إذا أشرقتْ أبصرتُ غُصْناً تأوَّدَا
وَقَدًّا رَوَتْ عن لينـهِ واعتداله ... صحاحُ العوالى بالجمالِ تفرَّدَا
لها أقسمت عيناىَ لا تترك البـكا ... ونفسى تمنت أن تـكون لها الفِدا
تجود جفونى بالدموع وها أنا ... أبيتُ الليالى ساهراً مُتَوَقِّدَا
تعدَّى على جسمى الضَّنَى فأذابَهُ ... نُحُولاً وَخَلاَّنِى خَيَالاً مُجَرَّدَا
فيـا ليـلة مرَّت كأحلام نائمٍ ... أقمتُ لها فى جَذْوَةِ القَلْبِ مَرْصَدَا
ألا لَيْتَ شِعْرِى هل أوفَّقُ سَاعَةً ... إلى طلعةٍ كانت لِحُبِّى مَشْهَدَا
تَرُدُّ إلَى روحى الحياةَ فأبتَنِى ... لِعَهْدِ زمانِ الُحبِّ حِصْناً مشيدا

إليهـا

يا مَنْ أَضَعْتُ بِحُبِّهَا أَيَّامِي ... مِنِّى إِلَيْكِ تَحِيَّتِى وَسَلَامِى
يا مَنْ لِأَوَّلِ نَظْرَةٍ قَدْ خِلْتُهَا ... مَلَكاً تَهَادَى فَوْقَ عَرْشِ غَرَامِى
فتكَتْ سهامُ جفونِهَا بحشاشتى ... فَتْكَ الأسُودِ الصِّيدِ بالآرَامِ
لعبَتْ بقلبٍ لم يكن يَدْرِى الهوَى ... هامَتْ بِهِ فى عالَمِ الأحلامِ
يادرةً بَخِلَ الزمانُ بمثلها ... يا بدرَ حُسْنٍ حاز كل تمام
لم أنس حين شكوت مر صبابتى ... ما كان من وجدٍ أطار منامى
واشتد وجدى من تباريح الجوى ... ومدامعى فاضت وزادَ هُيَامِى
كفكفتِ بالكفِّ الجميلةِ أدمعى ... وَبِنَظْرَةٍ أَطْفَأْتِ نَارَ غَرَامِى
عقدت يمينُكِ عهد حُبٍّ بيننا ... وبدا الرضا من ثغرك البسامِ
وافْتَرَّ ثغرُكِ عن حديثٍ خِلْتُهُ ... سِحْراً تَسَرَّبَ فى دمى وعظامى
صُنْ فى فُؤَادِكَ مَا تَبَادَلَ بَيْنَنَا ... واحفظ عهودَ محبَّتِى وَزِمَامِى
الغيدُ تَخْدَعُ والغوانى طبعُها ... تبنى العهودَ على رُبَا الْأَوْهَامِ
يا ليتنى ما اجتزت تيار الهوَى ... يوماً ولم أُخْدَعْ بِعَذْبِ كلامِ

ليـــلة

فؤادِى الذى وَفى على الهجر مُوجَعُ ... وعيناىَ فى رَوْضٍ من الحسن تَرْتَعُ
مَضَتْ ليـــلةٌ لو حقَّقَ اللهُ مِثْلَهَا ... بلغْتُ الْمُنَى وَأمِنْتُ مَا أتَوَقَّعُ
تَـكامَلَ فيهـا الصَّفْوُ بينِى وَبَيْنَها ... ونُورُ الرِّضَا من كَوْكَبِ الْحُسْنِ يَسْطَعُ
خَلَوْنَا وَدَارَتْ بيننا نَشْوَةُ الهوَى ... وَقد كُنْتُ أشكو هَجْرَها وَهى تسمعُ
أَذَاعَتْ دِموعى مَا تُـكِنُّ سرائرى ... وأعْلَنَ سُقْمِى هَوْلَ ما كنت أجْزَعُ
رَحَى الْحُرْبِ قَامَتْ بين قلبى وَجفنها ... وَدَلُّ الغوانى فى رَحَى الحَرْبِ يَخْدَعُ
أرَى القَلْبَ مهما نَالَ حكمًا وَجُرْأَةً ... ذليلا لسلطان المحبـــةِ يَخْضَعُ
تجلَّتْ لعينيْهَا الجميــلةِ لَوْعَتِى ... وَأَنَّ فؤادِى فى الهوى يتَقَطَّعُ[1]
فقالت ويمناها تـكفكف مَدْمَعِى ... شهيدُ الهوى العذرى لا يتوَجَّعُ
تبينت من عينيك صِدْقَ محبـتى ... وأنكَ إنْ أخلصتَ لا تتزعزعُ
فلم أخش حراساً علىَّ يوَاقِظًا ... وجئتكَ لا ألوى ولا أتفزعُ
علىَّ يمينُ الله أنِّى على الوفا ... وأنْ ليس لى فى حُبِّ غَيْرِكَ مطمعُ
فقلت لها والدَّمْعُ مِلْءُ محاجرى ... وصدرِىَ من حَرِّ الجوَى يتصدَّعُ
سأحفظ عهدِى ما حَيِيتُ وإن أمُتْ ... سيبقى غرامى عاطراً يتضوع

(١) كان يجب أن يثنى النعت فيقول الجميلتين !

لحظ العيون

لَحْظَ العيونِ حَمَلْتَ حملةَ عاهلٍ ... شاكى السلاحِ على المُحِبِّ الأعزلِ !
مزَّقتَ قلبى بالسهامِ ولم تكُنْ ... ذا رحمةٍ بِصَرِيعِ جَفْنٍ أكْحَلِ
إنِّى خَضَعْتُ لِحُكْمِ سُلْطَانِ الهوَى ... وَصَبَابَةً أبْكِى بدمعٍ مُرْسَلِ
يا مَنْ لها بين الكَوَاعِبِ طَلْعَةٌ ... تاهَ الجمالُ بِحُسْنِهَا المُتكاملِ
مَنَعَ الهوى نومى وَأتلفَ مُهْجَتى ... وسطا على جسمى الضعيفِ النَّاحِلِ
ما حِيلَتِى لوْ طَالَ بى صَرْفُ النوى ... والدمع جف وبات يشمَتُ عاذلى
واللهِ طيفُكِ لا يفارقُ لحظةً ... عينى وليس سِوَى خيالِكِ شاغِلِى
قَسَماً بِحُبِّكِ إننى باقٍ على ... عهدى وعن نجوايَ لم أتحوَّلِ
أجتاح صَعْبَ هَوَاكِ مهما راعنى ... كأسُ المنيةِ فيه عذبُ المنهل
إنى أُقَدِّسُ بالوفاء محبَّتِي ... فتدلّلى ما شِئْتِ أن تدللى !

ربة الحسن

أَضْرَمَ الوَجْدُ نَارهُ فى فؤادى ... وأليمُ الجْوَى أضاع رشادِى
هام قلبى لِسِحْرِ عينيكِ لمَّا ... سكن الحسْنُ منهما فى السَّوادِ
مَنْ مُجيرِى من الجِراحِ اللواتى ... كلَّ يومٍ آلامُها فى ازديادِ
إن وَرْدَ الصِّبى تَبَسَّمَ عُجْباً ... فوق خدَّيْكِ فتنةً للعبادِ
ونسيمُ الصَّبا تعطَّرَ طِيبا ... من رياحينِ غُصْنِكِ الميَّادِ
ربَّةَ الحسْنِ خفِّفى نارَ وَجْدِى ... وارحمينى من مَدْمَعِى وَسُهادِى
نَسْهَرُ الليلَ فى رجاء وَيأسٍ ... بين حلو اللقا وَمُرِّ البعادِ
فإلامَ الجْفَا وَهجرُكِ أدنى ... من يَدِ السقم مهجتى وفؤادى
صار جِسْمِى من السقام خيالا ... طاردته شماتَةُ الحسَّادِ

حبيبة القلب

حبيبةَ القلبِ كم حالمتُ فى لهَفٍ ... عِداىَ فيكِ وكم عاديت أحلامى[1]
أليمُ بُعْدِكِ هاجتنى لوَاعِجُه ... وشَوْقُ قُرْبِكِ ضاعتْ فيه أيَّامِي
رَمَتْ حَشَاىَ سِهامٌ منكِ فاخترقتْ ... صميمَ قلبِي وأدمتْ دمعىَ الهامِي
يامن تصول سيوفٌ من لواحِظِها ... تذودُ عن مُسْفِرٍ منها وبسام[2]
أودعتُ فى الصُّبْحِ نومِي عند ناظرِها ... وعدتُ أشكو لليلِي نارَ آلامِي
أُسامِرُ النَّجْمَ طولَ الليلِ من شغَفٍ ... ياليلُ بَلِّغْ سهادِي فيك لُوَّامِي
أفدِي التى كنتُ عنها كاتماً شجَنِي ... والدمعُ أكبر واشٍ بي وَنَمَّامِ
سَهْمٌ رَمَتْهُ بقلبِي نظرةٌ تركَتْ ... فى مُهْجَتِي لوعةً ياقسوةَ الرامى !
قدحالفَ السُّهْدُ جَفْنِي فانْضَنَى جسَدِي ... من فَرْطِ ماأَسْرَفَتْ فى الوَجْدِ أَوْهَامِي
مازال يَسْبِقُنِي فى قربها أمَلِي ... حتّي حَدَتْ بِي لوادِي اليأسِ أحلامِي
وأصبح الجسْم طيفاً لا تفارقُه ... يَدُ النُّحُولِ وقلبى جُرْحُه دامِ

(١) حالمت : اصطنعت الحلم مع غيرى . (٢) يريد بالمسفر وجهها : وبالبسام ثغرها .

مناجاة

ياليلُ فيكَ مواجِعى وشُجُونى ... ياليلُ عَلَّمْتَ البكاء عيونى

ياليلُ فيك لواعجى وتَنَهُّدِى ... ياليلُ نومى خاصَمَتْهُ جفونِى

ينسابُ دمعى فى سكونك يادُجَى ... ويطوف فى جَوْفِ الظلام أنينى

يأيها الليلى الطويلُ تزاحَمَتْ ... حولى الهمومُ وغاضَ بَحْرُ شؤونى (١)

قُلْ للحبيبةِ رحمةً بمتيمٍ ... فَتَكَ الغرامُ بقلبه المفتونِ

ماحيلتى فى سُهْدِ جفنى والجَوَى ... وأنين قلبى والبكا وحنينى

قسما برابطةِ المَحَبَّةِ بيننا ... إنى سأحفظ بالوفاء يمينى

---

(١) شؤونى : دموعى .

ياحياتي

أَبْعَدَ النَّوْمَ عن جفونى سُهَادى | وَكَوَى الهَجْرُ والصدودُ فؤادِى
بات قلبي من الغرامِ يعانِي | لوعةَ الوَجْد والضنى والبعادِ
ياجمالا تكاملَ الحُسْنُ فيه | كيف أسلو وقد ملكتَ قيادِي
هذه أَدْمُعِي تفيض لأنِّى | كلَّ يوم أرى الهوى فى ازديادِ
ياحياتى داوى بعطفك قلبى | أنتِ والله غايتى ومُرادى
أَحْتَسِى الصبرَ فى هواك وأرضَى | أن يكونَ العذابُ والمرُّ زادِى
لست أدرى ماحيلتى ضاقَ صدْرِى | من أليم الجَوَى وضاعَ رَشَادِى
فانصِفِى من غدًا لِبُعْدِكِ طيفاً | وارحمى قلبَ حافظٍ للودادِ

قسماً بثغر . . .

يا جفنُ إنَّكَ لم تَذُقْ طعْمَ الكَرَى   يوماً ولم تهنــأ بطيبِ رُقَادِ
فعلامَ يشكو هجْرَه وبعـادَه   وصدى أنينكَ ضائعٌ في وادِ
جُدْ بالبكاء عسَى بدَمْعكَ تنطفي   نارٌ أحاطَ لهيبُها بفـؤادِي
حُبٌّ تربَّى في دمي فسَرَى به   حتى تملَّكَ مُهْجَتِي وَقيادِي
يا منْ تُجيد عيونُهَا لغــةَ الهوَى   هل غاب عن تلك العيونِ مُرَادِي
لكِ نظرةٌ فتنَ الجمالُ بسحْرِهَا   ومُقَبَّلٌ يشفي غليل الصادي (١)
إن المحاسنَ أبْدَعَتْ تَصْوِيرَها   في ناظريكِ وغصنكِ الميَّــاد
قَسَماً بثغــرٍ بالسيوفِ مُمَنَّعٍ   وبسحرِ لحظٍ قد أضاع رَشَادِي (٢)
ما مسَّ خدَّكِ غيرُ أنفاس الصَّبَا   نَسَمَاتُهُنَّ روائحٌ وغـــوادِي
أنا مغرَمٌ فتكَ النحولُ بجسْمِهِ   وسَطَتْ عليه عداوةُ الحسَّادِ
إن تمنعي عني اللقاء فإنــني   صَبٌّ قد استعذبت فيك سهادِي

---

(١) المقبل : ثغر ، والصادى : العطشان .
(٢) ممنع محصن .

إلى قلب

ياقلبُ أنتَ وناظِـــرِى لم أَدْرِ أَيُّـكما افـــترَى

عَيْنَاىَ تمنعُك الهـــدو ء وأنتَ تمنعُهـــا الـكرَى

عطفـــاً علىَّ فإنَّنى لم أَسْتَطِـعْ أنْ أصبِرَا

إنَّ الغــرامَ سَطَـاَ على قلبِى وَفى روحى سَــرَى

يامنتهى أمَلى لقــدْ حَـكمَ الهوَى إن أسْهرَا

إنِّى عَشِــقتُكِ فامْنَعِى عنِّى العــذَابَ الأكبرا

أَخشَى إذا طال النَّــوى لا أستطيــعُ تَصَــبُّرَا

مَهْمَا تَـكَتَّمْتُ الهوَى فالدمعُ لن يَتَسَتَّرَا

ما بينَ دَمْعِى والجوَى أُمْسِى وَأُصــبحُ حائرًا

أَجِدُ الحياةَ رخيصـــةً لو كانَ وَصْلُكِ يُشْتَرَى

غيرت حالى

يابديعَ الجمالِ غيَّرْتَ حالى   أين يابَدْرُ صافياتُ الليالى ؟
لستُ أنسَى تلك العيونَ وقلبى   مزّقَتْهُ لحاظُها بالنِّبالِ
أنتَ ياحبُّ كم تركتَ نفوسًا   حائراتٍ فى شارداتِ الخيال
وقلوباً أوْدَعْتَ فيها سعيراً   أبَدَ الدهرِ نارهُ فى اشتعالِ
أىُّ ذنبٍ جنيتُ ياحبُّ لمَّا   زِدْتَنِى لوعةً وأشغلتَ بالى
ياملاكا سبى الحِسَانَ بلَحْظٍ   أوْدَعَ الحُسْنُ فيه بنتَ الدوالى
كم تَعَذَّبْتُ فى هواكَ وكانت   مؤلماتُ العذابِ فوْقَ احتمالى
أسْقَمَ البُعْدُ والتَّجَنِّى فؤادِى   وكسانى ثوبَ النُّحولِ ملالى
إنَّنى خاضعٌ لحكمك فاهجُرْ   أو تحقِّقْ يابدرُ لى آمالى !

لقـــاء

نجومَ الليـــلِ مهلاً لا تغيبي فقـــد وافتْ أغاريدُ الحبيبِ
يُبَشِّرُ باللقـــاءِ وأيُّ بُشْرَى أَسَرُّ من الهناء إلى القـلوبِ
ترَانى بَيْنَ مُنْسَدِلِ الدَّوالى وأخْفقَ فى مُلاَحَقتِى رقيبى
سألتُ الريح يحملُنى إليهـــا على أهــدابِهِ خوفَ المغيبِ
فوافيتُ الحبيبةُ فى جَنـــانٍ يُمَثِّلُ يقظةَ الرئم الهـرُوبِ
تميــلُ على الأَزاهِرِ وَهْىَ تلهو بِضَمِّ الوردِ فى غُصنٍ رطيبِ
وفاقت فى الرشـــاقةِ والتَّثنِى جمـالَ تَلفُّتِ الظبْىِ اللَّعوبِ
بَدَتْ قمراً فـكانت نورَ عَيْنى سَطَتْ أسداً على قلبِ الحبيبِ
وجاءت وهى تخطــر فى قميص نقى الذيل من كل العيوبِ
فقلت لهـا وقد تاهت دلالا لقد أصبحت فى زى عجيبِ
فثوبك والورود ووجنتـاك كلون السحب فى وقت الغروبِ(١)
فالَتْ ثُمَّ قالت وَهْى نَشْوَى لِبُعْدِكَ كان جِسْمِى فى شحوبِ
فلمَّا ضَمَّنَّا وَقْتُ التَّـــلاقِى تَزَايَدَ فى تَسَعُّرِه لهيـبى
بَدَا وَجْهِى يعبِّر عن غرامى لأَنَّ الْوَجْهَ مرآةُ القـــلوبِ !
وهبتُك مهجتى فاحرِصْ عليهـــا وَصُنْ عَهْدِى وقُلْ يا نفسُ طيبى
ومرَّتْ كالغزالةِ وَهْىَ ترنو بمقلةِ شادنٍ كلف طروبِ
فما أَقْسَى الغرامَ على فؤادِى إذا كان التَّجَنِّى من نصيبى
ويا قاسى النَّوَى رِفقاً بقلبى ويا نارَ الصبابةِ مَنْ مُجيبى ؟
سأصـــبرُ حافظاً للحبِّ عَهْدًا وَأَرْضَى حكم عــلَّام الغيوبِ

---

(١) لا يقلل من جمال هذا البيت إلا المخالفة العروضية فى قوله « وجنتاك » .

نداءات عاشق

ما بالُ عينيَ لم تغمضْ ولم تَـنَمِ … سيولُ أدْمُعِهـا ممزوجةٌ بِدَمِ
يا غادة ملكتْ قلبي محاسِنُها … فبَاتَ من وجدِه في رَوْعَةِ الألمِ
رُدِّي عليَّ ليـاليَّ التي سَلَفَتْ … لم أنسَهَا لا وما بالْعَهْدِ من قِدَمِ
كم باتَ بارقُ ذاكَ الثغر يَبْسِمُ لي … مُذْجئتُ أسعى على العينيْنِ والقَدَمِ
يا رشفةً هِيَ راحِي في الغرام بِها … يُهْدي الدواءَ لقلبي من لَمَاكِ فَمِي (١)
ويا جمـالا يُواسِيني بطلعتِهِ … باللهِ مَرْحَمَـةً يا ربةَ النِّعَمِ
ويا جبيناً ضياءُ الصُّبْح لاح بِهِ … فأَشْرَقَ الوجه منهُ في دُجَى الظُّلَمِ
يا ربةَ الحسْنِ جودِي بالوفاء على … مَنْ قَدْ يرَى يقظاتِ العيْنِ كالحُلُمُ
أين العهودُ اللواتي عَلَّلَتْ أَمَلِي … وخَلَّفَتْني أليفَ السُّهْدِ وَالسَّقَمِ
ما سالَمَتْنَا الليـالِي في محبَّتِنَا … حتَّى ذَكَرْتُ هَوَى أيامِنا القُدُمِ
يا لائمي لا تَلُمْني قَبْلَ تجربةٍ … ذُقِ الهوَى فإن اسْطَعْتَ الملامَ لُمِ
لما خَـلَوْنَا وقد رابتْ ظواهِرُنَا … وفي بواطِنِنَا بُعْدٌ عن التُّهَمِ (٢)
وبيننـا عِفَّةٌ باتَتْ تُراقِبُنَـا … والطُّهرِ ما بَيْنَ هيَّابٍ وَمُبْتَسِمِ
ترنو إليَّ بعيْنِ الظَّبْيِ واجفةً … وتقطف اللؤلؤَ السَّيالَ بالعَنَمِ (٣)
وَدَّعْتُهَا ودموعِي جفَّ مَوْرِدُهَا … فَقَبَّلَتْني ببَسَّـامٍ فَمَا لِفَمِ
فَذُقْتُ ماءَ حياةٍ من مُقَبَّلِهَا … أحْلَى من الشَّهْدِ أحياني من العَدَمِ
قالت تذَكَّرْ عهودِي وانتظرْ فرَجاً … أَجَبْتُهَا رَغْمَ خفَّاقٍ وَمُنْسَجِمِ
دَيْنٌ عليكِ سأحيا إن وفيتِ بِهِ … وإن بخلتِ تقاضَيْنَا إلى حَـكَمِ

---

(١) اللمى : الريق (٢) رابت : بعثت على الريبة والشك .
(٣) واجفة : خائفة مرتعدة ، العنم : نبات أحمر اللون .

خبراها

خَبِّراها بِلَوْعتِي وَهَوَانِي ... في هَواها وبلِّغا ما أُعانِي
واذْكُرا ما شَهِدْتُما من غرامِي ... وسُهادِي ومَدْمَعِي وحنانِي
وأقيما لها براهينَ حُبِّي ... واشْرَحا حالتي لها وابْكِياني
عاهِدَاها على يمينِ وفائي ... يا نَسيمَ الصَّبا وطيفَ الأماني
أيُّها الحبُّ قد تعدَّيْتَ حتَّى ... كاد يَقْضِي عليَّ دَلُّ الغواني
كنتُ قبل الغرامِ في صَفْوِ عَيْشٍ ... خالِيَ البالِ من صُرُوفِ الزمانِ
فرَماني نَبْلُ الجُفونِ بِسَهْمٍ ... أودع القلبَ زفرةَ النِّيرانِ
وسقاهُ من العذابِ كؤوساً ... مترعاتٍ بالسُّقْمِ والأحْزانِ
كم تحمَّلْتُ فوق ما كنتُ أقْوَى ... وتحيَّرْتُ في قلوبِ الحِسانِ
فاتركي التِّيهَ لحظةً يا حياتي ... وعدِيني متَى يكونُ التَّداني

قصة لقاء

دارِى العيونَ اللواتى حيرت نَظَرِى ... عن مقلتىَّ فقلبى باتَ فى خَطَرِ
فتَّاكُ لَحْظِكِ سَهْمٌ قد فَرَى كَبِدِى ... ولم يفِدْ فيه ما أجهدتُ مِنْ حَذَرِ
ياطلعةَ البدرِ نورُ الْحسْنِ منكِ بَدا ... كأنه فَرْقَدٌ يَسْمُو له بَصَرِى[1]
صاغ الجمالَ جَبيناً منكِ فازْدَهَرَتْ ... بالْحسْنِ آياتُهُ فى وجهكِ النَّضِرِ
فَرَوْضُ وَجْهِكِ بالأزهار مُبْتَسِمٌ ... ولؤلؤُ الثَّغْرِ منظومٌ من الدررِ
وَحُسْنُ قدِّكِ فتَّانٌ لِنَاظِرِهِ ... يَسْبِى العيُونَ وَيدعو القلْبَ لِلسَّمَرِ
أين الليالى اللواتى كنتُ أحْسَبُهَا ... تدوم يا ليلةً قد سَبَّبَتْ سَهَرِى
لما اجتمعنا وزَهْرُ الرَّوْضِ أنعشَنَا ... تَحْتَ الدَّوَالِى وبَيْنَ السِّحْرِ والْحَوَرِ
غاب الحواسِدُ والعُذَّالُ وَانْصَرَفَتْ ... عنـا الرواصِـدُ إلا مُقْلَةَ القمَرِ
وقد خَلَوْنَا وَجَوُّ الْحبِّ رَاقَ لَنَا ... وراح عنا شَديدُ الخوفِ والحَذَرِ
وبيننـا دارَ كأسُ الحبِّ تملؤُها ... يَدُ الطَّهَارَةِ فى وَشْيٍ مِن الزَّهَرِ
يُهْدِى إلى العين أنوارَ الْمُنَى أَمَلاً ... وللفؤادِ كؤوسَ الْمَنْهَلِ الْعَطِرِ
تبادلتْ شفتانا بيننـا غَزَلاً ... أرَقَّ فى لَفْظِهِ من نَسْمَةِ السَّحَرِ
حتى إذا اشْتَدَّ بى وَجْدُ الْهيَامِ بَدَا ... طيفُ العفافِ بنُصْحٍ غيرِ مُنْتَظَرِ
لا تقْرَبَنَّ حَبِيباً قد خلوتَ بِهِ ... واقْنَع بحَظِّكَ بَيْنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ
فارتاح قلبى لِنُصْحِ الطُّهْرِ وَانبَسَطَتْ ... مِنِّى لِمَنْ فَتَنَتْنِى كَفُّ مُعْتَذِرِ
دَنَا الْوَدَاعُ فَلاَ تَنْسَى مَحَبَّتَنَا ... إنى على العهدِ حتَّى رحمةَ القَدَرِ
ودَّعْتُهَا وَدُمُوعُ العَيْنِ مانِعَتى ... عن الـكلامِ وشَوْقِى جِدُّ مُسْتَعِرِ
قالت ودرُّ اللآلى فوق وَجْنَتِهَا ... جَفَّتْ دُمُوعِى فلاَ تَعْزِمْ على السَّفَرِ

(١) فرقد : نجم عال فى السماء .

مالى سواكَ حبيبٌ قد تملكني ... غرامُه فى دمى يجرى مِنَ الصِّغَرِ
فكنْ على البُعْدِ رَمْزاً للوفاء عَسَى ... يُقَرِّبُ الله جَمْعَ الشَّمل واصْطَبِرِ
دَقَّاتِ قلبى الهُوَيْنَا كى أُشاطِرَهَا ... مُرَّ الْوَدَاعِ ويَاطَيْفِ النَّوَى اسْتَتِرِ (١)
رَنَتْ إِلَىَّ وَوَرْدُ الخدِّ أَمْطَرَهُ ... سَيْلُ المَدامِعِ وانسابَتْ عَلَى الأَثَرِ
وخلَّفَتنى عليلاً أستغيث بِهَا ... من نار قلبى ودمع العَيْنِ والسَّهَرِ
حَتَّى غَدَوْتُ خيالا لا يُفارِقُنى ... طيفُ الحبيبةِ حتى ينْجَلِى قَمَرِي

(١) فى البيت يخاطب دقات قلبه ويقول لها : مهلا .

عنها

فَتَنَتْ عُيونَ الناظرين بِحُسْنِهَا ... سُبْحَانَ من خَلَقَ الجمالَ وَصَوَّرَا
هيفاء زَيَّنَ خَدَّهَا وَرْدُ الصِّبَى ... فتمايلتْ غصناً رطيباً ناضِرَا
حسناء طاهرةٌ كزهرةِ رَوْضَةٍ ... عذراءَ ذابَتْ دونَهَا مُهَجُ الوَرَى
مَرَّ النسيمُ بها فَحَيَّا بَاسِمًا ... وَجَرَى فَحَفَّ بِفَرْعِها فَتَعَطَّرَا
بيضاء يُحْدِقُ شَعْرُهَا بِجَبينِهَا ... فَتُرِيكَ فى الظلماء بَدْراً مُسْفِرَا
ترنو لواحظهـا فتلعبُ بالنُّهَى ... لَعِباً تُبَاعُ به القلوبُ وتُشْتَرَى
عصماء كلُّ جميلةٍ أضْحَتْ لهـا ... أَمَةً تَرَى من سَعْدِهَا أن تُؤْمَرَا (١)
نَظَرَتْ إلى العلياءِ منهـا مُقْلَةٌ ... أَهْدَتْ إلى هاتورَ لَحْظاً ساحرا (٢)
وعَلَتْ على عَرْشِ الجمال وَأَرسلتْ ... شَرَكَ الغَرَامِ وأَبْعَدَتْ طيفَ الكَرَى
والشَّمْسُ باسمةٌ تُوَدِّعُهَا مَتَى ... غَابَتْ وتلقاها إِذَا الصُّبْحُ انْبَرَى
رَسَمَتْ بِوَجْهِ البَدْرِ صورةَ وَجْهِهَا ... وكَأَنَّ حُسْنَ البَدْرِ فيهـا صُوِّرَا
نَظَرَتْ إِلَيَّ فَخِلْت كِسْرَى بَاسِمًا ... فَوْقَ الجبينِ يصافح الإسكندرا (٣)
فَوَقَفْتُ مُرْتَجِفَ الجوانحِ حائراً ... فيما أرى وكَأَنَّ حُلْمـاً ماأَرَى
حتى رَمَتْ قلبى سهام لحاظِهـا ... فأَصابَهُ ما كان قَبْلُ مُقَدَّرَا
دَخَلَ الهوَى قلباً بريئاً لم يَـكُنْ ... يَدْرِي الهوَى حتى انكَوَى وَتَسَعَّرَا
أَجْرَى الغرامُ مَدَامِعِي وسطا عَلَى ... جِسْمِي وَعَـلَّمَ مقلتى أن تَسْهَرَا
يحلو المَنَامُ لناظرِى فَـيَرُدُّهُ ... من تملكنى خيال قد سرى
حتى إذا ما السُّقْمُ أتلفَ مُهْجَتى ... وغَدَوْتُ طيفاً هائماً مُتَحَيِّرَا
أيقنتُ حَقًّا أَنَّ سلطانَ الهوَى ... فى حُكْمِهِ دَوْماً ظلوماً جائِرَا
لا بدَّ أَنْ يجرِى القضاء بِحُكْمِهِ ... وعلى المُعَذَّبِ بالهوَى أن يَصْبِرَا

---

(١) أمة : عبدة . (٢) هاتور : من آلهة قدماء المصريين .
(٣) كسرى والإسكندر : كناية عن الفرس والروم وكان العداء بينهما شديداً .

متى يكون التدانى ؟

لَسْتُ أَدْرِى ما حيلتى يا زمانى   ضاع نَوْمِى وشَاغَلَتْنِى الْأَمانى
كان قَلْبِى من الصَّبَابَةِ خِلْواً   وَعُيونى قريرةَ الأَجْفَــانِ
كان زَهْرُ الرُّبا وَصَفْوُ الليالِى   وَالنَّسِيمُ العليــلُ هُمْ نُدْمَانِى
كم تَشبَّبْتُ والغزَالةُ تَكْسُو   سُنْدُسَ الأرضِ حلةَ الأُرْجُوَانِ
شَفَقٌ يفْتِن الشقائقَ فى الرَّوْ   ضِ وَيَسْبِى قلوبَ حُورِ الجِنانِ
لَوْنُه يملأُ العيونَ جمــالاً   كَنُضَارٍ مُنَضَّدٍ بالْجُمَانِ
راحةُ العَيْشِ لا تدومُ وَتَأْبَى   سُنَّةُ الدَّهْرِ صافياتِ الزَّمانِ
نظرةٌ أطفأتْ سراجَ نعيمى   وَهَنَائِى وَسَبَّبَتْ أحــزانى
لستُ أنسَى سلطانَها فى عُيونى   وانقيادِى لسحرِهــا الفتَّانِ
وسِهامَ الهوَى التى صَوَّبَتْهَا   لفؤادِى وزفرةَ النِّــيران
أصبحَ القلبُ فى عذابٍ وَوَجْدٍ   وَأنينٍ وَلوعةٍ وهَــوَانِ
كم تَحَجَّبْتُ عن عيون العذارى   وتشاغلتُ عن جمالِ الحسانِ
غيرَ أنَّ القضــاء طَيَّرَ قلبى   فى شِراكِ الهوَى وَدَلِّ الغوانى
فَألِفتُ السُّهادَ من حَرِّ وجْدِى   ودموعى قد قرَّحَتْ أجفــانى
ينقضى الليلُ فى سكونٍ رهيبٍ   والليــالِى مثيرةُ الأشجانِ
طائرَ اللُّبِّ سابحاً فى خيــالٍ   شرَّدَتْهُ لواعجُ الوَلْهَــانِ
يا جمــالا سلبتَ عقلى وقلبى   كادَ قلبِى يذوبُ ممــا أُعانِى
يا رجائى من الوجودِ وقَصْدِى   ونعيمى مَتَى يكونُ التدانى ؟

رفقا بحالى

يا سقيمَ الجفونِ أشغلتَ بالي ليتَ شِعْرى متى تعودُ الليالى ؟
يا مهاةً تكاملَ الحسْنُ فيها فتبارت لها قلوبُ الرِّجالِ
لكِ لَحْظٌ حُرَّاسُهُ ساهِراتٌ راميـاتٌ عُشَّاقها بالنِّبالِ
كلُّ مَنْ نالَ من لِحاظكِ سَهْماً باتَ يشكو صريعَ هذا الدَّلالِ
يا جمالاً وَهَبْتُهُ كلَّ قلبي أنا عبدٌ لِفَرْطِ هذا الجمالِ
وَجْهكِ البدْرُ قد تَساطَعَ حُسْناً حَولَ أنوارِه تميلُ الدَّوالِي
نَرْجِسُ الْعَيْنِ فَوْقَ وَرْدِ خُدُودٍ وعقيقٌ مُرَصَّعٌ باللآلي
لا أزالُ الوَفِيَّ فى عَهْدِ حُبِّي فاذْكُرِى إذْ ملأتِ كأسَ الدَّوالِي
هذه مهجتى تذوبُ غراماً يا طبيبَ القلوبِ رفقاً بحالى !

أغنية حب

تَسِيلُ على خدِّى دموعى كأنَّها سحابٌ على وادٍ من النَّارِ يُمْطِرُ
سميرُ غرامى وَلَّدَ النارَ فى دَمِى وأَوْدَعَنِى ما كُنْتُ أَخْشَى وَأَحْذَرُ
دعتنى إلى قاسى هواكِ ابتسامةٌ يهون لديهَا كلُّ صعْبٍ وَ يَصْغرُ
جمالٌ كُنُوزُ الأَرْضِ لَوْ قُدِّرَتْ بهِ لَزَادَ عَلَيْهَا قيمةً حين يَظْهَرُ
جَفَا النَّوْمُ جفنى حين أَسْلَمْتُ مُهْجَتِى
وقلبى لِمَنْ فى غَيْرِهَا لا أُفَكِّرُ
أبيتُ حزيناً ساهرَ الجَفْنِ حائراً أخافُ إذا طال النَّوَى كيف أصبرُ
يزيد غرامى لوعةً كلَّ ليـــلةٍ ويشتدُ كَرْبى وَالجَوَى حين أسْهَرُ
تطول الليالى كلما طال هَجْرُهَا ومها انسَلَى جِسْمِى فلا أَتَغَيَّرُ
أنا المُغْرَمُ المُضْنَى المعذَّبُ فى الهوَى جريحُ سِهَامٍ وَالِهُ القَلْبِ حائرُ
ساصبرُ لا أشكو إليكِ صبَابَتِى ويفعل ربِّى مايشاء وَ يأْمُرُ

حقيقة الحب

اِرْحَمْ فؤادى فالعذابُ حرامُ ... واصْبِرْ عَسَى تصفو لكَ الأيّامُ
قالت وقد رَفَعَتْ سُيُوفَ جُفُونِهَا ... منى على عَهْدِ الغرَام سلامُ
لا تحسبَنَّ الُحبَّ أمْرًا هَيِّنًا ... فَهْوَ الذى خَضَعَتْ له الأعلامُ
وسأستزيدُكَ أنَّ فى معنى الهوَى ... سِرًّا تَضِيقُ لِفَهْمِهِ الأحلامُ
فَهْوَ البيانُ لِمَنْ أَرَادَ فَصَاحَةً ... ولمن يخاطرُ فى الدُّجى الإقْدَامُ
وَهْوَ اللسانُ لِمَنْ تعذّر نطقهُ ... ولمن تأَهَّبَ للدفاعِ حُسَامُ
وهو البسالةُ والطهارةُ والنَّدَى ... وهو الأسى والكَرْبُ والآلامُ
ويُعَلِّمُ العَيْنَ الكلامَ وَنِعْمَهَا ... لغةً يُفَضِّلُ فَهْمَهَا مَنْ هامُوا(١)
وَيهيمُ بالنفسِ البريئةِ سابحًا ... فى عالَمٍ أحلامُهُ الأوهامُ
وهْوَ الذى شَغَلَ العواذلَ أمْرُهُ ... وإذا تمكَّنَ حارتِ الأفْهامُ

---

(١) قوله « نعمها » يريد : نعم ماهى . . وفى القرآن الكريم (إن الله نعما يعظكم به) :

الضاحك الباكي

ولمَّا التقينا والعواذلُ والنَّوى ... تباعدْنَ عنَّا كنت أبكي وتضحكُ
فلم أرَ روضًا ضاحكا مثلَ وجهِها ... ولم ترَ مِثْلِي ميِّتاً يتحركُ
بنفسيَ من ملَكتْ زمامَ صبابتي ... ولاح لها في رفعة النجم مسلك
كعابٌ لها في دولةِ الحُسْنِ نظرةٌ ... بمهجة أبطال الضياغم تفتكُ
قوامٌ حوَى كلَّ الجمالِ وطلعةٌ ... إذا ما تبدَّتْ حُسْنُها يتملكُ
أسائلها : هلْ تضحكين ومدْمعي ... يسيلُ دماً من لوعةِ الوجدِ يسْفكُ ؟
فقالت وقد مالت بها نشوةُ الصِّبى ... : خشيتُ إذا جادت عيوني تهلكُ
فأحببت أن يُهدِي ابتسامي تحيةً ... ليهدأَ قلبٌ عاشقٌ متوعِّكُ
وفضلتُ أن ألقاكِ بالطَّلْعةِ التي ... بها كلُّ قلبٍ مُغْرَمٍ يتبارك
فقلتُ : تعالَيْ نسْترِقْ خُلْوةَ الهوى ... على غفلةٍ من عاذلٍ يتشكَّكُ
وقُمْنا وقامَ الطُّهْرُ يحْرُسُ ذَيْلَنا ... من الرِّجْسِ حاشانا نميل ونُشْركُ
هي العفَّةُ العصماء بيني وبينها ... وما عاشقٌ مَنْ ليس للنَّفْسِ يَمْلِكُ

تغـــريدة

يامن سطا سيفها الماضي على كبدي ... مامن خلاقي أن أشكو إلى أحد[1]
أعارك السحر ما أوليه من رهب ... وضمك الحسن ضم الروح للجسد
يادرة سحرت عيني بمحاسنهـــا ... وضاع من ولهي في حبها رشدي
أتذكرين الليالي السالفات لنا ... وليلة لست أنساها إلى الأبد؟
مرت كطيف منام كم صبوت إلى ... دوامه غير أن الدهر لم يرد
شربت فيها كؤوس الحب صافية ... ونلت غاية آمالي يداً بيد
فذاك وجهك هنتني محاسنه ... وحلو ثغرك عني غير مبتعد
ملأت عيني بالحسن البديع وقد ... أسلمت لله أمري في مصير غدي
خلوت رغم العيون الراصدات لنا ... وبت لاعذلا أخشاه من أحد
تهم نفسي فيما فيـــه لذتها ... لا شك فيه رضاء الواحد الصمد
طهارة الحب تسمو بالنفوس إلى ... عوالم الروح بين الشمس والأسد[2]
أهدى الجمال إلى عينيك بهجته ... وأودع الجفن ماأوهى به جلدي
وزاد حسنك نور البدر حين بدا ... فأشعل النار في قلبي وفي كبدي!
تبسم الورد في خديك فانتعشت ... أزاهر الروض في أثوابها الجدد
وكان طيف المنى بالبشر مبتسماً ... ترنو إليه نجوم الليل من صعد
تناثر الدر واجتازت غواليـــه ... حصن العقيقين عن صفين من برد
دارت أحاديث شوقي بيننا فسرت ... كأنها نغمات الطائر الغرد
سحر تملك قلبي فانشغلت به ... عن ألسن العذل أو عن أعين الحسد
سر سرى في دمائي فانصرفت به ... عن عالم الأرض أو عن مطمع الجسد!

---

(١) الصواب « أخلاقي » واستعمال خلاق بمعنى أخلاق خطأ .
(٢) والشمس والأسد برجان فلكيان .

عيناكِ قد كاشَفَتْ قلبي بِغايَتِها ... ووِرْدُكِ العذبُ لم يَبْخَلْ بِرِيِّ صدَى
ناجَيْتُ حتَّى لمحتُ اللَّحْظَ حَنَّ إلى ... نجواىَ فيه حنينَ الحُلْمِ والرَّشَدِ
نَجْوَى يُسَعِّرُهَا مابيننا غَزَلٌ ... ولو أرَدْنَا سِوَى هَذَيْنِ لم نَجِدِ
ما كنتُ أعلمُ أنَّ الحبَّ يفْتِكُ بي ... مابين مُنْسَجِمٍ مِنِّي ومُتَّقِدِ
حنينُ قَلْبِكِ للشَّكْوَى أباح دَمِي ... ورَوْعَةُ المَوْتِ أدْنَى مِنْ فمٍ لِيَدِ
يشكو الفؤادُ على آثارها لَهَفًا ... حتَّى يناديه صوتٌ : قِفْ ولا تَزِدِ!
يقول للقلب : إنَّ الحبَّ أَشْرَفُهُ ... ما جرَّدَ النَّفْسَ من طُهرٍ عن الرَّغَدِ
صَوْتٌ هو الطُّهْرُ في نورِ العفافِ بَدَا ... والطُّهْرُ خَيْرُ صفاتِ النَّفْسِ والجَسَدِ
سلامَةُ النَّفْسِ من رجسٍ يُدَنِّسُها ... كنزٌ يدوم لمن وفَّى إلى الأبَدِ
واللَّهْوُ كالشَّهْدِ حلوٌ في مَذَاقَتِهِ ... وأيُّ سُمٍّ ثَوَى في ذلكَ الشَّهَدِ
أَرَى بوجهِكِ بَدْرًا جَلَّ صانِعُهُ ... لو حَلَّ بالأُفْقِ لَمْ يُظْلِمْ عَلَى أحَدِ!
أقْصَيْتُ نفسيَ عن وِرْدٍ ظمئتُ بِهِ ... حيناً وكم حاربَتْنِي النَّفْسُ من كَمَدِ
وإنْ نأيْتُ بجسْمِي عن جنابِكِ فَقَدْ ... تركتُ عندكِ قَلْباً غيرَ مُبْتَعِدِ
وَشَتْ دموعِي بِحُبٍّ كنتُ أكْتُمُهُ ... وكلَّمَا رُمْتُ إخفاء الهوَى تَزِد
ماأعْجَبَ الحبَّ يدعوني إلى تَلَفِي ... فأرتضِي لوعةً قد مزَّقَتْ كَبِدِي
يارَبَّةَ الحُسْنِ كوني لِلْوَفَا مَثَلاً ... فالحبُّ آمالهُ دَوْماً لقاءُ غدِ!

دلال

لقد هاجنى وَجْدٌ بمن زارها بُعْدُ ... فياليتنى بعدٌ وياليتها وَجْدُ(١)
وَهبْتُ الهوى قلبى البرىء ولم أكُنْ ... أُفكرُ أنّ القلب يُحْرِقُهُ الصدُّ
وأوْدَعْته من خالفَتْ شِرْعَةَ الهوى ... وطَبْعُ الغوانِى لايدومُ لها عَهْدُ
مُحالٌ تُوَفّى عهْدَها وتصونُه ... ولو خَبَّأَتْهُ بين أنيابها الأُسْدُ
تزول الجبالُ الراسياتُ لمكرِها ... وكم ذابَ من إغرائها الحجرُ الصَّلْدُ
فإنْ حقَدَتْ لم يَبْقَ فى قلبها رِضاً ... وإنْ رَضِيَتْ لم يُقْصَ عن قلبها الحقْدُ
وإن عَشِقَتْ كانت أشَدَّ صبابةً ... من الوَالِهِ الساعِى إلى حَتْفِهِ السُّهْدُ
كذلك أخلاقُ القيانِ فلا تَكُنْ ... صَرِيعَ الغوانِى فالمنيَّةُ والكَيْدُ
لقد فتَنَتْ لُبِّى وقلبى وناظرى ... مهاةٌ سبانِى فى محاسنِها القَدُّ
إذَا خطَرَتْ فى الرَّوْضِ أيْنَعَ زهرُهُ ... وإن لَعِبَتْ فى الماءِ خالَطه الشَّهْدُ
وإن بسمتْ رَقَّ النسيمُ ونَوَّرَتْ ... ثغورُ زهورِ الرَّوْضِ وَابْتَسَمَ الوردُ
وإنْ عَبَسَتْ أجْرَى السَّحابُ دموعَه ... وزاد وميضُ البرقِ واشتبكَ الرَّعْدُ
شَكَوْتُ لها حبِّى ومُرَّ صبابتى ... فتاهت بعينيها وقد خَجِلَ الخدُّ
فعاهدتُها أنِّى أدُومُ على الوَفَا ... إذا هِىَ وفَّتْ ثم طابَ لها العَهْدُ
وقد تَمَّ عهدُ الحبِّ بينى وبينها ... وسَرعان ماجارَتْ وغيَّرها البُعْدُ
على أنَّ حُبًّا أشْغَلَ القلبَ فى الصِّبى ... يزيد على مَرِّ الزمانِ ويَشْتَدُّ(٢)
ألا قاتل اللهُ الغرامَ فإنه ... عذابٌ، كؤوسُ الموتِ فى فَمِهِ شَهْدُ
بَعُدْتُ عن الغِيدِ الغوانِى تعففاً ... لذلك قامت بالتهانى لِىَ الأُسْدُ

(١) أشرنا إلى هذا البيت فى المقدمة كمثل لتأثر الشاعر بقراءاته للمتنبى وغيره. ولا يخفى على القارىء فى هذا الباب كثير من أمثال ذلك.

(٢) البيت للمتنبى بلفظ «خامر القلب».

بالله رفقاً

يا أُخْتَ أقمــارِ السماءِ محاسِناً ... وشقيقةَ البدرِ المنيرِ ســلامُ
يا دُرَّةً عَشِقَ الزمانُ جمالَها ... جادَتْ على الدنيا بِكِ الأيامُ
عيناكِ ساحرةُ الجفونِ تَسَلَّطَتْ ... منها على مُهَجِ الرِّجالِ سِهامُ
إن تمنعى نَبْلَ الجفونِ فقد سَطَا ... من حاجِبَيْكِ على القلوبِ حُسَامُ
كم من قلوبٍ قد ملـكتِ قِيادَهَا ... عَقَدَتْ عهودَ غرامِهَا الأوهامُ
يا نظرةً تركتْ بقلبى جمــرةً ... منهـا تأَجَّجَ فى الفؤادِ غرامُ
هذا غرامُكِ قد تَسَعَّرَ وَجْدُهُ ... فى مُهْجَةٍ فتـكتْ بها الآلامُ
كم كابَدَتْ كبدى لِبُعْدِكِ لَوْعَةً ... وَجَفَا جفونى فى هَوَاكِ مَنَامُ
باللهِ رِفْقاً أُخْتَ أقمــارِ السما ... تعذيبُ قلبى فى هَوَاكِ حرامُ

كيف أصنع ؟

بَدَا لِيَ بَرْقٌ من ثَنَايَاكِ يلمعُ أَسَالَ غُيوثًا من جفونيَ تَهْمَعُ
فأصبح قلبي فوق جمرٍ من الهوَى
وَعَيْنَايَ في رَوْضٍ مِنَ الحُسْنِ تَرْتَعُ
مَضَتْ ليلةٌ لم يَشْهَدِ الدهرُ صَفْوَهَا بأمثالها لم يَحْظَ كِسرى وتُبَّعُ
ودارتْ كؤوسُ الحبِّ بيني وبينَها وما عاشِقٌ مَنْ لايذلُّ ويَخْضَعُ
تقول وقد فاضت بنا نشوة الهوى غرامُك حَيٌّ ليس فيه تَصَنُّعُ
أَتَيْتُكِ لم أَحْفِلْ بِلَوْمِ عَواذلي وَجِئْتُكِ أشكو ما أُلاَقي وَأَجْزَعُ
تَذَكَّرْ عهودي واحترِمْ شِرْعَةَ الهوَى
وكم من فؤادٍ شَفَّهُ الحبُّ يُخْدَعُ
فهذي يميني تُوثِقُ العهدَ بيننا وهذا فؤادي من فؤادكِ يَسْمَعُ
فقلتُ لها والدمعُ مِلْءُ محاجري وقلبيَ من وَجْدِ الجوَى يَتَقَطَّعُ
رضعتُ لبانَ الحبِّ منذ طفولتي فصار دَمِي يجري بما كنتُ أرضعُ !
سَرَى الحبُّ يُزْجِي في دمائي حرارةً
يُسَعِّرُهَا هجــرٌ طويلٌ مُرَوِّعُ
ولولا النَّوَى ما حَالَفَ السُّهْدُ نَاظِرِي
وما قَرَّحَ الجفنَ المُعذَّبَ مَدْمَعُ
تمرُّ الليالي ليلةً بعد ليــلةٍ يطارد عني النَّوْمَ كَرْبِي ويمنعُ
يُسَاهِرُ جَفْني النَّجْمَ حتى إذا بدا جبينُ الضُّحَى من نوره أتَشَجَّعُ
كساني عذابُ البُعْدِ ثوبًا من الضَّنَى له كلُّ قلبٍ وَالِهٍ يتقطَّعُ
طِوَالُ الليالي مكَّنَتْ عِلَّةَ الهوَى بقلبي فأَمْسِي حائرًا يَتَفزَّعُ
كفاني عذابًا ما أُعاني من الأَسَى ومالي سِوَى سُقْمي ودمعي مُشفعُ

فجسميَ مما شفَّهُ كادَ يختفي   نُحولاً ونفسي أوشكَتْ تتَشعَّعُ
ولو لم يكن صوتي لأنكرتُ أنني   إذا ما التقينا واقفٌ أتوَجَّعُ [1]
فديتكِ مهما قد نأى عنكِ ناظري   فَطَيْفُكِ حولي ماخَلاَ منه موضعُ
وكم وَشتِ العُذّالُ بيني وبينَها   فقلتُ دعوني إنني لستُ أسْمَعُ
أنا العاشقُ المُضْنَى المُقيمُ على الهوى   فلا تطلبوا ما لا يُفيدُ وينفَعُ
عقدت يميني بالوفاء وها أنا   غَدَوْتُ خيالاً ياهوى كيف أصنعُ ؟

(١) في هذا البيت والذى قبله إشارة إلى قول المتنبي :
كفى بجسمي نحولا أنني رجل   لولا مخاطبتي إياك لم ترني !

فاتنتى ارحمى

بالسيفِ أقسم لحظُهــا لما تأهَّبَ للقتــالْ
لابُدَّ مِنْ حَرْبِ الهوَى بينى وأفئـــدة الرجالْ
لَمَعَتْ سِهــامُ جُفونِهَا لمَّا تحركت النبــالْ
وانقضَّ فاتِكُ سيفِهــا كالليْثِ يقتحم الرعالْ
يسطو على مُهَجٍ لهــا ببريقِ لمعتِهِ اتّصــالْ
بِدَمِ القــلوبِ تخَضَّبَتْ يا سيفُ متنك والنصالْ
طعنات حدِّك أخضعتْ أقْسَى القلوبِ إلى الدلالْ
لك صولةٌ قد حَكَّمَتْ فى مهجةِ الأسَدِ الغزَالْ
يا لحظُ . . آلامُ الهوَى لم تُبْقِ للقلبِ احتمالْ
فَتَكَ الغــرامُ بمهجتى والبُعْدُ صيَّرَنى خيــالْ
باللهِ فاتِنَتِى ارْحَمــى صَبًّا تَمَلَّكَهُ الجمــالْ
السُّهْدُ لازَمَ جَفْنَـــهُ والوَجْدُ زادَ بِهِ اشتعالْ

إلى رقيب!

هباءً ضاع كيدُك يا رقيبي فَحُسْنُ الحظِّ أصبح من نصيبي!
تناصبني العداء بغير ذَنْبٍ وتظلمني بإلصاقِ العيُوبِ
ولما لَمْ تَنَلْ بالبَغْيِ مِنِّي مرادَك صِرْتَ في أقسى الكروبِ
أراد اللهُ أن ينجابَ كَرْبي لأنَّ اللهَ علَّامُ الغيوبِ
عِلمتَ بأنَّ حُبِّيَ حبُّ طُهْرٍ بعيدُ الشَّكِّ عن كلِّ الذُّنوبِ
فخالفتَ الضميرَ بسوءِ قَصْدٍ وَفَوْقَاكَ حَلَّقَتْ عينُ الرقيبِ
فَخَفِّفْ ما استطعتَ أذاك عنِّي وحاذِرْ وقفةَ اليومِ الرَّهيبِ
سَتُسأل في غَدٍ عن كلِّ هذا تجيبُ عليه في وقتٍ عصيبِ
فَدَعْ عنك الوشايةَ وَاجْتَنِبْهَا فإنَّ اللهَ سَتَّارُ العيُوبِ
تَوَعَّدتَ الحبيبةَ بانتقامٍ وظلماً قد حَمَّلْتَ على الحبيبِ
فأرصدتَ العيونَ بكلِّ فَخٍّ مزودةً بألسِنَةِ الخُطوبَ
ولما لم تَنَلْ ما كنتَ تبغي عمدت إلى مُناوأةِ الكَذُوبِ
فلفقت الأكاذيبَ اختلاقاً وما فكرتَ في بَطْشِ الحسيبِ
وكم حاولت فِتْنَتَنَا خِداعاً ولم تكُ بالمهذَّبِ واللبيبِ
وخانَتْكَ المكائدُ ساخراتٍ وقادت مُقْلَتَيْكَ إلى النحيبِ
فَمُتْ كَمَداً لأنَّكَ شَرُّ باغٍ وأنَّ البَغْيَ يغلب في الحروبِ
خلوتُ مع الحبيبةِ في صفاءٍ وقد غفلت عيونُكَ يا رقيبي
ودارتْ بيننا زفراتُ وَجْدٍ تُسعِّرُها مناجاةُ الحبيبِ
وقد نَقَلَ الغرامُ لنا حديثاً أَرَقَّ من النسائمِ للقلوبِ
قلوبُ العاشقين لها حنانٌ يدومُ من الشبابِ إلى المشيب
يَلَذُّ لها العذابُ وكلُّ صَعْبٍ تُقَدِّمُهُ إلى صَدْرٍ رحيبِ
وودَّعَني الحبيبُ ونارُ قلبي وَدَمْعُ العينِ في وَجْدٍ رهيبِ
فياليتَ الزمانَ يمنُّ يوماً بجَمْعِ الشَّمْلِ في وقتٍ قريبِ

أنت بدر

أنتِ بين الغيدِ بَدْرٌ قد حَوَى كلَّ الجمالْ
لكِ فى عينيك سِحْرُ يجعلُ الدنيا خيالْ

* * *

يا جفونًا قَلَّدَتْهَا قوةُ السِّحْرِ السِّهَامْ
وَلِحَاظًا أَوْدَعَتْهَا آيةُ الحُسْنِ الغرامْ

* * *

يا مَهَاتى إنَّ قلبى ذَابَ من طولِ البعاد
قد كَوَتْهُ نَارُ حُبِّى فاختفى طيفُ الرقادْ

* * *

كلُّ شَيْء يا ملاكى ما خَلاَ حُبِّى يَهُونْ
إن حظى من هواكِ كيفما شئتِ يكونْ

* * *

إنْ عَفَوْتِ عن غرامى فَارَقَتْ جِسمى السقامْ
أو تَعَمَّدْتِ مَلامى فعَلَى الدنيا السلامْ

ياليـــل

مَـكَّنْتِ من قلبي الهوى   ووقعتُ في أَسْرِ العيونْ
بالنارِ يكويني الجوى   بالنَّبْلِ ترميني الجفونْ

* * *

ياليلُ فيـك توَجُّعِي   سُهْدِي تحيط به الهمومْ
ياليلُ دَامِي أَدْمُعِي   تَرْثي لحـالتِهِ النجومْ

* * *

يَا مَنْ تمَـلَّكَ حُسْنُهَا   قلبي فأَوْدَعَهُ الغـرامْ
وسطت مواضي لَحْظِهَا   عمـــداً فأبعدتِ المنامْ

* * *

جسمي سَرَى فيه الهوى   والسقم صَيَّرَني خيـالْ
لا تمنعي عني الدوا   يا من تبناها الجمالْ

دمعي يخفف كربي

إنْ تنكري سُوءَ حالي | أو تجهلي ما جرَى لي
سَلِي طِوَالَ الليالي | ما للسُّهاد ومالي
شَبَّ الغرامُ بقلبي | وَالوَجْدُ فوق احتمالي
حاولت كتمانَ حُبِّي | فأعْلَنَ الدَّمْعُ حالي
يا ليلُ إن سقامِي | لم تُبْقِ غيرَ خيالي
ما حيلتي في هُيامِي | يا سهدُ أخشى ملالي
يا لَيلُ فيك نحيبي | وَمَدْمَعِي واشتغالي
يا ليلُ أيْنَ طبيبي | يُعِدُّ كأسَ الدوالي
دمعي يخفِّفُ كَرْبِي | يا جفنُ جُدْ بالبكا لي
كم عَذَّبَ الحبُّ قلبي | وَأَشْغَلَ البُعْدُ بالي
سهدي ووجدي وحزني | وما أُعد الهوَى لي
لا شَكَ تَذْهَبُ عنِّي | إذا رضاك بَدَا لِي

تمنيت شهدك

لو كنت تذكر عهدك ما خفتُ والله صدَّك
يا من لك الحسن وحدك لا خيرَ فى العيشِ بعدك
تعجَّبَ الوردُ لمَّا كشفت فى الروض خدَّك
والحسن تاه دلالا وأكبر الغُصْنُ قدَّك
يا جفنُ شاكى سلاحى أعــدَّ للحرب جندكْ
أشكو إليك جراحى فالقلبُ أصبح عبْدَكْ
لو كنت تدرى سهادى أو ذاق جفنُك سهدَكْ
ما كان مُرُّك زادى وقد تمنيت شهدَكْ
يا حبُّ عذَّبتَ قلبى بالنارِ أضْرَمْتَ وجدَكْ
لم أذر ما هو ذنبى كأننى كنتُ قَصْدَكْ
رُحماكَ إن فؤادى ما زال يذكُرُ عَهْدَكْ
رضاك كلُّ مرادى فَوَفِّ للصبِّ وعدَكْ

لقاء على كأس

إليكِ أمُّ التداوى وأبنـةَ العنبِ ... فالكأسُ من فِضَّةٍ والرّاحُ من ذَهَبِ
قالتْ وقد أسفرتْ عن طلعةٍ سَحَرَتْ ... عيني فتاهتْ بها من شِدَّةِ العَجَبِ
وَصَيَّرَ الراحُ خَدَّيْهَا موردةً ... والخمرُ تُذْهِبُ ما فى النَّفْسِ مِنْ رِيَبِ
تَبَسَّمَتْ وَدَنَتْ والكأسُ فى يدها ... تهتز أعطافُها من نَشْوَةِ الطَّرَبِ
تُقَدِّمُ الكأسَ باليُمْنَى مدلهةً ... وتمنعُ القلبَ باليُسْرَى عن الهرَبِ
هـذا الدواء الذى رَدَّ اللقاءَ لنا ... أَسْرِعْ لَقَدْ آن وقتُ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ
وصوَّبَتْ سهمَ عَيْنَيْهَا إِلَى كَبِدِى ... وأطلقَتْهُ بِلاَ ذَنْبٍ ولا سببِ
فقامت الحربُ من عينى لِوَجْنَتِها ... ومِن فؤادى لتلك الأعين النُّجُبِ
كافحتُ حتى بَدَا لِى الضَّعْفُ وَانهزَمَتْ ... قُوَاىَ مما تولّى القلبَ مِنْ وَصَبِ
وَقَعْتُ فى أسْرِهَا دامِى الجراحِ ولم ... تَرْأَفْ بِقَلْبٍ بنار الوَجْدِ ملتهبِ
ظَنَّتْ بأنَّ فؤادِى لم يكن دَنِفاً ... وأنَّ دَمْعَ جفونى غَيْرُ مُنْسَكِبِ
لو لاحظت أدْمُعِى تَجْرِى دَماً لَبَكَتْ ... فكيف لو نَظَرَتْ قلبى عَلَى اللَّهَبِ
بَيْنَا لواعجُ هـذا الحب تَفْعَلُ فى ... حَشَاىَ فِعْلَ دبيبِ النار بالحطبِ
كانت أناملُ يُسْرَاهَا بَدَتْ عَنَماً ... تَجُوسُ صَدْرًا تَبَدَّى آية العجب
تداعب الدُّرَّ والياقوتَ لاهيـةً ... قد شاغلتها اللآلى فَهْىَ فى لَعِبِ
والكأسُ ما زالت اليُمْنَى تُقَدِّمُهَا ... وقد تَفَاخَرَ فيها الحُسْنُ بالنَّسَبِ
لما تباطَأَ ثغرى عَن تناوُلِهَا ... لما دَهَى القلبَ والعينين من كُرَبِ
أحسَّ قلبُ التى أهوى بمشغلتى ... ووسوس الظنُّ أن الكأسَ لم تَطِبِ
فحاولتْ أن تَرُدَّ الكأس مُسْرِعَةً ... لكننى لم أُمَكِّنْهَا من الطَّلَبِ
فانقضَّ كَفِّى على أعنامها رَغَباً ... والنسر ضَمَّ جناحيه من الرَّهِبِ

يا غادةً فتكَتْ بالقلبِ نظرتها ... كيف اصطباري وقد صرنا على كَثَبِ
أتجهلين بأنَّ الخمرَ معْصِيةٌ ... وكم تَمِعْنَا بها فى مجلس الطَّرَبِ
تَرُوحُ باللُّبِّ حتَّى ربمَا ارتكبتْ ... حساتُها ماهوى بالطهر والأدبِ
قالت وَوَرْدُ الحيا قد زان وجنتها ... إن الشَّرابَ يواسِي قلبَ مكتئب
ألا ترى أنها للرُّوحِ منعشةٌ ... تَرُدُّ طيفَ الأسَى عن فِكْرِ مضطربِ
بعزمِها اجتزتُ تيارَ الغرامِ ولم ... أحفلْ بوقْعِ سهامِ الظَّنِّ والرِّيَبِ
تمكن السُّهْدُ مِنْ عينِي فأرقَّها ... وقد تعدى على قلبي فواحَرَبي
فقادنِي وَجْدُ قلبي غيرَ واجفةٍ ... إلى اقتفاء خيالٍ جَدَّ فى طلبِي
شاغلتُها ورفعتُ الكأسَ من يدِها ... صفراءَ رَصَّعَهَا عِقْدٌ من الحَبَبِ
لم أستطع كَتْمَ مابالقلبِ من شَجَنٍ ... فإنْ غدَا خافقاً لابُدَّ مِنْ سببِ
حبيبةَ القلبِ جددتِ الحياةَ إلى ... مَنْ كادَ هَجْرُكِ يدنيه من العطَبِ
هذا غرامى يذكى النارَ فى جسدى ... والنومُ عن مُقْلَتِي قد جَدَّ فى الهرَبِ
صبرت حيناً على وَجْدٍ كلِفْتُ به ... وأنتِ مَشْغولةٌ باللَّهْوِ واللَّعِبِ
حتى قضَى اللهُ أنْ أحظَى بِقُرْبِكِ يا ... مليكةَ الحُسْنِ عن أمٍّ لها وأبِ
أنتِ التى ملَكْت قلبى بِعِفَّتِها ... فإن بعدت فما فى العيش من أرب
هذا هُوَ الطُّهْرُ قد حيَّاك مُبْتسِماً ... تاجُ الطهارةِ عَزَّ اليومَ كالذَّهَبِ!
إن العفافَ جمالٌ لايزول وَقَدْ ... يغيبُ كلُّ جمالٍ وَهْو لم يَغِبِ
لاتَشْرَبى الخمْرَ بعد اليومِ فاتقى ... وعاهدِينى بأنْ نَبْقَى على كَثَبِ
يا لائمى فى هوَى ذاتِ العفافِ كَفَى ... هوِّنْ عليكَ وخفِّفْ ثورةَ الغضَبِ
وإنْ دنَا منكَ صوْتُ النُّصْحِ فاصغ له ... واعملْ لرفعةِ شأنِ الطُّهْرِ والأدَبِ

أوبريت وأناشيد مدرسية

حنين الأرواح

تاريخ السلم الموسيقى

[محاورة بين يوبال بن قابيل بن آدم عليه السلام مخترع الآلات الْوَتَرِيَّةِ والسلّم الموسيقى (قبل الطوفان) و بين الحكيم اليونانى مخترع السُّلم الموسيقى (بعد الطوفان) — هذه القطعة التاريخية خيالية ، وهى خاتمة رواية (حنين الأرواح) التى وضعها المُؤَلِّف[1] .]

أوبرا

تُحَضِّرُ رُوحَ يُوبَال أنغامٌ موسيقية مشجيةٌ من آلات وترَّية صُنِعَتْ بعدَ الطوفان .

فتدخل الرُّوح مستفسرةً عن صانع تلك الآلات وعن واضع السُّلَّم الموسيقى لاعتقادها أن الطوفان محا آثارَ هذا الفنِّ واندثرتْ آلاتُهُ .

يوبال : هَلْ يَقِينٌ ليتَ شِعْرِى ... مَا أَرَاهُ أَمْ خَيَالْ ؟
مُنْذُ كَانَ الفُلْكُ يَجْرِى ... بَيْنَ مَوْجٍ كالجِبَالْ
لم أَعُدْ يَا قَوْمُ أَدْرِى ... أَنَّ للدُّنيَا اتِّصَالْ

كانَ جِسْمِي فى أَمَانْ ... تَحْتَ أَبْرَاجِ العُلَا
لَمْ يُغَيِّرْهُ الزَّمَانْ ... لا وَلا كَفُّ الْبِلَى

إنَّ تَارِيخِي المَجِيدْ ... كانَ مِرْآةَ العَجَبْ
كنتُ من عهدٍ بعيدْ ... عاشقاً فنَّ الطَّرَبْ

---

(١) عثرنا على هذه الأوبرا منشورة فى إحدى الصحف . على أنها خاتمة للرواية المشار إليها ، دون أن نعثر على نص هذه الرواية .

العودُ والقانونْ والنّايُ الحنونْ

تلكَ آلاتُ النَّغمْ

باعِثاتٌ للشّجَنْ مُذْهِبَاتٌ للحَزَنْ

كمْ أضاعَتْ من ألَمْ

إنّهَا صُنعُ يدِي مُنذُ آلافِ السّنِينْ

يا قوْم قدْ أبعَدَ الطُّوفَانُ مَااخترَعَتْ

مَوَاهِبِي ثُم أفْنَى مَا يَدِى صَنعَتْ

فكيفَ جاءتْ إليكُمْ بعدَ مَا بَلِيَتْ

آثارُهَا فى بُطُونِ الأرْضِ وَاندَثرَتْ

منْ ذَا الذى أخْرَجَ العِلْمَ العَجيبَ لَكُمْ

وَمَنْ يدَاهُ أصُولَ الفَنِّ قد وَضعَتْ ؟

(يدخل الحكيم مبتكر السلّم الموسيقى)

الحكيم : أنَا الذى وَضعَ النّغَمْ وَأعَادَهُ بعْدَ العَدَمْ

كوّنتُهُ مِنْ سُلّمٍ بأدَقِّ تَنْسِيقٍ رُسِمْ

يوبال : كيف ابتكَرْتَ أساسَهُ وَنشَرْتَهُ بيْنَ الامَمْ ؟

الحكيم : لقَدْ رَأيْتُ خيَالًا قد جاءني في مَنَامِي

يقُولُ هَيّا فبَادِرْ إلى اسْتِمَاعِ كَلاَمِي

فى شاطىء البحرِ كنزٌ من المَوَاهبِ سَامِى

إذا حصلت عليهِ بلغتَ أقْصَى المُرَامِ

يوبال : وَهَلْ أجَبْتَ نِدَاهُ ؟

الحكيم : إليـــكَ ماقد بَدَا لِي

ساقَتْ إلَيَّ الْهَــوَادِي مِنَ الفَضَـــاءِ رَنِينَا
قد كان طَرْقًا ولـكنْ مُلِئْتُ مِنْـــهُ حَنِينَا
مشى الْهُوَيْنَا لِسَمْعِي وكان سَمْعِي أمِينَـــا
دَقَّاتُهُ قـــد أسرَّتْ إلَيَّ ســـرًّا دَفِينَا
أودعتـــه فى فـؤادى وكان كنزًا ثمينـــا

يوبال : ماذا سمعت أجبـــنى مـــلأت رأسى ظنونا ؟

الحكيم : سمعت تِنْ تِنْ أربعًا صوتًا به قلبى افتتن
دقَّاتُ مِطرقة وسِندا ن تَسَـــاوَتْ فى الزَّمن
قد مِلْتُ منهـــا طَرَبًا وضاعفت عنـدى الفِطَن
فســـاوَرَتْنِي فِـكرة والحـظ بالوقت ارتَهَنْ

يوبال : قد زِدْتَنِي شَـوْقًا إلى ما نِلْتَ من ذِكْرٍ حَسَن

الحكيم : لمـا انصرفت إلى الطَّرَب وَسَمَوْتُ فى جَوِّ الأدب
وجهت ثَاقِبَ فِـكْرَتى والنصر يرفع مَنْ غَلَب
فصنعت أعجبَ آلةٍ مِقيَاس صوتٍ للطَّرَب
ثبتُّ سَبْعَ صفـــائح فى قطعتين من الخشب
رتَّبتهـــا فى وضعهـــا ليـكون محفوظ النِّسَب
أطوالهـــا المتباينـــة لنجاحهـــا كانت سَبَب
ضبطت مقاييس النَّغَم وبذاك تَمَّ لى الأرب

يوبال : قـــد جئت حقاً بالعَجَب   وخدمت عُشـــاّقَ الطَّرَب

الحكيم : نور الهداية قد أنار طريقى   والحظ والتوفيق كان رفيقى
إنى ابتكرت من المعادن آلة   سَمَّيتُها بالسلم الموسيـــقى !

يوبال : إنى ليسعدنى النجاح وحسبها   أن تُوِّجَتْ بالفوز والتوفيقِ

الحكيم : تَمَشَّت إليها قلوب الشعوب   وما ذاك إلا بفضـــل العَجَم
لقـــد أبدع الفُرْس تصويرها   فحازت رضـــاء جميع الأُمَم
وهَذَّبها العرب من بعـــدهم   بدر المعـــانى ونور الحكم

يوبال : حديثُك أنعَشَ منى الفـــؤاد   فَزِدْنى سروراً بتلك الهِمَم

الحكيم : سَمَتْ وارتقت وعلا نجمها   وثغر التهانى لهـــا قد بسم
بما نالهـــا من يد الفاتحين   كبـــار النفوس كِرام الشِّيَم
تجلَّت على التُّرْك روح الأغانى   فأوحت إليهـــا بسرٍّ النغم
وكانت تفيض هبـــات الملوك   على النابغين جزيل النِّعَم
وقد أعجز الفنُّ فى وصفـــه   فصيح اللسانِ ، وأعيا القـلم

الموسيقى والعليل(١)

كأن الطبَّ أعياهُ اعتِلالِى ... وما أَلقاهُ من فَرْطِ الهُزالِ
فغادرَنِى أجوبُ ظلامَ يأسٍ ... وأسبح بين أمْواجِ الخيَالِ
بحثتُ عن الدواءِ فعِيلَ صَبْرِى ... وضاعف ماأُعانيـــه ملالى
سرت نحوى النسائمُ حاملاتٍ ... دواءً غيرت نجواهُ حالى
أغاريداً وأنغــاماً وشَــدْواً ... تمشت فى دمى فارتاحَ بالى
هلمُّوا أَطْرِبُوا سمعى وغنُّوا ... فمن أَلْحَانِـكمْ تصفُو الليالى

(١) وهذه قطعة من رواية «حنين الأرواح» المشار إليها ، وجدت منشورة فى الصحيفة المذكورة .

القطع الغنائية بفلم شجرة الدر

القطعة الأولى

ياطيـــــورَ الرَّوْضِ غنٍّ واملئى الدنيـــا سرورْ
وابْدُ ياحُــــلْوَ التثنِّى بين منشـــورِ الزُّهُورْ

جدِّدى صـــفوَ الليالى ياعيـــونا ساحـــراتْ
وانظمى دُرَّ الـــلآلى ياثغـــوراً باسمـــــاتْ

ياملاكَ الحبِّ ياسرَّ الحياه ياسميرَ القلبِ فى نجْوَى مُناه
أنتَ طيفُ الحظِّ ترمى بالمُني فى ظلامِ اليأْس أو نورِ النجاه

* * *

القطعة الثانية

أيُّهـــــا البلبلُ غرِّدْ فوقَ ميَّاسِ الغُصُونْ
أطْرِبِ السمعَ وجــدِّدْ صوتَكَ المُشْجِى الحنُونْ

فى أغاريد الهنا . . . . والغزَلْ
وأناشيدِ المُنَى . . . . والأمَلْ

قد صـــفا وقتُ الأغانى مُذ بَدَتْ شمسُ الجمَـــالْ
وازدهى عيـــدُ التهَّـانى فى عُلاَ ذاتِ الجلالْ

درةٌ عصـــماء حلَّت فى سَمَـــا بُرْجِ السعود
هيبـــةُ الملك تجلّت حين حيَّـاها الوجود

صُنْ حماها . . . . فى هنا المُلْكِ الأمين
وَأَنِلْهَا مُشْتَهَاهَا . . . . يا إِلَهَ العالمين

أيام سعدكِ أَقْبَلَتْ يا ربةَ الحُسْنِ البَدِيعْ
وشموس مُلْكِكِ أشرقت فاستقبلى المجدَ الرفيع

هيا إلى ذُرَا العُلاَ يا دُرَّةَ النِّيل الفريد
وعطِّرى مجدَ الأُلى يازهرةَ الوَادِى السَّعِيد

* * *

القطعة الثالثة

أَغيدٌ رَنَا — أهيف القَنَا — ماسَ وأنثنى — فى حلى الهنا
فاتن الدلال — ساحـــــر النظر

هزّةُ السرور — منعش الزهور — كوكب القصور — مخجل البدور
رائع الجمال — وجهـه القمر

ظبية اللِّوَى — شفّنى الهوَى — قد عزَّ الدَّوا — والقلبُ انكوى
بالسِّحْرِ الحَلاَل — من طُولِ السَّهَر

روعْ ياسَقَامْ — واقْسُ ياسِهَامْ — واهجُرْ يَامنَامْ — ماأَحْلَى الغَرَامْ !
لو تمَّ الوصال — فى صَفْوِ السَّمَرْ !

تيهِى وانعَمِى — قد تمَّ المنى — طيبى واغْنَمِى — أيام الهنا
ياذات الجلال — قد شاءَ القدَر !

صحوة العلم ونشوة المال(*)

الثرى : أيُّها البلبلُ هيّا غنِّ لى . إنَّ خيرَ العيْشِ ساعاتُ الهنَا

الموسيقى : جدِّدى يا نفسُ آمالَ المُنَى وأنفِ عن عيْنِيَ يا طيْفُ العنا
ها هو النشوان منِّى قد دنا فانتصر يا فنُّ وَاحكمْ بيننا

الثرى : منذ حينٍ كنتُ أهْوى أنْ أرى أهْلَ الطرَبْ

الموسيقى : أنتَ فى أرْغدِ عيشٍ أنتَ فِى أسْمى الرُّتبْ
أمطرت سُحْبُ الغِنَى فوق كفيَّكَ الذَّهبْ
تُطْرِبُ النَّفسَ وَتَلْهو تحْتَسِى بنْتَ العِنَب
أى شَىءٍ تبْتغِى خىٌ واشكر من وَهَبْ

الثرى : بالمالِ كان غرامى وقد بلغتُ مُرادِى
فاليوم أصبح عِنْدى لا يَستمِيل فُؤادى

الموسيقى : كلُّ حكمٍ فى الوجود سابقٌ فيه القَدَر
من دنا منه السعودْ لم يذُقْ طعمَ الكدر

الثرى : دَعْ خيالات الحياه وَاغتنِمْ وقتَ السَّمَر

الموسيقى : كيف يَنْسَى القلبُ آه إن فى الذكرى العِبَرْ

الثرى : إنِى لاعجب أن تشتكى وفيكَ تكامل فنُّ الطرب
حبتكَ المواهبُ أسْرَارهَا ومنكَ تقرّبَ أهْلُ الأدَبْ

(*) محاورة غنائية .

الموسيقى : تدفّق حولىَ بَحْرُ الفنون وأمطر فوق سحابُ النَّغَمْ
ومن عجبٍ أننى كلما نبغتُ أرى البؤسَ فى ّ احتكم

الثرى : غريبٌ على مِسْمَعِى ماتقول لأَنَّ حديثَكَ شَيءٌ عَجَبْ

الموسيقى : بألذى أعطاك قل لى كيف يَنْسَى الْأَغنياء
أن فى الْأَموالِ حقًّا من حقوق الفقراء ؟
الثرى : دع أَحاديث الثّراء نحنُ فى فنِّ الغناءَ !

الموسيقى : لا يَبينُ الحقُّ إلا حين ينجابُ الغطاَء

الثرى : عشتُ فى جوِّ السرور بينَ آلاتِ الطَّرَبْ
أَجْتنى أَشْهَى الزهور من بساتينِ الْأَدَبْ

الموسيقى : متَّعْتَ سمعكَ بالنَّغَمْ ورتعت فى الرِّزْقِ الْجَزِيلْ
قل لى بحقِّك ما ألذى قدَّمْتَ للفنِّ الجميل ؟

الثرى : أرى فؤادِى يحنُو إلى سماعِ الْأَغانى
أَسْعَى إليها طروباً كأَنَّ وَحْيًا دعانى

الموسيقى : لعلَّ كفك أَسْدَتْ للفنِّ بعضَ الأمانى؟ !

الثرى : إنَّ بَسْطَ الكفِّ طبعٌ من طِباعِ الْمُسْرِفِينْ
يَعقُبُ التبذيرَ فَقْرٌ بئْسَ حَالُ النَّادِمِينْ

الموسيقى : إنَّ بذلَ المالِ جودٌ نعم أجرُ الْمُحْسِنِينُ

الثرى : لم أَجُدْ يوماً بمالى خِفْتُ من ذُلِّ الهوانِ
كنتُ أخشى سوء حالى لو بدا غدرُ الزَّمانِ

الموسيقى : اكتسب بالمال أجراً ليس للدُّنيا أمانْ
الثرى : نلت من سحر المَعَانى سرَّ أعماق القُلوبْ

الموسيقى : يا نصير الفنِّ هيا جُدْ كما جادَ الكرام
لو منعت البرَّ عنا فعلى الدُّنيا السلام

الثرى : كلَّفْتَ نفسك نُصْحى حتى أَنَرْتَ طريقى
إنى سأَبْذُلُ مالى للعلم والموسيقى

مجد مصر

(١)

إنَّ تجديدَ الأغانى في عُلاَ الشَّعْبِ المجيد
مذ بدت شمسُ الأمانى فوق مجدٍ لا يبيد

جَدِّدِى يا مصرُ عهداً كان من أبهى العُصُور
خَلَّدَت علياه ذكراً لم تُغَيِّرْهُ الدهور

فيه جاءت خارقات هُنَّ آياتُ الفِطَنْ
أسفرتْ عن مُدْهِشَات بَهَرَتْ عَينَ الزمن

كُنتِ للعُمْرَانِ كَنْزاً سِرُّهُ العلمُ العجيب
ولمجد الشرقِ عِزّاً ذكره دوماً يطيب

(٢)

يا مصر أَرْضُكِ تِبْرٌ واديك مَهْدُ العِظَات
يجرى بِسَهْلِكِ نَهْرٌ عذبٌ فسيحٌ فرات

يا نيلُ مجراك تَسْرى منه لمصر الحياه
ما دام ماؤك يجرى فمصرُ دوماً فتاه

(٣)

يا حمام النيل غَنِّ مطرباً حُلْوَ النشيد
راق للغُصْنِ التثنى في رُبَا الوادى السعيد

أيها الشعبُ المُفَدَّى أنت مِصباحُ الشعوب
نِلْتَ في التاريخ مجداً منه تهتزُّ القلوب

صوت الضمير (١)

آن تبكيتُ الضمير حينما حَلَّ النَّدَم
وانجلى ليلُ السرور مُذْ بدَا صبحُ الألم

اعتبر ياذَا الجحود إن فى الذكرى العِبَرْ
كلُّ شَيْءٍ فى الوجود تحت أحكام القَدَر

ليس للدنيا أمان فهى مِرآةُ العَجَب
إن من طَبْعِ الزمان ساعةَ الصَّفْو الغضَب

صحوةُ العمر خيالْ باسِمٌ فيه الأمل
لو دنا منه الزوال لم تُفِدْ فيه الحِيَل

إنما الطيشُ هَوانْ ساقَهُ سُوءُ الأدب
فاحذروا كَيْدَ الحِسَان واهجروا بِنْتَ العِنَب

انظروا آلام صَبٍّ عاش فى اللَّهْوِ سِنِين
واسمعوا أنَّاتِ قلب رَاعَهُ فَرْطُ الأنين

حيث ضيعت الشباب كن مدى العُمْرِ حزين
عش ذليلاً فى عذاب إن للذكرى حنين

(١) لحن الختام من رواية « الشبح الأبيض » من وضع المؤلف .

أناشيد مدرسية(*)

(١)

إلى العـــلا إلى العـــلا

يا شبابَ النِّيلِ هيَّــا بلِّغُوا مِصْرَ المُرَادْ
فاصْعَدُوا مَتْنَ الثُّريَّا وارْفَعُوا مَجْدَ البِلَادْ
مِصْرُ يامَهْدَ الأوالِي خلِّدُوا الماضى العَجِيبْ
شَيِّدى صَرْحَ المَعَـالِي فَوْقَ وَادِيكِ الخَصِيبْ
نحنُ للعَلْياءِ نَسْعَى فى نشـــاطٍ طائعين
والإلَهُ الحيُّ يَرْعَى كلَّ أوَّابٍ أمِينْ
مَنْ سَعَى للعِلْمِ أسْدَى للنُّهى نُورَ اليَقِينْ
نال توفيقاً وأهْدَى للمُنَى الفَتْحَ المُبِينْ
مصرُ يا كَنْزَ الغَوَالِي مصرُ ياذاتَ الجَلَالْ
جدِّدى عَهْدَ الأوالِي وارْفَعى شأْنَ الهِلَالْ
أيُّهــا الوَادِي المُفَدَّى أنْتَ آمالُ القُلُوبْ
قَدْ وَرِثْنا عَنْكَ مَجْداً حازَ إعْجَابَ الشُّعُوبْ
هذِّبُوا النَّشْءَ تَسُودُوا يا مصابيحَ الحَيــاهْ
وانْشُرُوا العِلْمَ وَجُودُوا تَغْنَمُوا عَفْوَ الإلَهْ
إنَّ بَذْلَ الرُّوحِ يَحْلُو فى عُلا الوَطَنِ الكَرِيمْ
من أرَادَ المَجْدَ يَعْلُو ذِرْوَةَ الشَّرَفِ العَظِيمْ
مصـرُ يا كلَّ الأمانى مصرُ ياوَادِي الكِرَامْ
حقِّقى عِيدَ التَّهَانى يَوْمَ نَحْظَى بالمُرَامْ

(*) نظم الشاعر بحكم عمله فى وزارة المعارف يومئذ عدة أناشيد مدرسية رددها الطلاب فى مدارسهم ، وكان هذا النشيد الأول من نصيب مدرسة شبرا الابتدائية .

(٢) (*)

إلى العــلا إلى العــلا

هَيا إلَى رُبَا العُلاَ شَبِيبَةَ الشَّعْبِ المَجِيد
وعطِّرِى ذكرى الأُلَى يا زهرةَ الْوَادِى السَّعِيدْ
يا مصرُ يا أُمَّ القُرى يا ربَّةَ المَجْدِ العظِيمْ
لا زلتِ عاليةَ الذُّرَا مَهْدَ الحَضَارَةِ وَالنَّعِيمْ
إنَّ المَعَارِفَ لو سَمَتْ أَحْيَتْ مواهِبَهَا القُلُوبْ
وَقَتِ البلادَ وَأَوْدَعَتْ سرَّ التَّقَدُّم فى الشُّعُوبْ
بالعِلْمِ تَنْقَادُ المُنَى طوعاً وينجابُ الظَّلاَمْ
هَبْنَا الثَّقَافَةَ ربَّنَا حتى نَرَى نُورَ السَّلاَمْ
يا مصر يا ذات السَّنَا يا كعبةَ العِلْمِ العجِيبْ
تَفْدِى حمَاكِ قُلُوبُنَا وَشَبَابُنَا حتى المَشِيبْ
هَا نَحْنُ أَبْنَاء الأُلَى شادُوا الصُّروح الخَالِدَاتْ
آثارُهُمْ رمزُ العُلاَ شَهِدَتْ لَهُمْ بالمُعْجِزَاتْ
قُمْنَا لِتَثْقِيفِ النُّهى وَالعِلْم مَطْلَبُهُ جِهَادْ
للنَّفسِ فى تَهْذِيبِهَا شَأْنٌ لإِصْلاَحِ البِلاَدْ
ربَّ المشارقِ إنَّنَا نَسْعَى إلَى نُورِ الفَلاَحْ
حقِّقْ لنا آمالَنَا وَامنحْ أمانِينَا النَّجَاحْ
أَهْلَ الثَّقَافَةِ وَالهُدَى أَنتُمْ مصابيحُ الحَيَاهْ
للعلم دُومُوا سَرْمَدَا ترعاكم عينُ الإِله
مصرَ الفَرِيدَةَ جَدِّدِى عهدَ السِّيَادَةِ وَالجَلاَلْ
حَيِّى بَنِيكِ وَرَدِّدِى ذكرى انتصاراتِ الهِلاَلْ

(*) نشيد مدرسة العباسية الإبتدائية .

نشيد (*)

هيا إلى طلبِ العُلاَ … في نهضةِ الفوزِ المُبينْ
سُدْنا على كلِّ المَلاَ … حمداً لربِّ العالَمِينْ
يا ربنا هيِّئ لنا … مِنْ أمرِنا سُبُلَ الرَّشادْ
كنْ عونَنا وارأفْ بنا … يا من عليه الاعتمادْ
هبْنا الهدايةَ إننا … نسعى إلى نشرِ السَّلامْ
حتى تتمَّ لنا المُنى … في ظلِّ آباءٍ كِرامْ
العلمُ نبراسٌ بهِ … نسمو إلى أوجِ الفلاحْ
منْ سارَ في أضوائهِ … يحظَى دواماً بالنَّجاحْ
يا مصرُ يا أُمَّ القُرَى … يا ربَّةَ الوادي السَّعيدْ
يا من لها عَجِبَ الوَرَى … آثارُ مجدِكِ لا تَبيدُ
ها نحنُ أبناءُ الأُلَى … خضعت لبأسِهِمُ الاسُودْ
قُمْنا إلى صرحِ العُلا … نَبْني كما شادَ الجُدُودْ
خيرُ المعاهدِ (دارُنا) … أولَى المدارسِ في السِّباقْ
ظفِرتْ بغاياتِ المُنَى … وتَعاهَدا ألاَّ فِراقْ
أعلامُها أسدَوْا يدَا … للعلمِ حُقَّ لها الثَّناءْ
وبفضلِ نهضتِهمْ غدَا … سَيْرُ الجميعِ إلى ارتقاءْ
منَحُوا الثقافةَ حقَّها … وسَمَوْا إلى نُورِ اليقينْ
صقَلُوا بعلمِهِمُ النُّهَى … هذا هو الفضلُ المُبينْ

(*) لشبيد مدرسة خليل أغا .

يَا مَنْ رَفَعْـتُمْ شَأْنَنَا أَنْتُمْ لنا رُسْلُ السَّـلَامْ
أَرْوَاحُنَـا وَقُلُوبُنَـــا لـكم الْفِدَاءُ عَلَى الدَّوَامْ
يا صَفْوَةَ الْأَشْبَالِ قَدْ شملتـكم نَعِـمُ الإِلَـهْ
حيُّوا الْمُؤَدِّبَ وَاشْـكُرُوا كَيْ تَغْنَمُوا صَفْوَ الْحَيَاةْ

نشيد (*)

يا نشء للمجد هيا ... قد لاح نجم السعود
إلى مناط الثريا ... إلى مكان الجدود
شادوا صرح المعالي ... فوق الربا شاهدات
تشدو بما للأوالي ... في مصر من ذكريات
لمصر في الدهر مجد ... مخلد لا يغيب
باق ولو طال عهد ... رمز الجلال المهيب
بالعلم تحيا الأماني ... بالعلم تسمو الشعوب
يا مصر عيد التهاني ... يوم ائتلاف القلوب
إنا نقوم الليالي ... في همة واجتهاد
نرجو سماء المعالي ... سعياً لمجد البلاد
يا مصر تربك تبر ... واديك مهد العظات
يجري بسهلك نهر ... عذب زلال فرات
يا ملهم الرشد إنا ... نرجو الهدى والفلاح
ثقف نهانا وزدنا ... علماً وهب النجاح
خير المعاهد دامت ... أنوارك الساطعات
أعلام رشدك قامت ... نحو العلا خافقات
يا قادة النصح نلتم ... بالعلم أسمى مقام
ثقفتمونا فكنتم ... رسل الهدى والسلام

(*) نشيد مدرسة محمد علي.

نشيد (*)

إلى العُـــلا   إلى العُـــلا
سارعُوا نَحْوَ العُـلاَ   وَاهْتِفُوا يَحْيَا الشَّبَابْ
جدِّدُوا مجـدَ الأُلى   خلِّدُوا الذِّكْرَ المُهَابْ
مصـــرُ يا كلَّ المُنَى   نحن أشْبَالُ الأُسُودْ
هَـــذِهِ أهْرَامُنَا   فوقَ وَادِيكِ شُهودْ
أنت يا أُمَّ القُـرَى   كلُّ آمالِ الشُّعُوبْ
نِلْتِ إعْجَابَ الوَرَى   مُذْ تملَّكْتِ القُـلُوبْ
هبْ لنَا مِنكَ الهُدَى   وَأتِنـــا الفَتْحَ المُبِينْ
نحنُ للنيـــل الفدَا   ياإلـــه العَـــالَمِينْ
روضُنـــاَ السَّامِي همَى   فَوْقَهُ غيْثُ الحيـــاهْ
زهـــرُهُ لمَّا نمـاَ   داعىَ العَلْيـــاَ دعَاهْ
إنَّ تهْذِيبَ النُّهَى   سِرُّ إصْلاَحِ البِلاَدْ
مذْ تجلَّتْ شَمْسُهـــاَ   آنَ للنَّشْءِ الجِهـــاَدْ
إنمـا العِـلْمُ الحيـاَهْ   فى بسَاتِينِ الخُـلُودْ
خـيرُ ما وَهَبَ الإلَه   مَنْ لَهُ كُتِبَ السُّعُودْ
مَهْدَنَا الفيـاَّضَ جُدْ   بالـكُنُوزِ الغَاليـاتْ
صُنْ شَبِيبَتَنَا وَزِدْ   عَزْمَ نَهْضَتِنَا ثبَاتْ
قادَةَ العِـلْمِ اصْعَدُوا   بالشَّبابِ النَّاشِئِينْ
للمَعَـالى جاهـدُوا   نعْمَ أجْرُ العَامِلِينْ

(*) نشيد مدرسة عابدين .

نشيد (*)

إلى العـــــــلا إلى العـــــــلا

تروقُ المَعالِي وَتَصفُو المُنَى لـكلِّ مُجِدٍّ سعى للنَّجَاحْ
فيامُلْهِمَ الرُّشْدِ هَيِّءْ لنـا حنانًا طريقَ الهُدَى وَالفَلاَحْ
إلى العلم نَسْعَى فكُنْ عوْنَنَا وَهَيِّءْ لَنَا مِنْكَ صِدْقَ اليَقِينْ
لكَ الأمْرُ وحدكَ يارَبَّنَا فَجُدْ بالرِّضاء على النَّاشِئِينْ
سُمُوُّ المَوَاهِبِ يُحْيِي النُّهَى وَيَبْعَثُ فى النَّفْسِ رُوحَ الكَمَالْ
متَى تمَّ للنفْسِ تَهْذِيبُهَا كَسَتْهَا الثقافةُ ثوبَ الجَلاَلْ
إلى المَجْدِ سيرُوا فَصَرْحُ العُلاَ قريبُ التَّدَانى لِعزْمِ الشَّبَابْ
هَلُمُّوا فَلَبُّوا نِدَاءَ الأُلَى أَذَلُّوا الأُسُودَ وَساقُوا السَّحَابْ
لهم فى بُطُونِ الثرى آيةٌ وفوقَ الهِضَابِ لهمْ مُعْجِزَاتْ
لآثارِهِمْ فى الوَرَى مَنْعَةٌ رَوَاسِيَ رَغْمَ البِلَى خَالِدَاتْ
تُفَدِّيكِ يا مِصْرُ أَرْوَاحُنَا دوامًا من المَهْدِ حتَّى المَشِيبْ
فيارَبَّةَ المَجْدِ كُونِى لَنَا سراجَ هُدًى نُورُهُ لايَغِيبْ
زهورُ المُنَى فى النُّهَى نَوَّرَتْ وَأَثْمَرَ فى النَّفْسِ غَرْسُ العُلُومْ
وَشمسُ العُلاَ فَوقَنَا أَشْرَقَتْ تُبَارِكُ أَقمارَنَا والنُّجُومْ
رجالَ الثَّقافةِ أَعْلاَمَنَـا بدورَ الهِدَايةِ رُسْلَ الحَيـاةْ
صقلتُمْ نُهَانَا فلانَتْ لَنَا صعابُ الأمانى بفَضْلِ الإلَهْ
وأرْشَدْتُمُونَا فَنِلْنَا المُنَى وَهَذَّبْتُمُونَا فَحُقَّ الثَّنَـاءْ
فَدُومُوا لرفعةِ أَوْطَانِنَا وَفوزُوا كراماً بِخَيْرِ الجَزَاءْ

(*) نشيد مدرسة القربية .

نشيد (*)

إلى العُلا … إلى العُلا

يا معهدَ التعليمِ قدْ … أَولاكَ بالنِّعَمِ الإلهْ

فُزْ وانتصِرْ واغْنَمْ وسُدْ … واشكُرْ مصابيحَ الحياهْ

العلمُ نبراسُ الهُدَى … يدعُوا إلى نُورِ الفلاحْ

يُهْدِي البسالةَ والنَّدَى … لمن اعتلى صَرْحَ النجاحْ

يا مصرُ عهْدُ شبابِنا … وقفٌ على العِلْمِ المُنيرْ

حتَّى تتِمَّ لنا المُنَى … فإلى علا الوطنِ المسيرْ

يا مصرُ يا أُمَّ القرَى … يا ربَّةَ الوادِي الكريمْ

لِعُلاكِ خاصَمْنا الكرَى … سعياً إلى الشَّرفِ العظيمْ

ها نحنُ أبناءُ الأُلى … آثارُهُمْ رمزُ الخلودْ

قُمْنا إلى صرْحِ العُلا … نَبْني كما شادَ الجدودْ

مصرُ العزيزةُ رحِّبي … ببَنِيكِ أشبالِ الأُسودْ

حيِّي شبابَكِ واطْلُبِي … علياءَ مجدِكِ أنْ تعودْ

أنتِ السعادةُ والمُنَى … ترْعاكِ عَيْنٌ لا تنامْ

أرواحُنا وقلوبُنا … رهْنُ الجهادِ على الدوامْ

كُنْ عونَنَا يا ربَّنا … واكتُبْ لنا الفوزَ المُبينْ

هَبْنا الهدايةَ إنَّنا … نسْعَى إلى نُورِ اليقينْ

(*) نشيد مدرسة الشيخ صالح .

نشيد(*)

رَبَّنَا حَمْـداً وَشُكْراً أَنْتَ خَـيْرُ الرَّاحِمِينْ
كُنْ لَنَا عَوْناً وَذُخْراً يَا إِلَهَ الْعَـالَمِينْ
هَبْ لَنَا التَّوْفِيقَ دَوْماً وَاهْـدِنَا سُبْلَ الرَّشَادْ
وَامْـلَأ الْآمَالَ عَزْماً يَا بَصِيراً بِالعِبَـادْ
صُنْ لَنَا الْآبَاءَ عِـزّاً إِنَّهُمْ رَمْزُ الْحَنَـانْ
وَاجْعَلِ الطَّاعَةَ زَاداً لِلْفُؤَادِ وَلِلِّسَـانْ
إِنَّ كَنْزَ الْعِلْمِ بَحْـرُ لَا يُهَدِّدُهُ النَّفَـادْ
لِلْعُـلَا سَيْفٌ وَبَدْرٌ نَشْرُهُ يُحْيِي الْبِـلَادْ
اطْلُبُوا الْعِـلْمَ دَوَاماً فَهْوَ مِصْبَاحُ الْفَـلَاحْ
مَنْ سَعَى لِلْعِـلْمِ يَحْظَى بِالْأَمَانِي وَالنَّجَـاحْ
يَا كِرَامَ النَّشْءِ هَيَّـا صَافِحُوا نَجْمَ السُّعُودْ
وَارْفَعُـوا فَوْقَ الثُّرَيَّا مَجْـدَ آثَارِ الْجُدُودْ
نِلْتِ يَا مِصْرُ الْمَعَـالِي مُنْذُ آلَافِ السِّنِينْ
فَاذْكُرِي عَهْدَ الْأَوَالِي وَارْفَعِي شَأْنَ الْبَنِينْ
أَيُّهَـا الْوَطَنُ الْمُفَدَّى قَدْ وَهَبْنَاكَ الْحَيَـاهْ
عَزَّ مَنْ أَوْلَاكَ مَجْـداً وَلْيَدُمْ فَضْـلُ الْإِلَهْ
مِصْرُ يَا كُلَّ الْمُـنَى نَحْنُ أَشْبَالُ الْأُسُـودْ
جَدِّدِي الْمَجْدَ لَنَـا فَوْقَ أَبْرَاجِ السُّعُودْ
إِنَّنَـا لِلْعِـلْمِ نَسْعَى بَيْنَ جِدٍّ وَاجْتِهَـادْ
وَعُيُونُ اللهِ تَرْعَى كُلَّ مَنْ رَامَ الْجِهَـادْ

(*) نشيد مدرسة مصر الجديدة .

مَهْدُنَا مِصْرُ الْجَدِيدَهْ مَعْهَدُ الْعِلْمِ الْمُنِــــــيرْ
دَارُ تَهْذِيبٍ مَجِيــدَهْ فَضْلُهَا فِينـَـا كَبِيرْ
قَدْ حَوَتْ أَتْقَى قُلُوبٍ مِلْؤُهَــا نُورُ الْيَقِينْ
رُوحُ آدَابٍ وعِــلْمٍ فِي رِجَالٍ عَامِلِينْ
يَا رِجَالَ الْعِــلْمِ أَنْـتُمْ لِلْهُدَى رُسْلُ السَّــلاَمْ
يَرْجِــعُ الْفَضْلُ إِلَيْـكُمْ أَحْسَنَ اللهُ الْخِتَــامْ
رَبَّنَا حَمْـداً وشُـكْراً أَنْتَ خَـيْرُ الرَّاحِمِينْ
كُنْ لَنَا عَوْناً وذُخْراً يَا إِلَهَ الْعــــــالَمِينْ

ربيبة الكوخ

مسرحية مترجمة عن

تشارفس جارفس

أسهم الشاعر فى الحركة الفنية فى عصره بتأليف وترجمة بعض المسرحيات ، وقد اخترنا هـذه المسرحية المترجمة إلى اللغة الفصحى لتـكون دليلا على العمل الفنى الذى كان يقدمه .

الفصل الأول

المنظر الأول

[غرفة بكوخ المطحنة بإحدى قرى برنستابل على نهر التو]

(مائدة حولها ثلاثة مقاعد . ليرا جالسة وفى يدها كتاب . تضعه)

ليرا : ما أهنأ هذه الحياة! . وما أسعدنى بين هذين الشيخين الجليلين : والد كرس حياته لتهذيب إبنته التى انقطع من أجلها عن العالم ، وخادم أمين ما ترك لحظة من ثمين وقته إلا نفحها فيها بغوالى نصائحه . فليبارك كهما الله كما سهرا على نعيمى . (تقف) أماه ! أماه ! أين أنت الآن ؟ كيف تتركيننى فى الربيع الأول من زهرة شبابى ؟ يا ترى أين أجدك يا من أسأل الله لك الرحمة ؟ أمى ! أو ما علمت أن ابنتك تحن إليك كما لو كانت بين ذراعيك . إلهى ؟ أين أجدها ؟

آدون تشستر : (يدخل) — تجدينها فى شخصى يا عزيزتى . أنا أمك وأبوك ، يا زهرة الربيع . فهل تشكين ألماً ؟

ليرا : (تطوق أباها بذراعيها) كلا يا أبتى . إنما أرانى أحن كثيراً إليها . وما خلوت بنفسى لحظة إلا رأيت خيالها الطاهر يبسم لى عن ثغر لعبت به يد البلى . وكثيراً ما شعرت بيمينها تمسح على شعرى ، كأنها تسألنى الصبر على فراقها . فأشعر إذ ذاك براحة . وما هى إلا هنيهة حتى أفيق من خيالى ، فأندب سوء حظى .

تشستر : (يسقط على الكرسى) يا لها من ذكرى مؤلمة . ليرا ! (يمسح شعرها) تناسى تلك الشواغل . واطردى تلك الخيالات .

جرفث : (يدخل) هـا قد أحضرت الحطب يا مولاى . فهل من حاجة قبل أن أبدأ فى تجهيز الطعام .

تشستر : نعم . (ينظر إلى ليرا) نسيت نظارتى بجانب الكتاب الذى كنت أطالع فيه على المائدة . فهل لك أن تحضريها يا ليرا (ليرا تخرج) .

جرفث ! ما أصعب الدين . الدين هم بالليل ومذلة بالنهار .

جرفث : هون عليك سيدى . فربما ارتفعت الأسهم التى لك فى الشركة ، فتنتظم لنا أسباب الحياة .

تشستر : هذا كل ما بقى لى من أمل . جرفث ! إننى أريد الجريدة . فاذهب إلى بترال وسل جربلى أن تعطيكها ، و بلغها تحيتى . (لنفسه) عسى أن يكون فيها تفريج كربتى .

جرفث : سأذهب حالا .

ليرا : (تدخل) ها هى النظارة يا باأبت .

تشستر : شكراً لك يا ابنتى (يقبلها ثم يقف) هيا بنا إلى الحديقة يا عزيزتى . (إلى جرفث) إنى منتظر .

ليرا : (تبقى و يخرج تشستر) إلى أين يا جرفث ؟

جرفث : إلى بترال .

ليرا : ولماذا ؟

جرفث : لأحضر شيئاً لأبيك ، ياعزيزتى .

ليرا : دعنى أذهب بدلك ، فأنت تعب كما يلوح لى . .

جرفث : لابأس ليرا . فأنا لاأزال أشعر بقوة شبابى تتضاعف . ذلك لأنى أوقفتها على رعايتك .

ليرا : أنت تثق بحبى إياك . ولو كان فى وسعى أن أقوم بكل شئون المنزل ما توقفت عن ذلك لحظة .

جرفث : شكراً لعواطفك .

ليرا : وتعلم أيضاً أن سعادتى فى ركوبى القارب . فلماذا تمنعنى عن الذهاب إلى بترال حيث أعبر النهر ، فأتسلى .

جرفث : ولكن . . . . . .

ليرا : (تطوقه بذراعيها) لا تعاند من أحبتك .

جرفث : بارك الله فيك يا عزيزتى . سأذهب حالا لأعد لك القارب . (يخرج) .

تشستر : (يدخل وفى يده كتاب) هل ذهب جرفث يا عزيزتى ؟

ليرا : نعم . ذهب ليعد لى القارب يا أبتاه .

تشستر : لك أنت ، ولماذا ؟

ليرا : لأنى سأذهب بنفسى لإحضار حاجتك من بترال .

تشستر : وهل تعلمينها ؟

ليرا : لا . وهل عندى علم الغيب ؟

تشستر : (بو داعة) وكيف تحضرين مالا تعرفين ؟

ليرا : سأسأل جرفث متى ركبت القارب .

تشستر : ولم اخترت الذهاب بنفسك ومنعت جرفث ؟

ليرا : لأنه تعب جداً يا أبى . وأحب أن أساعده ليستريح قليلا .

تشستر : وهل يسعدك أن تخد مينى يا ليرا ؟

ليرا : هذا كل مناى يا أبى . هل تثق بخدمتى بعد ذلك ؟

تشستر : حسناً يا ليرا . إنى أريد الجريدة ، فقد كانت مسز جريلى تعيرنى إياها كلما أردت .

ليرا : (تبتسم) نعم . (تشستر يجلس ويقرأ) .
أتسمح لى أن ارتدى معطفى وقبعتى ؟

تشستر : لك ما أردت (تخرج) . ما أشد حبى إياهــا إنهــا لا تعرف شيئاً عن الدَّين .
حسناً فلتذهب .

ليرا : (تدخل بالقبعة والمعطف على يدها) ها أناذى .

تشستر : إلىَّ كى أقبلك (يقبلها . تخرج . لنفسه) إن ذكرى الماضى تؤلم الشيخ . ثروة زالت ، وزوجة طاهرة ماتت . ياالهول كل ذلك ! أولم تكفنى تلك المصائب ، حتى أرزح تحت عبء لم أتعوده من قبل ! الدين ! الدين ! ماأصعب احتمال هذه الكلمة ! بل ما أشد وقعها على سمعى ! رحماك يا إلهى ! (يدخل جرفث) هل ذهبت ليرا ؟

جرفث : نعم .

تشستر : وهل علمت شيئاً عن سبب إحضارى الجريدة ؟

جرفث : كلا . إنها لا تعلم عن العالم سوى شيئين .

تشستر : وما هما ؟

جرفث : أولها أنك أبوها . وثانيهما أننى خادمها الأمين .

تششتر : ما أسعدها ، وما أشقانى !

جرفث : هون عليك يا سيدى .

تسشتر : لتكن مشيئة الله إمض ، أنت إلى عملك . وسأحضر إلى غرفة المائدة بعد أن تعود ليرا .

(يخرج جرفث . شستر يعود إلى القراءة . بعد قليل ينظر فى ساعته).

تشستر : عجباً لقد انقضت ساعتان ولم تحضر ليرا . كيف تأخرت إلى هذا الحد والمسافه لا تحتاج إلى أكثر من نصف ساعة . (يقف ويسير نحو الباب) جرفث ! حرفث !

جرفث : (يدخل) بماذا يأمر مولاى ؟

تشستر : لقد تأخرت ليرا . أليس كذلك ؟

جرفث : لعل مسز جريلى . . .

تشستر : دعتها لتناول الغداء ؟

جرفث : ولم لا ؟

تشستر : ليس ذلك من عادتها . وقلبى يحدثنى بأن هناك سبباً آخر .

جرقث : لا أظن . فأنا أعرف قلب الطائر الذى أربيه .

تشستر : لقد داخلنى الشك فى تأخرها . إذهب أنت إلى عملك . وسأستريح قليلا فى مخدعى حتى تحضر . (يخرج)

لورد أمتاريدج : (يدخل مبلل الثياب وليرا معه تمسح الماء عنه بمنديلها ، وفى يسراها الجريدة) أظننى لم أفهم قوانين هذه اللعبة الغريبة .

ليرا : أية لعبة تعنى ؟

داين : لا أعنى شيئاً وأسأل الله أن تكونى سالمة من كل أذى .

ليرا : نعم . إنى سالمة . ولكن ما الذى حملك أنت على الاستحمام بملابسك ؟

داين : استحمام ! (بدهشة) إنك سليمة النية يا حسناء .

ليرا : (بوداعة) لست أفهم معنى ماتقصد .

داين : (يعصر كمَّ قميصه) إنك تعرفين ما يجول بخاطرى ، يا سيدتى . لقد ظهر لى أنك لم تكونى فى خطر ، ولكنك كنت تستغيثين .

ليرا : أنا ؟ أواثق أنت مما تقول ؟ إنى كنت أغرد لأداعب طيور الماء ... أهـــذه فى عرفك استغاثه ؟

داين : تغردين ، (بعجب) ماأشد وهمى !. لقد حسبتك تغرقين ... لذلك بادرت إلى إنقاذك بأن قذفت بنفسى فى الماء قبل أن أفكر فى خلع ملابسى .

ليرا : لقد أخطأ ظنك يا سيدى .

داين : مصادفة عجيبة .

ليرا : (مبتسمة) أما أنا فكنت أظنك تغرق ... ولذا أسرعت لنجدتك بقاربى . وكنت أنت تحسبنى أغرق فقذفت بنفسك لانقاذى . فكلانا فعل الواجب عليه .

داين : لقد أصبحت مديناً لك بحياتى يا سيدتى .

ليرا : (بنظرة شفقة وحنو) إنه ليسعدنى ان أراك دائماً . إن بيتنا هو هذا الكوخ الصغير . أما أنا فأعيش بين شيخين : والد كريم ، وخادم أمين ..

تشستر : (يدخل) لماذا تأخرت ياليرا ، وأين الجريدة ؟ (دون أن يلتفت إلى اللورد) .

ليرا : لقد أحضرتها يا أبى (مشيرة إلى داين) . وقد أوشك ان يغرق .

تشستر : (يتناول الجريدة .. إلى داين) أراك مبتل الثياب .

داين : نعم يا سيدى . ولولا ابنتك لكنت الآن من سكان جوف السمك .

تشستر : (بدون اكتراث) أتحب أن تجفف ثيابك عندنا ؟ (يتردد اللورد بين الشيخ وليرا ولا يتكلم) .

ليرا : (لداين) لماذا لا تقبل دعوة أبى ؟

داين : قبلت دعوتك يا سيدى .

تشستر : تفضل فاجلس . (يجلسون) .

داين : أقدم لك نفسى . أنا من أسرة ارمتايدج ، واسمى داين .

تشستر : وأنا من عائلة تشستر ، واسمى آدون ، وهذه ابنتى ليرا ، وهذا منزلى .

داين : إنى أعرف بعض أفراد هذه الأسرة الكريمة .

تشستر : (بلهجة حزن) أما أنا . فلم أرى أحداً منهم منذ سنين ، وكأنى آلم من ذكر الماضى (إلى اللود) إنى سعيد بزيارتك .

ليرا : وأنا أيضاً أشارك أبى فى هذه السعادة .

داين : شكرا ، يا سيدى . وأنت يا منقذة حياتى .

تشستر : من أين أنت قادم ، يا مستر داين ؟

داين : من لندن للترويح عن النفس واقد صدق من قال : إن السفر قطعة من العذاب . .

تشستر : وأين كان السفر ؟

داين : إنى قضيت أكبرشطر من حياتى فى السياحة : فجبت فيافى أيسلنده وسهول الروسيا ، وغابات الهند وسيلان وجزائر الهند الشرقية الهندوالغربية . وأواسط افريقية ، وهضاب الكنغو والكمرون والحبشة ، ومنابع النيل ، والنيجر ، والأمزون ، والمسيسبى وسانت لورانس ؛ تلك المناظر التى تأخذ بمجامع القلوب ، وكذلك زرت أعظم مدن أمريكا ، واستراليا حبا فى الوقوف على أخلاق الناس وشغفاً بمناظر الطبيعة ، ورغبة فى الصيد والتسلية .

تشستر : (يتفرس فيه بعد أن يصلح نظارته) وهل كنت تستطيع الوفاء بنفقات هذه السياحات الطويلة ؟

داين : هذا سهل جداً ، لأن والدى يدفع ما احتاج إليه بسخاء .

تشستر : (بإعجاب) إنه على ما يظهر واسع الثروة . وهل كنت سعيداً فى سياحتك الأخيرة ؟

داين : بدون شك .

تشستر : وهل أنفقت زمناً طويلا فى رحلتك الأخيرة يا مستر داين ؟

داين : نعم يا سيدى ، لقد قضيت فيها ثلاث سنين متواليات .

ليرا : وكيف كنت تصبر على فراق أبويك ؟

داين : ليس لى غير والدشيخ ، لا يترك القلم طرفة عين . وهو الذى حبب إلىّ السفر رغبة فى تهذيب أخلاقى ، ونمو معلوماتى ، كى أتمكن من احتلال مركزه فى المستقبل .

ليرا : (بحزن) وأمك ، هل فارقتك صغيراً كما فارقتنى أمى ؟

داين : نعم ، تركتنى فى المهد .

ليرا : إنها ... (يقاطعها الشيخ ليغير الموضوع).

تشستر : ومتى عدت من هذه الرحلة يا ضيفنا العزيز ؟

داين : منذ شهر .

تشستر : هل رأيت الصين ، يامستر داين ؟

داين : كلا ، لقد كان فى نيتى أن اقضى شطرا من حياتى فى الصين ، واليابان ، غير أن صديقاً لى دعانى وانا فى كلكتا إلى سنغافورة احتفالا بعيد ميلاده فلبيت الدعوة . وكان الجو فى سنغافورة حاراً جداً ، ومع أن البلدة آية فى الإبداع والرونق لم أتمكن من المكث بها سوى ثلاثة أيام ، ولما عزمت على العودة إلى برنامجى الأول ، من زيارة بكين ، ويوكوهاما ، وطوكيو ، حبب إلى صديقى تغيير هذا البرنامج ، والاستعاضة عنه بزيارة منحدرات نياجاراً فى أميركا . ورأيت أن أوافقه إذا شاركنى فيها فكان أنيسى فى تلك الرحلة الطويلة . ومامالت الشمس للمغيب إلا وكنا على ظهر الباخرة .

ليرا : واعجباً ! إنى لم أسمع مثل هذا الحديث من قبل .

تشستر : وهل رأيت أنّ صديقك كان محقاً فى وصفه ، أم أنه أسرف فى المبالغة .

داين : إن مارأيته من جلال المنظر كان أضعاف ماوصفه لى صديقى : رأيت الجبال هناك يعلوها الجليد الناصع البياض ورأيت ، الينابيع ينحدر ماؤها من ارتفاعات هائلة ، وشاهدتُ ماءها المتدفق وكأنه صيغ من سبائك الذهب ، وقد تناثرت حولها قصور عشاق المناظر الجميلة .

تشستر : أنت شاهدت ، إذاً ، أجمل مناظر العالم .

داين : تقريباً ..

ليرا : (لداين) أما أنا فلم أر غير هذا المكان ، ياسيدى ؛ ولم أعرف مخلوقاً آخر غير أبى وجرفث ومسزجربلى جارتنا .

داين : ومن هو جرفث ؟

ليرا : هو خادمنا الأمين .

تشستر : هل تسمح لى يامستر داين أن أذهب إلى مخدعى لقضاء بعض العمل ؟ (يقف) .

داين : (يقف وتقف ليرا) كما تريد ياسيدى .

تشستر : شكراً لك (يخرج) .

داين : (ينظر إلى ليرا بإعجاب) أرى كوخكم هذا أشبه شيء بصومعة ناسك . لقد انفرد بالجمال بالجمال فى هـذه البقعة المنعزلة . مس ليرا ! أتعيشين هكذا وحدك ؟ إنها لعيشة جافة . ألا تشعرين بذلك ؟

ليرا : لم أفكر فى ذلك قط . فقد ألفت هذه الحياة منذ طفولتى .

داين : أليس لكم أصدقاء ؟

ليرا : ماأظن أن لنا صديقاً . أراك تستغرب كلامى ، فهل هو غريب حقاً ؟

داين : لا داعى للغرابة ، فيما أظن . ولكن أسعيدة أنت بهذه الحياة المملة ؟

ليرا : (ببساطه) لم لا أكون سعيدة ؟ وكيف تصف هذه الحياة بالملل ؟ أأنت كثير الأصدقاء ؟

داين : إنى كثير الأصدقاء . ذلك لأن أبى كثير الاختلاط بالناس . ألم تسمعى عن أستار منستر ؟

ليرا : لم يرد على سمعى هذا الإسم قط . وهل تسكن أنت وأبوك بيتاً واحداً ؟

داين : أبى يسكن ستار منستر ، أما أنا فدائم التنقل . إنه فى عملٍ مستمر ، وأنا فى فراغ دائم .

ليرا : وهل هو راض عن ذلك ؟

داين : كلا . . إننا فى نزاع دائم : هو يريد أن أكون معه فى مجلس النواب ، أو على الأقل أن أخلفه فيه .

ليرا : ولماذا ترفض ذلك المركز العظيم الذى تتمناه النفوس ؟

داين : لأنى لست من رجاله .

ليرا : وكيف اتفق ذلك وأنت فى نضارة الشباب ؟

داين : أميل بطبعى إلى الراحة والسكون . ولا أعشق فى هذا العالم سوى (يتوقف) . . .

ليرا : سوى ماذا ؟ مابالك تفكر ؟

داين : سوى الرحلات ، والمناظر الجميلة .

ليرا : ولكن ألا تفضل ذلك المركز السامى على تلك الأمانى التى لا تلبث أن تزول ؟

داين : ربما فكرت فى ذلك فيما بعد .

ليرا : يظهر لى أن أباك من أركان هذا المجلس العظيم .

داين : كان عضواً فى البرلمان قبل أن ينتقل إلى مجلس اللوردات .

ليرا : نعم ، فهمت . فهو أذن لورد .

داين : (يحنى رأسه) نعم . هولورد آرل ستار منستر . ألم تطلعى على شىء من أخباره ؟ ذلك لأنه لاتخلو صحيفة فى لندن من ذكر اسمه .

ليرا : لسوء حظى أنى لم أتعود مطالعة الصحف . لكن لماذا يذكرون اسمه دائماً ؟

داين : لأنه من الوزراء ، ومركزه يقترن بجميع الحوادث العظيمة . (يصمت) عفواً يامس ليرا ، فقد أتعبتك بهذا الحديث الممل .

ليرا : (باحترام) لامستر داين . ولكن عفواً لجرأتى . بماذا يجب أن أدعوك منذ الآن ؟ نعم ، لقد اهتديت . لورد داين . (تنحنى) .

داين : (يبتسم) أنا لا أود أن أسمع من هاتين الشفتين الجميلتين سوى داين فقط .

ليرا : (بخجل) لك ماتشاء .

داين : هل تعلمت شيئاً من الموسيقى ؟

ليرا : (باستغراب) وكيف أعرفها ، وأنا بين شيخين لا يتكلمان إلا عند اللزوم ؟

داين : مسكينة أنت ياليرا . والتصوير ؟ وصيد السمك ؟

ليرا : لا هذا ولا ذاك . وهل تصيد النساء السمك ؟

داين : إنه من ألذ متعهن . ولو كانت هناك قصبة لعلمتك الصيد فى ساعة واحدة . فقد علمت أبنة عم لى (يتوقف) فنبغت فيه ، ولكنها لم تستمر .

ليرا : ألأنها ملت الصيد ، أم ألهاها شىء آخر عنه ؟

داين : لا ، بل خطر لها أن الصيد خطيئة . إذ بسببه يقع الظلم على الحيوان المسكين .

ليرا : وكيف خطر لها ذلك ؟

داين : فى العالم أناس كثيرون لايأكلون ولا يشربون ولا يتحركون قبل أن يتساءلوا عما إذا كان فى ذلك خطيئة . وثيودوسيا . . . (يتوقف) .

ليرا : (تقاطعه) ثيودوسيا ! ماأغرب هذاالإسم . لاشك أنه اسم ابنة عمك .

داين : نعم (يدخل تشستر) .

تشستر : أرجو أن تعفوا عن جرأتى لدخولى عليكما بغير استئذان .

داين : (يقف) إن ذلك يضاعف سرورنا .

ليرا : إن سعادتى فى أن أراك ياأبى . ألا توافقنى على ذلك يامستر داين ؟

داين : وهل فى ذلك شك ؟

تشستر : إنا نعتبرك صديقنا من اليوم . فلا تحرمنا من زيارتك كلما سنحت لك الفرص . وأنا على يقين من أنك ستجد فى كوخنا وما حوله من مناظر الطبيعة خير تسلية لك . أليس كذلك ياليرا ؟

ليرا : هذا يحتاج إلى برهان . وأنا أضم صوتى إلى صوت أبى ، عسى صوتانا يجدان إلى قلبك سبيلا .

داين : إن لسانى ليعجز عن وصف شكرى لعواطفكما . وإنى أهنىء نفسى بهذه الصداقة وأسأل الله أن تكون سبب هنائى (ينظر إلى ليرا) وتأكدى يامس ليرا أنى لا أنسى مالك علىّ من جميل . وإنى أعدك إلا أترك فرصة تسمح لى بزيارتكما دون انتهازها (يقف) لقد مضى النهار ، وأخاف أن يداهمنى الليل . والطريق وعر . فأستودعكما الله .

تشستر : (يقف) ألا يمكن أن تقضى معنا هنا هذا المساء ؟

ليرا : (باستعطاف) نعم ، ألا يمكن ؟

داين : كان يسرنى ذلك جداً ، لو لم أكن مضطراً أن أصل برنستابل الليلة لدواعٍ مهمةٍ ، ويمكننى أن أراكما فى صبيحة الغد .

تشستر : حسناً .

ليرا : أصحيح هذا ؟ أيمكن أن أسعد بزيارتك غداً ؟

داين : سأبذل قصارى جهدى . (يصافحهما) إلى الغد . وما الغد ببعيد .

تشستر : إلى الملتقى يامستر داين ، إنى على أهبة استقبالك غداً . (إلى ليرا) أنا ذاهب إلى غرفتى ، وبعد أن تودعى ضيفنا العزيز . . . (يخرج تشستر) .

داين : (يمسك يدها بيديه) أنظنين أنّ فى صيد السمك خطيئة ، كما تتوهم أترابك ؟

ليرا : وما الخطيئة فى ذلك ؟

داين : إذاً سأعود غداً لأعلمك الصيد ، إلى الملتقى (يخرج) .

ليرا : رعتك عين العناية . (لنفسها) ماأجمله ! وماأرق حديثه وأعذبه ! إنه لورد غني شريف نعم إنه الابن الأكبر لأيرل استار منستر ، وكفاه ذلك فخراً . (تتنهد) أما أنا ، أنا ابنة الشيخ تشستر ، ربيبة الكوخ . آه . أين هذا الكوخ الحقير من ذلك القصر الكبير ؟ ولكن (بشمم) مالى وهذه الأحلام التي تسبح بى فى عالم الخيال ؟ كيف للأرض أن تساوى القمر فى رفعته ؟ كفانى سعادة أنه هبط من سماء منزلته العالية ، وقبل أن يتدانى فيصادقنى .. (نصمت) ثيودوسيا ، ثيودوسيا . من هى . أه ، إنها ابنة عمه ، إنها صاحبة قصر وخدم ، غنية ونبيلة . إنهما متناسبان ومتكافئان ثروة وجاهاً . ويلاه ! ماذا أصابنى ! أأحسد نعمة أسداها الله إلى غيرى ؟ إن هذا هو عين الحماقة . ما أضعف قلب النساء ! يجب أن ننتظر الغد . . . (تقف) وما الغد ببعيد . (تمشى إلى الباب وتخرج) .

(تطفأ الأنوار . يتغير المنظر بغاية السرعة)

المنظر الثـــانى

(غرفة فاخرة بفندق برنستابل . جاك خادم الفندق يرتبها . الوقت ليلا)

جاك : ما أشد هوس هـذا السيد ! إن انتسابه إلى أسرة ارمتايدج لفلتة من فلتات الطبيعة ! (يضحك) شاعر ! (يضحك) شاعر مختل الشعور ! لا يعى ما يكتب ولا يفهم معنى مايقول ، يسطو على قصائد جونس وبرونتج فيسرق ما يروق له منها وماأسرع مايغير الغرض ثم ينسب ذلك الجهل إلى نفسه . (يضحك) ومن أقبح ما سمعت أنه يغنى ! (يضحك ثم يجلس) مسكين شاب،قوى غنى غير أنه مرتبك العقل ، ضعيف الإرادة ، بليد الذاكرة . والأدهى من ذلك أنه جبان ، سلبه الجبن كل علائم الشرف .. وهو فوق هذا وذاك رسام و . . . (يضحك) يدعى أنه فنان يصور حقائق الأشكال . والحقيقة أنه يقلب المرئيات كما تفعل عدسة الآلة الراسمة .. (يضحك) فينقش بذلك صوراً لا يفقه ماترمى إليه إلا هو وحده . (يضحك) ولـكن مالى وجهله ؟ الدينار هو هدفى . فما دام يحب الألقاب ، ويعشق الظهور الـكاذب ، فسأملأ منه جيوبى ذهباً ، وليس له إلا أن أقول : حضر السيد تشاندس . تفضل يامولاى . الجميلة سألت عن اللورد . ما أجمل هذه الصورة ! ما أبدع هذا الخيال ! ما أطرب هذا اللحن ! ما أمتن هذا النظم ! إنى أسمع وقع أقدام ، فمن الزائر يا ترى ؟ لعله هو المعتوه . (يجرى إلى الباب) .

داين ارمتايدج : (يدخل داين ومعه أدوات الصيد) أأنت هنا يا جاك ؟

جاك : (ينحنى) فى خدمة مولاى .

داين : حسناً ، خذ هذا إلى غرفتى الخاصة ، وأعد المائدة .

جاك : (يأخذ الأدوات) هل سيدى اللورد ضيفنا الليلة ؟

داين : نعم . (يجلس ، يخرج جاك . داين لنفسه) لقد وعدتها بأن أعود فى الغد ، وما أشد سرورها بذلك . مسكينة ، ما أضيعها فى ذلك المسكان المنفرد ! إنها تعيش كراهبة . تصبح وتمسى بين شيخين يمثلان الفناء بأجلى معانيه . فما أقسى الدهر ، وما أعجب أطواره . يجب أن ترى لندن . يجب أن ترى السعادة وترفل فى لباس النعمة والهناء .

تشاندس : (يدخل وفى يده ورقة وقلم) آه . ابن العم . هل أنت هنا يالورد ؟

داين : (بازدراء) أى شيطان حملك إلى هذا المكان ؟

تشاندس : شيطان ! (يضحك) والله ، ياأبن العم ، إن من يسمعك الآن يحسبك غير راض عن قدومى .

داين : أو فى ذلك شك ! ألم تعهد فىّ الصراحة ؟

تشاندس : إذن فأنت لا تمزح ؟

داين : ومن أدراك أننى أمزح مع المتهوس ؟

تشاندس : أمتهوس أنا ؟

داين : هذا ما لا يختلف فيه اثنان .

تشاندس : (بحدة وهو يجلس) هذه بلاد حرة ياعزيزى ، وهذا فندق عام . فما معنى احتقارك لى ونحن متساويان فى الضيافة ؟ بل يلوح لى أننى أكثر منك مالا .

داين : أنت يلوح لك كل شىء ؛ لأن مكروب الخيلاء الذى يملأ فراغ رأسك ، وإن كان بطىء العمل ، إلا أنه دائم الحركة .

تشاندس : أنا أعتقد أنك تمزح . ولولا ذلك . . .

داين : (يقاطعه) لهاجت عواطفك (يضحك) أليس كذلك ؟

تشاندس : دعنا من الجدال ، فنحن يجب أن نكون أصدقاء ، ذلك لأننا من عائلة عريقة ومن دم واحد فلاداعى إلى التفضيل .

داين : إن هذا لغريب ، لقد تركتك فى لندن أمس ، فما معنى قدومك برنستابل اليوم ؟

تشاندس : أتجول باحثاً عن الجمال .

داين : (بهزء) الجمال ! ما أخف عقلك ! وأية جميلة تعشقك ؟

تشاندس : حقاً إنك لاتعرف قدرى ياأبن العم . ألم تسمع بقصائدى التى يتغنى الناس بها فى جميع المنتديات ؟ إن بعض الفاتنات الجميلات شهدن لى منذ شهر بأننى فقت مشاهير الشعراء .

داين : (يضحك) إنك واهم . .

تشاندس : أراك تتهكم ، ذلك لأنك لم تتعلم الشعر ، وإذا سمعته ، فكيف يتأتى لك أن تصل إلى المعنى الذى يرمى إليه الشاعر ؟ وإن وصلت إلى قشور المعانى ، فهناك بون شاسع بين ما تفهمه أنت وما نتشبع به نحن الشعراء .

داين : شعراء ! (يضحك) إنك لشديد التمسك بالفن .

تشاندس: لتترك الشعر لمن يفقه معناه ، وما قولك فى فن التصوير ؟ ألست الآن من أمهر المصورين ؟ والموسيقى ؟ ألم أبلغ فى الموسيقى منزلة لم يبلغها إنسان ؟ صرح بأفكارك ! تكلم!

داين : (بتهكم) أهنئك بهذا النبوغ . وأسأل الله ألا يجعل شعرك وألحانك وتصويرك سبباً فى سقوط هذه الفنون الجميلة .

تشاندس: الفنون الجميلة ! (ببله) ما أحسن هذا الوصف ، وما أقدرك على حسن التعبير ! إنك تنجح ، إذا علمتك الشعر يا عزيزى .

داين : كفى ، يا معتوه . أتحسب أنك الآن محاط بلفيف من خفيفات العقول اللواتى يحسبن كل كلمة تقولها منزّلة .

تشاندس: (بسرور) كل كلمة أقولها منزّلة . بارك الله فيك يا عزيزى . لقد أنعشتنى بهذا الوصف الجميل

داين : (بحدة وغضب) أترك السفسطة يا أحمق ، وأخبرنى لماذا حضرت إلى هذا الفندق .

تشاندس: حضرت صباح اليوم لأرى مناظر الطبيعة حول ضعاف التو . ولقد شاهدت الغروب ونظمت فيه قصيدة ، يا لها من قصيدة ترقص الطير لها فى كبد السماء ! أتحب أن أسمعك إياها ! (يحاول القراءة) اسمع يالورد .

داين : ما أنحس هذه الليلة ، وما ألعن هذه المصادفة !

تشاندس : (يطوى الورقة بغضب) إنك شديد التمسك بخرافاتك يا عزيزى داين . ولئن سألتنى بعد ذلك أو توسّلت إلى أن أسمعك شيئاً فسأرفض بتاتاً ضارباً بتوسلاتك عرض الحائط ! أفهمت الآن يا لورد ؟

داين : لا بأس عليك (يضحك) . . أنا أعرف أنك عند نفسك نابغة فى كل شىء . .

تشاندس: ولماذا تهينى ، وأنت تعلم أن نبوغى هذا هو الذى جعلنى كثير الكلام ؟

داين : هون عليك .

تشاندس: (بسرور) شكراً لك إنى أحبك وأحترمك ، يالورد .

داين : دعنا من هذا ، وأخبرنى متى حضرت من لندن.

تشاندس: أمس ، فى القطار الأخير — وقد مررت بكاسل تروز .

داين : حسناً ، أتعلم ماذا حدث لى ليلة أمس ؟

تشاندس: لا أعلم شيئاً .

داين : (بغضب) دخل علىّ خادمى ولفرد ، وأخبرنى أن امرأة تريد أن ترانى .

تشاندس: امرأة ! إنك لا شك لم تقابلها . فالمرأة الشريفة لا تزور الأشراف فى مخادعهم ليلا .

داين : بل قابلتها رغم ذلك . فإذا بها فاتنة خلابة المحاسن ، وهى فوق ذلك فى مقتبل الشباب .

تشاندس: سامحك الله يا عزيزى . وماذا يقول الناس عنك إذا ظهر الأمر ؟ إن خادمك ولفرد . .

داين : (يقاطعه) لا . إنى أثق بخادمى .

تشاندس: هذا صحيح . وماذا كانت ترجو هذه الحسناء من مقابلتك على إنفراد ؟

داين : حالما أبصرتنى تقهقرت مذعورة . وعندما قمت لأقدم لها مقعداً تستريح عليه ، جعلت ترسل إلىّ أشعة محرقة من نظرها المتلهب وكأن وجهها قد غيرته المفاجأة . فبينما هى عندميّة اللون ، إذ بالصفرة تضرب على وجهها نقاباً تنكمش لونه القلوب . ولما خرجت من الشك إلى اليقين اضطربت اضطراباً هائلا مريعاً ، ثم وضعت يديها على وجهها لتستر الخجل الذى تولاها ، وهى تقول بصوت خافت ضعيف . أخطأت يا سيدى فاُعف عنى لجرأتى ، ودعنى أنصرف . ثم تمتمت قائلة : إنه ليس هو . وكأنها كانت تنتظر أمرى لها بالإنصراف . بيد أنى عِوَضاً من أن أستسلم للدهشة ، فهمت أن لها أمراً خطيراً ، فدفعنى الفضول إلى الاستمرار ، عسى أن أقف على آلام تلك العذراء المسكينة . وأظنك لا تجهل نوادر الفتيات التعيسات اللواتى يلعب بهن طيش الشباب .

تشاندس : مسكينة تلك المنكودة وهل كانت حكايتها مؤثرة ؟

داين : ومدهشة .

تشاندس : وأية صدفة عجيبة قادتها إليك ؟

داين : إسمع . سأتم لك الحديث . قلت لك إنها خجلت وأرادت الانصراف . غير أنى منعتها ، مدفوعاً بعامل الشوق إلى معرفة مصابها ، عساى أن أجد سبيلا لمد يد المساعدة إليها . فامتقع لونها ونظرت إلى نظرة كاد يجمد لهولها الدم فى عروقى ، وأنّت أنين الملسوع

قائلة ، والدمع يملأ محاجرها : إن شاباً سطا على طهارتها ولكنه أخفى عنها اسمه ، و بعد أن وعدها بالزواج أخلف وعدهُ وجد فى الهرب .

تشاندس : باإله السماء ! إنه لدنىء سافل .

داين : نعم . دنىء سافل ، وستدهشك جداً معرفته .

تشاندس : معرفته ؟ أو أعرف أنا مثل هذا الوحش السفاك !

داين : لاتعجل . فهو صديقك الذى لاينفصل عنك طرفة عين ، وأكثر بلاغة من هذا الذى يرافقك كظلك فلا يفارقك حتى فى مخدع نومك .

تشاندس : لايفارقنى حتى فى مخدع نومى ؟ أظنك واهماً ياورد . إذ أنه ليس لى صديق له عندى هذه الميزة .

داين لقد خانتك ملكة الشعر هذه المرة ياأحمق . (لنفسه) ليس لهذا المعتوه الذكاء الكافى وآ اسفاه !

تشاندس : خانتنى ملكة الشعر ؟ إن هذه ألغاز لاأفهمها .

داين : لاتفهمها ؟ شىء عجيب !

تشاندس : يظهر أنى لم أعر كلماتك تمام الإصغاء . لذلك فاتنى فهمها .

داين : مادمت ضعيف الذاكرة ، بليد الفكرة ، سأفصح لك عن الأمر بكلمات أجلى . . إسمع : إن ذلك النذل السافل ترك عند الفتاة المسكينة منديلا مطرزاً باسم عائلته .

تشاندس : ياله من أحمق . ولكن ماالذى قادها إليك ؟ أبلغها أنك أحد القضاة فأتتك هالعة لتنتصر لها ؟

داين : لقد قادها إلىّ تشابه الاسم ، أفهمت ؟

تشاندس : أوكان هذا الوحش يدعى داين؟

داين : خسئت أيها النذل ! (يقف) آرمتايدج ياجبان . اسم عائلتى الشريفة . إنك أهنتها بدناءتك .

تشاندس : (بخوف) وهل قالت تلك المحتالة أن السالب لشرفها هو أنا ؟

داين : أيجسر لسانك على الانكار ، وقد وصفتك من قمة رأسك إلى أخمص قدمك ، ولم

تترك صغيرة ولا كبيرة إلا وفتها حقها فى الوصف ؟ اعترف أيها الجبان . هل تريد برهاناً أقوى من دموعها ؟

تشاندس : (يثب من مكانه) ماذا تقول ؟ أنا ! ووصفتنى أيضاً !

داين : مكانك ياأحمق ، ولا تزد على فظاعة الجرم دناءة الكذب . فأنا أعرفك كما أعرف نفسى أيها القديس المتنكر .

تشاندس : (بحدة) إنك تهيننى ، يالورد . ومن يدريك أن هذا الموضوع شأناً آخر ؟

داين : إن مثل هذه الحوادث لاتخلو من المبالغة . ولكنى أرى هذه الحادثة خالية من المبالغات . (يقف) أنا داين آرمتايدج وريث أسرة آرمتايدج أتكلمُ الآن بالإنابة عن رأس هذه الأسرة : لورد أرل أستار منستر آمرك بما يأتى : يجب أن تجعل لهذه الفتاة قدراً شهرياً تتقاضاه منك . . من خزينتك الخاصة ، مادمت فى عالم الأحياء . . بذلك وحده يمكن أن تصلح ماأفسدت ، فتشترى شرف عائلتك بالمال .

تشاندس : (يرتجف) ولكن .

داين : (بغضب) لاأريد أن أسمع شيئاً غير القبول .

تشاندس : هدىء من روعك ، يالورد ، ولكن .

داين : (يضرب الأرض بقدمه) لا تتردد ، وإلا . .

تشاندس : وإلا ماذا ؟

داين : (يهجم عليه) وإلا قذفت بك من هذه النافذة . أجب : أتقبل أم ترفض ؟ لابد من أحد الأمرين.

تشاندس : (بخضوع) قبلت .

داين : (مشيراً بأصبعه إلى الباب) اخرج (يخرج تشاندس متثاقلا) إلى الشيطان ! . .

(يسدل الستار)

الفصل الثانى

المنظر الأول

(طريق النهر . نور ضئيل . باكورة الصباح)

تشاندس : (يدخل من طريق وروبرت رودن من الطريق المضاء) من الذى أرى ؟ رودن ؟ أأنت هنا يا روبرت ، وفى مثل هذه الساعة ؟

روبرت : لورد تشاندس ارمتايدج فى برنستابل ؟

تشاندس : صدفة غريبة ، ماذا تفعل هنا يا روبرت ؟ ألم تزل من رجال الكنيسة ؟

روبرت : لقد تركت الهياكل من زمن بعيد .

تشاندس : إذن ، ماذا تصنع الآن ؟

روبرت : أصنع ؟ (باستغراب) حقا إنك لشاعرايها الصديق . هل تحتاج حالتى إلى ترجمان ؟

تشاندس : انى لم أقابلك منذ عهد طويل . لذلك لا أعلم عنك شيئاً .

روبرت : وفيم كانت تهمك مقابلتى ، وجيوبك مفعمة بالذهب ؟

تشاندس : دعنا من هذا ، واشرح لى حالك الآن ، وماذا تصنع ؟

روبرت : قضيت زمناً طويلا أجوب النهار وأقطع الليل باحثاً عما أسد به الرمق . وكثيراً ما كنت أقضيهما على الطوى فأعود وقد أنهكنى التعب إلى بيتى الحقير . (يتأوه) ، فأفترش بساط التعاسة . ولما ضقت ذرعاً بحالى ، وكبر على أن أحتمل هذا الشقاء ، رجوت صديقاً كنت أتوسم فيه الخير أن يمد لى يد المساعدة بأن يجد لى عملا أيًّا كان .

تشاندس : وماذا قدم لك ذلك الصديق ؟

روبرت : أجهد نفسه حتى وجد لى وظيفة صغيرة .

تشاندس : وأى وظيفة وجد لك ؟

روبرت : معلم صبيان فى مكتب صغير هنا .

تشاندس : لا تقطع الأمل ، فربما كانت هذه المقابلة فاتحة السعادة .

روبرت : سعادة ! انك سليم النية ياعزيزى ! ألا يمكن أن تجد لى عملا عندك ، وأنت واسع الثروة ؟

تشاندس : سأفكر فى موضوعك ؛ ومتى وجدت عملا يليق بك ، بعثت فى طلبك .

روبرت : أشكرك يا صديقى . والآن هل تسمح أن تقرضنى قطعة ذهبية . وإنى أذكر أن لك عندى قطعتين من عهد المدرسة . (يضحك) لست إخالك تعتذر عن إقراضى .

تشاندس : كفى . (يضع يده فى جيبه) تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ! إنى فى غاية الخجل يا روبرت!

روبرت : أيعتذر الغنى الكبير السيد تشاندس وريث أسرة ارمتايدج العظيمة عن إقراض قطعة ذهبية ؟

تشدندس : إنها الصدفة ، يا روبرت . فليس معى الآن سوى تحويل كبير سأصرفه متى عدت إلى مصرف برنستابل . وأقسم الك بشرفى أن أمر بمنزلك فأعطيك أضعاف ماطلبت.

روبرت : إنى منتظر ، فلا تنسنى يا صاحب التحاويل . أنظر تحت تلك الربوة تجد بناء أبيض . هذا هو المكتب . أما منزلى فلا يبعد عنه كثيراً .

تشاندس : فهمت أأنت ذاهب إلى المكتب الآن ؟

روبرت : نعم . وأرانى تأخرت قليلا . وأنت أيها السيد ماذا جاء بك إلى أرض غير آهلة بالسكان ، وعهدى بك ميالا إلى الملاهى والظهور ؟

تشاندس : قمت من لندن إلى برنستابل ، وفارقتها بعد منتصف الليل قاصداً تلك الربوة الجميلة .

روبرت : من لندن إلى تلك الربوة (يضحك) حقاً إنك لمدهش . إن من يسمعك الآن يتصور أن هذه الربوة إحدى هياكل الرمان .

تشاندس : إنى أعشق المناظر الهادئه الجميلة .

روبرت : إن وقتى لا يسمح لى بأكثر من هذا . وأظننى تأخرت ، فإلى اللقاء . (يصافحه) لا تنس وعدك !

تشاندس : لا تخف سأوفيه ! (يصافحه . يخرجان كل من طريق . الصباح يزداد نوراً . وتدخل ليرا من الطريق الذى خرج منه تشاندس بالقبعة وعلى كتفها رداء أسود) .

ليرا : (لنفسها) كأن إله النوم يأبى أن يمس جفنى بأنامله اللطيفة ، وكأن سلطان الكرى قد كبر عليه أن يرفق بضعفى . فأرقت طول ليلتى . وما سبب لى ذلك سوى وعده لى . هاهو الصبح قد أنبلج . فهل هو موف وعده ، أم عاقه النسيان . (تصمت ؟

تسمع وقع أقدام فتفرك يديها فرحا) ما أسعدنى ! لقد حضر !

داين : (يدخل من الطريق الذى دخل منه تشاندس وخرج منه رو برت و بيده قصبة الصيد وسلة بها طعام)
صدفة جميلة ! أأنت على علم بساعة وصولى ؟ .

ليرا : لقد أوحى إلى أنك ستبكر . وها قد صدق الوحى .

داين : ما أطهر قلبك !

ليرا : (ببساطة) ما هذا الذى تحملهُ فى يدك ؟

داين : إجلسى . (ينزع الرداء عنها و يجلسان) هذه قصبة الصيد .

ليرا : إنها جميـــلة .

داين : وزادها جمالا أن مستها هذه اليد (يمسك يدها)

ليرا : وكيف يتسنى لهذه القصبة أن تصيد ؟

داين : (يتنهد) أنعمى النظر . هذه قصبة الصيد ، وهذه العلبة بها الطعم .

ليرا : الطعم ؟ وما معنى هذه الكلمة الغريبة ؟

داين : الغذاء الذى يوضع فى الخطاف الحديدى ليبتلعه السمك .

ليرا : وعلى ماذا تحتوى هذه السلة ؟

داين : خوف اشتداد الجوع ، رأيت أن أحضر غذاء خفيفاً .

ليرا : حسنا فعلت ، يالورد .

داين : دعينا من الألقاب الآن . وها أنا ذا سأبدأ بشرح الدرس . فهل أنت على استعداد ؟

ليرا : إنى كلى آذان صاغية .

داين : إن من كانت لها هاتان العينان الساحرتان ، وهذا الوجه الصبوح ، وهذه الوداعة النادرة لجديرة بأن تمثل أورانيا لدى قدماء اليونان . وهاتور لدى قدماء المصريين !

ليرا : ماهذه الأسماء الغريبة ؟ أهذه من درس الصيد أم فاتحة لدروسه ؟

داين : (يتنهد) لا دخل لهذه الأسماء بصيد السمك ، لأنهـا من درس صيد القلوب !

ليرا : (ببساطة) ألصيد القلوب دروس ؟

داين : نعم . وستدرسينها متى خفق هذا القلب (مشيرا بيسراه إلى فؤادها) .

ليرا : إنى لا أفهم هذه اللغة .

داين : ستفهمينها من تلقاء نفسك بدون معلم وبغير درس . إنما لكل شيء أوان .

ليرا : وكيف أتعلم درساً لم أتلقَّنْهُ عن أستاذ ؟

داين : إن الهوى أستاذ قوى الإرادة .

ليرا : الهوى ؟ لم أفهم هذا أيضاً . إنى أنشق الهوى كل لحظة ، ومتى أردت .

داين : هذا صحيح ، (بسرور) إنك تنشقين الهواء . أما الهوى فشيء آخر (يتنهد) .

ليرا : إنك أحرجت مركزى ، وجعلتنى أعتقد أننى بليدة ، ضعيفة الفهم .

داين : أن جهلك بهذه اللغة لأكبر برهان على أنك أشرف ملاك فى هذا العالم . والآن سنبدأ درس الصيد . ومتى توالت دروسه . تعلَّمتِ من خِلاَلها ماتشوقت إليه الآن .

ليرا : لقد زدتنى شوقا إلى الصيد .

داين : (يمسك يدها وفيها القصبة) هكذا تبدئين الصيد . (يرمى الخيط) .

ليرا : ولماذا تقذف بهذا الخيط ؟ وما هذه العقدة التى أراها فى وسطه ؟ (ترفع القصبة) إنى أرى فيها قطعة من الغاب الخفيف .

داين : (يمسك العقدة بيمينه ويضغط بيسراه على معصمها) أعيرينى كل سمعك الآن حينما تجلسين استعداداً للصيد ، إبدئى بوضع الطعم فى هذا الخطاف على هذه الطريقة . (يضع الطعم) .

ليرا : وما فائدة هذا الخطاف الحاد ؟

داين : إن السمكة لجهلها تزدرد الخطاف الملبس بالطعم ظنا منها أنه قطعة غذاء واحدة .

ليرا : مسكينة ، أنت ، أيتها السمكة !

داين : فما تلبث تشعر بأن الذى ازدردته إنما هو قطعة من الحديد حادة الطرفين ، فتسرع فى إخراجها ولكن يستحيل عليها ذلك ، فتحاول الهرب غوراً فى الماء ، فيعوقها الخيط عن الهرب ، ويكون الخطاف بهذه الحركة قد تمكن من أحشائها فمزقها شر ممزق .

ليرا : يالالفظاعة ! هذه هى الخطيئة بعينها . فما أقسى الإنسان !

داين : هذا ما كنت أخشاه .

ليرا : (بألم) إنى لاأري سعادة فى الصيد . . لقد بدأ يخيل لى أن هذا الوحش الذى يسمونه الإنسان إنما خلق ليكون هولا و بلاء على فصيلة الحيوان .

داين : ولمـــاذا ؟

ليرا : ألم تقل إن فى الصيد تسلية ولهواً ؟

داين : ومن ينكر ذلك ؟

ليرا : أنا . إذ كيف يخطر لقلب ، مهما كان شعوره ، أن يسر بهذا المنظر المريع ، (بخوف) بينما تكون السمكة المسكينة تذوب ألماً من أحشائها التى تنقطع فى يد جلادها الخطاف ؟ إنى ضعيفة القلب ، فلا تعجب منى ، لأن هذا فوق مستطاعى .

داين : (يتنهد) حمداً لله ، لقد بدأت تتعلمين لغة القلوب (يمس قلبها) .

ليرا : مازلت لا أفهم شيئاً من هذه الرموز .

داين : ستفهمينها فيما بعد ، ولنعد إلى تتمة الدرس ، قلنا إنك تضعين الطعم أولا ثم ترمين الخيط فى الماء ، فيتدلى لى منه مابعد العقدة ، وتسبح العقدة على وجه الماء ، تروح وتجىء طوع إرادته . مابالك تتنهدين ؟ .

ليرا : (تضع يسراها على فؤادها) لا شىء ، إنى سعيدة جداً بحسن تعبيرك .

داين : وأنا أكاد أطير فرحاً بهذه البشرى .

ليرا : وبعد أن تطوف العقدة على وجه الماء ؟

داين : لاتلبث أن تهتز كأن يداً مرتجفة تجتذب الخيط إلى جوف الماء ، وتتوالى هذه الحركة حتى تغوص العقدة دفعة واحدة ، إذ ذاك تسرعين باجتذاب الخيط ، وبنعشك أن تخرجى بيدك الخطاف من جوف السمكة .

ليرا : (بدهشة) أنا ؟ إنى أعتقد أن هذه وحشية ، فكيف أقرها ؟

داين : لقد أعدت على ذكرى ثيو . . . (يسكت فجأة) .

ليرا : نعم . ثيودوسيا . (تتنهد فيرتفع صدرها وتمسح العرق عن جبينها) .

داين : يظهر أن جميع الفاتنات ضعيفات القلوب ، رقيقات العواطف ، يعتقدن أن الصيد خطيئة .

ليرا : ربما كان ذلك .

داين : ولكنى أقول إن هؤلاء فقط هن طيبات القلوب . (يلقى القصبة) ألا تشعرين بالجوع ؟

ليرا : أنا ؟ لا أظن أنى أحتاج إلى شيء مادمت معى .

داين : شكراً لهذه العواطف . (يتناول السلة) لا بأس من تناول شيء خفيف . (يفتحها ويخرج لقيمات بالجبن) . تنازلى بقبول هذه منى .

ليرا : (بحياء) شكراً يالورد .

داين : دعينى من يالورد هذه الآن ، فإنى فى خلوة لذيذة تشمئز من هذا اللقب . معى قليل من الشراب ، أتسمحين بشيء منه ؟

ليرا : أنا لا أشرب غير الماء .

داين : والخمر ؟

ليرا : يشربها أبى وجرفث ، أما أنا فما تعودتها قط .

داين : إنها تحلو فى مثل هذه الساعة .

ليرا : ولكنى لا أحتسيها .

داين : ستحتسينها من يدى ، أترفضين ؟

ليرا : (بخجل) كلا ، ولو كان سماً .

داين : (يخرج زجاجة خمر وكأساً واحدة) عوفيت ياعزيزتى ، إنى أفتخر الآن بصداقتك ، وأكاد أحسد نفسى عليها . إنى أخجل أن أقدم لكى خمر ستار منستر فى مثل هذه الكأس الحقيرة . (يملأ ويناولها) .

ليرا : (تشرب) إنها لذيذة جداً . (تناوله الكأس) أتشرب أنت فى هذه الكأس ايضاً ؟

داين : (يتنهد) كان يمكنى أن أحضر كأسين . غير أنى تعمدت إحضار كأس واحدة .

ليرا : ولم ذلك ؟

داين : إن هذه الكأس قبل أن تمس شفتيك الجميلتين كانت لا تساوى شيئاً . أما الآن فهى تقدر بالملايين .

ليرا : (تحنى وجهها استحياء) وكيف ذلك ؟

داين : أترك الحكم لقلبك ، فهو أعدل شاهد وأصدق حكم .

ليرا : (تضع يدها على قلبها وتنظر إلى الأرض) لقد بدأت أفهم لغة القلوب . إنك مخلص ، يا سيدى اللورد . .

داين : (يشرب الكأس) شكراً لك يا إلـهة الجمال . إنى لا أحب الألقاب فى مجلس أنس كهذا . ليرا : اسمحى لى أن أسقيك كأساً بيدى . (يملأ الكأس) ها هى ذى . (يضع الكأس على شفتيها و يسراه تطوق عنقها) إشربى . .

ليرا : (تأخذ قطرة صغيرة فتهتز) كفانى الآن ، فإنى لم أتعودها .

داين : بالله عليك لا ترفضى . (يدنى الكأس من فمها) .

ليرا : (باستعطاف) يا سيدى ، (تمد يدها إلى الكأس) سأشرب .

داين : بيدى لا بيدك .

ليرا : (بخجل) أمرك (تشرب) لكنى إنى لا أستطيع أكثر من ذلك .

داين : (يلتصق بها) لأجلى . آه لو تعلمين (واضعاً يده على خدها) .

ليرا : (بخضوع) بحقك لا تحمِّلنى مالا أطيق .

داين : (يشرب ما بقى فى الكأس) لا بأس . فمن الذى يستطيع أن يصل إلى ما وصلت إليه ؟ أرانى أسعد مخلوق الآن .

ليرا : إنك تتكلم بلسانى يا داين . ولكن بماذا أشعر ؟ (تتأفف) أشعر أن الهواء بدأ يتغير ، فأين معطفى ؟ (تقف و يقف اللورد) .

داين : ها هو يا ملاكى . (يمسك بالمعطف) .

ليرا : عفوا ، يا سيدى .

داين : بيدى يجب أن ترتديه .

ليرا : هذا فوق الواجب يا سيدى . وهل يتنازل اللورد بأن يضع الرداء بيده الكريمة على كتفى ؟

داين : اللورد فى القصور ، أما هنا فإنه عبد .

ليرا : إن مقامك عظيم (ترخى يدها لتسحب الرداء) إنك أجهدت نفسك وأخجلتنى (وهو يحاول أن يلبسها إياه) .

داين : (يطوق عنقها بيديه من الخلف و يقبض بأنامله على شفتيها و يدنى فمها من فمه) آه ما ألذ الهوى ، وما أقسى الغرام ! (يقبلها قبلة حارة) .

ليرا : (تنتفض وتدفعه عنها باحتقار) إليك عنى . (تقف كالصنم شاخصة إليه) .

داين : (بخضوع) عفوا ! معذرة ! ليرا ، ليرا ، مالك لا تجيبين ؟ (يدنو منها فتبتعد) إنى أحبك . ما كان يجب أن أعترف لك بغرامى الآن ، وفى مثل هذه الساعة . ولكنه الحب . لم أقو على ضبط نفسى . (يدنو فتبتعد) أتخافين منى ؟ إنى أفضل أن أموت على أن أخيفك . آه لو تعلمين ! ليرا عفوا . لقد أذنبت ، فاغفرى . ليرا . الرحمة ! إنها نزغة الشيطان وطيش الشباب ، فعفوا أيها الهيكل اللطيف .

ليرا : (واجمة وصدرها يرتفع وهى تنكمش فى معطفها) لاعفو . . ولا مغفرة . الوداع يالورد ! (تنحنى) لا أمل فى أن ترانى بعد الآن . (تعدو مذعورة ، تخرج من الطريق التى دخلت منها) .

(يسدل الستار لتغيير المنظر بأسرع ما يمكن)

المنظر الثـانى

(غرفة بكوخ المطحنة ، وبها جرفث جالساً يطالع) .

ليرا : (تدخل وترتمى على مقعد) ما أتعس حظى ، ياليت أمى لم تلدنى ! . آه .

جرفث : (يهرع إليها) ماذا أصابك يازهرة الربيع ؟ و يلاه ! بالله لاتخفى عنى شيئاً .

ليرا : لاشىء ، بيد أنى قطعت مسافة طويلة على القدم . ولما كنت لم أتعود ذلك فقد أنهكنى التعب .

جرفث : إنك بكرت شوقاً إلى تعلم صيدالسمك فأين تركت المعلم ؟ ولماذا لم يصحبك فى العودة ؟

ليرا : (باضطراب) لقد ذهب .

جرفث : ولم الاضطراب ؟ أحدث مايزعجك ؟

ليرا : كلا لم يحدث شىء (تتنهد) لقد ذهب ولن يعود أبداً .

جرفث : لابد أن يكون فى الأمر شىء . فهل لحقتك منه إهانة ؟

ليرا : أتظنه وضيعاً حتى يقدم على إهانتى ؟

جرفث : قرأت فى وجهـه الشرف والأمانة . ذلك ماجعلنى أسمح لك بالخلوة معه . ولـكنى لم أفـكر فى طيش الشباب . ليرا ! إبنتى ! إذا كانت قد بدرت لك بادرة سوء ، فماذا يعتذر خادمك الشيخ إلى ضمـيره إذا لم يُرد الإهانة إلى صاحبهـا ناراً محرقة ؟ لـيرا (بشهامـة) إنى و إن كنت أدب على العصا ، فإنى لازلت أمام عـدوك شـاباً قوى الساعدين . .

ليرا : هدِّىء روعك . وأُعلم أنه قضى آخر لحظة من وقته الثمين بكل أمانة وشرف .

جرفث : ولماذا انصرف على عجل ؟

ليرا : خاف أن يتخلف عن موعد الباخرة .

جرفث : باخرة ! أيفارق لندن ؟

ليرا : (تتنهد) نعم ، إلى اليابان . وقد أرسل أمتعته أول أمس ، وسيلحق بها اليوم . (يسمعان صرخة شديدة من الخارج . تقف) إنى أسمع استغاثة . أنصت . إنه يطلب المعونة .

جرفث : (يهرع إلى الباب) استريحى أنت ، وسألبى نداء المستغيث .

تشاندس : (يدخل متوكأً على الباب) آه ، أظن أن ساقى انكسرت .

جرفث : يحمله (إلى مقعد) دعنى أر .

تشاندس : لا تمسنى . فالألم شديد . آه .

ليرا : مسكين ! (بشفقة) اعتن به يا جرفث .

تشاندس : شكرا لك يا سيدتى . (إلى جرفث) أرجوك ان تسعفنى بجراح ماهر . آه !

جرفث : (يفحص الساق) الأمر بسيط لا يحتاج إلى الجراح الماهر . إن قدمك مصدوعة فقط .

تشاندس : قدمى ؟ (يتوجع) ساقى كلها يا رجل . إنى أكاد أموت ألماً — ويلاه إنى سقطت من هذه الربوة الشامخة .

جرفث : ومن قال لك أن تقف على ربوة رملية ينهار رملها تحت أقل ثقل ؟

تشاندس : من قال لى ؟ آه ، سل الذى خلق هذه المناظر الجميلة ، لتكون خلوة للشاعر .

جرفث : عفوا يا سيدى ، فالمقام لا يدعو إلى فلسفة . إنك تحتاج إلى عناية .

تشاندس: آه (لنفسه) . . كل الناس لا يفهمون . . أسعفنى بربط ساق . (يتوجع) أرجوك .

جرفث : انتظر قليلا (يخرج) .

ليرا : هدئ من روعك ، فستستريح حالا . (لنفسها) مسكين .

جرفث : (يدخل ومعه أربطة من الشاش) . ها قد احضرت لك ما يلزم .

تشاندس: اسرع ، بالله عليك . . آه !

جرفث : (يبدأ بالربط وتساعده ليرا) لا تخف . لا تتألم .

تشاندس : اواه لا تضغط . . كن رحيما . . آه بالله عليك .

ليرا : تجلد يا سيدى ، فسيزول الألم .

جرفث : انتهى .

تشاندس : آه انى فى غاية الألم .

ليرا : إنك رجل فيجب ان تتحمل الألم مهما كان .

تشاندس: (بغرام) إنك ملك هبط من جنات الخلد .

دون تشستر: (يدخل) ماذا أرى ؟ من هذا ؟ أين معلم الصيد ؟ (يقف مبهوتاً)

ليرا : (تتنهد) أتسأل عنه يا ابى ؟

تشستر : نعم أين هو ؟ ومن هذا الذى يتألم ؟

ليرا : رحل إلى اليابان ـ وهذا كان يستغيث فأغثناه .

تشستر : إلى اليابان ؟ حسنا . (بعد قليل) وهذا ، ماذا أصابه ؟

تشاندس: لقد كسرت ساق ياسيدى . . آه !

تشستر : لعلك احسن حالا الآن .

تشاندس: نعم اشعر ببعض الراحة . (يتوجع) . .

تشستر : (يجلس) من انت ! وما سبب هذا الحادث ؟

تشاندس : انا جوفرى پارل (يغير اسمه) ، مولع بالنظم والموسيقى والتصوير ، وولعى بهذه الفنون الجميلة سبب لى ما حدث .

تشستر : وكيف اتفق ذلك ؟

تشاندس : شوقا لمراقبة شروق الغزالة ، وحبا فى نظم قطعة فنية ، حضرت من لندن ، وعلوت ربوة رملية . وبينما انا سابح فى بحر الخيال . زلت قدمى ، وانهارت الرمال ، فهويت . آه !

تشستر : (يضحك) إذن فأنت تجيد النظم ، يامستر پارل .

تشاندس : نعم . والموسيقى والتصوير . آه !

تشستر : يظهر أنك بلغت غاية هذه الفنون

تشاندس : ألم تقرأ شيئاً من نظمى ؟ ألم تسمع مقطوعة من ألحانى ؟ (يتألم) ألم يقع نظرك على صورة من رسمى ؟

تشستر : كلا . لم أر ، ولم أسمع .

تشاندس : آه لقد فاتك الحظ الأوفر . ولكنى ألتمس لك العذر . ذلك لأنك فى عالم آخر غير عالمنـــا .

تشستر : إنى أحمد الله الذى أقصانى عن عالمكم (يقف) كن مستريحا فإنى لا أحب أن أزيدك ألما .

تشاندس : أرجو سيدى أن يسمح للمس ليرا بالبقاء هنا لمساعدة هذا السيد (مشيراً إلى جرفث) .

تشستر : (يمشى إلى الباب) — (إلى ليرا) اتسمحين بالبقاء ياعزيزتى لتسلية ضيفنا غير المنتظم الحواس ؟

ليرا : ومتى تسمح لى ان افارقه ؟

تشستر : متى سئمت هذيانه . جرفث ! جهز الغرفة الشرقية وانقله إليها متى طلب الراحة (يخرج) .

ليرا : حسنا ، سأفعل .

تشاندس : شكراً لك ياسيدى ، وانت ياسيدتى .

جرفث : سأقوم بهذا يامولاى .

ليرا : (تجلس وتطالع فى كتاب) ياترى أين هو الآن ؟ (بصوت منخفض) وهل ذهب إلى غير عودة ؟ (تتوجع) .

تشاندس: (لنفسه) إنها تتألم . (إلى جرفث) هل تسمح لى بشربة ماء !

جرفث : (يقوم . يخرج) .

تشاندس: (يلتفت إلى ليرا) سيدتى ، هل يؤلمك وجودى ؟

ليرا : وكيف تتصور ذلك ؟ إنه ليسعدنى أن أراك بكامل صحتك وعقلك .

تشاندس: بكامل عقلى ؟ شكراً لك ياحسناء . إن جمالك أنسانى ما أنا فيه من الألم ، وهام بى إلى العالم السماوى ، ويروق لى أن أنظم الآن (يبحث عن مفكرته وقلمه) إنى فقدت مفكرتى .

ليرا : (تضحك) الحمد لله .

تشاندس: أتحمدين الله على فقد مفكرتى ، وقد خسرت بفقدها كل شىء ؟

ليرا : (بسخرية) إن وجود مفكرتك الآن يضاعف آلامك ، فخير لك أن تفقدها .

تشاندس: إنك لاتحبين لى الخير ، فما سبب ذلك ؟

ليرا : إنك سابح فى بحر خيالك .

تشاندس: أتوهم كل شىء . (يتوجع) دعينا من هذا ، واخبرينى . هل تشعرين بوحشة فى هذ الكهف المنعزل ؟

جرفث :(يدخل بالماء ويسمع السؤال الأخير) تفضل ياحضرة الفيلسوف ، وسأجيبك انا
على هذا السؤال .

تشاندس. (يرتجف) جوزيت خيراً . (يتأوه) .

جرفث : (يسترد الكأس و يجلس) كيف تشعر المس ليرا بوحشة ، وهى بين شيخين أوقفا
البقية الباقية من حياتهما على حراستها وحمايتها و بذلا قصارى جهدهما فى دفع الأذى عنها ؟

تشاندس : نعم ، فهمت ، فاعف عنى .

جرفث : لا بأس عليك . فما دعاك إلى هذا إلا ميلك الشديد إلى حب الاستطلاع ، شأن الشاعر .

تشاندس : هذا صحيح ، وإنى لتعجبنى منك هذه الشهامة .

جرفث : هاهى مولاتى زهرة الربيع تقوم بحاجتك حتى أعود . (يخرج وفى يده الكأس) .

تشاندس : (لنفسه) زهرة الربيع ماأبهج هذا الإسم ! إنه لينطبق عليها تماماً (لليرا) إنك
تشبهين عصفوراً فى قفص يازهرة الربيع باعتزالك العالم المتمدين والحياة الصحيحة .
(يتلفت خائفاً من جرفث) .

ليرا : (غارقة فى بحار الفكر) ياترى أين أنت الآن ؟ (غير ملتفتة إليه) .

تشاندس : أراك منشغلة عن كلامى ، وكأنك تسبحين فى عالم غير هذا العالم ، ياسيدتى

ليرا : أتظن أن مخلوقاً يخلو من الهم ؟

تشاندس : أنا خال من كل هم وحياتى لا يشوبها كدر ولم أعرف القلق (يتوجع) ولكن لا ،
إنك صادقة أيتها الحسناء . إنى بدأت أشعر أن قلبى يدق . فلى الشرف أن أقدم نفسى
فداء لك إذا احتاج الأمر .

ليرا : شكراً ياسيدى . إنى لا أحتاج إلى مساعدة إنسان . هل تحب أن تذهب إلى المخدع
الذى أعددناه لك لتستريح ؟

تشاندس : (يتأوه) . وما الداعى للعجلة ، وسعادتى فى أن اكون معك ؟

ليرا : لم أفهم معنى ماترمى إليه .

تشاندس : انت ايتها الروح اللطيفة ، لم تخلقى لتعيشى هنا ، بل حيث يتجلى ضوؤك بين من
يعرفون معنى النور .

ليرا : (تتأفف) كفى ياسيدى . (تقف) .

تشانلس : (يحاول الوقوف فتساعده إلى غرفته) إنك لأطهر ملاك وقع عليه نظرى حتى الآن . آه (يتوكأ على ذرعها) ليرا !

ليرا : شكراً . (تساعده حتى يخرجان . ثم تعود فترتمى على المقعد) . آه ؟ ياإلهى إنه ذهب غاضباً . لم أكن أعرف قبل الآن ماالهوى . أواه ! إنه يحرق الفؤاد (تتوجع) . ماأقساك أيها الإنسان الظالم لنفسه . أيها الحبيب الذى لاأعلم عن مستقره شيئاً . ترى ، أين أجدك ؟ هل يزورك طيفى ، كما لايفارقنى خيالك ؟ وهل لازلت على عهدى أم ضربت صفحاً عن غرامى ؟ علمتنى كيف أندب سوء حظى ، وعلمت مقلتى انهمال العبرات (تقف) داين ! داين ! وهل بقلبك الآن ذلك اللهيب الذى يتأجج ناراً فى جسدى ، أم تناسيت تلك التى تتعذب لبعدك ، وتذوب شوقاً إليك؟ ياإله السماء ! ياأشد ماأنا فيه ! ياالهول ماأقاسى من أجله ! (تضع يدها على جبينها) ثيودوسيا ، أين الرحمة ياربة الغنى والجاه ؟ أين السماحة والحلم ياأميرة قصر تودزيارته الملايين . (تبكى) يقول إنك طيبة القلب ، محبة للخير ، ولوعة بالإحسان . فهل تسمحين لى بمن أحب ؟ ألم تشفقى على زهرة كادت تلعب بها يد الفناء ؟ (تسكت قليلا) . كلا لن يكون ذلك أبداً . الأجلى ، أنا الفتاة الحقيرة التعسة ، تترك من خلقت من أجله ؟ انى أكون ظالمة بهذا الحكم . ومن الحسد أن أرفع نظرى إلى مقامكما الأسمى . فما أنا إلا ألعوبة فى يد الدهر وأضحوكة فى فم التعاسة . إنى حقيرة وفقيرة ، فمن الجنون أن أطلب المستحيل . إذن فلتطمئن ، أيها اللورد . وليتولك إله السماء . (تسقط على الكرسى)

تشستر : (يدخل) ليرا ! ليرا ! إبنتى ماذا أصابك ؟

ليرا : (تقف مرتجفة) سلمت ياأبى . لاشىء . إنى أحتاج إلى الراحة قليلا .

تشستر : هاتى ذراعك ياأبنتى . (يأخذ ذراعها) .

ليرا : (تمشى متوكئة على ذراع أبيها حتى الباب . تخرج و يبقى تشستر) .

تشستر : فى حراسة الله (ينادى جرفث) جرفث ! (يدخل جرفث) هل أعددت لى الشاى ، وهل انتهى عمل المنزل ؟

جرفث : الشاى ينتظر أمركم . أما أعمال المنزل فلم تتم بعد .

تشستر : أذهب فاحضر لى الشاى ، واستمر فى عملك (يخرج . جرفث لنفسه) آه يا إلهى ، مالى أرى المصائب لاتكاد تتركنى لحظة ، ماأشد ألمى ، وما أعظم خوفى . ماعساه أن يكون ! إنى لأكاد أذكر ليفى حتى يقشعر جسمى بمجرد ذكراه . ويكاد الدم يقف فى عروقى .

جرفث : (يدخل باضطراب) المستر دجارفن ينتظر أمركم .

تشستر : (يقف مذعوراً) دجارفن . ماذا عساه يطلب منى ؟ ولم يزورنى فى مثل هذه الساعة ؟ (إلى جرفث) هل يحمل أوراقاً ؟

جرفث : نعم . إن حقيبته مفعمة بالأوراق .

تشستر : أيمكنك أن تنكر وجودى ، أو أن تعتذر عن عدم إمكانى مقابلته ؟

جرفث : أما إنكار وجودك ، يامولاى ، فمستحيل ؛ ذلك لأنك لم تعودنى الكذب . وأما اختلاق سبباً للاعتذار فممكن .

تشستر : (بكبرياء) جرفث ! لاهذا ولا ذاك . دعه يدخل ، فقد قضيت ذلك العمر الطويل ولم أجبن أمام أشد الحوادث خطورة .

جرفث : تجلد يامولاى (يخرج) .

تشستر : (لنفسه) دقت ساعة الحساب . ياإلهى ، أسألك المعونة .

دجارفن : (يدخل و يتبعه جرفث) عفواً يامستر تشستر ، ومعذرة لدخولى عليك فى مثل هذه الساعة المتأخرة (رافعاً قبعته بشماله ومصافحاً تشستر بيمينه) .

تشستر : (يصافحه) أهلا بك ياصديقى دجارفن العزيز . هـذا بيت صديقك ، فيمكنك أن تلجه متى شئت و بغير استئذان . تفضل . (يجلسان) .

دجارفن : أشكرك ياعزيزى تشستر .

تشستر : (إلى جرفث) اذهب إلى عملك ، ياجرفث (يخرج جرفث) هل من خدمة ياعزيزى ؟

دجارفن : نعم ، مادعانى لزيارتك الآن إلا وجوب دفع المال .

تشستر : (بدهشة) المال ! وأى مال تعنى ياعزيزى ؟

دجارفن : كان يجب أن تعلم أن ذلك سيقع يوماً فتستعد لمقاومته .

تشستر : لم يخطر ذلك ببالى .

دجارفن : أجل فهذا شأن السادة أمثالك . أما رجال العمل فهم دائماً على استعداد .

تشستر : وكيف ذلك ياسيدى ؟

دجارفن : إنى أراك غير يقظ ياسيدى .

تشستر : لم أفهم بعد ماترمى إليه . فأفصح لى عن المسألة .

دجارفن : منذ سبع سنين أُستدنت مبلغ خمسمائة جنيه من ليفى المرابى .

تشستر : هذا صحيح . و بعد ؟

دجارفن : لوكنت تحسب لمستقبل ابنتك حساباً ، لما اقترضت خمسمائة بنس من هذا الرجل .

تشستر : (بدهشة) إنى لم أكن أعلم عنه شيئاً . فماذا جرى ؟

دجارفن : لاتأسف ، فقد فات الأوان . أنت استدنت المبلغ ولكن أتعلم كم دفعت فى فوائده ؟ إنك بلا شك تجهل ذلك . لاتندم فقد أصابك السهم . (يضحك) إنك دفعت ستين فى المائة على أدق حساب .

تشستر : إذن فهو يستبيح شرب الدماء .

دجارفن : وعلى الأخص دماء من لايقرءون العواقب . ومع هذا فليفى لايفكر أبداً فى الدين ، لأنه يجدد العقد كلما جاء يوم الاستحقاق . وذلك لأنه يثق فى قدرتكم على الدفع . ولسوء الحظ لقد انتقل هذا السند إلىّ وفاءً لدينٍ كان لى عند ليفى .

تشستر : (بارتياح) إذاً أنا مدين بالمال لك أنت الآن ، لاإلى صاحب الستين فى المائة ؟

دجارفن : نعم ، من قال لك إننى لا أطالبك بالأرباح ؟

تشستر : إذاً لابأس من تأجيل الدفع ، فإنى قادر على دفع الربح .

دجارفن : يسؤنى جداً أنى مضطر إلى رفض طلبك لأنى فى شديد الحاجة الى المال حتى لاتتوقف أعمالى . وفوق ذلك فإنى أريده حالا .

تشستر : مستر دجارفن ، تريده حالا ؟

دجارفن : نعم ، اذا قلت أريده ، فالمعنى أنى أريده الآن .

تشستر : وإذا كنت لاأملكه الآن ؟ ماالعمل إذاً ؟

دجارفن : وما ذنبي أنا ، وقد دفعت قيمة السند نقداً ؟

تشستر : ثق أنني لو كنت أملك المال لـكفيتك مؤونة طلبه . ولو كان عندى مايساويه ماتوقفت لحظة .

دجارفن : (ينظر فى الغرفة) يظهر أن مسألتى أدعى للأسف من مسألتك ، لأنى أرى جميع أثاث هذا الـكوخ وثمنه لايفى بنصف ماأطلب (يتلفت) الأثاث قديم ولست أرى فيه شيئاً له قيمة ، فهل عندك حلى يامستر تشستر ؟

تشستر : (بانزعاج) عندى حلى ؟ إذاً أنت تريد أن تبيـع أثاثى وأمتعتى وتخرجنى من بيتى ؟

دجارفن : المضطر يركب الصعب . أتحسب أنى أتخلى عن حقى ؟ إنك لابد أن يـكون لك أصدقاء .

تشستر : لا صديق لى واأسفاه ! ليس لى فى كل هذا العالم غير ابنتى . ابنتى الوحيدة المسكينة . إنى لاأظنك يا مستر دجارفن تقسـو لدرجة طردنا من عشنا الهادىء المطمئن ، (يتأوه) .

دجارفن : إنى حزين لأجلك من كل قلبى .

تشستر : كان لى مال ولـكنى ابتعت به أسْهُماً من شركة الترام الأجنبية ، مؤملا أن أربح ما أسد منه دينى ، وهأنذا أترقب الفرصة .

دحافن : إن هذا لمضحك . أتشترى بكل مالك أسهماً ، وانت لاتعلم عن هذه الشركة شيئاً ؟ إن أسهم هذه الشركة آخذة فى الهبوط السريع .

تشستر : نعم ، واأسفاه . فقد طالعت هذا النبأ فى صحيفة لندن ، ولـكن ربما تـكون قد صعدت بعد ذلك .

دجارفن : إذن سأمهلك أسبوعين . وتأكد أنى لا أسمح لك بعدها بيوم واحد .

تشستر : إنى أشـكر كريم عواطفك .

دجارفن : على هذا أتفقنا . ويلوح لى أنك قبلت . (يقف ويرفع قبعته) . إلى اللقاء . (ويخرج)

تشستر : (يقف فيشيعه إلى الباب . لنفسه) لقد دنا الأجل ، فلا قوة إلا بالله . إلهى ، أين أجـد

المـال ؟ آه ! كيف تـكون حياتى إذا طردت من بيتى . مسكنية أنت ياأبنتى ، لقد جنيت عليك .

جرفث : (يدخل) خفض عليك ، يامولاى ، ولا تيأس .

تشستر : جرفث . إذا انقضت المدة التى أعارنى إياها الزائر ولم أوف الدين ، طردت وابنتى من هذا البيت ، فواحسرتاه على خاتمتى ، ووا أسفاه على شيخوختى ! .

جرفث : لاتعجل بالحـكم يامولاى . وكم أعطاك من الزمن ؟

تشستر : أسبوعين فقط . فإن لم أوف دينى ، أصبح هو المالك المتصرف فى بيتى وما فيه (يبكى يقف) ساعدنى إلى مخدعى ، فإنى أشعر بانحطاط قواى ، وكأن زورة دجارفن لى كانت نذير الهلاك . (يتوكأ على ذراع جرفث)

جرفث : مولاى ، مالى أرى اليأس بالغاً منك غايته ؟ إنى قطعت معك شوطاً كبيراً من عمرك المملوء بالمصاعب ، فلم أكن أشعر باهتزازك أمام كوارث لاتعد هذه بجانبها شيئاً .

تشستر : لقد مات الأمل وقضى الأمر . فلا راحة إلا بالموت ، ولـكن ليرا (يبكى) إنى خلقت لأكون حزناً عليها . ليرا ! أعف عنى ياأبنتى ، ولا تلعنينى . أمّلت لك السعادة ، فضاع أملى ، وحبطمسعاى . أبنتى لم يكن هذا بخاطرى ، ولكن هى مشيئةالله فتجلدى يا أبنتى ، وأعتصمى بالصبر ، وإسألى الله لى الرحمة .(الى جرفث) جرفث ! احتفظ بهذه الجوهرة ، انها كبدى ، فاسهر على حراستها . (يسقط مغشياً عليه) .

جرفث : (ينظر إلى السماء) . رحمتك ، يا إله السماء .

« يسدل الستار »

الفصل الثالث

غرفة السكوخ السابقة . . تشستر يجلس بادى المرض على كرسى كبير ، وجرفث بجواره)

تشستر : اليوم موعد الجريدة يا جرفث . . فهل ذهبت ليرا لاستحضارها ؟

جرفث : نعم ، ذهبت . هل أحضر لك كأس الدواء ؟

تشستر : لا . إنتظر حتى تحضر ليرا .

ليرا : (تدخل ومعها الجريدة) أبت ، (تطوقه بذراعيها) كيف أنت الآن ؟

تشستر : أحمد الله يا حبيبتى (يقبلها) .

ليرا : ها هى الجريدة ، يا أبتاه .

تشستر : (يتناول الجريدة بلهفة ويقرأ) .

جرفث : (يقوم) إنى ذاهب لتجهيز الطعام (يخرج) .

تشستر : (يصرخ فتقع الجريدة من يده ، ويرتمى على المقعد) . و يلاه ضاع الأمل (يتحشرج صدره) :

ليرا : (تستغيث وتقف كالمجنونة) المعونة . آه ، يا أبت . ماذا أصابك ؟ (تركع) . . ماذا دهاك ؟ (تبكى) إلهى ! (تجرى إلى الباب) جرفث ! جرفث !

تشاندس: (يدخل وهو لا يحسن المشى و ينحنى على تشستر .) لا تخافى يا مس ليرا . لا تضطربى الأمر بسيط . على بقليل من الماء (تخرج ، لنفسه) السر فى هذه الجريدة (يدفعها برجله تحت المقعد) .

ليرا : (تدخل ومعها الماء) ها هو الماء يا مستر بارل (باضطراب) ماذا دهاه ؟ (تنحنى على أبيها) هل أختبرت نبضه ؟

تشاندس: آه ، رحماك يا أبى .

جرفث : (يدخل منزعجاً) مولاى ! ماذا جرى يا مستر بارل ؟ و يلاه (ينحنى على سيده) .

تشاندس: لا شىء هدىء من روعك . إنه فى إغماء وسيفيق بعد قليل .

جرفث : (يضع أذنه على قلبه) مولاى ! مولاى ! (يبكى) .

تشستر : (يتحرك) آه ! بماذا أشعر ؟

ليرا : (بفرح إلى جرفث) إنه يتكلم (تقبل أباها) وافرحتاه !

تشستر : (يمد ذراعيه لابنته ويتأوه) آه ، ابنتى المسكينة .

ليرا : ماذا أصابك يا أبت . ماذا جرى ؟

تشستر : آه يا ليرا . لقد قضى الأمر . (إلى تشاندس) أشكرك ياسيدى لحسن عنايتك .

تشاندس : عافاك الله ياسيدى . لاشكر على واجب . (إلى جرفث) يجب أن تنقله إلى مخدعه ولنسرع باستدعاء الطبيب (يحمله جرفث وتساعده ليرا ويخرجان) إنى لاحق بكما متى أصلحت رباط ساقى (لنفسه) يجب أن أعرف سر هذه الجريدة . (يأخذ الجريدة بتلهف) ها هو السر . (يقرأ) شركة ترام بانجويلا ليمتد . إن . . إن أسهم هذه الشركة سقطت إلى الصفر . (يقطع الجزء المكتوب ويخفيه فى ملابسه) . الآن ظفرت بليرا . . فيجب أن أقوم بتمثيل دورى بمهارة (ينادى) جرفث . جرفث (يدخل جرفث) .

جرفث : (بألم) لايزال فى إغفاء شديد .

تشاندس : إذاً ، أسرع باستحضار أقرب طبيب . (يخرج جرفث مسرعاً)

تشاندس : (لنفسه) يجب أن أفاجئها بالخطر الذى يتهدد أباها ، وأفهمها أنى الوحيد الذى يستطيع دفع هذا الخطر عنها وعن أبيهـــا ، وأعدها بدفع الدين إلى دجارفن يوم الأجل المضروب . وإذ ذاك أكشف لها عن رغبتى فى الاقتران بها . نعم . إنه من السهل جداً على فتاة مهددة كليرا أن تقبلنى زوجاً لها متى رأت أنى أفتديت شرف أبيها بالمال (يجلس) ماأسعد حظى ! هذا ما كنت أمنى نفسى به ! سأدفع مبلغ الخمسمائة جنيه لقضاء لباناتى من هذه الغادة الهيفاء ، ثم أطلق ساقىَّ للريح ، فأذهب حيث لا تعلم عنى شيئاً .

جرفث : (يدخل) لقد حضر الطبيب ، وهو يعود مولاى الآن . فهل لك أن ترافقه يامستر بارل .

تشاندس : حسناً ، هيا بنا . (يخرجان) .

ليرا : (تدخل) لماذا منعنى المستر بارل من حضور مايقرره الطبيب ؟ بل لماذا سألنى أن أنتظره فى ردهة الاستقبال ؟ إلهى ، ماغرضه ، ولم أتعوَّد الانفراد به ؟ (تجلس) إنى أقرأ فى وجهه الميل إلىَّ ، وأشعر من نفسى النفور منه . يخيل لى أن هـذا الشيطان إنما يضمر لى الشر . ولـكنى مع هذا سأنتظره لأعلم منه سر هذه المقابلة .

تشاندس . (يدخل) عفواً يامس ليرا ، فإنى سألتك الخلوة بضع دقائق لأمر ذى بال .

ليرا . (بلهفة) ماذا قال الطبيب عن أبى ؟

تشاندس . إطمئنى ياسيدتى فلم يذكر عنه إلا كل خير ، غير أنه يحتاج إلى ممرض لايفارق فراشه ، لذلك كلفت جرفث بهذه المهمة .

ليرا . (لنفسها) لقد صدق ظنى ، هاأنا ذى طوع إشارتك .

تشاندس . أعيرينى سمعك ياسيدتى ، أتعلمين ماقاله لى الطبيب عنك ؟

ليرا . عنى أنا ؟

تشاندس . نعم ، إنه عندما رآك أشفق عليك من السهر والاهتمام بأمر المريض ، وقال إنك تنهكين قواك ، إذا واصلت السهر .

ليرا . (بأسف) المريض ! أنسيت أنه أبى ؟ إنى ممتلئة قوة وشباباً ، فما معنى ذلك ؟

تشاندس . إن مرض أبيك لايعد شيئاً أمام هول المصيبة .

ليرا . المصيبة ، وأية مصيبة تعنى ؟

تشاندس . إنه سر كان يجب أن أكتمه عنك .

ليرا . أرانى أقوى على احتمال أشد المصائب ، فلا تأخذك الشفقة بى .

تساندس . إنها عثرة لسان يامس ليرا ، وما كنت أود أن أبوح لك بشىء .

ليرا . لِمَ ياسيدى ؟ إننى أبنته وليس له فى الدنيا سواى .

تشاندس . إنى سمعت بعض الحديث بالصدفة .

ليرا . (بتوجع) وماهو هذا الحديث ؟ لاتتردد بالله عليك .

تشاندس . كلا ، لا أجسر أن أبوح لك بشىء .

ليرا . رحمـــاك !

تشاندس . هونى عليك ياليرا ، وأجلسى بجانبى كى أشرح لك الموضوع .

ليرا . (تجلس) عجلّ .

تشاندس . إنها مسألة مالية ، فهدئى من روعك . (يجلس) . لقد اكتشفت من محادثة طويلة دارت بين أبيك ورجل مالى أن اباك اقترض مبلغاً كبيراً منذ سبع سنين ، وكأنه نسى الدين لطول عهده .

ليرا : دين ! (باندهاش) أأبى يستدين ؟ إنى لا أظنه فقيراً .

تشاندس : لم أكن أعلم عن أسرار أبيك شيئاً ، وكنت أظنه واسع الثروة ، لذلك أخذتنى الدهشة عندما رأيته يبكى أمام المرابى .

لير : أبى ! (باندهاش)

تشاندس : والذى ضاعف دهشتى أن المبلغ زهيد جداً وهو خمسمائة جنيه فقط .

ليرا : (بذهول) خمسمائة جنيه . إنى لا أصدق ذلك . فأبى غنى .

تشاندس : (يضحك) غنى ؟ وما الذى أخره عن الدفع ؟

ليرا . (تبكى) وارحمتاه !

تشاندس : لا تعجبى من هذا . لم يكن أبوك أول غنى زالت عنه ثروته .

ليرا : هل ما تقوله صحيح ؟

تشاندس : نعم . إن الضربة لشديدة . وإنه ليدمى فؤادى أن يطرد هذا الشيخ الجليل من بيته .

ليرا : (تصرخ) إلهى هذا فوق ما أحتمل . (تسقط) .

تشاندس : (يحملها بين ذراعيه ويجلسها) ليرا ! ليرا ! الخطب جالل ، والمصيبة عظيمة . ولكن أجيلى نظرك فيما حولك ، عساك تجدين صديقاً ينقذك .

ليرا : آه ، إنى عديمة الأصدقاء (تفكر) ولكن لا . و يلاه إنه بعيد (تبكى) بعيد جداً حيث لا أعلم عن مستقره شيئاً .

تشاندس : بصوت خافت (لنفسه) ويلاه ، ألها صديق ؟

ليرا : (تفيق) لا تفكر فيما أهذى به . آه . وآأسفاه !

تشاندس : وهل نسيت أن لك صديقاً يتمنى لك أية خدمة ؟

ليرا : (تقف) أين هو ؟

تشاندس : تفرسى فىّ مليا . ألا يمكن أن تسمحى بمصادقتى ؟ مرى تجدينى عبداً .

ليرا : وهل تتنازل بصداقتنا ، وقد علمت أننا فقراء ؟ (تتنهد) .

تشاندس : وهل هذا يحتاج إلى شك ، أيتها العذراء الشريفة ؟ أنعتقدين أن الفقر عار ؟ ضعى يمينك فوق صدرى تعلمى لمن يخفق الآن .

لـيرا : (باستغراب) أنحن فى موقف غرام ؟

تشاندس : (بخداع) إنه الحب . ليرا . إنى أعبد هذا المحيا النضر . أنشكّين فى حبى ؟ أعيرنى سمعك ، واستحضرى الرحمة من أعماق قلبك الطاهر ، يتجلّ لك صدق . ليرا ! إن كلمة واحدة منك تنقذ أباك .

لـيرا : أأنت تدفع الدين عن أبى ، إذا قبلت حبك وصداقتك ؟ (تتنهد) .

تشاندس : هذا ما لاريب فيه .

لـيرا : ولماذا تحتمل بلاءً وقع على غيرك ؟

تشاندس : إنه الحب الذى يدفعنى إلى ذلك . هل تشكين فى حبى ، يامس ليرا ، وأنا انتفض وجداً بين يديك الآن ؟ (بخداع) ليرا . . تصورى أباك وما هو فيه ، واذكرى مصيره بعد أيام . وقارنى بين عزّك اليوم وتعاستك غداً وثقى أننى أدفع عنك الكارثة فأستحق على ذلك الحب منك .

لـيرا : لم أفهم مرادك من الحب .

تشاندس : لم تفهمى مرادى ؟ أن هذا العجيب . أأقدم نفسى فداء لشرف أبيك ، ولا أستحق منك كلمة شكر ؟

لـيرا : أمرادك منى أن أشكرك ؟

تشاندس : ذلك على الأقل .

لـيرا : إذا كان هذا غرضك ، فإنى أقدم لك عنى وعن أبى وافر الشكر اعترافاً لك بالجميل ، وأقبل صداقتك .

تشاندس : إنى أقبل منك هذا ، أيتها الفاتنة ، وأستزيدك رحمة بى وشفقة على .

لـيرا : إذاً أنت تريد أكثر من الشكر والصداقة ؟

تشاندس : نعم، ياليرا أنى أتمنى أن أقدم حياتى ومالى فداء لك وأبيك .

لـيرا : إن شريف عواطفك تضطرنى أن أقبل أكثر مما ذكرت .

تشاندس : عدينى أن تكونى زوجتى ، وأنا أنقذ أباكِ من خطر الدين (بتوسل) .

لـيرا : (تهم ، وتسحب يدها من بين يديه) ذلك لن يكون ، أقام الم أم قعد ؟ !

تشاندس : ليرا . . ماذا أسمع ؟ أترفضين يد من قدّم إليك ماله وحياته ، أيتها العذراء ؟

(يقف) أزيحى قليلا هذا الغطاء عن عينيك ، ينكشف لك عن هول المستقبل وسوء المنقلب . وإذ ذاك تعلمين أننى إنما أردت بك خيرا . واحكمى بعد ذلك بما تشائين .

ليرا : (تقاطعه) كفى ، كفى .

تشاندس : إن كلمة واحدة من فمك الطاهر تبعث رسول الرحمة إلى أبيك المسكين . ليرا . . .
إن السعادة بين شفتيك . تكلمى . مالى أرى جبينك يتصبب عرقاً ؟ ألحقتك منى أهانة ؟

ليرا : كلا (مرتجفة) .

تشاندس : ليرا ! إنى أنتظر أحد أمرين ، القبول أو الرفض .

ليرا : (تتنهد) ياإلهى ، إنك أحرجتنى . (تبكى) مستر بارل ، أنقذ أبى ، وأنا أقبل ماتريد (وتسقط على المقعد واضعة يدها على جبينها) .

تشاندس : (لنفسه) وأفرحتاه ! (إلى ليرا) إنى سأقوم حالا بوفاء الدين .

ليرا : شكراً لك . (يتأوه) .

تشاندس : إنك الآن تحسنين إلىَّ و إلى أبيك . (يقترب منها) ما أوفاك فى عينى الآن !

ليرا : (تبعده بلطف) تمهل . هكذا أرادت مشيئة الله . إبق هنا حتى أخطر أبى وجرفث بذلك ، وما إخالهما يرفضان .

تشاندس : (برعب) لا تفعلى هذا يا ليرا ، إذ يجب أن نخفى ذلك عنهما .

ليرا : (بتعجب) لا أفعل ؟ . أيجب أن أخفى ذلك ؟ (بدهشة) إنه من الشهامة إعلان الزواج فهل هنا لك سر ؟

تساندس : (بخبث) نعم ، أعيرنى سمعك . إن ثروتى العظيمة تحت إشراف أحد أفراد أسرتى . وإذا أعلن زواجى هذا الآن كان سبباً فى ضياع تلك الثروة الكبيرة ؛ ونحن فى حاجة إلى المال ، لأنك كما تعلمين فقيره .

ليرا : (بذهول) زواجى يقضى على ثروتك بالضياع ؟

تشاندس : ليس زواجك فقط ، بل كل زواج بغير شرط الوصية .

ليرا : أنشترط الوصية زواجا خاصاً ؟

تشاندس : بلى ، ولكن إلى أجل محدود ينصرم بعد سنة . وحينئذ أكون حراً مطلق التصرف

ليرا : إذاً نؤجل زواجنا حتى تحصل على ثروتك .

تشاندس : (بخوف) والدين ؟ . أنسيت أن أجله قد حل ؟

ليرا : ولم لا تقوم بالسداد ويكفيك منى العهد ؟

تشاندس : و من يضمن لى ذلك ، والعذارى قلوبهن هواء ؟

ليرا : كأنك تطعن فى أمانتى .

تشاندس : (بغضب) إذاً أنت ترفضين ، والرفض يفضى بأبيك إلى الهلاك . فهل تختارين له التعاسة والشقاء ؟ . أنت لا تعلمين الخطر المحدق بكم . إنكم بعد ثلاثة أيام ستطردون جميعاً من هذا الكوخ والمزرعة و يسلب منكم قهراً جميع ما تملكون .

ليرا : (تبكى) آه يا آلهى وارحمتاه !

تشاندس : لا تجزعى يا ليرا ، فقد وفق الله لك منقذاً يحبك من كل قلبه .

ليرا : ليكن ما أراده الله .

جرفث : (يدخل) لقد طال انفرادكما ، فهل لذلك من سبب ؟

ليرا : (باضطراب) وأبى ، كيف هو الآن ؟

جرفث : (بامتعاض) أبوك ! أظن أنه لم يعد يهمك أمره . وإلا لما تأخرت عنه وهو يناديك فى غيبوبته ، فلا يجاوبه غير صدى صوته (إلى تشاندس) أبهذا تدعوك المروؤة يامستر بارل؟

ليرا : (برجفة) يدعونى أبى فلا يجدنى ؟ (تجرى إلى الباب وتخرج) .

جرفث : فيم كنتما تتباحثان ؟

تشاندس : كنا نتكلم فى أمر العناية بالمريض .

جرفث : (بسخرية) المريض بين يدى رحمة الله ، وهو فى حاجة إلى الدواء ، وسأذهب لاستحضاره من بترال . فكن حارس المنزل حتى أعود .

تشاندس : أأنت فى حاجة إلى مساعدة مالية ؟

جرفث : (بازدراء) ومن قال لك إننا فقراء ؟ (يخرج مسرعاً) .

تشاندس : (لنفسه) لقد تم مرادى ، وحالفنى التوفيق ، بأن صرفت التحويل . سأشترى تلك الغادة بمبلغ خمسمائة دينار . وإنه بلا شك ثمن بخس . إنى نسيت الكاهن . وأين

أجد كاهناً يقبل أن يعقد لى عليها ؟ وماذا يكون جوابى إذا علم أنى اختلسها ؟ (حيرة) وإذا تم العقد ، فهل يتيسر لى الهرب ؟ و لو علم داين بذلك فكيف يكون موقفى أمامه ؟

جرفت : (يدخل) مستربارل ، إنى لم أكد ابتعد عن المنزل حتى اعترضنى رجل . وسألنى عنك .

تشاندس : (برجفة) عنى أنا ؟ وبماذا أجبته ؟ وهل ذكر لك اسمه ؟

جرفت : نعم ، علمت أن اسمه روبرت رودن .

تشاندس : (مدهشة) روبرت رودن ؟ وكيف علم هذا الرجل إننى هنا وبماذا أسمانى ؟

جرفت : (بتعجب) بماذا أسماك ؟ . وهل لك اسم غير دوجرفرى بارل ؟

تشاندس : كلا .

جرفت : إنه وصفك دون أن يسميك .

تشاندس : (باطمئنان) كيف وصفنى ؟ وما ملخص هذا الوصف ؟

جرفت : سألنى عما إذا كنت من سكان هذه الناحية ، وعما إذا كنت أعرف العائلة التى تسكن هذا الكوخ ، فأجبته بقولى أنا من سكان هذا الكوخ . فعلى من تسأل ؟ . فأردف قائلا : أسأل عن سيد بلغنى أنه نزل ضيفاً على أهله .إثر حادث ألم بساقه وأزيدك أيضاحا أنه شاعر وموسيقى فعلمت أنه يسأل عنك .

تشاندس : (باهتمام) وماذا كان جوابك ؟

جرفت : قلت نعم ، إنه لا يزال عندنا . . أتحب أن تراه ؟

تشاندس : لا بأس ، دعه يدخل . واذهب فى لقضاء حاجتك .

جرفت : إنى عهدتك شريفاً . لذلك سأذهب مطمئناً (يخرج) .

تشاندس : (لنفسه) هاقد حضر الشقى روبرت . فلأستخلصنه لنفسى . إنه شيطان رجيم . وهو نعم الكاهن المطلوب .

روبرت : (يدخل) المعذرة ، ياسيدى تشاندس (رافعا قبعته) إذا جاءت زيارتى على غير دعوة منك

تشاندس : أهلا بك يا روبرت .

روبرت : لقد دعتنى إليك الحاجة الشديدة ، يا لورد .

تشاندس : وأنا لا أنكر الوفاء بوعدى .

روبرت : لقد أوشك الدائنون أن يسدوا فى وجهى جميع الطرقات .

تشاندس : (يضحك) إنك داهية ، يا روبرت . أخبرنى كيف علمت أننى هنا ؟

روبرت : انتظرتك طويلا ، فلما لم تشرفنى بزيارتك ، كما وعدت ، تنسمت أخبارك .

تشاندس : حسنا، لقد كنت أفكر فيك قبل دخولك علىّ ببضع دقائق ؟

روبرت : (بدهشة) عسى أن يكون الأمر خيراً .

تشاندس : رأيت أن أنفحك بمبلغ كبير ليكون لك رأس مال يضمن لك حسن المستقبل .

روبرت : (بدهشة) مبلغ كبير ! إنك بذلك تبرهن على مجد أجدادك .

تشاندس : سأنقدك خمسين ذهباً .

روبرت : (بدهشة) خمسين ذهباً ؟ إنى لا أكاد أصدق ذلك .

تشاندس : إنها الصداقة تدفعنى إلى مساعدتك ، يا عزيزى روبرت .

روبرت : سأتمكن بهذا المال من القيام برحلة تعود علىّ بالثروة .

تشاندس : وسفرك إلى بلادك ثانية هو جل مرغوبى .

روبرت : (بدهشك) جل مرغوبك ! إن هذا لعجيب .

تشاندس : إنى أتمنى لك السعادة والخير من وراء ذلك السفر .

روبرت : لقد عدنا إلى الفلسفة ، إذ يريبنى منك هذا العطاء .

تشاندس : إنه يهمنى أن يكون صديقى غنياً ، فأبعد عن رأسك سوء النية .

روبرت : الآن صرت على تمام الثقة ، فهل يمكنك أن تدفع لى الآن شيئاً على الحساب ؟

تشاندس : لاشك .

روبرت : (بدهشة) إنك تعاملنى اليوم معاملة ما كنت أتوقعها . ويغلب على ظنى أنك ستطلب منى قضاء مهمة .

تشاندس : لاتكن كثير الفضول ، ياروبرت ، فستصبح سعيداً .

روبرت : إنك أسرتنى بلطف معاملتك . وستجدنى طوع أمرك من الآن .

تشاندس : (بدهاء) ولولا ثقتى بك ما أخترتك (يضع يده على كتفه) روبرت ! أتذكر عهد المدرسة ؟

روبرت : نعم .

تشاندس : استجمع ذاكرتك . واذكر السنة الأخيرة من دراستنا ، وأخبرنى هل تتمثل أمام عينيك الرواية التى مثلناها فى ذلك العهد ؟

روبرت : نعم وأتخيلها الآن . وكنت فيها تجيد تمثيل البارون أليس كذلك ؟

تشاندس : (يضحك) ونسيت أنت الدور الذى كنت قائماً بتمثيله ، وأحرزت فيه السبق على جميع الممثلين .

روبرت : (يضحك) نعم . القس .

تشاندس : منذ ذلك العهد شاهدت روايات عديدة . ولم أوفق لرؤية ممثل أجاد دور القس إجادتك إياه لذلك أطلب منك تمثيل هذا الدور غداً فى التاسعة صباحاً

روبرت : (بدهشة) غداً فى التاسعة صباحاً !.

تشاندس : نعم لتعقد زواجاً بين شاب وفتاة .

روبرت : لاشك أنك تمزح ، إذ كيف يكون العقد محترماً أمام القانون ؟

تشاندس : دعنا الآن من القانون ، وافترض أنك تمثل ذلك تمثيلا . .

روبرت : الممثل غير مسؤول بالورد .

تصاندس : لك ذلك . . فأجبنى : هل تقوم بهذه المهمة فتستحق الذهب ، أو ترفضها فأضطر لمساومة سواك ؟

روبرت : (باهتمام) وأين يكون العقد ؟

تشاندس : فى كنيسة القديس مرقس القديمة .

روبرت : على الضفة اليمنى من نهر التو .

تشاندس : إذاً يجب أن تكون هناك قبل الساعة العاشرة من صبيحة الغد .

روبرت : ومن هما ؟

تشاندس : أما الشاب فهو أنا .

روبرت : (بدهشه) أنت نفسك ؟

تشاندس : نعم ، ألم أقل إنها ألعوبة ؟

روبرت : وهل هى راضية ، وتعلم سر الموضوع ؟

تشاندس : عليك أن تقوم بواجبك كقس حقيقى . سلها أراضية هى أم لا ، وسوف تجيبك .

روبرت : (بانزعاج) إسمح لى أيها السيد أنى أشعر بأن هناك سراً ، وأخشى أن يكون خطراً علىّ .

تشاندس : إطمئن ، فلا خطر عليك .

روبرت : ومن هذه الفتاة ؟

تشاندس : هذا ليس من شأنك :

روبرت : وهل سنكون وحدنا فى الكنيسة ؟

تشاندس : خوفاً من افتضاح أمرك ، سأحضر معها فقط . فهل أنت على استعداد ؟

روبرت : تنقصنى ملابس القس ، وسأستأجرها اليوم .

تشاندس : (يضع يده فى جيبه ويخرجها بالذهب)خذ هذا على الحساب . يجب ألاّ تستريب بك الفتاة .

روبرت : كن مطمئناً (يعد الذهب) والباقى من الخمسين ؟

تشاندس : سأدفعه بعد تمام العقد .

روبرت : (يمد يده) إلى الملتقى .

تشاندس : (وهو يصافحه) غيرت إسمى هنا ، فأصبح دجوفرى بارل . (بصوت خافت) فإذا صادفك الخادم الشيخ وسألك فلا تنسى .

روبرت : فهمت دجوفرى بارل (يخرج) .

تشاندس : (لنفسه) لقد تم كل شىء . وأصبحت ليرا لى ، ألهو بها ماشئت . فيالسعادتى !

جرفث : (يدخل ومعه الدواء) لقد أحضرت الدواء .

تشاندس : حسناً . أسرع إلى المريض . (يدخل جرفث إلى مخدع المريض)

تشاندس : سأمثل دورى الأخير ، متى حضرت ليرا .

ليرا : (تدخل متلفتة) يخيل إلىّ أنى كنت أسمع محاورة هنا . كانت تدور بينك وبين رجل آخر . . فهل أنا على يقين ؟

تشاندس : (باهتمام) هل وصل إلى سمعك منها شيء .

لـــيرا : كلا إني كنت منصرفة بكليتي إلى العناية بأبي .

تشاندس : اسأل الله له تمـام الشفاء .

لـــيرا : شكراً ، يامستر بارل .

تشاندس : لقد دعتني حوادث مهمة وظروف حرجة إلى المبادرة بإتمام عقد زواجنا قبـل فوات الوقت

ليرا : إنك غريب الأطوار ياسيدي . ماهي تلك الدواعي المهمة ؟

تشاندس : هنا لك سببان قويان . أولهما أنه وردت الآن رسالة إلى أبيك من مستر دجارفن الدائن يطلب فيها وجوب وفاء الدين بعدغد ، وإلا أضطر إلى تنفيذ ما اتفقا عليه ورفقاً بحال أبيك ، سأخفي عنه ذلك .

ليرا : ويلاه ! (مرتجفة) أين هذه الرسالة ؟

تشاندس : هاهي معي لأبرهن لك بها على صداقتي وحسن نيتي (يهمّ بإخراجها ليوهمها أن ذلك حقيقي) .

ليرا : (بسذاجة) دعها إنك صادق . تـكفيني منك الصراحة .

تشاندس : أما الثاني ، فقد حمل إلى الرسول الذي كان هنا الآن نبأ مزعجاً ، لا وهو أن عمتي البارونة في فراش النزاع ، وهي لاوريث لها وتسألني العودة حالا لأستلم الوصية .

ليرا : (تتنهد) إذاً ستسافر حالا ؟

تشاندس : يمكنني تأجيل السفر إلى ما بعد إتمام العقد غداً .

ليرا : ولم هذه السرعة ؟

تشاندس : لأدفع المبلغ مطمئناً هادئ البال .

ليرا : وماذا عليك لو دفعت المبلغ وسافرت ، وبعد عودتك يتم ما أردت ، وربما تماثل أبي للشفاء ، فيشترك معنا في هذا الزفاف ؟

تشاندس : كان بودي أن أقوم بجميع أوامرك . غير أني أخشى تغيير رأيك .

ليرا : أتخشى أن أنقض عهدك ؟ أقسم لك بأبي وأمي . . .

تشاندس : لاداعي للقسم ، وخير البر عاجله .

ليرا : آه ، ولـكن . . . .

تشاندس : لاترددى وتشجعى .

ليرا : أنشترينى بالمـال ، يامستر بارل ؟ إنى أعتبر هذا قسوة منك .

تشاندس : كفى . ها أنا راحل عنك . آسف لرفضك يدى .

ليرا : (تبكى) إرحم دموعى ، يامستر بارل ، أيسمح شرفك أن تترك هذا الذى وسعك فى منزله واعتنى بك أيام آلامك لـكى يذهب ضحية المال ؟

تشاندس : كفى أيتها العذراء . فإنقاذ أبيك يتوقف على كلمة منك .

ليرا : آه ! أيها القاسى ألا تزال مصمماً . (تتنهد)

تشاندس : لن أتحول قيد شعره عن عزمى . وأقسم لك بشرفى أنك إن لم تذعنى لأمرى ارتحلت عنكم حالا . إن كلمة واحدة تزف إليك السعادة .

لـيرا : أليس للرحمة سبيل إلى فؤادك ؟

تشاندس : لا أمل فى استعطافى ، أيتها العذراء . واحد من اثنين إجابة أم رفض .

لـيرا : (بجنون) تمهل . انتظر ياصاحب المـال . نج أبى ، وافعل ماشئت (تبكى) .

تشاندس : (يعود عودة الظافر) إنك الآن تستحقين حبى ، يامس لـيرا . فهل أنت راضية عن زواجنـا ؟

لـيرا : والمـال ، أتدفعه حالا متى قبلت ؟

تشاندس : بلى ، وها أنا على قدم الاستعداد . فغداً صباحا يعقد العقد ويدفع المـال .

لـيرا : (برعب) ويلاه . غداً يتم هذا الزواج العجيب !

تشاندس : فى كنيسة مرقس القديمة .

لـيرا : (بذهول) ياآله السماء ! (لنفسها) أأدنس هيكلها المقدس ! آه . كيف أطرد خياله عنى . ياآلهى . (تسقط) .

تشاندس : (يساعدها على النهوض) ماذا أصابك ؟ (لنفسه) بماذا كانت تتمتم كأنها مأخوذة ! لابد أن يـكون لها سرٌّ سأ كتشفه بعد . (إليها) انهضى ياليرا .

لـيرا : (تفيق قليلا . وهى تهذى) زواج ؟ هيكل القديس مرقس ؟ كهف صباى ؟ لا ! لا !

تشاندس : لـيرا ! عودى إلى رشدك .

لـيرا : (تمسح جبينها) نعم . (تقف) أنقذ أبى . وأعلم أن ليرا العذراء باعت نفسها لتفدى شرف أبيها .

تشاندس : مسكينة أنت ، ياليرا . (يضع يده على كتفها) أعيرينى سمعك ، سأذهب إلى برنستابل الآن لاستحضار المـال . وأعود فى الثامنة صباحاً إلى الـكنيسة مصحوباً بالأب المحترم . فيجب أن نجدك . ولن يكون لنا رابع أفهمت ؟

لـيرا : نعم ، فهمت .

تشاندس : وماذا أنت قائلة ؟

لـيرا : (تنتحب) لاشىء . وإن لم يتيسر لك الحصول على المـال ، فماذا يكون العمل ؟

تشاندس : التحويل معى ، فاطمئنى جداً . إلى الغد (يخرج) .

لـيرا : (لنفسها) ما أشد ما أقاسى ! (تسقط على الـكرسى) آه . أين أنت يا أماه ؟ إنى أكاد أرى روحك الطاهرة تحلق بأجنحة رحمتها فوق غصن شبابى الذابل . أماه ، كيف تتركيننى فريسة هذا الوحش القاسى ، ينشب مخالب قسوته فى هيكل أبنتك المقدس ؟ أبت ، أين أنت لتذود عن ابنتك ؟ لقد ضرب سوء طالعى حولك سورا من حديد . . (تقف) ويلاه بماذا أشعر ؟ ماذا أرى ؟ أفى يقظة أنا أم فى منام ؟ لورد داين ، أيها الحبيب ! أين رحلت عنى شهامتك فى وقت الحاجة إليها ؟ عفواً أيها الشريف ، إنى مرغمة . ترى أين أجدك الآن قبل أن يفوت الوقت ؟ (تتنهد) إلهى أنت وحدك القادر على الأخذ بناصرى . فإليك أضرع وبك أستجير . إلهى أترضى أن أبيع نفسى كالسلعة ؟ أقدّرت على العذاب ، وكتبت لى الشقاء ؟ أنا لم أقترف ذنبا أستحق عليه هذا الجزاء . فلم كتبت على التعاسة والشقاء ؟ (تبكى) إلى أى حمى غـير حماك ألتجىء ؟ وبأى قدرة غير قدرتك أتوسل ؟ كـنت أكل أمرى إلى أبى وحبيبى ، بيد أن مشيئتك أقصتهما عنى . (تبكى) إلهى إنى أكاد أجن من هول هذه الضربات المتواليات . آه ، ماذا أرى ؟ (بحزن) وحقك يا ملك الموت (تركع) رفقا به ، رحمة بأبى . أتوسل إليك ، اتركه لى . (تبكى) . أيتها الروح الطاهرة ، أتوسل إليك بدموعى (تحـدق ببصرها وترتجف فاتحة ذراعيها)

أماه ! أماه ! يا من أرى سعادتى فى قربها ،هل أنت راحلة كسابق عادتك ، أم اُخترت البقاء لحماية أبنتك ؟ ويلاه ! إنها حانقة على . أماه رفقا بإبنتك . لم أجن ذنباً ، إنى بريئة . مارضيت إلا كرها ، وما قبلت الأمر إلا مرغمة . اختفى عنى من كان يستطيع إنقاذى ، لو علم . أبى يحتضر ، المرابى لايرحم ، الدين يجب أن يدفع بعد غد . (تجهش بالبكاء) أماه ، إنقاذاً لشرف أبى قذفت بنفسى إلى الهاوية . نعم ، سأكون بالكنيسة فى الأجل المضروب . (تسقط على الأرض وهى تلفظ أ . . . ما . . . ه . . . إ . . . نى لاحقه . . . بك) .

(تسدل الستار على مهل أثناء نطق الجملة الأخيرة)

تم الفصل الثالث

الفصل الرابع

المنظر الأول

(طريق النهر)

(تدخل ليرا بملابس سوداء وعلى رأسها القبعة متأهبة للسفر)

ليرا : أخشى أن يفوتنى القطار ، ومسز ليزلى فى انتظارى . لماذا لم يحضر جرفث ، وقد وعدنى ألا يتأخر ؟ (تتأمل) كفانى أيها الدهر ، أصبحت خيالا . (تبكى) مات أبى ، نعم قضى من كان يحيا من أجلى . أيتها السماء ، أمطرى قبره غيوث رحمتك ، ومرى ملائكة الرحمة أن تبارك جسده الطاهر . (تبكى) أيها الوالد الشهيد ، إن إبنتك قامت بالواجب عليها ، ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان . فلا تلعنى ، واشفق على لقد قبلت بغير علم منك ، وذهبت معه إلى الهيكل بدون مشورتك . نعم هذا عقوق . إنى لم أحترم أبوتك التى أقدسها ، ولكنى كنت مرغمة . ولو علمت السبب لغفرت لى ذنبى . (تبكى) ترى أين ذهب ذلك الوحش المفترس ، إنه كان يحسبنى أبيع شرف أبى . لذلك أبى أن يسلمنى المال الذى تعاهدنا عليه حين علم بموت أبى المسكين . إنه لنذل دنىء .

جرفث : (يدخل ومعه حقيبة السفر) ألا تزالين مصممة على السفر ؟

ليرا : نعم وأشعر أن فيه سعادتى .

جرفث : (يمسك يدها ويضع الحقيبة على الأرض) ليرا ، يحزننى جداً أن أراك تقذفين بنفسك بين أمواج عالم لم تتعودى من قبل . وكيف تظنين أن هناك السعادة ، وشيطان الشر كثير الجنود ؟ ليرا ، أنعمى النظر جيداً فى خادمك الأمين ، ولا يربك منه شعره الأبيض . هاهو لايزال أمامك يشعر أن قوة شبابه تعاوده ، ويخيل إليه أن ما أصابه من البلاء بموت أبيك وضياع الكوخ . . .

ليرا : (تقاطعه) نعم لقد خسرنا كل شىء . (تبكى) .

جرفث : (يستطرد) كل ذلك طرد عنى ضعف الشيخوخة ، وأرجع إلى شرخ الصبا وفتوة

الشباب ، حتى أرانى الآن أنافس ابن العشرين جلداً على العمل . فلماذا لاتثقين بقوة ساعدى ، وقد أوقفت حياتى على خـدمتك منذ نعومة أظافرك ياليرا ؟ أنسيت أن شخص أمك وروح أبيك يتمثلان الآن فى شخصى أنا ؟ فـلم تطوحين بغضّ شبابك اليانع بين براثن ذلك الدهر القلّب؟ أما تخشين ماعساه يخبئه لك القدر ؟ إرجعى إلى صوابك ، ياأبنتى ، واختارى البقاء معى فى كوخنا الحقير .

ليرا : فى كوخنا الحقير ؟ هل أرجعه لنا دجارفن بعد أن سلبه منا أمس ؟

جرفث : لقد تنازل لى عن إيجار الغرفة التى كنت أتخذها مخدعاً لى .

ليرا : أما تعلم أنّ هذا التنازل فى نظير حر ستك أملاكه الجديدة ؟ (تبـكى) .

جرفث : إن هذا يقطع كبدى . فهو نى عليـك ، وأخبرينى علام عولت ، إذاً . ألا تزالين على عزمـك ؟

ليرا : هذا لاشك فيه . سأذهب حالاً إلى برنستابل ، ومنها إلى لندن لأقابل صاحبة العنوان مسز ليزلى ، و إنى لأظنها ربة قصر تروز .

جرفث : نعم إنها رئيسة حاشية القصر ، وهى المـكلفة من قبل الليدى بانتخاب الوصيفة .

ليرا : حسناً ، إنهم يريدون فتاة يتيمة (تبكى) تحسن القراءة ومن أسرة شريفة ، تعيش فى القصر لغيرأجل محدود . وقد توفرت فىّ كل هذه الشروط ، وقلما تتوفر فى سواى ، لذلك أرانى مطمئنة لهذه الوظيفة الجديدة .

جرفث : إنك هكذا ياليرا ، فعلى الطائر الميمون ياابنتى العزيزة ، واذكرى أنك تركت شيخاً أحنى ظهره الكبر ، وأضعف بصره الهرم ، حملك طفلة بين ذراعيه ، وكان يحنو عليك حنو الأم ، ويرضعك لبان الأدب ، حتى نشأت مثال الطهارة والعفة ، وساعده على ذلك أنك سليلة النبل والشرف (يبكى) . تذكرى هذا الهيكل الفانى ياليرا ، وإذا ماواتتك لحظة يمكنك فيها أن تكتبى فلاتدعيها تمر عبثاً ، وإذا شعرت بوحشة فأسرعى بالعودة إلىّ لأفتح لك ذراعى وأضمك إلى قلب يتقطع لفراقك ، ولأستنفد آخر نقطة من دمى فى الذود عنك ، باذلاً قصارى ماوهبنى ربى من القوة فى حمايتك من غائلة الفاقة ياليرا ، لازالت لدى القوة الـكافية لـكسب مايطرد عنا ألم الجوع ، فلم العجلة ؟ أما كان يجدر بك انتظارى حتى أوارى لحدى ؟ وما ذلك اليوم ببعيد ، إذ ذاك أموت قرير العين وأرقد هادىء البال .

ليرا : (تبكى) إنك تقطع أحشائى بتوسلاتك المرة ، ولكن فات الأوان ؛ إنى فقدت كل شىء ، أصبحت لا أجد مخلوقاً يحنو على سواك ، ولما كانت راحتك غاية منای ، فقد آليت على نفسى الشقاء والعمل ، فابق أنت ، واعلم أنى أسعى ليعيش كلانا آمناً على نفسه من الفقر . جرفث ! هون عليك أمر فراق ، وثق أنى لن أنسان ولن أنساك ، يامن أضعت زهرة حياتك فى الدفاع عن عفتى وشرفى ؛ إنى أعترف لك بالفضل ، وأشكر لك حسن الصنيع ؛ ولما كنت آخر مخلوق له علىّ حق التصرف ، وله وحده ميزة الرعاية ، فهاأنا ذى لا أخطو خطوة واحدة إلا بأمر منك ، وإنى لازلت ربيبتك المطيعة .

جرفث : (يبكى) إنى لا أحب أن أكون حائلا بينك وبين السعادة ، فما دمت تشعرين بالهناء لسفرك هذا ، فإنى ألزم الصبر مرغماً ، وأوصيك خيراً بشخصك المحبوب وبشيخوختى الفـــانية .

ليرا : كن مطمئناً فإنى سأجعل طريق المراسلة مفتوحةً بيننا ولن أوصدها مادمت أنسم هواء الحياة ، وسأبعث لك بكل مرتبى الشهرى لتقتصده عندك ، حتى إذا اضطرتنى الحياة أن أهجر لندن عدت إليك فنعيش ما بقى لنا من العمر آمنين طوارىء الدهر .

جرفث : آه ياليرا ، إنك طيبة القلب (يبكى) إلهى ! أقدرت لى أن أراها ثانية !

ليرا هدىء من روعك ، فالحياة كلها شقاء . وأخبرنى ، هل أصبت الشقى حين أطلقت النار عليـــه ؟

جرفث : أى شقى ؟ نعم ، تذكرت : دى جوفرى بارل المعتوه ، أليس كذلك ؟

ليرا : نعم ، هذا الوحش المفترس .

جرفث : كلا ، إنه نجا بأعجوبة ، ذلك لأنه توارى عن نظرى بين ملتف أغصان الغابة فأخطأته ، ولكنى أعدك أنه هالك من يدى متى وقع بصرى عليه ، وسأتتبع آثاره ولو تعلق بأهداب الرياح ، إنه جنى علينا جناية ما أظنها تغتفر ؛ ذلك لأنه كان السبب فى موت أبيك ، لأن ذهابك معه إلى كنيسة القديس مرقس كان شؤماً على سيدى ، إذ ظن ما لا أحب أن أطلعك عليه .

ليرا : أبى ظن بى السوء ؟ (تبكى) .

جرفث : ومع هذا ، أخذت أبرهن له جهد مستطاعى ، فلم أفلح . (يبكى) مسكين لقد قتله بارل باختطافك من يده وهو على فراش النزع . أنظرى ، ياأبنتى ، كيف مات أبوك وهو يتوسل إلى أن أنقذ عفتك من الضياع .

ليرا : أبى ! (بحزن) أشهد الله أنى طاهرة بريئة . نعم ، نم هادئاً ، وستعلم فى قبرك أن ابنتك دافعت عن نفسها أحسن دفاع . (تبكى) إنه غشنى وكفى . فاترك لله عقابه .

جرفث : إنى حتى الآن لم أعلم شيئاً عن هذا السر الذى أخفيته عنى فهل لك أن تطلعينى عليه حتى يستريح ضميرى ؟

ليرا : آه ، ياجرفث . لست أستطيع ولسانى لايجسر أن يفوه بكلمة . وكفانى تعذيباً . ولكن اطمئن فسأجعل اعترافى لك على لسان الرسائل . والآن أخاف أن يفوتنى القطار ، فأستودعك الله ؟

جرفث : رغم تبكيت ضميرى سأنتظر .

ليرا : وداعاً ياجرفث . وسترانى إن شاء الله بارة وفية .

جرفث : (يضمها إلى صدره ويقبلها بحرارة) إلى الملتقى ياليرا . تجلدى ياابنتى . واعتقدى أن الله سيتكفل بحراستك بعينه التى لاتنام . فلن تصل إليك يد الشر ، مهما كانت قوية . ليرا ! سأعود إلى غرفتى فأوصد على بابها ، وأمتنع عن رؤية العالم بأسره واضعاً أمام عينى الضعيفتين صورتك المحبوبة . ويخيل إلى أنى لن أرفع نظرى عنها إلا متى تناولت منك الكتاب الأول مبشراً بسلامة الوصول . فبالله عليك لا تتركينى فريسة الانتظار ، واعلمى أنه لاسلوان لى ، أنا الشيخ الفانى ، سوى الرسائل .

ليرا : هون عليك ، ياوالدى المحبوب . واسمح لى أن أدعوك بوالدى منذ اليوم (تعانقه وتبكى) .

جرفث : بارك الله فيك ياأبنتى . (ينظر فى الساعة) لقد أذنت التاسعة . فعلى الطائر الميمون . ليرا ! ها أنا ذا أضرع إلى الله أن يسمح لى برؤيتك قبل أن أموت .

ليرا : أستودعك الله . (تبكى) جرفث ! أسألك الصبر والجلد . (تعانقه بحرارة) إلى الملتقى أيها الأمين (تخرج) .

جرفث : (لنفسه بذهول بينما يمسح دموعه) إلى الملتقى يامن نزعت الروح عنى بفراقك (يبكى) إلهى لقد مات تشستر ، وسافرت ليرا ، و بقيت أنا ، فلم اخترت هذا ؟ ولم لم تترك الوالد لابنته ، حتى لاتضطر الفتاة العذراء إلى مااُضطرت إليه الآن ؟ سبحانك . و ياإلهى ، كن معها أينما حلت ، وهيىء لها الخير أنى توجهت ، وأبعد عنها الأذى (يمشى . إلى الباب ببطىء وتفكير) .

(يغير المنظر بعد أن تطفأ الأنوار بغاية السرعة)

المنظر الثـــانى

(غرفة فاخرة بقصر كاستل تروز . بها مكتب وبيانو على الجانبين)

(ليدى تيودوسيا هايفلت جالسة على مكتبها وأمامها أوراق تفحصها وأمام المكتب قسان : مارتن فاترو والفرد ، وعلى الجهة اليسرى امرأة فى سن الأربعين ، مسز ليزلى)

تيودوسيا : (تـكتب ثم ترفع رأسها) ألم يتأخر أحد الأعضاء أمس ؟

فانشو : كلا ياحضرة الليدى ، وقد قرأت لهم ورقة الاعتذار المقدمة منك .

تيودوسيا : وهل وافقت قبولا ؟ (تعاود الـكتابة) .

فانشو : نعم (يدخل داين أرمتايدج)

داين : (يحيى القسيس برأسه ويبتسم لتيودوسيا ويجلس بجانبها)

فانشو : (ينظر إلى اللورد بامتعاض) متى شرف حضرة اللورد ؟

داين : الآن .

تيودوسيا : (ترفع رأسها فترى اللورد) داين ، أهلا بك ياأبن العم ، نحن فى اجتماع كما ترى ، وأنت سيد القصر فاختر لنفسك أى مكان تستحسن ريثما ينفض الاجتماع .

داين : حسناً (يظل جالساً ينظر إلى فانشو من طرف خفى)

فانشو : يلوح لى أن سيدى اللورد يفضل أن يحضر الاجتماع .

داين : (بسخرية) إن هذا يشجعنى على عمل الخير .

تيودوسيا : ياحبذا لو صح ذلك ! (تستطرد وهى تـكتب) ستة وثلاثون ياردة من الفلانيل بحساب شلن وخمسة بنسات للياردة الواحدة (ترفع رأسها فترى داين)

داين : أنا لا أظن أنى كنت كاتب حسابات .

تيودوسيا : عفواً ، أنا لم أوجه إليك عملية الحساب .

فانشو : (عابساً) جنيهان وأحد عشر شلناً فقط .

تيودوسيا : (تـكتب) نعم ، جنيهان وأحد عشر شلناً بالضبط ، وكم عدد الأعضاء ؟

فانشو : (ينظر فى الأوراق) ثمانية وعشرون عضواً .

تيودوسيا : وكان كل عضو يدفع قيمة اشتراك قدرها بنس فى الأسبوع ، فبعد كم من الزمن يدفع الثمن ؟

داين : (بسخرية) بعد مائة سنة .

فانشو : دع عنك المزاح يالورد ، أنسيت أن اجتماعنا هذا لصالح الفقراء ؟ فلم التهكم ؟

داين : معذرة ياحضرة المحترم ، أنا لا أتهكم .

فانشو : لا داعى للسخرية بنا ياحضرة اللورد .

تيودوسيا : أتجهل أهمية هذا العمل ياعزيزى داين ؟ إنا نجتهد فى تأليف قلوب جماعة من الموسرين لنحصل منهم على مبلغ من المال يكفى لشراء ملابس للفقراء تقيهم قسوة البرد .

داين : أما أنا فإنى على استعداد لدفع هذا المبلغ فوراً ، ولا داعى لهذه المشاغل .

تيودوسيا : ليس هذا هو الغرض ، إنما الغرض هو الاستمرار فى عمل الخير ، فلو لم تشكل جمعية تقوم بكل مايطلب منها من المعونة دون إرهاق ، أعنى بدفع مبلغ زهيد فى كل أسبوع ، لاستحال على فرد واحد أن يقوم بأى عمل خيرى مستديم .

داين : وإذا لم يتيسر جمع المبلغ من حضرات الأعضاء ، فلا شك أن العقاب سيقع على الفقراء المساكين .

فانشو : (بغضب) إنى أستحسن أيتها الليدى المحترمة أن تؤجلى هذا الاجتماع إلى فرصة أخرى .

داين : هل أزعجكم وجودى ؟

فانشو : كلا يالورد . فقد أضعنا من وقت حضرة الليدى زمنا طويلا فى هذا العمل ، وهى الآن تحتاج إلى الخلوة والراحة . فلنؤجل هذا الاجتماع إلى ما بعد الغد إن أمكن ذلك . (يقف) .

تيودوسيا : رأى موفق . (تقوم وتصافح القسين) إلى مابعد غد .

فانشو : إلى الملتقى ياحضرة اللورد . (يصافحه) .

داين : (يمزح) أتحب أن أكون أحد الأعضاء فى الاجتماع القادم ؟

فانشو : أنت السيد الآمر . (يخرج ورفيقه)

تيودوسيا : (إجلس ياداين) لماذا لم تسألنى عن صحتى كما هى عادتك ؟

داين : لأنى وجدتك مشغولة (يجلس) وأحببت ألا أصرفك عن المهم .

تيودوسيا : أو تحتقر عملنا هذا يالورد ؟

داين : كلا ياعزيزتى . إنما أستهسل دفع المبلغ عن جمعه فى سنوات .

تيودوسيا : إن دفع هذا المبلغ وأضعافه صفقة واحدة لمن السهل جداً على فرد غنى ، ولـكن من المستحيل أن يستمر ذلك .

داين : إنى أنظر إلى هذا الموضوع من وجهة نظر تخصنى وحدى . ومعنى ذلك أنى أفضل دفع ألف شلن عن أن أشتغل بعمل كهذا نصف ساعة .

تيودوسيا : إنك مخطىء جداً يالورد — و ياليت المصورأبدعك فىالقالب الذى أفرغت أنا فيه .

داين : أعوذ بالله (يضحك) أأصبح عاشقا للمحابر والأوراق ؟

تيودوسيا : وهل فى هذا عار عليك ؟

داين : كلا . ولـكنى أميل إلى الهدوء والسكينة .

تيودوسيا : دعنا من هذا ، وأشرح لى أين كانت سياحتك . وهل ، كنت تشعر فيها بالسعادة ؟

داين : نعم كنت فى سعادة وهناء ، غير أنى لم أكن أعلم شيئاً عن استار منستر ، ولا كاستل تروز . ذلك لأنه يندر أن تمس يدى صحيفة . ولاتنسبى ذلك الجهل

مسزليزلى : حماك الله من ذلك يالورد ! كيف تنسب لنفسك ماليس فيك ؟

تيودوسيا : إنك بذلك تفتحين له سبيل التمادى فى معتقده ، ياعزيزتى ليزلى .

داين : أصبت المرمى ياأبنة العم . فلا عدمتك أبداً .

تيودوسيا : (إلى ليزلى) كان يجب عليك مساعدتى لتفتحى لعينيه طريق الخير فيسلـكه .

داين : (يضحك) لقد انقضت جلسة الحسنات ، و بدأت جلسة السيئات . ولـكنى مع هذا أراك ملـكا مصلحاً أيتها القديسة المحسنة .

تيودوسيا : إن آراءك هذه تبرهن على أنك لاتدرك كنه مركزك العظيم ، ولا تشعر بمقامك الرفيع . إن شابا فى صحتك وثروتك وجاهك يجب أن يمد يد المساعدة إلى المحتاجين ؛ فيطعم المسكين ، ويكسو اليتيم ، و ينتشل البائس من مهاوى الفاقة ، ويأخذ بناصر من أخنى عليه الدهر .

داين : (غارقا فى تأملاته) أترضى مكارم أخلاقك ، أيتها الواعظة الحسناء ، سليلة أسرة هاينليت ، أن تصمينى هذه الوصمة ؟

مسزليزلى : (إلى تيودوسيا) يظهر أن حضرة اللورد كان فى تفكير عميق ، وكانت وجهته غير كاستل تروز ، و إلا ما كان قد فهم مافهم .

داين : (لليزلى) شكراً لك أيتها الأمينة . لقد كنت أحسبك أكثر محبة لى مما بدا الآن .

تيودوسيا : إنها تقول الصراحة ، فما معنى التهكم ؟ إنى أستحلفك بشرفك أن تخبرنى هل كنت مصغياً إلى كلماتى الأخيرة ؟

داين : لا أنكر عليك أنه فاتنى منها شىء .

تيودوسيا : وكيف استنتجت هذا الحكم الجائر علىّ وعلى صديقتى العزيزة ؟

داين : أنه أوحى إلىّ به من صيد السمك . فما أسعد الذين ينقطعون للصيد !

تيودوسيا : (بأسف) دعنا مما لافائدة فيه ، واشرح لنا شيئاً عن سياحتك الأخيرة .

داين : لقد طفت بجميـــع المدائن والقرى الواقعة على ضفتى نهر التو ، وصادفت المعتوه فى فندق برنستابل .

تيودوسيا : (بدهشة) ومن هو هذا المعتوه ؟

داين : شاعر ، ومصور ، وموسيقى العائلة .

تيودوسيا : (تضحك) لقد فهمت (إلى ليزلى) إنه يعنى تشاندس ارمتايدج .

داين : نعم هو ذلك الأبله . ولقد وقعت بيننا مشاجرة عنيفة أدت بى إلى طرده من غرفتى .

تيودوسيا : إنك تمقته مقتاً شديداً يالورد . فهل من سبب ؟

داين : لاداعى لذكر السبب الآن ، لأنه مشين ومخجل . (يستطرد) ولما انقضت تلك الليلة المشؤومة بكرت أتمم سياحتى حول النهر . فأعجبتنى بقعة أرض هناك كأنها روضة من رياض الفردوس (يتنهد) فأحببت أن أستظل تحت وارف ظلالها . وما أستقربى الجلوس لحظة حتى ذكرت ساعة صيد السمك (يتنهد) وزن فى أذنى أن الصيد خطيئة .

تيوذوسيا : إذن ، ماذا صنعت ؟

داين : بدأت أصيد . (يتذكر) وما هى إلا هنيهة حتى هبت ريح عاصفة كادت تقتلع أشجار الوادى ، فارتديت معطفى . وسرعان ما فارقت تلك الروضة الأنيقة (يتنهد) التى سلبتنى عقلى لما أبدعته فيها يد الطبيعة من الرونق والجمال .

تيودوسيا : أو تستبيك روضة ، يا لورد ؟

داين : إنى بدأت أتعلم الغزل . . (يتأوه) ولـكن آه ! فارقنى حسن الحظ .

تيودوسيا : إنك تتكلم بلغة تستتر تحتها أسراراً غامضة .

داين : لا وحقك ، يا ابنة العم . إنى خلو من الأسرار الغرامية ، إذا كنت ترمين إلى ذلك .

تيودوسيا : لا بأس . ألم ترتشاندس منذ تلك الليلة ؟

داين : كلا ولا أحب أن أراه .

تيودوسيا : لقد كتب إلى منذ شهر لأقبله عضوا عاملا فى جمعيتنا الخيرية ، فقبلناه . وقدطلب مابقى له من إيراد هذه السنة ، فأرسلت إليه تحويلا بمبلغ خمسمائة جنيه . وعلمت منه أنه نزل ضيفاً على عائله فقيرة فى طريق برنستابل ، دون أن أعرف السبب . ومنذ ذلك الحين انقطعت عنى أخباره تماماً .

داين : نزل ضيفاً على عائلة فقيرة فى طريق برنستابل ؟ هذا مالا أصدقه (لنفسه) إنها ليست فقيرة . (يستطرد) ولـكن مالنا ولهذا الأبله ! .

تيودوسيا : ماعهدتك على هذه الدرجة من الـكراهية له قبل الآن . أنسيت أنه يحمل لقبك ؟

داين : إنه لايستحق هـذا اللقب . (يصمت قليلا) نسيت أن أسـألك عن صحـة حضرة الإيرل المحترم ، والدى .

تيودوسيا : بخير . . يواصل عمله بهمة لاتعرف الملل ساعات متواليات

داين : إنى أشعر بألم الجوع .

تيودوسيا : (إلى مسز ليزلى) مرى ياعزيزتى بإحضار المائدة .

ليزلى : (تقف) هل نسيت مولاتى موعد قصر جاردن سكوير فى لندن ؟ .

تيودوسيا : (تنظر فى ساعتها) يجب أن تسافرى بعد الطعام مباشرة ؟ هل بعثت بالعنوان الكافى لوصيفتنا الجـديدة ؟ .

داين : (إلى تيودوسيا) أبعثت فى طلب وصيفة جديدة ؟ .

تيودوسيا : نعم ، لأترك شؤون القصر إلى لزلى . وأختص بها لنفسى .

ليزلى : نعم أمرتها أن تصل إلي محطة واترلو ، حيث تكون العربة فى انتظارها . وسأتقبلها فى قصر مولاتى بلندن ، ثم أرافقها إلى هنا .

تيودوسيا : أسرعى بتنفيذ ذلك بعد فراغك من المائدة مباشرة .

ليزلى : (تنحنى وتخرج) .

تيودوسيا (إلى داين) ألم تعلم أن أباك سيشرفنى بزورته اليوم ، يالورد ، فلقد تناولت كتاباً منه أمس وعدنى فيه بأنه سيشرف قصرى اليوم . فما أشد سروره برؤيتك هنا !

داين : كان يدور فى خلدى أن أترك كاسل تروز إلى استار منستر اليوم حيث أتشرف بمقابلة . أما وقد صار على وشك الوصول ، فمن الواجب انتظاره هنا .

شارل : (ينحنى ويدخل) المائدة فى انتظار مولاتى .

تيودوسيا : ومسز ليزلى ؟

شارل : تجهز أمتعة السفر .

تيودوسيا : (تقف) إلى المائدة يالورد .

داين : (يقف) هات ذراعك ياأبنة العم . (يخرجان)

شارل : (لنفسه وهو يرتب الصالون) ما أسعد حياة الأغنياء وما أهنأها !

وليم : (من الداخل) شارل ! شارل ! (يظهر وليم بالباب) شارل ! لقد وصل مولاى الإيرل .

شارل : (يسرع الخطى إلى الباب ليستقبل الإيرل) أوصلت العربة إلى باب القصر ؟

وليم : استعد ، فهو الآن على الدرج .

الإيرل : (يدخل فينحنى شارل ووليم) أين مولاتكما ؟

شارل : (ينحنى) على المائدة .

الإيرل : ألم تصلكم أخبار عن ولدى لورد داين ؟

شارل : مولاى اللورد هنا فى القصر من صبيحة اليوم .

الإيرل : (بدهشة) داين هنا فى كاستل تروز ؟ (لنفسه) ولم لم يصل رأساً إلى أستار منستر ؟ (إلى شارل) إذن هو على المائدة الآن ؟

شارل : (ينحنى) نعم ، يا مولاى .

الإيرل : حسناً ، لا تعلن خبر قدومى إلى الليدى إلا بعد انتهاء المائدة .

شارل : (يدخل ينحنى ويخرج ووليم) .

الإيرل : (لنفسه) أحمد الله ، فقد وصل سالماً بعد رحلته الطويلة (ينادى) شارل !

شارل : (يدخل و ينحنى) مولاى !

الإيرل : إنى أسمع الأميرة تودع إنساناً ، وأخشى أن يكون اللورد .

شارل : إن مولاتى تودع مسزليزلى . لتلحق بقطار لندن كى تحضر وصيفة جديدة .

الإيرل : إنك شديد النباهة يا شارل .

تيودوسيا : (تدخل ومعها داين) لقد شرفتنى بزورتك قصرى ، ياسيدى الإيرل . (تصافحه) .

داين : (يصافح الإيرل) تحيتى إلى الوالد المحترم .

الإيرل : أهلا بكما ياولدىَّ . (يجلسان . داين عن يمينه وتيودوسيا عن شماله) .

تيودوسيا : أهلا بك من كل قلبى ، ياسيدى اللورد الأكبر .

الإيرل : (لتيودوسيا) أشكر لك هذه العناية . (لداين) وأين كانت سياحتك الأخيرة ؟

داين : إننى بفضل رضاء سيدى الوالد المحترم أتمتع بالصحة والهناء فى كل مكان .

الإيرل : وهل كنت سعيداً فى تلك السياحات الفريدة ؟

داين : نعم ، وكنت أمتلىء قوة ونشاطاً .

الإيرل : (مبتسماً) أوكان قلبك يذكرنى ، وأنت فى سرورك ولهوك ؟ ماظننت ذلك !

داين : (بحياء) أما فى سرورى فنعم ، وما أظننى ألهو الآن .

الإيرل : بارك الله فيك ياولدى ، أعرنى أذناً صاغية . (إلى تيودوسيا) أتسمحين بمشاركتنا ياعزيزتى الليدى ؟ (إلى داين) أما آن لك أن تفكر فى مستقبلك ؟

داين : يسعدنى أن أكون مشمولا من سيدى الوالد بالعطف ، أما مستقبلى فهو ما يوجهنى إليه حظى .

الإيرل : أعددت لك مركزاً سامياً لايحتاج إلى إجهاد ، وسترى أنه سيحسدك عليه كل شريف

تيودوسيا : ستملأ قلبى ابتهاجاً بقبولك ، ياعزيزى داين .

داين : إن رحلاتى الكثيرة فى معظم مدن الدنيا المتحضرة زادت ثقافتى وأكسبتنى خبرة واطلاعاً ، وإنى آنس فى نفسى القدرة على القيام بكل مايسند إلىَّ من الأعمال .

تيودوسيا : (بشفقة وحنو) عزيزى داين ، إنك ترفع دعائم بيتك العريق بحسن ثقتك بنفسك .

الإيرل : لو أنعمت النظر ، ياولدى ، فيما نطقت به الليدى ، لعلمت مقدار حبها لك وشغفها بحسن مستقبلك .

شارل : (يدخل وينحنى) مولاتى الليدى !

تيودوسيا : (باهتمام) ماوراؤك ياشارل ؟

شارل : إن جمعية ملجأ الأيتام الجديد التى شرعت مولاتى فى إنشائه قد تكامل أعضاؤها ، وهم فى انتظار حضرة الرئيسة .

تيودوسيا : ألم تعلم أن حضرة الإيرل هنا ، وهو ضيفنا اليوم ؟

شارل : أعلم ذلك يامولاتى .

تيودوسيا : ولم لم تستعمل عقلك حين الحاجة إليه ؟ كان يمكنك أن تقدم أعتذارى ، أو أن تنيب عنى حضرة القس .

شارل : حاولت إنابة حضرة القس المحترم فلم أفلح ، ولقد ألح علىّ أن أعرض على مولاتى الأمر أولا ، فإذا صدر أمرك السامى بإنابته ، قبل مرغماً .

تيودوسيا : (بدهشة) مرغماً ؟ ومامعنى ذلك ياشارل ؟ (بحدة) .

شارل : إن بعض الأعضاء غير راض عنه ، هذا هو سر الخلاف .

تيودوعيا : وكيف علمت ذلك ؟

شارل : رأيتهم يتغامزون ، وسمعت الناقمين عليه يتهامسون ، فتجلت أمام عينى نار الحقد التى تشتعل فى صدورهم ، وخفت سوء العاقبة . لذلك أسرعت لعرض الأمر .

تيودوسيا : إذاً يجب أن أتلافى الموضوع بنفسى قبل أن يستفحل . (إلى الإيرل) أيسمح لى سيدى الإيرل ببضع دقائق ؟

الإيرل : لقد أعجبتنى شهامتك ، يا عزيزتى . لك ما تشائين .

تيودوسيا: (إلى شارل) شارل . أعلن قدومى . (ينحنى ويخرج . تقف) لا تقلقا لغيابى (تخرج) .

الإيرل : فى حراسة الله (إلى داين) إنها أشرف فتاة كللت تاريخها بأكاليل المجد . ولقد أضافت إلى أسرتنا أحسن ذكرى بما خلدت فى آثارها من الحسنات .

داين : الحق معك يا والدى العزيز . إنها مثال الفضيلة والخير .

الإيرل : إنى أخلو بك الآن . فهل تحب أن نتكلم فى شأنها ؟ وما هو رأيك ؟

داين : نتفاوض فى شأنها ؟ وكيف أعلن لكم رأيى فى شأن لا علم لى به ؟

الإيرل : ألعلك نسيت الخطبة التي أرتبطت بها منذ حداثتك ؟

داين : (باضطراب) إني لم أفكر في هذا الشأن قط .

الإيرل : ولكني أهتم بسعادتك . أتجهل أهمية هذا الموضوع ، وما يقع كلانا فيه إذا فصمت عراه لا قدر الله .

داين : نعم أعلم ذلك .

الإيرل : لقد أرحت ضميري بها التصريح . وكان يخيفني أن تكون أصبحت قليل العناية به .

داين : وكيف لا أهتم بما أنت مهتم به . وغرضك الهناء والراحة لي .

الإيرل : أحمد الله الذي وفقك إلى معرفة الواجب عليك .

داين : إني احترم رأيك ، يا ولدي المحبوب ، وأقدس طاعتك . بيد أني أخول لنفسي الحق في شيء واحد . .

الإيرل : (يقاطعه) هو الزواج . أليس كذلك ؟ إني لمحت غرضك بمجرد الاشارة .

داين : نعم . أحب أن أطلق لنفسي فيه حرية الاختيار ، حيث أرى السعادة والشقاء مقرونين به .

الإيرل : أنت محق يا داين . وأضف إلى ذلك أنني أبوك . فلا تقطع صلة أبوتي واحترم مقامي .

داين : (بخجل) احترام مقامك واجب مفروض علي . ولا يجرؤ أقوى عامل في الحياة أن يعبث به أو أن يزعزع من مركزه . ورأيك فوق ما تحب أن يكون . غير أني في هذا الموضوع أميل بطبعي إلى دقات قلبي ، وأنصاع إلى نداء ضميري . فبالله عليك ، يا والدي ، دعني وشأني في أمر زواجي . ولا تزف بيدك ، التي ما تعودت غير الرحمة والعدل ، التعاسة والشقاء لوحيدك الخاضع المطيع (يتنهد) والدي العزيز ! لقد عودتني الجرأة ، وعلمتني الصراحة ، فلا يغضبك أني استعملتهما في حضرتك وأمام شخصك المحترم .

الإيرل : (يتنهد) لقد سال منك دم الشرف على أسنة الطيش ، إذ سولت لك نفسك مخالفة أبيك ، فرضيت له الإهانة ، وقد بلغ هذه السن .

داين : رحماك ، والدي !

الإيرل : إني تعاهدت ولورد هاينات على ذلك — فكيف يسوغ لك أن تسفه رأيي ، وأنا نافذ الكلمة . إنك بذلك الرفض تمزق أحشائي ، وتصم أسمي بوصمة عار لا تمحى . أأختم حياتي بهذه النتيجة ؟ ومن المحزن أنها لا تصدر إلا عنك أنت !

داين : (بخشوع) هدىء روعك ، يا أبى ، وأسمح لى بتقبيل يدك اعترافاً منى بالخطأ ، (يقبل يده) وجباً فى طلب العفو ، (بإستعطاف) يا والدى العزيز ، أعلن أنى طوع أمرك .

الإيرل : (بارتياح) أرضيت أن تكون زوجاً لليدى تيودوسيا هينلت ؟

داين : (ينظر إلى الأرض باضطراب) نعم قبلت ، ولكن أمهلنى ريثما أكون على استعداد .

الإيرل : لك منى ذلك . ولكن ضع نصب عينيك تنفيذ رغائبى . وتعهد لى من الآن ألا ترفض يدها مهما كانت الأسباب .

داين : إنى أعاهدك يا والدى الأعز على احترام رأيك ، واتباع مشورتك .

الإيرل : (يضع يده على كتفه) بارك الله فيك . وآمل أن ابن استاز منستر لاينقض عهده .

داين : أبت لا تسترب بعهدى لك .

الإيرل : (ينظر فى الساعة ثم ينادى) شارل !

شارل : (يدخل و ينحنى) مولاى !

الإيرل : إنى تركت أوراقاً هامة فى حقيبتى الصغيرة ، فسل خادمى أن يسلمك الحقيبة بما فيها وأتنى بها .

(شارل ينحنى و يخرج) لك أن تساعدنى فى ترتيب أوراق يهمنى إنجازها اليوم .

ولقد اخترت لك ذلك حتى لا تسأم وحدتك هنا .

داين : إنى طوع الأمر .

شارل : يدخل فينحنى و يضع الحقيبة أمام الإيرل .

الإيرل : حسنا ، ها هو العمل يا داين فهيا بنا إلى غرفة المكتب .

داين : هيا بنا (يتناول الحقيبة . يقف) .

الإيرل : (إلى شارل) شارل ! إذا انتهت حضرة الليدى من عملها قبل أن نترك غرفة المكتب وسألت عنى واللورد ، فعرفها أننا ندرس أوراقاً هامة ، يجب أن ننتهى منها الليلة .

(يخرجان) .

شارل : (ينحنى . يرتب البهو) يندر وجود شيخ بهذا النشاط .

ولِيَم : (يدخل لمساعدة شارل) شارل ! ما رأيك فى هذا الشيخ الجليل ؟

شارل : هذا هو الرجل العامل النافع اليقظ . . و ياحبذا لو حذا لورد داين حذوه .

وليم :(يمسح البيانو ويفتحه و يلعب بأصابعه عليه) إنها ألعوبة مدهشة (يعزف بأنغام رديئة) غريب ! يظهر أن الأصابع التى تدق على هـذه الآلة (ينظر إلى أصابعه) هى أصابع الأغنياء والجميـلات فقط ، لذلك أرى أصابعى تخوننى ، لأنى ألتمس ماليس من شأنى .

شارل : (يسرع إليه و يغلق الآلة) اسكت يامتهوس . متى تترك الرعونة أيها الأحمق ! ماذا يـكون عقابك لو داهمتك مولاتى الآن ؟

وليم : (غاضباً) إنك تهيننى ، ياشارل ، وسأطلب من مولاتى ألا أكون معك فى عمل واحد منذ اليوم . (يخرج) .

شارل : (لنفسه) إنى أتعذب جداً فى إصلاح هؤلاء الخدم ، فلا بد من استبدال غير النافع منهم . (يخرج) .

(سكوت طويل . تظلم الأنوار تدريجياً . تدق الساعة ٦ دقات)

مسزليزلى : (تدخل وتتبعها ليرا ووراءهما وليم) مالى أراك غاضباً ياوليم ؟

وليم : لست على وفاق مع شارل ، وسأنتظر ريثما تنتهى مولاتى من اجتماعها ، فأبسط إليها شكايتى .

ليزلى : كن واسع الصدر ياوليم .

وليم : إن شارل أهاننى .

ليزلى : إنه يمزح معك ، وهو أكبر منك سناً وأطول عهداً فى خدمة مولاتنا الليدى . فلا تتعجل فى عمل ماعساه يعود عليك باللائمة والتعنيف . . أقدم لك الآنسة لـيرا تشستر وصيفة مولاتنا الجديدة .

وليم : (ينحنى) لقد شرفت كاسل تروز .

ليرا : شكراً ، ياوليم .

ليزلى : (إلى ليرا) استريحى ، ياعزيزتى . فقد صرفنا وقتاً طويلا فى السفر . (إلى وليم) إذهب بأمتعة الآنسة ليرا إلى مخدعها الخاص .

وليم : (ينحنى . يهم بالخروج) .

ليزلى : انتظر ! لم لم تخبرنى أين مولاتنا الليدى ؟

وليم : مولاتى فى اجتماع أظنه أوشك أن ينتهى وأرى أنها لن تنتظر أكثر من ذلك .

ليزلى : حسناً ، اذهب ، ومر خادمة الغرفة أن تجهزها ، (يخرج وليم) إنى سعيدة بك ياعزيزتى ليرا .

ليرا : إن شفقتك على ياسيدى ، جعلتنى أسيرة إحساسك الشريف

ليزلى : أشكر لك هذا العطف وأزيدك علماً بأن مولاتنا مثال المروءة ومكارم الأخلاق .

ليرا : والله إن قصراً يحويك بين جدرانه لخليق بأن يكون معبداً مقدساً ، فإذا كنت أنت بهذه المكارم ، فما بال سيدة القصر ؟

ليزلى : شرحت لك ، ياعزيزتى ، مايجب اتباعه لمولاتنا من الواجبات ، فإذا اتبعت ما رسمت لك ، كنت سعيدة .

ليرا : إنى وعيت كل شىء ، فاطمئنى .

ليزلى : بارك الله فيك ياليرا . (تنصت) ماذا أسمع ؟ الخدم يهرجون .

شارل : (يدخل بعجلة) أين وليم ؟ ولماذا لم يوقد الشموع وقد هجم الظلام ؟

ليزلى : مابالك ، ياشارل ؟

شارل : (ينحنى) عفواً ياحضرة الرئيسة (يجرى إلى الباب وينحنى) مولاتى الليدى !

الليدى : (تدخل) أهلا بك ياليزلى (مشيرة إلى ليرا) ليرا تشستر ؟

ليزلى : (تنحنى) أجل ياحضرة الليدى ، لقد وصلت إلى جاردن سكوير فى الموعد ، ولم نلبث أن قمنا إلى كاسل تروز .

الليدى : (تجلس) إنى سعيدة جداً برؤيتك يامس ليرا ، وأنعشم أن تكونى صديقة لاوصيفة .

ليرا : (بابتهاج) إن هذه أسعد لحظة مرت بى منذ تنسمت الحياة .

الليدى : اجلسى بجانبى ياأميرة الكوخ ، وقصى علىّ أدوار حياتك موجزة . (إلى ليزلى) اجلسى ياليزلى .

ليرا : (تجلس بجانب الليدى) إن قصتى محزنة .

ليزلى : لقد أهاجت عواطفى منذ أول نظرة وقع بصرى عليها فى جاردن سكوير .

الليدى : من هو أبوك ياليرا ؟ ومن أى أسرة ؟

ليرا : (تتنهد) أبى آدون تشستر ، كان شريفاً غنياً ، سكن أمريكا وأثرى فيها ، ولكن خانه الحظ ، وأظنه فقد ثروته فعاد إلى انجلترا يحملنى طفلة بعد أن ماتت أمى ، وكنت فى الربيع الأول (تبكى) .

الليدى : لاتجزعى ياعزيزتى ، وثقى أنك أصبحت منذ اليوم فى أحضان أخت وأم معاً .

ليرا : عاد أبى إلى برنستابل يحملنى رضيعة ، وابتاع كوخاً صغيراً على ضفة نهر التو أمام كنيسة القديس مرقس القديمة ، وكان يقوم بتربيتى شيخ أمين (تتنهد) ظل فى خدمة أبى أربعين عاماً ، ولقد قام بتهذيبى خير قيام ، وكان يحنو علىّ حنو الأم ، فيدرأ عنى كل مكروه حتى ترعرعت لا أعلم عن الدنيا غيره ووالدى ، ولم أصادق رجلا غيرهما لأننا كنا فى معزل عن العالم (تتنهد) ومنذ أيام قلائل داهمتنا مصيبة ياهولها (تبكى) أوقعت الفشل فى ذلك العش الهادىء المطمئن وشتت شمل ساكنيه (تبكى) .

الليدى : يا إلهى (بحزن) وماموضوع ذلك المصاب ؟

ليرا : فوجئنا بدين كان على أبى منذ سبع سنين . وكان لمراب غليظ القلب جامد العواطف ، وكان ذلك المرابى قد شعر بعجز أبى المسكين عن وفاء دينه . فبعد أن كان يقنع سنوياً بالفائدة ، جاء يسأله دفع الدين صفقة واحدة ، وإلا سلب منا جميع مانملك ، وطردنا من الكوخ . (تبكى)

الليدى : ياإله السماء (بشفقة) ليتنى علمت ذلك فى حينه ! مسكينة ! وكم كان مقدار ذلك الدين ؟

ليرا : (تتنهد) خمسمائة ذهباً .

الليدى : فقط ! نعم ، لقد كان عظيما عليكم لأنكم لاتملكونه .

ليرا : أجل يامولاتى — لقد تصدى لنا ذلك المرابى الصخرى القلب ، وأقسم أن يسلبنا كل مانملك ، إذا انقضى أسبوعان ولم نوفه دينه . فهوى أبى الشيخ المسكين مصعوقاً (تبكى) على فراش الألم . وظل ينزع حتى بقى من الأجل المضروب يوم واحد (تبكى) فلم يجسر على رؤية شمس ذلك اليوم الرهيب ، فاستغاث بملك الموت ، فأغاثه . (تبكى) نعم ، لقد لفظ النفس الأخير وهو يباركنى . وتركنى أتخبط فى ديجور الشقاء .

(تخنقها العبرات) آه ! إنها ذكرى يقشعر لها بدنى ، ياسيدتى . (يغمى عليها) آه ! رحماك أيها الوالد المسكين .

الليدى : (بحزن واهتمام) شارل ! على بالمنعشات . مسكينة أيتها الفتاة . (يخرج شارل) .

ليزلى : إنها قطعت نياط قلبى بحديثها المؤلم .

شارل : يدخل على عجل بالمنعشات) هاهى يامولاتى .

الليدى : (وتتناول الكأس . لليزلى) بيدى أنا لا بيدك ياعزيزتى .

ليزلى : إنكِ رحيمة يامولاتى .

الليدى : (ترش ماء الزهر على وجه ليرا) انتظرى ياليزلى ، إنها ستكون أسعد فتاة فى كاسل تروز ، وربما كانت أسعد منى .

ليرا : (تستفيق) عفوا ياسيدتى . (تحاول الوقوف فلا تتمكن) إنى خادمة .

الليدى : (تجلسها بيدها) كلا إنك أميرة هذا القصر ، ياليرا ، فاستقبلى السعادة والهناء وإذا كان الدهر قد لعب معك دوراً محزناً ، فأنا أرغمه على أن يزف السرور إليك كرها لا اختياراً .

ليرا : (بسرور) أنت جديرة بالعبادة يامولاتى ، فلا عدمتك أبداً . (تتنهد) مات أبى وهجم علينا ذئب المال فأجلانى وخادمى الشيخ عن الكوخ . ولما سالت عبراتى على يديه وأوسعتها تقبيلا ، هبط رسول الرحمة إلى قلبه الصلد ، فتنازل لنا عن أجرة سكنى غرفة خادمى نظير حراسة الكوخ . (تتنهد) مسكين أنت يا جرفث ! فظللنا بها إلى أن أراد الله أن أكون تحت رعايتك ؟

الليدى : لاتحزنى . فأنا أمك وأبوك ياليرا . وماذا صنعت بخادمك المسكين ؟

ليرا : تركته فى غرفته يئن لفراقى حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . (تتأوه) .

الليدى : إن هذا لحزن (تشعر بأن الصالة مظلمة ، تنادى شارل) مالى أرا كم أهملتم الواجب هذا المساء ؟ لم توقدوا الشموع كالعادة ؟ أين وليم ؟

شارل : (ينحنى) هذا من واجب وليم ياmولاتى . و إنى أراه غائباً .

ليزلى : لقد ذهب إلى مخدع مس ليرا .. ليرتب أمتعتها .

الليدى : وأنا بنفسى يجب أن أرتب لها غرفة النوم . فهلم بنا ياعزيزتى لأوصلك بيدى إلى مخدع هنائك الجديد (تقف الليدى وليرا وليزلى) .

ليرا : إنك تعجزين لسانى عن الشكر ، يامولاتى .

ليزلى : (إلى شارل) سأرسل لك وليم يساعدك على إنارة البهو ليكون فى أستعداد لإستقبال حضرة الليدى بعد قليل .

الليدى : شارل ! لقد نسيت أن أسألك عن حضرة الإيرل واللورد ، فأين هما ؟

شارل : (ينحنى) فى غرفة المكتب . لقد شدد على مولاى الإيرل ألا أزعجه ، لأن عمله هام جداً . وإذا رغبت مولاتى أن تشاركهما فيه فلتتفضل .

الليدى : (بسرور) وهل قبل اللورد أن يشترك مع أبيه فى العمل ؟

شارل : نعـــم

الليدى : (بارتياح) إنها لمعجزة مدهشة . دعهما فى عملهما ، لأنى أرافق مس ليرا إلى مخدعها وعليك أن تصدر تنبيهاً عاماً إلى جميع خدم القصر أن يكون أحـترام مس ليرا من احترامى ! أفهمت .

شارل : (ينحنى) سأنفذ أمر مولاتى . (تخرج الليدى وليرا وليزلى . يبدأ بإيقاد الشموع) .

وليم : (يدخل) لماذا بعثت فى طلبى ؟

شارل : (يضحك) . ها . . لقد عدت ياأحمق . أنسيت أنى أقوم بواجبك الآن ؟ .

وليم : (بذهول) ولكنى غاضب منك ، فما رأيك؟

شارل : أنا رئيسك ، فيجب أن تطيعنى . ونحن أمامى من الآن وإلا . . .

وليم : (بغضب) أنحنى أمامك من الآن ؟ ومن أنت ؟ أأصبحت مولاتى ؟

شارل : (يضحك) إنك ظريف جداً ياوليم . هل أنت غاضب منى ؟ إنى كنت أمزح معك .

وليم : قبلت اعتذارك . وأرجوك ألا تكثر مزاحك لأنى سريع الغضب .

شارل : هل رأيت الوصيفة الجديدة ؟ وهل بلغتك الأوامر ؟

وليم : رأيتها ، ماأجملها . ولكن لم أستلم أوامر ؟

شارل : صدر أمر مولاتنا الليدى أن تخاطب الوصيفة الجديدة بيامولاتى بعد الانحناء .

وليم : (يضحك) ومن بلغك هذا الأمر الجديد ؟

شارل : مولاتنا الليدى نفسها . فاذهب وادع جميع الخدم لأصدر إليهم الأوامر الجديدة .

وليم : (ينحنى) لك الطاعة يامولاى (يضحك ثم ينحنى ويخرج) .

شارل : إنه خفيف العقل والروح معاً (يبتسم . يدخل الخدم جميعاً ويقفون حول البهو) هل بلغكم أمر مولاتكم ؟

الجميع : لاياحضرة الرئيس .

وليم : (غاضباً) كيف لا ، أيها الأغبياء ؟ أنسيتم الانحناء ؟ (ينحنى) ألم أنبهكم معشر البلداء ؟ (يضحكون) .

شارل : اسمعوا (يصمتون) لقد نزلت بقصرنا اليوم آنسة جديدة تدعى ليرا تشستر ، فصدر أمر مولاتنا أن يكون احترامها من احترام مولاتنا . أفهمتم ؟

الجميع : نعم .

وليم : (يجرى إلى الباب ثم يعود مسرعاً و ينحنى) الأميرة !

الليدى : (تدخل ومعها ليزلى وليرا فينحنى جميع الخدم) أقدم لكم مولاتكم الجديدة مس ليرا تشستر ، فيجب احترامها كشخصى فى كاسل تروز ، ولقد أصبح لها حق التصرف فى شؤونكم جميعاً . . . أفهمتم ؟

الجميع : (بانحناء) لتحى الأميرة .

الليدى : اذهبوا إلى أعمالكم ، وليبق شارل ووليم بالباب . (يخرج الخدم ، وتذهب الليدى إلى جهة المعزف) ليزلى ! ألك أن تطربينا قليلا احتفالا بليرا ؟

ليزلى : لك الطاعة ، يا ربة الإحسان . (تجلس وتعزف)

الليدى : (تجلس بجانبها) اجلسى ياليرا . أتجيدين التوقيع على هذه الآلة المشجية ؟

ليرا : (بخجل) كلا ، ياسيدتى . وماوقع نظرى عليها قبل اليوم (تضع يدها على جنبيها) .

الليدى : مابالك ؟ أتشعرين بألم ؟

ليرا : إن شدة سرورى سببت لى دواراً خفيفاً .

الليدى : لا بأس عليك . إنه سيزول حالا متى استرحت قليلا ، فاجلسى (تجلس ليرا) .

ليرا : إن السعادة التى أشعر بها الآن أنستنى كل آلامى . فلا عدمتك يا إلهة المكارم .

الليدى : (بسرور) إنك بدأت حياة جديدة ، فاصرفى عنك الهم .

شارل : (يدخل وينحنى) مولاى اللورد .

داين : (يدخل مسرعاً) هل أنتم محتفلون بأبى ؟ (يذهب إلى الليدى) تركته وأسرعت بالهرب . (يضحك) .

ليرا : (تصرخ وترتمى) آه ! (تتمتم) . هو بعينه . إذاً هى تيو . . . (يغمى عليها) .

داين : (يرى ليرا) ويلاه ! إنها هى (يتراجع) ليرا (يمسح جبينه) افتحوا النوافذ . إنى أكاد أختنق . بماذا أشعره ؟ آه ! (يرتمى على مقعد) .

الليدى : (تقف مشدوهة وتسكت ليزلى عن العزف) أسعفوها بالمنعشات (تنظر إليها تارة وإلى اللورد أخرى) انتظروا ، احملوها إلى غرفتها (يحملون ليرا ويخرجون) لورد (تذهب إلى داين) لورد ! ماذا دهاك ؟ (شارل) إلىّ بطبيب القصر حالا . (يخرج شارل) هل أصابك شىء ؟ (تجلس بجانب اللورد) تكلم يا داين . ماذا اعتراك يا عزيزى ؟ لماذا لا تتكلم ؟ ويلاه ! (بقلق) لماذا لم يحضر الطبيب ؟ لقد تأخر .

الطبيب : (يدخل مع شارل) بماذا تأمر الليدى ؟ (ينحنى ويرفع قبعته) ماذا أصاب اللورد ؟ (يهتم به جداً) .

الليدى : لا أعلم سوى أنه دخل البهو ونحن فى شبه احتفال ، وما إن توسط القاعة حتى انتابه ما ترى .

الطبيب : (يعالجه فيفيق) لا بأس عليه . . . لقد ثاب إلى رشده .

داين : أين أنا ؟ الطبيب ! ليدى هاينلت ! (يتلفت على ليرا) ماذا أصابنى أيها الطبيب ؟ (يتمتم) أين هى ؟

الطبيب : إنك فى إغماء بسيط يالورد لن يلبث أن يزول تماماً . وأنصح لك أن تذهب لتستريح فى غرفتك .

داين : (يساعده الطبيب على النهوض) نعم يجب أن أستريح . ولكن مالى أرانى ضعيفاً ؟

الليدى : (تقف) شارل . وليم .

الخادمان : (يدخلان و ينحنيان) بماذا تأمر الأميرة ؟

الليدى : ساعدا اللورد حتى مخدعه ، وافتحا جميع النوافذ . ولا تزعجا حضرة الإيرل .

الطبيب : نعم ، سيعود إلى رشده تماماً بعد نصف ساعة (يخرج الخادمان باللورد) .

الليدى : (للطبيب باهتمام) ما رأيك فيما اعترى اللورد من الإغماء ؟ وما هى أسبابه ؟ (تصمت قليلا) أعرنى سمعك ، فسأطلعك على سر صغير شاهدته بعينى الآن . (تتنهد) لقد دخلت فى خدمتى وصيفة جديدة . وهذه الليلة هى أول عهدها بالقصر . ولم يقع نظر اللورد عليها سوى هذه اللحظة التى فارق فيها شعوره . ولقد أصابها ما أصابه فى نفس الزمن . فأمرت بنقلها إلى غرفتها فى الحال ، فماذا ترى فى هذا الاتفاق الغريب ؟ إن قلبى يحدثنى أن هناك صلة قديمة بين اللورد وهذه الفتاة ، ويزيد من هذا الشك أنه تمتم باسمها وتمتمت باسمه . فما هو رأيك ؟

الطبيب : (بدهشة) لم أر ، حين اختبرت قلب اللورد ، ما يدل على ذلك . بل كان ما عنده نتيجة إفراطه فى عمل أجهد فيه نفسه . فهل كان مشغولا قبل أن يدخل البهو مباشرة ؟

الليدى : صدفة غريبة . نعم كان فى عمل مع حضرة الإير ومكث مدة طويلة ، ولقد سئم العمل فهرب مسرعاً .

الطبيب : هذا سبب إغمائه ، فإن كثرة العمل العقلى مع شدة الضوء والإكثار من التبغ ، كل هذا يسبب الإغماء السريع .

الليدى : عليك إذاً أن تعود الوصيفة الآن فى مخدعها ، ثم تطلعنى على النتيجة . وها قد شرحت لك ما يحدثنى به قلبى ، وإنى فى انتظارك هنا حتى تعود ، وإذا كانت تهذى فراقب كل كلمة تخرج من فيها .

الطبيب : سأعمل الواجب علىَّ . (يبتسم) أريحى ضميرك ، ولا تسرعى بنقمتك ، فربما كانت الفتاة مظلومة . (يخرج) .

الليدى : (حانقه) ما أغرب طوارىء الحدثان ! لقد بدأت أشعر بحركة جديدة ، أنا التى ما تعودت غير السعادة والصفاء . داين . ياابن ستار منستر : حذار أن تكون قد نقضت عهدى ، فتكون بذلك قد وصمت أسرتك بعار لايمحى . (تفكر) ولكن

كيف ذلك ؟ أى ذنب جنت تلك المسكينة ، إذا كان قد أوقعها سوء حظها فى حبه وكان ذلك منذ عهد طويل ؟ أترضى مكارمى أن أفرق بين عاشقين تعاهدا على الحب والوفاء ؟ أنا التى أوقفت حياتى على البر والإحسان . كلا ! (بشفقة) أأسبب المصائب لفتاة تعسة منكودة الطالع ، جرعها الدهر مر عذابه ، ورماها بسهم نقمته وغضبه ؟ أفقدها أمها رضيعة ، واختطف أباها فجأة ، وسلب مالها ونعيمها ، وطردها شريدة من عشها الهادىء . كل ذلك بغير ذنب جنت . أيليق بى أن أنتزع منها آخر أمل لها فى تلك الحياة المحزنة ؟ وإذا كانت قد أحبته وأحبها . فمن الظلم أن أفرق بينهما . (بشهامة) أيتها الفتاة ، قرى عيناً فسأزفه إليك بيدى إن كان هذا متمناك . ليرا لقد أحببتك لأول نظرة ، فمن الشرف والمروءة أن يظل حبى لك كما هو . ليرا .

شارل : (يدخل وينحنى) الطبيب يامولاتى .

الليدى : ليدخل . (يخرج شارل) .

الطبيب : (يدخل مبتسما وفى يده ورقة صغيرة كتب فيها ماسمعه من ليرا) لقد علمت كل شىء . الفتاة فى إغماء طويل ، وهى تهذى فتذكر ألفاظاً لادخل لها فى الموضوع ، لقد سمعتها تلفظ أماه ، مسكين أنت ياوالدى ، رحماك يامستر دجارفن ، تنح عنى يابارل ، هون عليك ياجرفث ، إنى أكاد أختنق ، ترى أين أجدك أيها النائى عنى؟ (يقرأ هذا فى ورقة) وتغمغم فيما بين ذلك ألفاظاً غريبة ، فعلمت أن هذه الفتاة قد أصابها الدهر بضربة قطعت نياط قلبها ، فهى فى بؤس لا غرام ، لأن ألفاظها هذه تشف عن آلام نفسانية ، وهياج عصبى شديد ، وظهر لى أنها قروية لم تطأ قدمها القصور قبل اليوم ، فكثرة الأضواء واختلاف ألوانها وشدة السرور بعد نهاية الحزن، كل ذلك سبب لها هذا الهياج الدموى الشديد ، فهى بريئة من حب اللورد ، كما أنه برىء من حبها ، إذ لا علاقة بين لورد عظيم وفتاة قروية مسكينة ، فاصرفى ماعندك يامولاتى واعتقدى فى براءتها .

الليدى : لقد اقتنعت الآن ، هل أمرت لها بالدواء ؟

الطبيب : نعم وأعطيت التعليمات الكافية إلى خادمتها .

الليدى . واللورد ، أتتركه بغير عناية ؟

الطبيب : وهل يليق ذلك؟ إن دواءه النوم ، فمتى أغمض جفنه ساعة ، حصل على تمام الشفاء ، ولكن ذلك لايمنع أن أعوده الآن .

الليدى : حسناً ، إنى أقدم لك شكرى لجليل خدمتك .

الطبيب : (ينحنى) لا شكر على واجب (يخرج) .

الليدى : (لنفسها) إن الحوادث التى صادفتنى اليوم لخليقة بالإعجاب .

شارل : (يدخل وينحنى) لقد نام هادئاً يامولاتى .

الليدى : هل كان يهذى فى نومه ؟

شارل : كان مضطرباً يغمغم ألفاظاً مافهمت منها شيئاً .

الليدى : ومولاتك الجديدة ، هل زرت مخدعها ؟

شارل : كلا يامولاتى .

الليدى : اذهب فادع مسز ليزلى إلى هنا (يخرج) لابدّ أن تكون ليزلى قد علمت منها أكثر من الجميع .

الإيرل : (يدخل) أتأذن لى حضرة الليدى بالدخول ؟ (بابتسام) .

الليدى : (تقف) أهلا بك يا حضرة الإيرل المحترم .

الإيرل : (بسرور) لقد شغلته مدة طويلة ، ولكنه غافلنى . تركنى أنعم النظر فى موضوع هام وهرب (يضحك) لا بأس ، سأعوّده شيئاً فشيئاً (يجلس وتجلس الليدى) حالماً تركنى وخرج ، سمعت جلبةوضوضاء سكت على أثرها صوت المعزف ، ثم ساد سكون غريب . . . فى القصر . فهل هذا صحيح ، أم كنت واهماً ؟

الليدى : نعم حدث ذلك ، إثر مصاب ألم بالقصر ومن فيه .

الإيرل : (بدهشة) إثر مصاب ؟ وما هو ؟

الليدى : أجل . لقد خرج اللورد من غرفة المكتب إلى البهو ، فألفانا فى شبه احتفال بتشريفكم وكانت الوصيفة الجديدة وصلت القصر منذ أكثر من ساعة ، فما توسط البهو ، ونظر إليها ، حتى سقط فى إغماء .

الإيرل : (باضطراب) داين ؟ ولدى ؟ يغمى عليه لرؤية خادمه ؟ ما معنى ذلك ؟ إنك بلا شك واهمة يا حضرة الليدى .

الليدى : ومن غريب الاتفاق أن هـذه الفتاة ما إن وقع بصرها عليه حتى سقطت مغمى عليها أيضاً ! فماذا ترى فى هذا الاتفاق المدهش ؟

الإيرل : (بغرابة) وأيضا الفتاة ؟ إن هذا لغريب إذاً ، كيف اتفق ذلك ؟ وماذا قال الطبيب ؟

الليدى : لقد اهتم بهما اهتماماً عظيما . ولشدة دربته أسند إغماء اللورد إلى كثرة عمله العقلى وشدة الضوء والتدخين ، وأسند إغماء الفتاة إلى سرورها الفجائى بعد حزنها العظيم ، وإلى الانقلاب الذى شمل حياتها المضطربة ، فأخرجها من حقارة الأكواخ إلى جلال القصور .

الإيرل : نعم الطبيب . لقد أجاد التعليل . وأين داين الآن ؟

الليدى : فى مخدعه ينام نوماً هادئاً . فاطمئن عليه . ولقد أفهمنى الطبيب أن دواءه النوم .

الإيرل : (يقف) يجب أن أراه .

الليدى : إنه سيفيق بعد ساعة ، فمن الحكمة أن ننتظر حسب أمر الطبيب .

الإيرل : سأراهُ بعينى فقط ، ولن أكون سبباً فى إقلاق راحته . فهل لك أن ترافقينى ياعزيزتى؟

الليدى : (تقف) سألحق بك متى حضرت مسز ليزلى ، لأنى أرسلت فى طلبها الآن . (يخرج الإيرل . لنفسها) إنه شديد المحبة لولده ، و يهمه ألا يكون اللورد عاشقاً .

شارل : (يدخل و ينحنى) مسز ليزلى يا مولاتى . (تدخل ليزلى) .

الليدى : كيف حالها الآن ، يا عزيزتى ليزلى ؟

ليزلى : لقد تحسنت ، بيد أن إغماءها الطويل جعلها تتفوّه فى هذيانها ، بما يصدع الأفئدة حزناً عليها .

الليدى : وما رأيك فى هذا الاتفاق المدهش ؟

ليزلى : إن رأيى يعزز رأى الطبيب ، ياحضرة الليدى . وأنا أثق من براءتها وثوق من نفسى . .

الليدى : لقد آليت على نفسى ألا أكون حجر عثرة فى سبيل هنائها ، إذا صح ظنى .

ليزلى : إنك أسمى من أن تنغصى حياة فتاة مسكينة . إنها احتمت بنا ، فمن المروءة ألا نتخلى عنها فى آونة الشدة ، وفوق ذلك فإنَّ قلبى يحدثنى أنها بريئة .

الليدى : لقد اُقتنعت برأى الطبيب .

ليزلى : ومولاى اللورد ، كيف هو الآن ؟

الليدى : انه بخير . ولقد أقر الطبيب أن علاجه النوم . ومنذ برهة خرج حضرة الإيرل من هنا ليعوده ، ووعدته أن الحق به ، فاذهبي أنت للعناية بليرا .

ليزلى : سأقوم بواجب المروءة خير قيام . (تخرج) .

الليدى : (لنفسها) سوف ينكشف الغطاء ، ولكنى لن أنقض عهداً نطقت به . إنى أعتقد فى قدرة الله . داين ، لورد ارمتايدج ! كن كما تحب أن تكون . إنى وهبتك مالى ونفسى ، فإن أحببت كنت لك قرينة صادقة ، وإن أبيت كنت لك صديقة مخلصة . وأنت ، أيتها الفتاة المسكينة ، لايخفك انتقامى . إنى سأكون لك درعاً متينة . تدرأ عنك الأذى ، وتقيك شر حوادث الدهر . فكونى هادئة مطمئنة ، واستقبلى السعادة والهناء .

« يسدل الستار »

تم الفصل الرابع

الفصل الخامس

(غرفة فاخرة بقصر أستار منستر ، مهيأة لإقامة حفلة شائقة) .

(ولفرد خادم لورد داين ارمتايدج يرتب البهو).

ولفرد : ماأعجب حوادث هذا الدهر ! (يبتسم) لقد أصبح مولاى اللورد مغرماً ، أيها اللورد ! يالسعادة من بها كلفت ! غريب ! من كان يظن أن داين ارمتايدج رب استار منستر العظيم تستبيه وصيفة ؟ أيسمح شرفه العظيم أن يفصم عرى الخطبة التى ارتبط بها مع ليدى تيودوسيا هاينلت الشريفة الغنية ؟ وكيف يسكون مركز مولاى الإيرل ، لو تم ذلك ؟ (بعجب) . لقد بات القصر ، ولا حديث فيه غير غرام اللورد . وما أظن هذا بخاف عن مولاى الإيرل ، ولا عن الليدى نفسها . أصدق أصدقائه ، لورد سانت أوبن يعزز له هذا الحب ، ويساعده على إشهاره . من يجسر أن يحول قلب العاشق إلى غير من يهوى ؟

بول : (يدخل) هل بلغك خبر الحفلة ، ياولفرد ؟

ولفرد : أى حفلة تعنى ؟

بول : الحفلة الشائقة التى ستقام هذا المساء فى القصر . ولقد أوفد اللورد رسولاً إلى ليدى تيودوسيا أميرة كاسل تروز ومسز ليزلى ومس ليرا تشستر ليحضروا هذه الحفلة . وسيسكون لوجود مس ليرا شأن عظيم فى هذا الاجتماع .

ولفرد : أى شأن ياترى ؟

بول : ربما أصبحت مس ليرا تشستر ليدى داين ارمتايدج ؟

ولفرد : ويحك ! كيف تجرؤ على هذا التصريح ، ومن أفضى إليك بذلك ؟ أواثق أنت مما تقول ؟

بول : إنه اتفق لى أن سمعت محاورة بين مولاى اللورد ، وبين لورد أوبن ، علمت منها ما تنبأت به الآن .

ولفرد : (بدهاء) لا تنطق بكلمة واحدة مما سمعت لأى إنسان فى القصر ، وإلا اعتبرت خائناً .

بول : آليت على نفسى ألا انطق بحرف مما سمعت .

ولفرد : (بخداع) اجتهد أن تنسى كل حرف فاه به مولاك . أفهمت ؟

بول : نعم . لك منى ذلك .

ولفرد : ومن يؤيد لى ذلك ؟

بول : يمكننى أن أسر لك ما سمعت . و إذاك يكون السر بينى و بينك . فإذا أذيع هذا السر ، كنت أنت الواشى .

ولفرد : (بانتصار) حسناً إنى أوافق على هذا الرأى . اجلس . (يجلسان) .

بول : كان مولاى بغرفة المكتب على موعد من صديقه لورد سانت أو بن . وما أن دخل الصديق ، حتى أسرع مولاى فأوصد الباب . وكنت إذ ذاك فى الغرفة المجاورة أرتبها ، فسمعت مولاى يتأوه ، فاستفزنى الفضول أن أنصت عساى أعلم شيئاً عن سبب آلامه فأفتديه بمهجتى إذا لزم الحال ، و بينما كانت تساورنى تلك الشواغل ، إذ سمعت مولاى ، بعد أن ، تنهد ، يقول : صديقى الأعز ! سألتك أن أراك فى خلوة كى أشرح لك ما صادفنى فى رحلتى الأخيرة . فأجاب اللورد : إنى مصغ لك ، ياعزيزى ، وستجدنى أجود بدمى راضياً فى سبيل هنائك ! فأجاب مولاى : هذا أملى فيك أيها الصديق ! واستطرد : لقد اتفق لى أن رأيت غادة يتلاعب بها قارب صغير فى مياه التو أمام كنيسة القديس مرقس القديمة . وخيل إلىّ أن الفتاة تحاول إنقاذ نفسها من الغرق ، فألقيت بنفسى فى الماء ، وكدت أغرق لو لم تسعفنى بقاربها . وسرعان ما انتشلتنى من الماء . وهنا توقف مولاى قليلا وتنهد من أعماق قلبه ، ثم أردف : وصل بنا القارب إلى الشاطىء ، فساعدتنى حتى عشها الجميل ، وهو كوخ صغير آية فى الإبداع ، وقدمتنى إلى أبيها ، وهو شيخ جليل عليه سيما الوقار . فاستضافنى حتى جفت ثيابى ، ولسوء حظى كانت المدة الوجيزة التى لاتبرح ذاكرتى كافية لولوعى بتلك الحسناء . نعم إنها جديرة بحبى ، إنها فتاة عفيفة حوت وحدها نصف جمال العالم ، تعيش بين شيخين أحنى ظهرهما الكبر : أب وخادم أمين . وهنا اشتد تأوه مولاى ، نخاطبه اللورد قائلا : وهل تبادلتما نظرات الحب ؟ فأجاب مولاى بتأوه : نعم ولكن واأسفاه ! وعدتها أن أعلمها صيد السمك فى صبيحة اليوم التالى ، وما بزغت شمس ذلك اليوم حتى أسرعت إليها وفاء لوعدى . وهنا كاد يبكى ، ثم أردف : ليت شمس

ذلك اليوم ماطلعت ! فلقد كانت سبب بلائى ، إذ دفعنى طيش الشباب إلى اختلاس قبلة ، يالهول ذكرها ! فانتصبت جامدة كأنها تمثال ، وأرسلت إلى نظرة تخلع لهولها قلبى ، ثم فرت شاردة كالظبى دون أن تعير توسلاتى أقل التفات ، فطار صوابى ، ووقفت جامداً كالصنم أشيعها بنظرة الندم حتى توارت عن عينى الدامعتين . وهنا أفاض العبرات ، وأردف قائلا : فرجعت وأنا أعض بنان الندم فى يأس وأسف . وهنا سمعت مولاى الإيرل يستأذنهما فى الدخول ، فانقطع الحديث ولم أعد أسمع شيئاً . إننى أسمع وقع أقدام . (يجرى إلى الباب) يقف ولفرد .

داين : (يدخل داين وبجانبه لوردسانت أوبن إلى ولفردوبول) ستتشرف القصر بعد قليل ليدى تيودوسيا ، فيجب أن يكون قصرى على تمام الاستعداد . انصرفا . (يخرجان بعد أداء التحية إلى سانت أوبن) أجلس ياعزيزى . (يجلسان) عدت إلى كاستل تروز فعلمت عزم حضرة الإيرل على زورة القصر فى ذلك اليوم ، فرأيت وجوب انتظاره . (يتنهد) وما حضر حتى خلق لى عملا شغلنى . ولما سئمته خرجت إلى ردهة الاستقبال ، وما توسطتها حتى جمد الدم فى عروقى ، ذلك لأننى فوجئت برؤيتها .

سانت أوبن : (بدهشة) ومن جاء بها إلى كاسل تروز ؟

داين : (يتنهد) إنها دخلت فى خدمة ليدى تيودوسيا على إثر حادث مؤلم أفقدها أباها ، وأقصاها عنوة عن عشها الهادىء الجميل .

سانت أوبن : حديث مؤلم . وماذا حدث حين وقعت العين على العين ؟

داين : شعرت أن الأرض تموج تحت أقدامى ، وكأن سماء البهو تهبط فوق رأسى ، ومالبثت أن سقطت لا أعى شيئاً وتصادف أن غشيها ماغشينى ، فأسرعوا بنقلها إلى مخدعها . ولقد دخل الشك قلب الليدى ، بيد أن الطبيب أزال هذا الريب . ولما أفقت بادرت إلى غرفتها واعتنيت بها بنفسى (يتنهد) .

سانت أوبن : ذلك الذى ولد الشك ثانية فى قلب الليدى ، وأكثر اللغط بين الخدم .

داين : أجل ، ولكن تم ذلك رغم إرادتى ، ولم أحفل بكل ماأذيع عنا فى القصر . بل ظللت بجانبها حتى أفاقت تماماً . ويظهر أن الليدى تباحثت فى الأمر مع حضرة الإيرل ، فبرح القصر دون أن يرانى ، فساءنى ذلك جداً ، وعرفت أنى لن أدخل

استار مدسة ماحييت . غير أن حضرة الإيرل لاحظ خطأهُ ، فبادرني برسالة سألني فيها سرعة الوصول لأمرجلل ، فلم أر بدأ من الطاعة . حاولتُ أن أخلو بالفتاة لأشرح لها الأمر ، فلم أفاح بادىء ذى بدء ، إذ رفضت بتاتاً أمر اجتماعنا . خلوت بها فترة قصيرة بعد جهد جهيد ، فوجدت منها نفوراً جعلنى أرتاب فيها . كانت تمسح دمعها المتناثر فوق خديها كأنها تكتم سراً غامضاً تندلع نيرانه فى فؤادها ، فانبريت إلى التوسل ، فلم يجد نفعاً . (يتأوه) لم أتمالك أن فاتحتها فى أمر الزواج . فنظرت إلى نظرة ملؤها الرعب ووثبت من مكانها كالمأخوذة . كانت دموعها أكبر شفيع لها عندى ، فأصبحت كالمصعوق تكاد رأسى تحترق . سألتها عن سبب ذلك الإعراض وقد وضعت تحت أقدامها ثروتى واقبى وحياتى ، فأجابتنى وهى ترتجف وقلبها يكاد يفارق صدرها من هول ماهى فيه من الاضطراب : إليك عنى ، فلم أعد لك . وتولت حياء بعد أن سترت وجهها بيديها ثم وقفت وأرسلت إلى نظرة لن تبرح مخيلتي إلى الأبد .
ثم صاحت : وداعاً يالورد إنك لن ترانى بعد الآن . ولا أمل فى خلوتك بى بعد ذلك .
ثم غمغمت بصوت خافت : قائلة ليتك علمت ، وياليتنى رأيتك فى حين الحاجة إليك ،
ثم اختفت وهى تقول : مات الأمل . (يتأوه) ماذا تراه ياصديقى فى كل ذلك ؟

أوبن : يلوح لى أن ما أشقى الفتاة أنها كملت قلباً وقالباً ، فيالسعادة من كانت له !

داين : هذا كل ما أشقى من أجله . ولقد قضيت ليلة الأمس حتى انبلج الصبح وأنا أقنع والدى الإيرل بوجوب زواجى منها ، فهاله الأمر ، وشق عليه احتماله . فأخذ يعنفنى ، ولكنه كان يضرب فى حديد بارد . ولما آنس فى نفسه اليأس ، لجأ إلى إرهابى والغضب متمكن منه .

أوبن : وبعد ؟

داين : لم يثن ذلك من عزمى وصممت على فصم عرى الخطبة التى بينى و بين تيودوسيا ، وأن أعود فأتوسل إلى ليرا .

أوبن : وهل أطلعت حضرة الإيرل على ذلك التصميم ؟

داين : نعم بعد عناء طويل .

أوبن : وهل وافقك أخيراً ؟

داين : وافقنى مضطراً ، ووعدنى مكرها ، ولم يقبل إلا بعد أن تولاه اليأس .

سانت أوبن: وعلى ماذا عولت ، حين تحضر الليدى هنا ؟

داين : أترك كل شىء لوالدى ، فقد أخذ على عاتقه ذلك .

سانت أوبن: ومن تظنه يتقدم ليطلب يد الليدى تيودوسيا هاينلت ؟

داين : لقد قضت السنين الطويلة فى صحبة رجل تقول إنه مثال التقوى ، رجل خلق ليكون لها ، كما أنها لم تخلق إلا له ، انقطعت إليه بكليتها ، فهو لا يفارقها لحظة واحدة بدعوى أنه مساعدها فى عمل الخير .

سانت أوبن: ومن هو ؟

داين : مارتن فانشو .

سانت أوبن: (بدهشة) القس ؟

داين : هو بعينه !

أوبن : إذا صحّ ذلك تمّ ما أرادت .

ولفرد : (يدخل . وينحنى) سيدى الإيرل .

الإيرل : (يدخل إلى سانت أوبن) هل أنت هنا . ياأعز الأصدقاء ؟ (يخرج ولفرد) .

أوبن : (يقف وداين) نعم منذ ساعة ، ياسيدى الإيرل .

الإيرل : هل صرح لك داين بآلامه ونواياه ؟

أوبن : نعـــم .

الإيرل : وما رأيك الخاص فى موضوعه الهام ؟

أوبن : إن صديقى محق فى كل ماصمم عليه .

الإيرل : حتى وفى رفض يد الليدى تيودوسيا ؟

أوبن : أجل ياسيدى الإيرل ، فإنه إن لم يرفض يدها اليوم ، وسترفض هى يده غداً .

الإيرل : (بغرابة) ومن أين أوحيت إليك تلك النبوءة المستحيلة ؟

أوبن : لم أتنبأ ، بل هى الحقيقة . إن ليدى تيودوسيا هانيلت على وفاق تام مع حضرة القس مارتن فانشو . لا تعجب ياسيدى الإيرل ، هذا هو الواقع ، وهى التى تفكر فى إيجاد

الطريقة التى تسوغ لهـا قطع علائق تلك الخطبة التى تربطها باللورد . لقـد آن لك ياسيدى الإيرل أن تعرف كل شىء ، فإن كان صديقى (مشيراً إلى داين) يفـكر فى إيجاد طريقة يقطع بها تلك الخطبة ، فهذا نفس ماتفـكر فيه الليدى الآن .

الإيرل : إنك اليوم غيرك بالأمس ، ياعزيزى أوبن . فلم التحامل على الليدى ؟

أوبن : حاشاى أن أتحامل على من أقدس احترامها . إنها أشرف أميرات هذا العصر .

الإيرل : (بألم) إنى كنت أدخرها لولدى .

أوبن : أيقوى سيدى على معاندة القدر ؟ إنها أصبحت والهة بحب فانشو ، وكذلك هو .

الإيرل : إنى لم أكن أنتظر ذلك .

أوبن : أما وقد علمتم كل شىء ، فقد وجبت عليـكم مساعدة صديقى (مشيراً إلى داين) .

الإيرل : إن استطعت ما تأخرت .

أوبن : وكيف لايستطيع سيدى الأيرل ، إذا كان يريد ؟

الإيرل : ذلك معناه أنى كنت لا أود . .

سانت أوبن : (باستفهام) زواج الآنسة ليرا تشستر من صديقى اللورد ؟ (مشيراً إلى داين) .

الإيرل : أجـــل .

أوبن : لأنها فقيرة ، أم لـكونها فقدت والديها ؟

الإيرل : لا هذا ولا ذاك . بل لأننى لا أعلم شيئاً عن سر مولدها ، ولا عن أسرتها .

أوبن : كيف لم تمر بذاكرة سيدى الإيرل أسرة تشستر فى لوكشير ، وهو يعلم كل شىء عن جميع الأسر الـكبيرة ؟ .

الإيرل : (يفـكر) أسرة تشستر فى لوكشير ؟ نعم إنى أعلم أشياء كثيرة عن هذه الأسرة ، إن أملاكها تتاخم أملاكنا فى لوكشير . إنها أسرة كبيرة فهل مس ليرا منها ؟

أوبن : نعم . وهى ابنة أكرم رجل فى تلك الأسرة .

الإيرل : نعمت الفتاة . إنى قبلتها عروساً لداين .

داين : (بفرح شديد) لاعدمتك ، ياوالدى الأعز .

الإيرل : إنى أسعى وراء سعادتك ياداين ، وأنت تعلم علم اليقين أنى واسع الثروة وأنها ستؤول

من بعدى إليك ، فما دمت تحب ليرا تشستر ، فهاهى ثروتى بين يديك ، وهى تضمن لك ولزوجك السعادة عن سعة . طب نفساً واجتهد فى أن تزف ليرا تشستر إليك .

ولفرد : (يدخل وينحنى) لقد وصلت مولاتى الليدى يامولاى .

الإيرل : (إلى داين) أسرع فى استقبال الليدى ياداين ؛ (لسانت أوبن) وأنت إذا سمحت يالورد (يخرجان وولفرد) .

الإيرل : (لنفسه) إنه يهواها ، وليس لى أن أسيطر على القلوب . تيودوسيا ، إنه لم يخنك ، ولكنك انشغلت عنه ، وأهملت الاتصال به ، فليست لك عليه من حجة (يسمع ضوضاء) هاهى الليدى !

ولفرد : (يدخل و ينحنى) مولاتى الليـدى !

الليدى : (تدخل وبجانبها سانت أوبن ومن ورائها داين وليرا ومن خلفهما القس فانشو ومسز ليزلى) تحيتى إلى سيدى الإيرل المحترم .

الإيرل : (يقف) أهلا بك ياابنتى العزيزة . (يصافحها) لقد شرفت استار منستر يا أميرة كاسل تروز . (يصافح ليرا ومسز ليزلى) إنى سعيد جداً بتشريفكن قصرى .

الليدى : إنى بلسانهما أقدم إلى السيد الإيرل شكراً عظيماً على هذه العواطف السمحاء . (مشيرة إلى فانشو) وأقدم لكم حضرة القس مارتن فانشو المحترم .

الإيرل : (يصافح فانشو) أهلا برجل التقوى . لقد حملت إلى قصرى بزورتك هذه ملائكة الرحمة وآيات الغفران .

فانشو : (ينحنى) أعز الله سيدى الإيرل .

داين : (لتيودوسيا بفرح) إنى أرى كل شىء يبتسم .

تيودوسيا : (بسرور) إنى سعيدة جداً برؤيتك ، ياابن العم .

الإيرل : (يجلس) تفضلوا بالجلوس (يجلسون ، إلى ليرا) لقد آنست استار منستر ياسليلة أسرة تشستر العظيم !

داين : (يفرك يديه من شدة الفرح ويهمس إلى داين) إنه رفع مقامها فى عين الليدى .

ليرا : (تبتسم بفرح) إنى بالإنابة عن مولاتى الليدى اشكر عواطفكم السامية يامولاى .

الليدى : هل تعرف أسرة مسز ليرا ، يا حضرة الآيرل ؟

الإيرل : نعم ، وهى من أمجد الأسر القديمة ، ولا تزال أملاكها تتاخم أملاكنا فى لوكشير .

الليدى : (بعجب) فى لوكشير ؟

الإيرل : نعم ، ولا غرابة فى ذلك فأنا أعرف رؤوس هذه الأسرة الكبيرة ، وكأنه يلوح لى منذ عشرين سنة إنى سمعت عن كبير تلك الأسرة الشريفة إنه رحل إلى أمريكا ، هاجراً بعض أفراد أسرته ، فأثرى هناك وأصبح من كبار الماليين .

ليرا : (باهتمام) أتذكر يا مولاى اسم هذا الشريف ؟

الإيرل : (يتذكر) أظننى لا أستطيع ذلك الآن لأن مشاغلى العظيمة أبعدت عن ذاكرتى مثل تلك الروايات (يصمت قليلا) . هاقد فطنت ، إنه بلا ريب السيد آدون تشستر .

ليرا : (تبكى) هو والدى ، يا مولاى .

الجميع : (باندهاش) أبوها !

الإيرل : (بسكون) أبوك ، أنت ، يا أبنتى ؟

داين : (بفرح واهتمام) نعم يا والدى ، وقد سبق لى أن تعرفت به فى سياحتى إلى برنستابل ، وتناولت الشاى فى بيته ، وهناك رأيت المس ليرا تشستر لأول مرة .

الإيرل : (باهتمام) ولم لم تخبرنى عن هذه المصادفة الغريبة ، يا ولدى ؟ .

داين : لم أكن أعرف شيئاً عن ذلك يا سيدى الوالد .

الإيرل : (إلى ليرا) وما السبب فى عودتكم من أمريكا ، يا ابنتى العزيزة ؟

ليرا : لا أعرف السر فى ذلك ، وربما عرفه خادمى الأمين ، جرفث .

الإيرل : وأين جرفث ؟

ليرا : يسكن كوخنا ، لا يزال فى برنستابل .

الإيرل : وهل هو مسن ؟

ليرا : نعم ، إنه أكبر من والدى سناً . (تتأوه) لقد كان ساهراً على حراستى وهو طيب القلب.

الإيرل : (يتذكر) نعم ، إنى رأيته مع أبيك غير مرة فى المزرعة . ولقد أعادت هذه الذكرى إلى ذاكرتى أشياء كثيرة عن هذه الأسرة التى ربما تكونين أنت وريثتها الوحيدة .

ليرا : (بفرح ، واهتمام) أفى يقظة أنا أم فى منام ؟

الإيرل : (بسرور ، يضحك) فى اليقظة ياعزيزتى ، وسأرد لك ماسلبك الدهر ، وأزف بيدى هذه إليك الهناء والسعادة .

ليرا : (بفرح عظيم) كم أنت كريم يا مولاى !

ولفرد : (يدخل وينحنى) المائدة على استعداد .

الإيرل : (يقف) هلموا إلى المائدة (إلى الليدى) تفضلى يا ليدى .

الليدى : (باندهاش) تفضل يا سيدى الإيرل (تقف) .

داين : (إلى الجميع) إن قصر استار متستر يتلألأ نوراً بضيوفه هـذا المساء (يتأبط ذراع الليدى يخرجون) .

بول : (يدخل ليرتب البهو) حقاً لقد أحسن رئيسى ولفرد فى اقتراحه عـدم التدخل فى شئون الأمراء . نعم إنى لست سوى خادم ضعيف يمـكن استبداله من أجل هفوة ، فـكيف أجحد هذه النعم ، ولا أشكر الله عليها ؟

الإيرل : (يدخل متوكئاً على ذراع ليرا) رغبة فى الخلوة بك ، دعوت الليدى إلى قصرى هذا المساء ، وسألتها بإلحاح أن تصحبك بمعيتها . (يجلس) اجلسى إلى جانبى يالـيرا ، وأعيرينى كل التفاتك .

لـيرا : (تجلس) ها أنا ذى خاضعة لأمرك يامولاى .

الإيرل : أتعلمين إنى عظيم الثروة ، وليس لى وريث شرعى غـير وحيدى اللورد داين ، وهل تعلمين أيضاً كم أحبه ؟

ليرا : (تتنهد) نعم أعلم ذلك .

الإيرل : وكنت قد تعاهدت وأخى لورد هايتلت أن تزف تيودوسيا إلى داين متى عرفا معنى الحياة . وكانا إذ ذاك فى المهد . ولما ترعرعا شرحت لهما إرادتنا فوافقا عليها . غير أن الدهر أبى أن تتحقق تلك الأمانى ، ووقع داين فى حب غادة شريفة سواها .

ليرا : (باهتمام) ومن هى هذه الغادة التى كلف بها اللورد ؟

الإيرل : أظنك لاتنسين صيد السمك على ضفة نهر التو .

لـيرا : (تخفى وجهها بين يديها) أبلغ مولاى ذلك السر ؟

الإيرل : نعم ، أعلم كل شيء . (يمسح شعرها بيمينه) كونى مطمئنة فلم يخرج السر من لسان الولد إلا إلى صدر الوالد .

لـيرا : يامولاى !

الإيرل : اطمئنى ، فقد اخترتك عروساً لولدى ولم يبق إلا كلمة القبول من فمك .

لـيرا : (بانزعاج) أنا ؟

الإيرل : وهل فى ذلك شك ؟

لـيرا : ولـكن . . . (فى تفـكير عميق) .

الإيرل : ولـكنك فقيرة ، أليس كذلك ؟ أتظنين ، يا ابنتى ، أن الفقر عار ؟

لـيرا : لا ، يا مولاى (بدهشة) ولـكن . . .

الإيرل : ولـكن ماذا ياعزيزتى ؟ أراك مرتبكة فهل يؤلمك سر اعترافك فى حياتك الأولى ؟

لـيرا : (ترتجف) آه ، يا مولاى ! (تبكى) .

الإيرل : تبكين أيضاً ؟ أرافضة أنت طلبى ، يا ليرا ؟

لـيرا : إن المضطر يركب الصعب يا مولاى .

الإيرل : وهل يضطرك شيء إلى رفض طلبى ؟

لـيرا : (بخجل) ربما كان ذلك ، يا سيدى ، وأرانى مرغمة .

الإيرل : أتبخلين على بشرح ما يؤلمك ؟

لـيرا : (بألم) لا يجسر لسانى على النطق ، يا مولاى .

الإيرل : (يمسح شعرها بيمينه) أنظرى ملياً فى المسألة ، واعلمى أنى أريد لك الخير .

لـيرا : كان يسعدنى ذلك ، لو استطعت .

الإيرل : إنه ليدهشنى رفضك يد اللورد ، مع أنها تسعد أغنى شريفة فى لندن .

لـيرا : هذا صحيح ، يامولاى .

الإيرل : إذاً ، كيف ترفضينها ؟ وفوق ذلك فهى يد من يهواك لدرجة العبادة

لـيرا : يا إلهى ! (بحزن) إن رفضى يد اللورد يقـذف بى إلى هاوية الهلاك أياماً قليلة ، ثم

يبعث بى إلى عالم الأبدية ، حيث أرقد هادئة بعيدة عن تلك الآلام التى يصعب على احتمالها .

الإيرل : لابد أن هناك سراً تدفنينه طى صدرك الكتوم . ولكن مهما كان هذا السر فلا أظن أنه يحول دون قبولك الاقتران باللورد .

لـيرا : (تبكى) مولاى ، أستحلفك بكل عزيز أن تغير موضوع هذا الحديث !

الإيرل : تطلبين محالا يا أبنتى ؛ لأنك بهذا العمل تزعجين حياة شاب أوقفها لحبك ، وأقسم بشرف أسرته ألا يتزوج سواك .

لـيرا : (ترتجف) مولاى ، رحمتك ! واذكر أنى فتاة ضعيفة .

الإيرل : (باستغراب) من منا يطلب الرحمة ؟ واذكرى أيضاً أنى إيرل أستار منستر أطرح تحت أقدامك ثروتى وسعادة ولدى ، وأنت ترفضينها ! فيالك من قاسية !

لـيرا : (تنتحب بشدة وتنظر إلى السماء) إلهى ، رحمتك ، أسألك المعونة !

الإيرل : (بحنو) ليرا ، اذكرى أننى شيخ يلعب بى الفناء ، فلا تكدرى على صفو لحظاتى الأخيرة .

ليرا : (تمسح جبينها إثر دوران شديد) ارحمنى ، يامولاى ، فإنى أكاد أختنق . واسمح لى بالانصراف لأنشق الهواء ، وأمامنا متسع كبير من الوقت نعاود فيه الحديث ، (تقف ببطء فتخونها رجلاها ، فتسقط) أنقذنى ، ياسيدى ، وأسعفنى بالهواء . . . الهواء !

الإيرل : (يسرع إلى النافذة فيفتحها) لا بأس عليك ياعزيزتى . (باهتمام) كيف أنت الآن ؟

لـيرا : (بكلام متقطع) أحمد الله . . . إن الهواء أنعشنى . . . فشكراً لك ياسيدى الإيرل .

الإيرل : سأتركك قليلا ، ياعزيزتى ، لمفاوضة الليدى فى فصم عرى الخطبة ، كى أزف إليكما السعادة . (يخرج) .

ليرا : (لنفسها) إلهى ! أمى ! أبى ! أين أنتم ؟ لماذا لم تسرعوا لنجدتى من هول ما أنا فيه ؟ داين ! حبيبى ! إنى أحبك لدرجة العبادة . ولكن ماحيلتى وقد رمانى الدهر بنكبة لامخرج لى منها ، وقيدنى بأغلال لافكاك لها ؟ (تقف) دى جوفرى بارل ! ليت شمس

اليوم الذى عرفتك فيه ماطلعت ، بل ليتنى مت قبيل أن أضع يمينى البريئة فى يدك الخائنة آونة ذلك العقد المشؤم . إلهى ! كيف سمحت لهذا الوحش المفترس أن يرتبط إلى الأبد بفتاة يتيمة بائسة ! مات أبى الذى كان يرعانى ، ورحلت أمى التى كانت ترحم دموعى ، وفارقت خادمى الأمين الذى أوقف حياته لحراستى . و يلاه ! أتلفت حوالى فلا أرى منهم أحداً . (تنظر إلى السماء) لم يبق لى سواك ياخالق الرحمة . النجدة ، ياإلـه السماء .

(فى هذه اللحظة يسمع صوت ينادي : مولاتى ! فتلتفت لتجد ولفرد منحنياً وفى يده طبق فيه كتاب) .

ولفرد : (يدخل فى يده طبق فيه كتاب) مولاتى ! (ينحنى) .

لـيرا : (بانزعاج) ماوراؤك ؟ (لنفسها) إنه سمع كل شىء .

ولفرد : كتاب برسم مولاتى المس ليرا تشستر بقصر كاسل تروز .

لـيرا : (تتناول الكتاب بيد مرتجفة) برسمى أنا ؟ تنظر العنوان برنستابل (بفرح) لاشك أنه من جرفث . (تقبله) .

ولفرد : هل من خدمة يامولاتى ؟

لـيرا : هل وقع نظر مولاتى الليدى على هذا الكتاب ؟

ولفرد : نعم ، وهى التى سلمتنى إياه وأمرتنى بتسليمه إليك متى وجدتك فى خلوة .

لـيرا : (بدهشة) فى خلوة ؟ ولم ذلك ؟

ولفرد : هكذا أمرت ، ولم أعلم السبب .

لـيرا : حسناً . أنا لا أحتاج إلى شىء . (ينحنى ويخرج . تفتح الكتاب باهتمام) إنه وصل متأخراً . (تنظر فى التوقيع) جرفث . (تقبل الاسم) ما أطيب قلبك الطاهر ! (تجلس وتقرأ) «سيدتى وابنتى الوحيدة ، رعاك الله فى غربتك . لقد انقطعت عنى أخبارك منذ سفرك . إنه ليزعجنى ذلك لأنى لا أعلم السبب . هل أنت سعيدة كما أتمنى ، فأشكر إلهى لقبوله توسلاتى أم تتألمين فأعدذراعى إلى ضمك إذا أحببت العودة ؟ أو أطير على أجنحة الرياح إليك إذا فضلت البقاء ؟ ابنتى ، لقد شاهدت حادثاً أمس يهمك الاطلاع عليه ... » . (لنفسها) يهمنى الاطلاع عليه ! ماذا عساه يكون ؟ (تعيد القراءة

« بينما كنت أتصيد بجانب المغارة ، أبصرت جماعة على ضفة النهر يهرجون ، فعبرت النهر إليهم ، فإذا هم مجتمعون حول جثة رجل حملها الماء إلى الشاطىء ، ولكنها مشوهة جداً وممزقة الثياب . فلم يتمكن أحد منا من معرفة صاحبها ، فساعدتهم على حملها إلى المغارة ولقد حانت منى التفاتة ، فألفيت على القطعة الباقية من معطف الغريق زراً من الأزرار اللامعة المصنوعة على شكل كوكب والتى كنا نراها على معطف دى جوفرى بارل . . . » .. (لنفسها) يالله ، أيمكن أن يكون هو الغريق ؟ (تواصل) « . . . ولما خلعنا المعطف عن الجثة ، وجدنا فى جيب الصدار الداخلى دفتراً تذكرت أنى رأيت مثله معه ولما فتحناه لم نتمكن من قراءة شىء ، بل عثرنا بين طياته على أوراق مالية قيمتها خمسمائة جنيه . . . » (لنفسها) خمسمائة جنيه ! هذا سر لا يعلمه أحد غيرى أنا وحدى . (تواصل) « . . . أخذنى الفضول فبحثت الوجه جيداً ، فرأيت فيه علامات دلتنى على أن الغريق إنما هو دى جوفرى بارل بعينه . . . » (لنفسها) وأفرحتاه ! (تقبل الكتاب تقرأ) « . . . لقد مات من كنت تخشينه ، ياعزيزتى . فكونى هادئة ، واطمئنى . وإنى أهنئك على خلاصك من التصورات المؤلمة التى سببها لك هذا الوحش القاسى . أنا لا أعلم السر فى رعبك منه للدرجة التى شاهدتها . . . » (لنفسها) نعم ، إنه لا يعلم . (تقرأ) « . . . صحتى جيدة . ليس لى شاغل سواك . سأحضر متى حانت الفرصة . منى إليك قبلتى الأبوية . المربى جرفث» (تطوى الكتاب وتضعه فى صدرها) الآن أشرق نجم سعادتى ، فشكراً لك ياإلهى .

ولفرد : (يدخل وينحنى) مولاى الإيرل .

الإيرل : (يدخل) لعلك أحسن حالا الآن يا ابنتى .

ليرا : (تنحنى) شكراً لعواطفكم الرحيمة ، يامولاى .

الإيرل : لقد تم كل شىء ، وقبلت اللايدى عن طيب خاطر ، وستجهز لك بيدها ملابس العرس . إنها طيبة القلب ، ولم يبق لى الآن إلا أن أسمع كلمة القبول منك .

ليرا : (بفوز) إنى مطيعة يامولاى .

الإيرل : بارك الله فيك ، ياأبنتى ، إذا كنت راضية .

ليرا : (بخجل) نعم رضيت . وإنى رهينة أمر مولاى .

ولفرد : (يدخل وينحنى) سيدى اللورد وصديقه لورد سانت أوبن .

الإيرل : ليدخلا . (يدخل داين وسانت أوبن) .

سانت أوبن : نرجو ألا نكون قد أزعجنا سيدى الإيرل ومس ليرا .

الإيرل : (يضحك) إنه يسرنى حضوركما ، لأنه جاء فى الوقت المناسب . (ينظر إلى داين) إنى أهنئك ياولدى العزيز بعروسك (مشيراً إلى ليرا) .

سانت أوبن : وأنا أيضاً أقدم تهنئتى القلبيه لصديقى الأعز .

داين : (بفوز) أحمد الله ، وأشكر لسيدى الوالد هذا العطف الكبير .

الإيرل : اجلسا يا ولدىَّ . (يجلسان) .

سانت أوبن : إن ليدى تيودوسيا قابلت هذا النبأ بكل سرور .

الإيرل : يسرنى أن تكون سعيدة ، لأن لها فى قلبى مكانة الإبنة .

ليرا : إنك أثقلت كاهل الجميع بحسناتك المتواليات ، ياسيدى الإيرل .

الإيرل : لم أفعل غير الواجب على كما لو كنت ابنتى . هيا بنا ياعزيزتى إلى مكتبى الخاص . (تقف فيقف الجميع ويتأبط ذراع ليرا) أيسمح لنا ولدى ؟ (ينحنى داين وسانت أوبن)

ولفرد : (يدخل وينحنى) مولاتى الليدى أأمرت بإعداد المركبة .

داين : إلى كاسل تروز ؟

ولفرد : نعم

داين : (إلى سانت أوبن) يجب أن تشيعها ، بالورد .

سانت أوبن : حسناً هيَّا بنا . (يخرجان) .

ولفرد : (يرتب الأثاث) لاشك أن هذه العذراء الجميلة تقربت إلى الله بثوب العفاف والطاعة حتى أن الله زف إليها هذه السعادة التى كانت تتمناها أجمل وأثرى النبيلات .

بول : (يدخل) هل من خدمة يا حضرة الرئيس ؟

ولفرد : هل تحمل أخباراً عن عراك القلوب الذى يدور اليوم فى قصرنا الذى ظل هادئاً السنين الطويلة ؟

بول : لقد لاحظت أن سيدتى الليدى قد سرها فصم عرى الخطبة التى تربطها بسيدى اللورد ويظهر أنها ستستعيض عنه بحضرة القس المحترم ، لأنها ـ على ما سمعت ـ تميل إليه

كل الميل ، وأنا لا أنكر أنى قرأت فى وجهه علائم البشر والارتياح ، إذ سمعته يقول لها وهو يكاد يطير فرحاً : إنه بدأ يشعر منذ اليوم بالأمل والسعادة الدائمين .

ولفرد : حسناً ، وسيدى اللورد ، علام عول إذاً ؟

بول : إنه بلا شك سيتزوج الحسناء صاحبة القصة التى عنفقتنى على سماعها .

ولفرد : إنك بعيد النظر ، شديد الذكاء ، يا بول . إنى أسمع جلبة ، فمن القادم يا ترى ؟

بول : لا تشغل بالك ، فحركة القصر اليوم غير عادية . (يدخل داين وفانشو وسانت أوين)

داين : (إلى ولفرد) هل لا يزال مولاك الإيرل فى مكتبه مع مس ليرا ؟

ولفرد : أجل ، يا مولاى .

داين : ليطمئن فى خلوته (إلى ولفرد) انصرف . (يخرج ولفرد وبول . . إلى صديقيه) تفضلا بالجلوس (يجلسون . لفانشوا) لم رفضت الليدى أن نصحبها إلى كاسل تروز ؟

فانشو : لم تكن وجهتها كاسل تروز . إنها أسرعت لترأس اجتماعاً خيرياً هاماً .

داين : ولم لم تستصحب حضرة المحترم ، كما هى عادتها ؟

فانشو : لقد أنابتنى فى رئاسة اجتماع آخر لم يحن وقته بعد ، فآثرت البقاء معكم ريثما يأتى. الوقت المناسب . (بدهشة) وهل يسوؤكم وجودى ؟

داين : : استغفر الله . إن وجودكم بيننا يضاعف سرورنا .

فانشو : أشكركم .

ولفرد : (يدخل حاملا بطاقة صغيرة ويقدمها إلى فانشو) حامل هذه يلتمس مقابلة سيدى شخصياً .

فانشو : (يتناول البطاقة وينظر فيها . بدهشة) مُرْهُ بالدخول (ينحنى ويخرج) .

ولفرد : (يدخل) أرجوكم المعذرة يا سادة (إلى فانشوا) عندنا رجل يحتضر ، وقد ألح كثيراً فى طلبكم شخصياً للاعتراف . ومن غرائب ماشاهدت منه أنه يغمغم بين آن وآخر بكلمة ارمتايدج ولم نعلم لذلك من سبب .

داين : (باهتمام) أرمتايدج ؟ إن هذا عجيب . من هو ياترى هذا المحتضر ؟ أعلمت ما اسمه ؟

ولفرد : نعم ، لقد قال إن اسمه روبرت رودن . ويظهر أنه كان من رجال الكنيسة ، لاحظت ذلك من ترتيله فى صحوته أناشيد الهياكل الكهنوتية و بعض المقدسات .

داين : (يجهد ذاكرته) روبرت رودن ؟ إنى لا أعرف عن هذا الاسم شيئا ، ولكن من يدرى ، فربما كانت له علاقة بذلك الأحمق تشاندس ؟

فانشو : (إلى ولفرد) هأنذا ألبى نداء الواجب المقدس . (إلى داين وسانت أوبن) أتسمحان لى بالانصراف لتأدية هذه الخدمة الدينية (يقف اللورد وسانت أوبن) .

داين : أيمكن أن نصحبكم ؟ وهل يجوز ذلك ؟ أرانى مدفوعاً بعامل حب الاطلاع إلى سماع اعتراف هذا المحتضر .

فانشو : هذا شأن يتعلق به وحده ، فإن شاء كان ، وإن رفض استحال .

داين : مادام يذكر ارمتايدج ، فهو لاشك يرتاح لوجودى .

فانشو : هلموا بنا ، وسننظر فى ذلك متى وصلنا . .

داين : (إلى ولفرد) هيئوا لنا العربة . (يخرج ولفرد . خرجون ، تدخل ليرا فى ثوب أبيض) .

ليرا : ما أطيب قلب ذلك الشيخ ! إنه يذكرنى بوالدى . (تجلس) إن حنانه ضاعف فى قلبى من حب داين ، ليته يعيش طويلا كى أنسى بقربه فقدان أبى . (تصمت قليلا ثم تمسح جبينها) رباه ، بماذا أشعر ! إن دقات قلبى تنذرنى بحدوث أمر، فماهو ياترى ؟

ولفرد : (يدخل وينحنى) مولاتى ، وصل إلى القصر شيخ طاعن فى السن ، فسأل عنك . ولما علم بوجودك هنا ، طلب مقابلتك فى خلوة ، فدهشت من ذلك الطلب ، ولما رآنى متردداً ، قال : لابأس عليك ، اذهب إلى مس ليرا ، واذكر كلمة جرفث .

ليرا : (تصرخ باندهاش) جرفث ! جرفث ! هل حضر ؟ أحقاً ماتقول ؟ . إنى لا أكاد أصدق . ليدخل ! (بدهشة) وافرحتاه . . . لاتعجب . . إنه أبى . ما أشد سرورى ! (يخرج ولفرد) .

جرفث : (يدخل ممتلئاً سروراً) حملنى الشوق إليك ، يا أبنتى .

ليرا : (تجرى إلى الباب وتطوقه بذراعيها وتقبله) جرفث ؟ جرفث ! هذا أنت ؟ أهلا بك .

أفى يقظة أنا أم فى منـام !

جرفث : هأنذا ، يا ابنتى العزيزة ! أأنت سعيدة ؟

لـيرا : تمت سعادتى بوجودك الآن .

جرفت : (بانشراح) ضاعف الله سرورك . (يجلس وتجلس ليرا بجانبه) كنت أعرف أنك تسكنين كاسل تروز مع ليدى تيودوسيا هاينلت . ولمـا وصلت إلى القصر علمت أنك انتقلت إلى ستار منستر فما سبب هذا الانتقال ؟

لـيرا : نعم (تتأوه) إن الحوادث التى مرت بى والمصائب التى تقلبتُ فى أحضانها ، تذوب لهولها صم الصخور .

جرفث : (بدهشة) أتتـكلمين عن شخصك المحبوب .

لـيرا : (بتوجع) نعم ، عن نفسى أنا .

جرفث : أما كفى ما جرى حتى تضاعفى أحزانى بحر شـكايتك ؟ إبنتى ، بالله عليك ما سبب هذه الآلام ؟

لـيرا : فارقتك بعد المصاب الفادح إلى كاسل تروز ، مصحوبة بمسز ليزلى التى أرضعتنى لبان نصائحها ، وبالغت فى مواساتى . (تتنهد) وعندما دخلت القصر قابلتنى ربة الإحسان وسيدة كاسل تروز ، ليدى تيودوسيا ، بـكل حفاوة وترحيب ورفعت مكانتى بين حاشية القصر ، حتى أصبحت مكانتى لا تقل احتراماً عنها . وقد مزقت بأيديها البارة الـكريمة تلك الحجب الـكثيفة التى كانت تخيم حول سعادتى ؛ وأقصت عن قلبى المتوجع جميع الهموم والأحزان . (تتأوه) ما أطيب قلبها ياجرفث !

جرفث : (باهتمام) و بعد ؟

لـيرا: كنا نحتفل باللورد الأكبر إيرل ستار منستر . وقد أخذ القصر زينته . وكنت موضع إعجاب الجميع ، وما هى إلا لحظة (تتنهد) حتى رأيته يدخل فجأة (ترتعش) ويلاه ! (تسكت) .

جرفث : (بغرابة) من هو ؟

لـيرا : (تتنهد) بربك ، كفى ! لا تضطرنى إلى . . .

جرفث : (بشغف) إلى ، إلى ماذا ؟ أتخفين عني ما يؤلمك ؟ .

ليرا : (بحزن) كلا . (بخجل) ولكن . . .

جرفث : أنا أبوك

ليرا : نعم . أنت وحدك الذى يهمك شأنى (تبكى) لورد داين ارمتايدج

جرفث : (يبتسم) فهمت ، الذى علمك صيد السمك ، أليس كذلك ؟

ليرا : نعم هو بعينه . (تتنهد ، فيرتفع صدرها) .

جرفث : لا شك أنك تحبينه . أقرأ فى عينيك .

ليرا : نعم ، أحببته منذ ذلك الحين .

جرفث : وماذا حدث عند دخوله ؟

ليرا : لما وقعت العين على العين انتابنى إغماء شديد ، فسقطت على الأرض فاقدة كل حس . ولم أعلم ماذا جرى بعد ذلك . (تتنهد متوجعة) ولما أفقت وجدتنى فى سريرى و بعض الخدم يعتنون بى ، وعلمت فى صحوتى أن داين أصابه ما أصابنى فى نفس الوقت ونقل إلى سرير الليدى ، وظل الكل حوله حتى أفاق .

جرفث : (بدهشة) اتفاق غريب . (يدنو من ليرا) .

ليرا : (بخجل) شاع على الألسنة منذ تلك اللحظة أن حبنا متبادل وقديم . نعم ، (بحنان) إنى وهبته كل قلبى منذ أول نظرة . وثق أنه خيل إلى أن الليدى أخذتها الغيرة ، إذ أن الجميع كانوا يعتقدون أن ليدى تيودوسيا ولورد داين قد خلق كل منهما للآخر . وبهذا كانت تتم رغبة الإيرل وأخيه لورد هايتلت .

جرفث : (باهتمام عظيم) هل نالك من غيرتها أذى ؟

ليرا : (بحنو وعطف) حاش لله أن تمد ليدى تيودوسيا يدها بإساءة إلى مخلوق ، مهما نقمت عليه ، إنها مثال العفو والإحسان .

جرفث : (بانشراح) إذاً ، كيف تخيلت أن الغيرة تسربت إليها ؟

ليرا : تجسم لى ذلك من اهتمامها واستدعائها الطبيب ، وسؤاله عن سبب الإغماء ، وكيف أتفق أن يقع فى وقت واحد ولأول مقابلة . (تتنهد) .

جرفث : حسناً ، وماذا تم بعد ذلك ؟

لـيرا : (تتنهد) لم يقو اللورد على إخفاء مايخالج نفسه نحوى ، فـكاشفنى بحبه ، ورجانى أن أقبل يده فأكون عروساً له ، فلم أقبل .

جرفث : (بغرابة) عروساً له ؟ ولم لم تقبلى ؟

لـيرا : ولما يئس من قبولى لجأ إلى حضرة الإيرل والده ، فقضينا الساعات الطويلة وهو يرجونى بإلحاح ، وأنا مصممة على الرفض .

جرفث : (بدهشة وحزن) إنى لا أجد سبباً لامتناعك . فهل لذلك من سبب ؟

لـيرا : (تتأوه بألم شديد) ويلاه ! (تفرك على يديها) إنك لاتعلم . . .

جرفث : لا أعلم ؟ (باستغراب) أحدث لك هنا شىء مؤلم ؟ .

لـيرا : (تبكى بحزن) هنا ؟ (تنتفض) أما هنا ، فلا ؟ .

جرفث : (بفزع وغضب) إذاً هناك ، قبل أن تبرحى العش .

لـيرا : (بوجل ورعب) نعم هناك . (تصمت قليلا) يالها من ذكرى مؤلمة . . .

جرفث : إنك قد صوبت سهماً إلى صميم قلبى . نعم لقد تحققت هواجسى . إنى كنت ألاحظ عليك يوم سفرك أنك تـكتمين عنى آلاماً كانت ترتسم على محياك ، وتوسلت إليك أن تصارحينى ، فالتزمت الصمت . (بتململ وأسف) ولـكن ما علاقة كوخ المطحنة بقصر ستار منستر ؟ .

لـيرا : (تمسح دموعها) مسكين أنت ، ياجرفث . إنك لاتعلم شيئاً . نعم ، أخفيت عنك كل شىء .

جرفث : (باهتمام) كيف سولت لك نفسك هذا ؟

لـيرا : (بتوسل) رحماك ، يا إلهى ! (تتنهد) .

ولفرد : (يدخل وينحنى) مولاى الإيرل فى حاجة إلى رؤية مولاتى حالا .

لـيرا : (تقف مذعورة) الإيرل ؟ (إلى جرفث) هلم معى لأقدمك إلى سيد القصر ، ولنؤجل ما نحن بصدده حتى نعود . (يقف جرفث ويخرجان) .

ولفرد : (يرتب المقاعد) إنها ملاك ، فليهنأ بها مولاى اللورد . يلوح لى أن هذا الشيخ الذى يتجسم الشباب فى سواعده ، ويتجلى الإخلاص تحت جبينه المتجعد ، وتسطع الشهامة

حول شعره الأبيض ، قد أفرغ كل ماوهبه الله من حكمة فى تربية هذه الزهرة حتى أينعت .

داين : (يدخل ومعه فانشو وسانت أوبن . إلى ولفرد) هل لا تزال مس ليرا تتشرف بصحبة الإيرل ؟

ولفرد : (ينحنى) ذهبت الآن مع جرفث ، بناء على طلب مولاى الإيرل .

داين : من هو جرفث ؟

ولفرد : خادمها الشيخ . لقد حضر اليوم من برنستابل .

داين : (باهتمام) حسناً ، إذهب وهيىء الغرفة المجاورة لهذا البهو . إنى أريد أن أسمع بأذنى كل كلمة تدور بين هذا الشيخ ومس ليرا . أفهمت ؟ (ينحنى ولفرد ويخرج) .

داين : (إلى فانشو وسانت أوبن) مارأيكما فى اعتراف روبرت رودن ؟ (يجلسون) .

فانشو : إنه غاية فى الغرابة .

سانت أوبن: إنى لا أكاد أصدق ما سمعت .

داين : إن ما يدهشنى قبولها يدى ، وهى تعلم ما بينها وبين تشاندس من العلاقات .

فانشو : هذا الموضوع غريب فى بابه ، فلا بد أن يكون قد وصلها عن تشاندس أخبار تأكدت منها أنه لن يعود ، وبعد ذلك قبلت يد اللورد ، ومع هذا فهى بريئة ، ألقت بنفسها بين مخالب ذلك الوحش تحت تأثير حادث مؤلم سوف نعرف حقيقته .

داين : أحب أن أسمع كلمات روبرت رودن الأخيرة ، فأين الورقة ؟

فانشو : (يخرج الورقة) ها هى (يقرأ) « . . جاءنى يوماً صديق لى عرفته فى المدرسة ، وسألنى أن أساعده فى تمثيل رواية ، وكان يعلم ماضىّ وأنى كنت من خدمة الكنيسة ، فعرض على أن أمثل دور قس . وكنت حين ذاك فى أشد حالات الضيق لتراكم الديون على ، وكنت سكيراً ، فسقانى وشرب معى حتى نزع عنى البقية الباقية لى من الضمير ، ثم أخرج المال ، فألجأنى الفقر إلى موافقته . إن هذا الرجل كان شيطاناً ، فزين لى المستقبل ، وكان غرضه أن أمثل عقد قران نظير إعطائى مبلغاً كبيراً من المال . فاتفقنا على أن يحضر هو والفتاة إلى كنيسة خربة ، فأعقد له عليها . . . »

سانت أوبن : لا شك أنه زواج باطل .

فانشو : (مستأنفاً) « . . في اليوم المعين ذهبت إلى الكنيسة المهدمة ، وآسفاه ! ويلاه ، إنى أشعر الآن برهبة ذلك المكان الموحش ! وبعد قليل أقبل هو والفتاة ، وكنت أتوقع أن أرى فتاة عادية ، فإذا بى أرى غادة خلابة المحاسن لها سذاجة الأطفال ، تغلب عليها معانى الطهارة والشرف . . . »

داين : ويل لذلك النذل ، إن انتقامى سيكون شديداً .

فانشو : (مستمراً) « . . . ومع أن ذلك الرجل الشيطانى كان يؤكد لى أنها جاءت مسوقة بإرادتها فإنه لم يظهر عليها ما ينم عن ذلك ، كان يلوح لى أن حزناً عميقاً ، أو مصيبة عظيمة دفعتها إلى ذلك المكروه . . . . »

سانت أوبن: (لداين) أرأيت يا عزيزى أنها كانت مسوقة رغم إرادتها ؟

داين : سننظر فى ذلك يا لورد .

فانشو : (يواصل) فلم أقو على ضبط نفسى ، ولكن الشيطان كان يبسط إلىّ كفيه ، فأرى الذهب يلمع ، فيصل بريقه إلى أعين الفاقة التى كانت تحيط بى من كل مكان ، فسولت لى نفسى الطامعة أن أقرأ كلمات الإكليل . رحماك يا إلهى ! وبعد أن تم ذلك أخذت المال وسافرت إلى أستراليا ، إلا أن خيال تلك المسكينة المنكودة الحظ كان يطاردنى أينما ذهبت ، ففررت إلى الهند ، ثم جبت بلاداً كثيرة أملا فى أن يختفى عن عينىّ شبح تلك الفتاة الطاهرة . ولكن عبثا كنت أحاول . ولقد داهمتنى الأمراض حتى رمتنى الأقدار بين أيديكم . إنى أحتضر الآن . . وهذا يريحنى ؛ إذ به أتخلص من رؤية ذلك الشبح المخيف . اسمى روبرت رودن واسم الفتاة ليرا ، والإسم الحقيقى للرجل تشاندس ارمتايدج ، واسمه عند الفتاة دجوفرى بارل . واسم الكنيسة القديس مرقس ، ببيرنستابل قرب النهر . إذا كانت لكم معرفة بالفتاة أو أمكن أن تعثروا عليها ، فاسألاها الصفح والمغفرة .

داين : (بألم) إن حواسى تضطرب . فما الرأى ؟

ولفرد : (يدخل وتنحنى) مس ليرا وخادمها الشيخ قاصدان البهو .

داين : (يقف وسانت أوبن وفانشو) هلموا بنا إلى الغرفة التى هيأها لنا ولفرد . (يخرجون من باب داخلى) .

ليرا : (تدخل وجرفث يتوكأ على ساعدها) إنه يحبنى، كما لو كان أبى حياً. أرأيت كيف أكرمك وطلب إليك ألا تفارقنا أبداً؟

جرفث : إن لسانى ليعجز عن وصفه.

ليرا : (بألم) إنى وعدته، فكيف العمل؟

جرفث : (بدهشة) ما معنى هذا؟

ليرا : أنصت إلى سأطلعك على الحقيقة، وكنت اتكتمها حتى الآن، ولم أبح بحرف منها لمخلوق.

جرفث : (باهتمام) ما هى هذه الحقيقة؟ اشرحيها حتى أسدى إليك نصيحتى فيستريح ضميرى.

ليرا : ارجع قليلا إلى الكوخ، وفكر، فى حياتنا الأولى. لقد حضر معى شاب كاد يغرق وانتشلته من الغرق. وفى اليوم الثانى حضر ليعلمنى صيد السمك. هذا هو اللورد داين ارمتايدج ابن الإيرل. وهو المخلوق الوحيد الذى أحببته منذ أول نظرة. (تبكى).

جرفث : ولم البكاء، وقد أصبح قرانكما مؤكداً.

ليرا : إسمع. بعد أن سافر داين (تتنهد) حضر إلى كوخنا ذلك الشيطان دجوفرى بارل، الذى استضفناه مدة طويلة.

جرفث : إطمئنى، فأنا ماحضرت إلى هنا إلا بسببه.

ليرا : لقد أفهمنى أن أبى مدين فى خمسمائة ذهباً، وأن صاحب الدين هددنا بطردنا من الكوخ واستيلائه عليه وعلى مزرعتنا الصغيرة. وجسم لى مصيرنا ونحن نتسول فى الشوارع، وبرهن لى على ذلك حتى أقنعنى أن هذا صحيح. وفعلا كنت أقرأ على وجه أبى علامات الضجر والخوف كلما قرب أجل الدفع. ولما زادت العلة على أبى تمكن منى ذلك الشيطان، وأكد لى أن نجاته فى دفع الدين. وتوسلت إليه وأنا فى حالة اليأس، أن يدفع هذا الخطب عنا، إذا كان ذلك فى مقدوره. فأخبرنى أن المال موجود، ولكن هناك شرط يجب أن أقبله، فسألته مطمئنة، فقال إنه يدفع الدين، إذا قبلت أن أتزوجه (تتأوه بألم).

جرفث : يالاشيطان! و بعد؟

ليرا : حاولت تارة بتوسلاتى وطوراً بدمعى ، أن أثنيه عن غرامه ، فلم أفلح . وكنت كلما أبصرت أبى يتوجع ، طار قلبى شعاعاً وانفطر هلعاً . فجثوت على أقدامه متوسلة أن يدفع المال و ينقذ شرف والدى ، فأبى إلا بالقبول . ولما رأيت أن أبى هالك ، وتحققت ألا نجاة إلا بقبولى . (متنهدة) قبلت . . .

جرفث : (باهتمام عظيم) ليرا ، ماهذا الذى أسمع ؟

ليرا : عندها أخبرنى أنه ذاهب حالا إلى بترال ليصرف المبلغ ويحضره معه ، وطلب منى أن أكون فى صباح اليوم التالى فى كنيسة القديس مرقص القديمة على ضفة النهر ، حيث يكون فى انتظارى مع القس (تتنهد) أدهشتنى هذه السرعة ، فسألته عن سببها فأجاب بأنه سيسافر فى أقرب فرصة للحاق بعمته المريضة . ولما سألته عن سبب تكتم هذا الزواج . قال : إن عمته لو علمت بزواجه حرمته من الوصية . (تتأوه) مضت تلك الليلة .

جرفث : ياللمصيبة ! ليتنى علمت منك هذا فى حينه .

ليرا : ذهبت إلى الكنيسة (بتوجع) فألفيته والقس روبرت رودن فى انتظارى والاضطراب باد عليهما ، إذ كنت أقرأ فى عينى القس علامات الخوف والتردد كأنه كان يخشى أن يفاجأ ، أو كأنه كان مسوقاً رغم أنفه إلى عمل يأباه ضميره . وبعد تردد تلا كلمات الإكليل وهو يرتجف ولسانه يتلعثم . ومد دجوفرى بارل يده إلى القس بقبضة من الذهب . فتناولها القس وخرج يعدو . وكأنه لص يتوارى عن أعين لاحقيه . (تبكى) .

جرفث : ياللخيانة ! إنه عقد باطل ، لأن هذا القس لم يكن سوى لص مأجور ، لتتوهمى أن هذا صحيح . كفكفى الدمع ياأبنتى ، وكفى فقد انتقم الله لك من عدوك .

ليرا : حاول أن يظفر منى ولو بابتسامة ، فشردت عنه ولم أمكن يده الدنسة أن تمس حتى طرف ثوبى . رجعت ودموعى تتدفق على فقد حبيبى ، وماوصلت الكوخ حتى وجدت أبى جثة هامدة . (تبكى بحرقة) فوقفت جامدة أمام جسده الطاهر أندب سوء حظى . ولما رأيته بجانبى طلبت منه المال لأدفعه عن أبى محافظة على وعده وشرفه ، فرفض بدعوى أن الدين أصبح حقاً لى بعد موت أبى . فطار صوابى وصرخت ، عندما رأيتك ،

وكان ما كان من هروبه . ولم أسمع عنه شيئاً حتى الآن غير ما جاء بكتابك من أنه مات غريقاً .

جرفث : أبشرى يا ابنتى ، فإن هذا العقد باطل ، والرجل الذى يخيفك قد هلك .

ليرا : (بفرح) بالله ، زدنى إيضاحاً .

جرفث : إسمعى يا ابنتى : حدث بعد أن بعثت إليك بكتابى أن دجوفرى بارل ، ذلك الشيطان ، حضر يتنسم أخبارك ، ظناً منه أنك لا تزالين فى عشك القديم .

ليرا : (باستغراب) عجيب ! إلى الكوخ ؟ (باندهاش) وبعد ؟

جرفث : أخذ يحوم حول المزرعة ، فأبصرنى ، ففزع لرؤيتى .

ليرا : وبعد ؟

جرفث : تناولت معولا من حديد وهممت أعدو وراءه فأخذ طريقه إلى النهر ، فانطلقت أثب خلفه كالنمر يطلب فريسته .

ليرا : (بتلهف) و بعد ؟ وبعد ؟

جرفث : قفز إلى قارب المزرعة ، واتجه إلى الشاطىء الثانى ، فصممت على اللحاق به سابحاً . وما كاد يصل إلى الشاطىء حتى ألقيت بنفسى فى الماء ، وما توسط النهر حتى أخذته رعدة وأقسم أنه ما أراد بك سوءاً ، وأن زواجه منك ما كان إلا مهزلة أو ألعوبة ، وأنه غير شرعى ، لأن القس لم يكن سوى رجل بائس فقير كان يمثل دوراً مأجوراً عليه .

ليرا : هذا مدهش . (بسرور) ، إنك أحييت ميت آمالى ، وأعدت لى الحياة المطمئنة التى كنت قد يئست من الحصول عليها .

جرفث : لم تؤثر فى تلك الكلمات ، بل استشاطتنى غضباً ، لأنى كنت خالى الذهن من كل هذا ، فألقيت بنفسى فى الماء ، وقد أخذتنى رعدة هائلة ، فلما أبصرنى قذف بنفسه إلى الماء طلباً للفرار سابحاً إلى الشاطىء الثانى . ولما كان لا يحسن السباحة ساعده حسن الحظ بأن رآه أحد الصيادين وهو يستغيث فأغاثه بقاربه .

ليرا : (باهتمام عظيم) يا إلهى ! و بعد ؟

جرفث : بينما كان يعصر ثيابه على الشاطىء الثانى وكنت أنا فى قارب المزرعة ، أعالج تحويله

عن كومة الرمل لا تزال به ، قرعت أذنى صرخة مفزعة ، فسرحت نظرى ناحية الصوت ، فرأيت جمعاً محتشداً تتقدمه امرأة عارية الرأس مبعثرة الشعر ، وهى تصيح : هو هو بعينه !

لـيرا : (بخوف) ويلاه ! إنى أرتعد .

جرفث : وما كدت أصل إلى الشاطىء ، حتى كانت المرأة قد أنقضت عليه ، واندفعت به إلى المـاء مطوقة إياه بذراعيها ، وماهى إلا لحظة حتى غاصا معاً تحت المـاء فى النهر . حاول الـكثير من الحضور إنقاذهما فلم يفلحوا . . كانت المرأة قابضة على عنقه فاستحال عليها الخلاص ، وهلـكا تحت المـاء . . .

لـيرا : (بذهول) إذاً لقد مات دجوفرى بارل ؟ وافرحتاه !

داين : (يدخل وسانت أوبن وفانشو) شكراً لله ، لقد هلك الخائن .

لـيرا : (تقف وجرفث . تنظر إلى الأرض بخجل . بارتجاف) داين ؟

داين : (بانشراح) نعم ، إنه أنا (ينظر إلى جرفث) لقد شرفت قصرنا ، وأدخلت علينـا السرور ، وجلبت لنا الهناء بتشريفك ستار منستر اليوم .

جرفث : (ينحنى) شكراً لك ، يامولاى .

لسيرا : (مشيرة إلى جرفث) إنه مربى الذى أرضعنى لبان الفضيلة .

داين : نعم الرجل . لقد عرفت كل شىء . (ينظر جرفث إلى ليرا اختلاسا) لا تنظر إليها ، فإنى أرى قلبها يرقص فرحاً . (يبتسم) لا تعجبا من هذا فإنى سمعت كل كلة دارت بينكما ، ووعيت الحديث من أوله إلى آخره .

اسيرا : (بخجل) أسمعت كل شىء ؟ (تتنهد) .

داين : وأعلم عنك أكبر مما تعلمين . (يلتفت إلى فانشو وسانت أوبن) أقدم إليك صديقنا فانشو مارتن ، الأب المحترم ، ولورد سانت أوبن .

لـيرا : (تنحنى) لى عظيم الشرف .

داين : (إلى صديقه) إنى أتشرف بأن أقدم لصديقىّ المخلصين ليدى ليرا ارمتايدج .

سانت أوبن : (بسرور) إنى أهنئكما من كل قلبى بهذا الاتصال الدائم .

جرفث : وأنا الآن لا يسعنى شىء من الفرح الذى هز قلبى من أعماقه ، ذلك القلب الذى لم يدخله السرور منذ عهد الشباب إلا هذه اللحظة فقط . (يمسح عينه) هذه دموع الفرح تجلل شعرى الأبيض ، فليبارككما الله ياولدى .

داين : اسمعى يا عزيزتى ، فسأزيدك ثقة بأنى ملم بالموضوع أكثر من إلمامك به . لقد حضرنا ، أنا وصديقى ، اليوم اعتراف محتضر . ولم يكن هذا المحتضر سوى اللص روبرت رودن الذى كان يرافق ابن عمى تشاندس ارمتايدج ، الذى تعرفينه باسم دجوفرى بارل .

ليرا : (بأسف ورعدة) ابن عمك ؟ هذا عجيب .

جرفث : (بصوت خافت) ابن عمه ؟ ياللداهية !

داين : لا تأسف ، فإنى غير آسف ، لأن سلوكه كان مشيناً ، وستعلمان عنه أشياء كثيرة . لقد شرح روبرت كل ما حصل فى كنيسة القديس مرقص القديمة . وها هو ذا اعترافه مع صديقى المحترم (مشيراً إلى فانشو) . سأطلعكما عليه فيما بعد ، إن روبرت لم يكن راضياً عن ذلك وقال إنه كان دوراً هزلياً وأن هذا العقد لاشك باطل . واعترف بأنه عطف عليك لأنك كنت ملاك الطهارة ، وكنت غير راضية عنه ، مسوقة إليه بدافع قوى لا يعلمه ، وختم كلامه بطلب العفو منك فأسألك الصفح عنه .

جرفث : حقيقة إن مولاى يعرف أكثر مما نعرف والآن ، وقد وضح كل شىء ، لا يسعنا إلا أن نشكر الله على هذه النتيجة .

داين : وأكثر من هذا أن أنباء غرق تشاندس وصلت إلينا على لسان البرق وفى صحف لندن ولم يعلم والدى الإيرل بذلك بعد .

فانشو : إنا نقابل هذا الخبر بمزيد الأسف .

سانت أوبن : وأنا أشارك صديقنا فانشو فى هذا الأسف .

داين : بارك الله فيكما ، هذا مصير كل حى . والآن أسألكما ألا تطلعا والدى الإيرل على شىء من هذا الحادث ، لأنه سريع التأثر ، وصحته تهمنى . ألا توافقان على ذلك ؟

سانت أوبن : أصبت . و إنى سأتناسى منذ هذه اللحظة كل ماعلمته عنه .

فانشو : الحق معك ، ياعزيزى داين ، وأنا أشارك اللورد (مشيراً إلى سانت أوبن)

فى عواطفه السامية .

داين : أشكركما على هذا الإخلاص . (إلى ليرا) بقى على أن أسمع من فمك الطاهر الحلو الجميل كلمة القبول ، فهل أنت راضية ؟ .

ليرا : (بابتهاج) نعم راضية ، ومن كل قلبى .

سانت أوبن : (بسرور) أهنئك ، ياعزيزى ، بهذه الدرة اليتيمة . (يصافحه) .

فانشو : إن ملائكة الرحمة تحرس هذا الهيكل الشريف (مشيراً إلى ليرا) ، وإنى أتمنى لك عمراً طويلا ، وحياة طيبة سعيدة .

جرفث : أما الآن فلا يسعنى ، أنا الشيخ الذى لعب به الدهر زمناً طويلا إلا أن أتقدم بقدم ثابتة وحنان قوى إلى آنسة ليس لى فى هذه الدنيا غيرها (يأتى من الخلف فيمسك يد داين بيمينه و يد ليرا بشماله ويضمهما معاً . ينظر إلى داين) هذه هديتى إليك ، وأمانتى عندك ، فاحتفظ بها إنها كنز ثمين . (ثم يضع يديه على رأسيهما و ينظر إلى السماء) اللهم باركهما ، وهب لهما العمر والهناء !

« تسدل الستار »

تمت بعون الله

فهرس الديوان

صفحة

صفحة

استدراك

ورد اسم الدكتور أحمد كمال زكى فى صفحة ١٩ واسم شارلس جارفس فى صفحة ٢٨١ محرفين فلزم التنويه ، هذا ونعتذر أيضاً عن ورود بعض أخطاء طباعية يسيرة لا تغيب عن القارىء .